السيرة النبوية

عرض وقائع وتحليل أحداث

(دروس وعبر)

تأليف

د. علي محمَّد محمَّد الصلابي

الجزء الثالث

السيرة النبوية

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م

المبحث الخامس

الخلاف في الأنفال والأسرى

أولاً: الخلاف في الأنفال:

عن عبادةَ بن الصَّامت رضي الله عنه قال: خرجنا مع النَّبيِّ (ص) ، فشهدت معه بدراً ، فالتقى النَّاس ، فهزم الله ـ تبارك وتعالى ـ العدوَّ ، فانطَلَقَتْ طائفةٌ في اثارهم يَهْزِمون ويقتلون ، وأكبَّت طائفةٌ على العسكر يَحْوُونه ، ويجمعونه ، وأحدقت طائفةٌ برسول الله (ص) ؛ لا يصيب العدوُّ منه غِرَّةً؛ حتَّى إذا كان اللَّيل ، وفَاءَ[(١)] النَّاسُ بعضُهم إلى بعضٍ.

قال الَّذين جمعوا الغنائم: نحن حَوَيْنَاها ، وجمعناها؛ فليس لأحدٍ فيها نصيبٌ ، وقال الَّذين خرجوا في طلب العدوِّ: لستم بأحقَّ بها منَّا؛ نحن نَفَيْنا عنها العدوَّ ، وهزمناهم ، وقال الَّذين أحدقوا برسول الله (ص) : لستم بأحقَّ بها مِنَّا؛ نحن أحدقنا برسول الله (ص) ، وخِفنا أن يصيب العدوُّ منه غرَّةً ، واشتغلنا به؛ فنزلت: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *} [الأنفال: ١]؛ فقسمها رسول الله (ص) على فُوَاقٍ بين المسلمين [أحمد (٣٢٤/٥)].

وفي روايةٍ: قال عبادة بن الصَّامت عن الأنفال حين سُئِلَ عن سورة الأنفال: فينا معشر أصحاب بدرٍ نزلت حين اختلفنا في النَّفل[(٢)] ، وساءت فيه أخلاقُنا ، فانتزعه الله ـ تبارك وتعالى ـ من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله (ص) ، فقسمه رسول الله (ص) فينا عن بواءٍ. يقول: على السَّواء. [أحمد (٣٢٢/٥)].

لقد خلَّد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكرى غزوة بدرٍ في سورة الأنفال ، وجاءت مفصلةً عن أحداثها وأسبابها ، ونتائجها ، وتعرَّضت الايات الكريمة لعلاج النَّفس البشريَّة ، وتربيتها على معاني الإيمان العميق ، والتَّكوين الدَّقيق ، فبدأت السُّورة بتبيان حكم أثرٍ من اثار القتال ، وهو

الغنائم ، فبيَّنت: أنَّ هذه الغنائم لله ، والرَّسول فالله هو مالك كلِّ شيءٍ ، ورسوله (ص) هو خليفتهُ ، ثمَّ أمر الله المؤمنين ثلاثة أوامر:

بالتَّقوى ، وإصلاح ذات البين ، والطَّاعة لله والرَّسول (ص) ، وهي أوامر مهمَّة جدّاً في موضوع الجهاد؛ فالجهاد إذا لم ينشأ عن تقوى فليس جهاداً ، والجهاد يحتاج إلى وحدة صفٍّ ، ومن ثَمَّ فلابدَّ

من إصلاح ذات البين ، والانضباط هو الأساس في الجهاد؛ إذ لا جهاد بلا انضباط ، ثمَّ بيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنَّ الطَّاعة لله ولرسوله (ص) علامةُ الإيمان.

وحدَّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ صفات المؤمنين الحقيقيين ، وهذا الوصف ، والتَّحديد مهمَّان في موضوع الجهاد الإسلاميِّ؛ لأنَّ الإيمان الحقيقي هو الَّذي يقوم به الجهاد الإسلاميُّ. لقد حدَّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ صفات المؤمنين؛ بأنَّهم إذا ذكر الله؛ فزعت قلوبهم ، وخافت ، وفرقت ، وإذا قرأى عليهم القران ازداد إيمانهم ، ونما.

والصِّفة الثَّالثة هي: التوكُّل على الله ، فلا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إيَّاه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون: أنَّ (ما شاء الله؛ كان ، وما لم يشأ؛ لم يكن) ، وأنَّه المتصرِّف في الخلق وحده لا شريك له ، ولا معقِّب لحكمه ، وهو سريع الحساب.

والصِّفة الرَّابعة: إقامة الصَّلاة ، والمحافظة على مواقيتها ، ووضوئها ، وركوعها ، وسجودها ، ومن ذلك إسباغ الطَّهور فيها ، وتمام ركوعها ، وسجودها ، وتلاوة القران فيها ، والتشهُّد ، والصَّلاة على النَّبيِّ (ص) .

والصفة الخامسة: الإنفاق ممَّا رزقهم الله ، وذلك يشمل إخراج الزَّكاة ، وسائر الحقوق للعباد من واجبٍ ، ومستحبٍّ ، والخلق كلُّهم عباد الله؛ فأحبُّهم إليه أنفعهم لخلقه ، ثمَّ بيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنَّ المتَّصفين بهذه الصِّفات هم المؤمنون حقَّ الإيمان ، وأنَّ لهم عند الله منازلَ ، ومقامات ، ودرجات في الجنَّات ، وأنَّ الله يغفر لهم السَّيِّئات ، ويشكر الحسنات ، وبهذا تنتهي مقدِّمة السُّورة بعد أن رفعت الهمم لكلِّ لوازم الجهاد ، ونَفَتْ كلَّ عوامل الخذلان؛ من اختلافٍ على غنائم ، أو خلافٍ بسبب شيءٍ ، داعيةً إلى الطَّاعة ، والارتفاع إلى منازل الإيمان الكامل[(٣)].

قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *} [الأنفال: ١ ـ ٤].

يقول الأستاذ محمَّد أمين المصري: لم تذكر الايات شيئاً من أعمال المؤمنين في بدرٍ ، ولكن ذكرت عتاباً أليماً موجعاً ، يَحْمِلُ المؤمنين على الرُّجوع إلى أنفسهم ، والاستحياء من ربِّهم ، وهناك نقاطٌ أرسلت

الايات النُّقاط عليها ، وبيَّنت نواحي الضَّعف فيه بياناً جليّاً قويّاً بتصوير ما في النفوس وصفاً دقيقاً رائعاً ، تشاهد العين فيه الحركات والخلجات.

وكلُّ ذلك من شأنه أن ينبه ضمير المؤمن؛ ليلمس المسافة بينه وبين درجات الإيمان؛ الَّتي يهفو قلبُه للوصول إليها ، ولقد كانت الايات من تربية الحكيم العليم ، ويشعر الذَّوق السَّليم هاهنا روعة الأسلوب في عرض العتاب بغير عتاب؛ ولكنَّه تصوير مافي النُّفوس تصويراً يوقن معه العادي من النَّاس: أنَّه ما كان لمؤمنٍ صحيح الإيمان أن يتَّصف بها ، ولذلك اقترنت الايات بتقديم خصائص الإيمان العالية ، وميّزاته الرَّفيعة ، الَّتي تصوِّر الفجوة البعيدة بين المؤمن وبين أيِّ إسفاف: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *} [الأنفال: ٢ ـ ٤].

ما ذكرت الايات عتاباً ، ولكنَّها ذكرت واقعاً ، وكان ذكر الواقع أبلغ من كلِّ عتاب ، قال تعالى: وفحوى الخطاب: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ} كان لهم أن يسألوا هذا السُّؤال ، وقد بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ حقيقة خروجهم من المدينة ، قال تعالى: وهذا وصفٌ بالغ الغاية في تصوير {كَمَا أَخْرَجَكَ} ، والرُّعب ، صورة أناسٍ يساقون إلى الموت سوقاً لا مفرَّ منه ، وهم يَرَوْن الموت بأمِّ أعينهم؛ وقال تعالى: وهذا تصويرٌ لضعفٍ في النُّفوس.... إلى أن يقول: دفعت الايات الكريمة عن المؤمنين أيَّ شعور {وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ} ، وصرفت عن أنفسهم كلَّ معنىً من معاني الغرور ، وبسطت أمامهم نفوسهم ، أو نفوس فريقٍ منهم ، وما بينها وبين الإيمان الصَّحيح من درجاتٍ ، وإذا جاء ذكر الثَّناء مصوَّراً بصورة المنِّ والفضل بما أنعم الله ليس ثناءً مستقلاً ، الثناء عليهم: أنَّ الله منَّ عليهم ، فاستجاب دعاءهم ، ونزَّل عليهم الماء ، ليطهِّرهم ، وأنزل الملائكة؛ لتثبيتهم، وجمع بينهم وبين عدوِّهم لأمرٍ كبير دبَّره الله ، وقدَّره[(٤)].

بدأت السُّورة بموضوع الأنفال ، واختلافهم في قسمتها ، وسؤالهم عنها ، فساقت في ذلك أربع اياتٍ عالجت بها نفوس المؤمنين ، وطهَّرتها من الاختلاف الَّذي ينشأ عن حبِّ المال ، والتَّطلُّع إلى المادة[(٥)].

ولأهمِّيَّة هذا الموضوع في حياة المؤمنين بدأت به السُّورة . وإنْ كان اختلافهم في قسمة الأنفال متأخِّراً في الوجود عن اختلافهم في الخروج إلى بدرٍ ، وقتال الأعداء . ومن سنَّة الله في كتابه: أنَّه في ذكر القصص والواقع لا يعرض لها مُرَتَّبةً حسب وقوعها[(٦)].

: وأوَّل الطَّاعة هنا طاعته في حكمه الَّذي قضاه في {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} ، فقد خرجت من أن تكون لأحدٍ من الغزاة على الإطلاق ، وارتدَّت ملكيتها ابتداءً لله ، والرَّسول (ص) ، فانتهى حقُّ التَّصرُّف فيها إلى الله ورسوله (ص) ، فما على الذين امنوا إلا أن يستسلموا فيها لحكم الله ، وقَسْم رسول الله (ص) طيبةً قلوبُهم ، راضيةً نفوسُهم ، وإلا أن يصلحوا علائقهم ، ومشاعرهم ، ويصفُّوا قلوبهم بعضهم لبعضٍ[(٧)].

وهذا العرض الرَّبَّانيُّ يؤكِّد حقيقةً أكبر من النَّصر على المشركين ، يؤكِّد: أنَّ صلاح ذات البين ، والانتصار الحقيقيَّ على مسارب النُّفوس ، ومشارب القلوب هو الأكبر في ميزان الله ، وهو الأعظم في ميزان الله ، ولا جدوى من نصرٍ يعقبه صراعٌ في الصَّفِّ واختلافٌ في القلوب.

وتبيِّن الايات: أنَّ قضيَّة التَّقوى ، والإيمان ، تدخل في شؤون حياة المسلم كافَّةً ، وبها ينبع تحرُّكه في الحياة ، وجهاده لإعلاء كلمة الله تعالى[(٨)].

لقد استجاب الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم لهذا التَّوجيه الرَّبانيّ ، ونزلت الايات تبيِّن لرسول الله (ص) كيف يتصرَّف في الأنفال.

بعد أن أصبحت الغنائم لله ولرسوله (ص) بيَّن المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ كيف توزَّع هذه الغنائم.

قال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [الأنفال: ٤١].

وهذا بعدما طَهُرَتْ قلوبهم من الأخلاط ، وأخلصت إلى علاَّم الغيوب في الطَّاعة ، وتمثَّلت الايات ، فتحقَّقت بمعنى العبودية الخالصة لله ، وهذا الحكم صريحٌ في أنَّ أربعة أخماس ما غنموه مقسومٌ بينهم ، والخمس لله ، ولرسوله (ص) ، وهذا الخمس نفسه مردودٌ فيهم أيضاً ، وموزَّع على الجهات المذكورة ـ كما ثبت بالسُّنَّة ..

إنَّ التَّوجيه التَّربويَّ في إرجاء إنزال جواب السُّؤال عن الغنائم ، يشير إلى أنَّ الأحكام الشَّرعيَّة ينبغي أن يهيَّأ لها الجوُّ النَّفسيُّ الرُّوحيُّ المناسب؛ لتحتلَّ مكانها اللائق في العقل ،

والضَّمير ، فتثبت ، وتتمكَّن ، وتؤتي أطيب النتائج؛ إذ يتجلَّى فيها أكمل الحلول ، وهكذا صرف المولى ـ جلَّ شأنُه ـ عباده المسلمين عن التعلُّق بالغير أوَّلاً ، وبالغنائم ثانياً؛ ليكونوا له من المخلصين الجديرين بنصره ، وإتمام نعمته ، فلمَّا تفرَّغوا للخالق ، وأخلصوا في الجهاد؛ أكرمهم بالنَّصر من لدنه ، وأسبغ عليهم من فضله بأكثر ممَّا كانوا يودُّون[(٩)] ، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله (ص) يوم بدر في ثلاثمئة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه ، فلما انتهى إليها قال: «اللهم إنهم جياع فأشبعهم ، اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللهم إنهم عراة فاكْسُهُم» ففتح الله له يوم بدر ، فانقلبوا حين انقلبوا ، وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين ، واكتَسَوْا وشبعوا. [أبو داود (٢٧٤٧) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٥٧) ، والحاكم (٢/١٣٢ ـ ١٣٣ ، ١٤٥)].

ومن عدل النَّبيِّ (ص) في تقسيم الغنائم ، إعطاؤه من هذه الغنيمة مَنْ تخلَّف بأمر رسول الله (ص) لمهامٍ أَوْكَلَها إليهم ، فضرب لهم بسهمهم من الغنيمة ، وبأجرهم ، فكانوا كمن حضرها[(١٠)] ، فكان (ص) يراعي ظروف الجنود؛ الَّتي تمنعهم من المشاركة في القتال؛ لأنَّ الله تعالى لم يكلِّف عباده شيئاً فوق طاقتهم ، قال تعالى: {لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [البقرة: ٢٨٦].

ولذلك كان رسول الله (ص) لا يكلِّف المسلمين فوق طاقتهم ، سواءٌ أكان ذلك في السِّلم ، أم الحرب ، وفي غزوة بدرٍ أعفى النَّبيُّ (ص) بعض الصَّحابة؛ لأن ظروفهم الأسرية تتطلَّب منهم القيام عليها ، ورعايتها ، فقد أعفى عثمان بن عفَّان رضي الله عنه من الخروج يوم بدرٍ؛ لأنَّ زوجته رقيَّة كانت مريضةً ، وبحاجةٍ إلى من يرعى شؤونها ، روى البخاريُّ في صحيحه: أنَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخبر عن سبب تغيُّب عثمان رضي الله عنه في غزوة بدر ، فقال رضي الله عنه: وأمَّا تَغَيُّبُهُ عن بدرٍ ، فإنَّه كانت تحته بنتُ رسولِ الله (ص) ، وكانت مريضةً ، فقال له رسول الله (ص) : «إنَّ لك أجرَ رجلٍ ممَّن شهد بدراً ، وسَهْمَهُ» [البخاري (٣٦٩٩)].

وأمر (ص) أبا أمامة بالبقاء عند أمِّه؛ حيث كانت مريضةً ، وهي بحاجة إليه ، فعن أبي أمامة بن ثعلبة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله (ص) أخبرهم بالخروج إلى بدرٍ ، وأجمع الخروج معه ، فقال له خاله أبو بردة بن نيَّار: أقِمْ على أمِّك يابن أختي! فقال له أبو أمامة: بل أنت فأقم على أختك. فذكر ذلك للنَّبيِّ (ص) ، فأمر أبا أمامة بالمقام على أمِّه ، وخرج بأبي بردة ، فقدم النَّبيُّ (ص) وقد توفِّيت فصلَّى عليها. [الطبراني في الكبير (٧٩٢) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣/٣١ ـ ٣٢)].

إنَّ هذه الأخلاق الرَّفيعة ، ومراعاة شعور الجنود ، وأحوالهم العائليَّة تولِّد قوَّة ترابطٍ بين القيادة والجنود ، وتدخل تحت مفهوم فقه التَّمكين ، وقد مارسه الرَّسول (ص) في أعلى صوره.

ومن الصَّحابة الَّذين كانت لهم مهمَّاتٌ خاصَّةٌ ، أو أُصيبوا أثناء الطَّريق ، فردَّهم الرَّسول (ص) :

١ ـ أبو لبابة: استخلفه (ص) على المدينة.

٢ ـ عاصم بن عديٍّ: أرسله (ص) في مهمَّة لأهل العالية في المدينة.

٣ ـ الحارث بن حاطب: أرسله (ص) في مهمَّةٍ إلى بني عمرو بن عوف.

٤ ـ الحارث بن الصِّمَّة: وقع أثناء الطَّريق فكسر ، فرُدَّ.

٥ ـ خوَّات بن جُبير: أصابه في الطَّريق حجرٌ في ساقه ، فردَّه من الصفراء[(١١)].

وكذلك أعطى لورثة الشُّهداء، وذويهم نصيبهم من الغنائم، وبذلك كان للإسلام السَّبق في تكريم الشُّهداء ، ورعاية أبنائهم ، وأسرهم من قرابة أربعة عشر قرناً[(١٢)].

ثانياً: الأسرى:

قال ابن عباس رضي الله عنه: فلمَّا أسروا الأُسارى ، قال رسول الله (ص) لأبي بكرٍ ، وعمر رضي الله عنهما: «ما ترون في هؤلاء الأُسارى؟» فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا نبيَّ الله! هم بنو العمِّ ، والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فديةً ، فتكون لنا قوَّةً على الكفَّار ، فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام، فقال رسول الله (ص) : «ما ترى يابن الخطاب؟» قال: لا والله يا رسول الله! ما أرى الَّذي يراه أبو بكر ، ولكنِّي أرى أن تُمَكِنَّا منهم ، فنضرب أعناقهم ، فتمكِّن عليّاً من عَقِيلٍ ، فيضرب عنقه ، وتمكنِّي من فلانٍ (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه؛ فإنَّ هؤلاء أئمَّة الكفر ، وصناديدها ، فهوي رسولُ الله (ص) ما قال أبو بكر ، ولم يَهْوَ ما قلتُ ، فلمَّا كان من الغد جئت؛ فإذا رسولُ الله (ص) ، وأبو بكر قاعدان يبكيان ، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أيِّ شيءٍ تبكي أنت وصاحبُك ، فإن وجدت بكاءً؛ بكيت ، وإن لم أجد بكاء؛ تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله (ص) : «أبكي لِلَّذي عَرَضَ عليَّ أصحابُك من أخذهم الفداء ، لقد عُرِضَ عليَّ عذابُهم أدنى من هذه الشَّجرة» ـ شجرةٍ قريبةٍ من نبيِّ الله (ص) ..

وأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ} إلى قوله: {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا} فأحلَّ الله الغنيمة لهم. (١/٣٠ ـ ٣١) ، ومسلم (١٧٦٣) ، وأبو داود (٢٦٩٠) ، والترمذي (٣٠٨١)].

وفي رواية عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدرٍ؛ قال رسول الله (ص) :

«ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله! قومُك ، وأهلُك ، اسْتَبْقِهِم ، واسْتَأْنِ بهم ، لعلَّ الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر: يا رسول الله! أخرجوك ، وكذَّبوك؛ فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله! انظر وادياً كثير الحطب ، فأدخلهم فيه ، ثمَّ أضرم عليهم ناراً ، فقال العبَّاس: قطعت رحمك! فدخل رسول الله (ص) ولم يردَّ عليهم شيئاً ، فقال ناسٌ: يأخذ بقول أبي بكرٍ ، وقال ناسٌ: يأخذ بقول عمر ، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ، فخرج عليهم رسول الله (ص) فقال: «إنَّ الله ليُليِّن قلوب رجالٍ فيه؛ حتَّى تكون ألين من اللَّبن ، وإنَّ الله لَيَشُدُّ قلوب رجالٍ فيه؛ حتَّى تكون أشدَّ من الحجارة ، وإنَّ مثلك يا أبا بكر! كمثل إبراهيم عليه السلام ، إذ قال: {فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [إبراهيم: ٣٦] ، ومثلك يا أبا بكر! كمثل عيسى عليه السلام؛ إذ قال: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} [الأنفال: ١١٨] ، وإنَّ مثلك يا عمر كمثل نوحٍ؛ إذ قال: {رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا *} [نوح: ٢٦].

وإنَّ مثلك يا عمر! كمثل موسى عليه السلام؛ إذ قال: {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ *} [يونس: ٨٨].

ثمَّ قال (ص) : «أنتم عالة ، فلا يَنْفَلِتَنَّ منهم أحد إلا بفداءٍ ، أو ضربة عنقٍ».

قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: فقلت: يا رسول الله! إلا سُهيل بن بيضاء؛ فإنِّي قد سمعته يذكر الإسلام ، قال: فسكت ، قال: فما رأيتُني في يومٍ أخوف أن تقع عليَّ حجارةٌ من السَّماء في ذلك اليوم؛ حتَّى قال: «إلا سهيل بن بيضاء» فأنزل الله: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ...} إلى اخر الاية. (١/٣٨٣ ـ ٣٨٤) ، وأبو يعلى (٥١٨٧) ، والترمذي (١٧١٤ و٣٠٨٥) ، والحاكم (٣/٢١ ـ ٢٢)].

وهذه الاية تضع قاعدةً هامَّةً في بناء الدَّولة حينما تكون في مرحلة التَّكوين ، والإعداد ، وكيف ينبغي ألا تظهرَ بمظهر اللِّين؛ حتَّى تُرْهَب من قِبَلِ أعدائها ، وفي سبيل هذه الكلِّيَّة يُطرح الاهتمام بالجزئيَّات ـ حتَّى ولو كانت الحاجة ملحةً إليها ـ[(١٣)].

وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه لما شرع الصَّحابة في أسر المشركين كره ذلك ، ورأى رسولُ الله (ص) الكراهية في وجه سعدٍ لما يصنع النَّاس؛ فقال له رسول الله (ص) : «والله! لكأنَّك يا سعدُ! تكره ما

يصنعُ القوم!» قال: أجل والله! يا رسول الله! كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشِّرك ، فكان الإثخان بالقتل أحبَّ إليَّ من استبقاء الرَّجل. [ابن هشام (٢/٢٨٠ ـ ٢٨١)][(١٤)].

* كانت معاملة النَّبيّ (ص) للأسرى تحفُّها الرَّحمة ، والعدل ، والحزم ، والأهداف الدَّعوية؛ ولذلك تعدَّدت أساليبه ، وتنوَّعت طرق تعامله (ص) ، فهناك من قتله ، وبعضهم قبل فيهم الفداء ، والبعض الاخر منَّ عليهم ، واخرون اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل المنِّ عليهم.
أ ـ حفظ رسول الله (ص) لجوار المطْعِم بن عديٍّ:
قال رسول الله (ص) في أُسارى بدر: «لو كان مُطْعِمُ بن عديٍّ حيّاً ، ثمَّ كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى؛ لأطلقتُهم له» [البخاري (٤٠٢٤) ، وأبو داود (٢٦٨٩)].
وهذا الحديث تعبيرٌ عن الوفاء ، والاعتراف بالجميل ، فقد كان للمُطعم مواقفُ تُذكَر بخيرٍ ، فهو الَّذي دخل الرَّسول (ص) في جواره حينما عاد من الطَّائف ، كما كان من أشدِّ القائمين على نقض الصَّحيفة يوم حُصِر المسلمون ، وبنو هاشم[(١٥)].
وهذا يدلُّ على قمَّة الوفاء لمواقف الرِّجال ـ ولو كانوا مشركين ـ[(١٦)].
ب ـ مقتل عُقبة بن أبي مُعَيْطٍ والنَّضر بن الحارث:
وإذا كان هذا الوفاء لرجلٍ مثل المطعم بن عديٍّ ، فلابدَّ من الحزم مع مجرمي الحرب ، ورؤوس الفتنة؛ من أمثال: عُقبة بن أبي مُعَيْط ، والنَّضر بن الحارث ، فقد كانا من أكبر دُعاة الحرب ضدَّ الإسلام ، والمتربِّصين بالمسلمين الدَّوائر ، فبقاؤهما يُعَدُّ مصدرَ خطرٍ كبيرٍ على الإسلام ، ولاسيَّما في تلك الظُّروف الحاسمة ، الَّتي تمرُّ بها الدَّعوة الإسلاميَّة ، فلو أُطلِق سراحُهُمَا؛ لما تورَّعا عن سلوك أيِّ طريقٍ فيه كيدٌ للإسلام ، وأهله ، فَقَتْلُهُمَا في هذا الظَّرف ضرورةٌ تقتضيها المصلحة العامَّة لدعوة الإسلام الفتيَّة[(١٧)]؛ ولذلك أمر رسول الله (ص) بِقَتْلِهما عندما وصل إلى الصَّفراء[(١٨)] أثناء رجوعه للمدينة ، فلمَّا سمع عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْطٍ بأمر قَتْلِهِ ، قال: يا ويلي! علام أُقْتل يا معشر قريش من بين ما هاهنا؟! فقال رسول الله (ص) : «لعداوتك للهِ ولرسوله» قال: يا محمد! مَنُّك أفضل ، فاجعلني كرجلٍ من قومي ، إنْ قتلتَهُم؛ قَتَلْتَني ، وإن مَنَنْتَ عليهم؛ مَنَنْتَ عَلَيَّ ، وإن أخذتَ منهم الفداء كنتُ كأحدِهم ، يا محمد! من للصبيَة؟ قال
رسول الله (ص) : «النَّارُ ، قدِّمْه يا عاصم! فاضربْ عُنُقَه» [الحاكم (٢/١٢٤)، ومجمع الزوائد (٦/٨٩)]؛ فقدَّمه عاصمٌ ، فضرَبَ عُنُقَهُ[(١٩)].

وأمَّا النَّضر بن الحارث ، فقد كان من شياطين قريشٍ ، وممَّن يؤذي رسول الله (ص) ، وينصِبُ له العداوة ، وكان قد قدِم الحيرة ، وتعلَّم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم واسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله (ص) مجلساً ، فذكَّر فيه بالله ، وحذَّر قومه ما أصاب قبلهم من الأمم مِنْ نِقْمَةِ الله؛ خلفه في مجلسه إذا قام ، ثمَّ قال: أنا والله يا معشر قريش! أحسنُ حديثاً منه ، فهلُمُّوا إليَّ ، فأنا أحدِّثكم أحسن مِنْ حديثه ، ثمَّ يحدِّثُهم عن ملوك فارس ، ورستم واسفنديار ، ثمَّ يقول: بماذا محمَّد أحسنُ حديثاً منِّي؟![(٢٠)].

إنَّ هذا الرَّجل المتعالي على الله ، والمتألِّي عليه ، والَّذي يزعم: أنَّه سينزل أحسن ممَّا أنزل الله ، والَّذي يزعم: أنَّه أحسنُ حديثاً من محمَّد ، لابدَّ لمثل مَنْ يمثِّل هذا التَّيار . وقد أصبح بين يدي رسول رب العالمين . لابدَّ أن يُثأرَ لله ، ولرسوله (ص) منه ، ومن أجل هذا لم يُدْخِلْهُ رسول الله (ص) ضمن نطاق الاستشارة[(٢١)] ، وأمر رسول الله (ص) بقتله ، فقتله عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه[(٢٢)].

وبمقتل هَذَيْنِ المجرِمَيْنِ تعلَّم المسلمون: أنَّ بعض الطُّغاة العُتاة المعادين لا مجال للتَّساهل معهم ، فهم زعماءُ الشَّرِّ ، وقادة الضَّلال ، فلا هوادة[(٢٣)] معهم؛ لأنَّهم تجاوزوا حدَّ العفو، والصَّفح[(٢٤)] بأعمالهم الشَّنيعة، فقد كان هذان الرَّجلان مِنْ شرِّ عباد الله، وأكثرهم كفراً، وعناداً، وبغياً، وحسداً، وهجاءً للإسلام وأهله[(٢٥)].

ج ـ الوصيَّةُ بإكرام الأسرى جانبٌ من المنهج النَّبويِّ الكريم:

ولما رجع (ص) إلى المدينة فرَّق الأسرى بين أصحابه ، وقال لهم: «استوصوا بهم خيراً»[(٢٦)]؛ وبهذه التَّوصيَة النَّبويَّة الكريمة ، ظهر تحقيق قوله الله تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا *} [الإنسان: ٨].

فهذا أبو عزيز بن عُمَيْر أخو مُصعب بن عمير ، يحدِّثنا عمَّا رأى ، قال: كنتُ في الأسرى يوم بدرٍ ، فقال رسول الله (ص) : «استوصوا بالأُسارى خيراً» ، وكنتُ في نفرٍ من الأنصار ، فكانوا إذا قدَّموا غداءهم ، وعشاءهم ، أكلوا التَّمر ، وأطعموني البُرَّ[(٢٧)]؛ لوصيَّة رسول الله (ص) . [الطبراني في الصغير (٤٠١) ، وفي الكبير (٣٩٣/٢٢) ، والطبري في تاريخه (٤٦٠/٢) ، ومجمع الزوائد (٨٦/٦)].

وهذا أبو العاص بن الرَّبيع يحدِّثنا ، قال: كنت في رَهْطٍ من الأنصار جزاهم الله خيراً ، كنَّا إذا تعشَّينا ، أو تغدَّينا ، اثروني بالخُبْزِ ، وأكلوا التَّمْرَ ، والخبزُ معهم قليلٌ ، والتَّمْرُ زادُهم ، حتَّى إنَّ الرَّجل لتقع في

يده كِسْرَةٌ فيدفعها إليَّ ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثلَ ذلك ، ويزيد: «وكانوا يحملوننا ، ويمشون»[(٢٨)].

كان هذا الخُلُق الرَّحيم الَّذي وضع أساسه القران الكريم في ثنائه على المؤمنين ، وذكَّر به النَّبيُّ (ص) أصحابَه؛ فاتَّخذوه خُلقاً ، وكان لهم طبيعةً ، قد أثر في إسراع مجموعة مِنْ أشراف الأسرى ، وأفاضلهم إلى الإسلام ، فأسلم أبو عزيز عُمَيْرُ بدرٍ ، بُعيْد وصول الأسرى إلى المدينة ، وتنفيذ وصيَّة رسول الله (ص) ، وأسلم معه السَّائب بن عبيدٍ[(٢٩)] بعد أن فدى نفسه ، فقد سرت دعوة الإسلام إلى قلوبهم ، وطهَّرت نفوسَهم ، وعاد الأسرى إلى بلادِهم وأهليهم ، يتحدَّثون عن محمَّدٍ (ص) ، ومكارم أخلاقه ، وعن محبَّته، وسماحته، وعن دعوته ، وما فيها من البِرِّ والتَّقوى ، والإصلاح والخير[(٣٠)].

إنَّ هذه المعاملة الكريمة للأسرى ، شاهدٌ على سموِّ الإسلام في المجال الأخلاقيِّ ، حيث نال أعداءُ الإسلام من معاملة الصَّحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق؛ الَّتي تتمثَّل في خُلُق الإيثار[(٣١)].

د ـ فداء العباس عمِّ النَّبيِّ (ص):

بعثت قريش إلى رسول الله (ص) في فداء أسراهم ، ففدى كلُّ قوم أسيرهم بما رضوا ، وقال العبَّاس: يا رسول الله! قد كنتُ مسلماً ، فقال رسول الله (ص) : «الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول؛ فإن الله يجزيك ، وأمَّا ظاهرك ، فقد كان علينا ، فافتدِ نفسَك ، وابني أخويك:

نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعَقِيل بن أبي طالب بن عبد المطَّلب ، وحليفَك عتبةَ بن عمرٍو أخي ابن الحارث بن فهرٍ» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: «فأين المال الَّذي دفنته أنت وأُمُّ الفَضْل ، فقلتَ لها: إن أُصِبْتُ في سفري هذا؛ فهذا المال الَّذي دفنتُه لبني الفَضْل ، وعبد الله ، وقُثَم؟!» قال: والله يا رسول الله! إنِّي لأعلم أنَّك رسولُ الله ، إنَّ هذا الشَّيءَ ما علمه أحدٌ غيري ، وغير أمِّ الفضل ، فاحسب لي يا رسول الله! ما أصبتم منِّي عشرين أوقيَّة من مالٍ كان معي. فقال رسول الله (ص) : «ذاك شيءٌ أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسه ، وابني أخويه ، وحليفه؛ فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيه: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *} [الأنفال: ٧٠ ـ ٧١].

قال العبَّاس: فأعطاني الله مكان العشرين أوقيَّةً في الإسلام عشرين عبداً ، كلُّهم في يده مالٌ يَضْرِبُ به ، مع ما أرجو من مغفرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ [البيهقي في الدلائل (٣/١٤٢ ـ ١٤٣) ، وبنحوه أحمد (١/٣٥٣)][(٣٢)].

هذا ، والعبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب ، فهذه الاية الكريمة؛ وإن كانت نزلت في العباس إلا أنَّها عامَّةٌ في جميع الأسرى.

استأذن بعضُ الأنصار رسولَ الله (ص) ، فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا العبَّاس فداءه. فقال: «والله! لا تذرون منه درهماً» [البخاري (١/٢٥٣٧ و٣٠٤٨ و٤٠١٨) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/١٤٢)][(٣٣)] ، أي: لا تتركوا للعبَّاس من الفداء شيئاً.

ويظهر أدب الأنصار مع رسول الله (ص) في قولهم لرسول الله: ابن أختنا[(٣٤)] ، لتكون المنَّة عليهم في إطلاقه ، بخلاف لو قالوا: عمَّك؛ لكانت المنَّة عليه (ص) ، وهذا من قوَّة الذَّكاء وحسن الأدب في الخطاب ، وإنَّما امتنع النَّبيُّ (ص) عن إجابتهم؛ لئلا يكون في الدِّين نوعُ محاباة[(٣٥)].

وهنا يتعلَّم الأسرى ، والمسلمون أيضاً درساً بليغاً في عدم محاباة ذوي القُربى ، بل كان الأمر على خلاف ذلك؛ فقد أغلى رسولُ الله الفداء على عمِّه العباس[(٣٦)].

ورجع العبَّاس لمكَّة ، وقد دفع فداءه ، وفداء ابنيْ أخويه ، وأخفى إسلامه ، وأصبح يقود

جهاز استخبارات الدَّولة الإسلاميَّة بمكَّة بمهارةٍ فائقةٍ ، وقدرةٍ نادرةٍ ، حتَّى انتهى دوره عند فتح مكَّة ، فأعلن إسلامه قبلها بساعاتٍ[(٣٧)].

هـ أبو العاص بنُ الرَّبيع زوجُ زينب رضي الله عنها بنتِ رسول الله (ص):

قالت عائشة رضي الله عنها: لما بعث أهل مكَّة في فداء أسراهم؛ بعثت زينب بنتُ رسول الله (ص) في فداء أبي العاص بن الرَّبيع بمالٍ ، وبعثت فيه بِقِلادةٍ[(٣٨)] لها ، كانت لخديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها[(٣٩)] ، قالت: فلمَّا راها رسول الله (ص) ؛ رقَّ لها رقَّةً شديدةً ، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردُّوا عليها الَّذي لها ، فافعلوا» فقالوا: نعم ، فأطلقوه ، وردُّوا عليها الَّذي لها. [أبو داود (٢٦٩٢) ، وأحمد (٦/٢٧٦) ، والبيهقي في الدلائل (٣/١٥٤) ، والطبراني في الكبير (٢٢/٤٢٨) ، ومجمع الزوائد (٩/٢١٤)][(٤٠)].

وكان رسول الله (ص) أخذ عليه ، أو وعده أن يُخَلّيَ سبيل زينب إليه ، وبعث رسولُ الله (ص) زيد بن حارثة ، ورجلاً من الأنصار ، فقال: «كونا ببطن يأْجَج[(٤١)] ، حتَّى تمرَّ بكما زينبُ ، فتصحباها ، حتَّى تأتيا بها» [انظر تخريج الحديث السابق].

إنَّ أبا العاص بن الرَّبيع زوجَ زينب رضي الله عنها بنتِ الرَّسول (ص) لم يُعرف عنه قطُّ موقفٌ في مقاومة الدَّعوة بأيّ لونٍ من ألوانها ، وقد كفَّ يده ، ولسانه عن أصحاب رسول الله (ص) ، وشغَله مالهُ وتجارتهُ ، وحياؤه من رسول الله (ص) عن مواقفِ الشَّراسة القرشيَّة في مقاومة الدَّعوة إلى الله ، وفي بدرٍ كان أبو العاص صِهْرُ رسول الله (ص) من بين الأسرى؛ الَّذين لم يُسمع لهم في المعركة صوتٌ ، ولم يُعرف لهم رأيٌ ، ولا شُوهدتْ لهم في قتالٍ جولةٌ ، وبعد أن بدأت قريش تفدي أسراها؛ أرسلت السَّيدة زينب بنت رسول الله (ص) ، وزوجة أبي العاص بمالٍ تفديه به ، ومع المال قلادةٌ كانت أمُّها السَّيدة خديجة رضي الله عنها ، أهدتها إليها ، فأدخلتها بها على زوجها لتتحَلَّى بها ، فلمَّا رأى رسول الله (ص) قِلادَةَ ابنته؛ رقَّ لها رقَّةً شديدةً ، إذ كانت هذه القلادةُ الكريمة مبعثَ ذكرياتٍ أبَويَّةٍ عنده (ص) ، وذكرياتٍ زوجيَّةٍ ، وذكرياتٍ أُسريَّةٍ ، وذكريات عاطفيَّةٍ؛ فالنَّبيُّ (ص) أبٌ ، له من عواطف الأبوَّة أرفع منازلها في سجلِّ المكارم الإنسانيَّة ، وأشرفُها في فضائل الحياة ، فتواثبت إلى خبايا نفسه الكريمة المكرَّمة أسمى مشاعر الرَّحمة ، وتزاحمت على فؤاده الأطهر عواطفُ الحنان ، والحنين ، فتوجَّه إلى أصحابه رضي الله عنهم

متلطِّفاً ، يطلب إليهم في رجاء الأعزِّ الأكرم ، رجاءً يدفعهم إلى العطاء ، ولا يسلبهم حقَّهم في الفداء؛ لو أنَّهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحقّ؛ وهو في أيديهم ، يملكون التَّصرُّف فيه ، فقال لهم: «إنْ رأيتُم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردُّوا عليها الَّذي هو لها».

وهذا أسلوبٌ من أبلغ ، وألطف ما يسري في حنايا النُّفوس الكريمة ، فيطوِّعها إلى الاستجابة الرَّاغبة الرَّاضية ، رضاءً يَنمُّ عن الغِبْطَة ، والبَهْجَة[(٤٢)].

إنَّ هذا الموقف ، وما يظهر منه من مظاهر الرَّحمة ، والعطف منه (ص) على ابنته، يحمل في طيَّاته مقصداً اخر ، وهو أنَّه كان يتألَّف صِهْرَه للإسلام بذلك؛ لِمَا عَرَفَ عنه من العقل السَّديد ، والرَّأي الرَّشيد ، فقد كان (ص) يُثني عليه ، وهو على شِرْكِهِ بحسن المعاملة[(٤٣)].

و ـ أبو عزَّة عمرُو بن عبد الله الجُمَحِيُّ بين الرَّحمة ، والحزم النَّبويّ:

كان محتاجاً ذا بناتٍ ، قال: يا رسول الله! لقد عرفت ما لي مِنْ مالٍ ، وإِنِّي لذو حاجةٍ ، وذو عيالٍ ، فامنُنْ عليَّ! فمنَّ عليه رسولُ الله (ص) ، وأخذ عليه ألا يُظاهرَ عليه أحداً ، فقال أبو عزَّةَ يمدح رسول الله (ص) على ذلك:

مَنْ مُبْلِغٌ عَنّي الرَّسُوْلَ مُحَمَّداً بأنَّكَ حَقٌّ والملِيْكُ حَمِيْدُ
وأَنْتَ امْرُؤٌ بُوِّئْتَ فِيْنَا مباءَةً[(٤٤)] لَهَا دَرَجَاتٌ سَهْلَةٌ وَصُعودُ
فإنَّكَ مَنْ حَارَبْتَهُ لَمُحَارَبٌ شَقِيٌّ ومَنْ سالمتَهُ لَسَعِيدُ
ولَكِنْ إِذَا ذُكِّرْتُ بَدْراً وأَهْلَهُ تأوَّبَ مَا بِي حَسْرَةً وَقُعُوْدُ

قال ابن كثير: ثمَّ إنَّ أبا عزَّةَ هذا نقض ما كان عاهد الرَّسول (ص) عليه ، ولعب المشركون بعقله ، فرجع إليهم ، فلمَّا كان يومَ أحدٍ؛ أُسر أيضاً ، فسأل النَّبيَّ (ص) أن يَمُنَّ عليه أيضاً ، فقال النَّبيُّ (ص) : «لا أدعك تمسح عارِضَيْكَ بمكَّةَ ، وتقولُ: خدعتُ محمَّداً مرَّتين» ثُمَّ أَمَرَ به ، فَضُرِبَتْ عنقهُ. [البيهقي في الدلائل (٣/٢٨٠ ـ ٢٨١) ، وابن هشام (٣/١١٠)][(٤٥)].

فكان النَّبي (ص) به رحيماً ، وعفا عنه ، وأطلق سراحه بدون فداءٍ لَمَّا ذكر أبو عزَّة فقره ، وما لديه مِنْ بناتٍ يعولهنَّ؛ ولكنَّه لم يفِ لرسول الله (ص) بما عاهده عليه مِنْ لزوم السِّلم ، وعدم إثارة الحرب ضدَّه ، فوقع أسيراً في معركة أُحدٍ ، فكان موقفُ النَّبيِّ (ص) منه الحزم ، فأمر بضرْب عنُقِه.

ز ـ سهيلُ بن عمروٍ ، ووقوعُه في الأسر ، وماذا قالت سودةُ رضي الله عنها:

قال عبد الرَّحمن بن أسعد بن زرارة رضي الله عنه: قُدِم بالأُسارى حين قُدِم بهم المدينة؛ وسودةُ بنت زمعة زوج النَّبيِّ (ص) عند ال عفراء في مناحتهم على عَوْفٍ ، ومعوِّذ ابني عفراء ـ وذلك قبل أن يُضْرَب الحجاب ـ ، قالت سودة: فوالله إنِّي لَعِنْدهم؛ إذ أتينا فقيل: هؤلاء الأُسارى قد أُتِيَ بهم ، فرجعتُ إلى بيتي؛ ورسول الله (ص) فيه؛ فإذا أبو يزيد سهيلُ بنُ عمروٍ في ناحية الحُجْرَة ، ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبلٍ ، فوالله ما ملكت حين رأيت أبا يزيدٍ كذلك أن قُلتُ: أبا يزيد! أعطيتُم بأيديكم؟ ألا مُتُّم كراماً؟! فما انتبهت إلا بقول رسول الله (ص) من البيت: «يا سودةُ! أعَلَى الله ورسوله تُحَرِّضين؟!» فقلت: يا رسول الله! والَّذي بعثك بالحقِّ ، ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعةً يداه إلى عنقه بالحبل أن قلتُ ما قلتُ. [البيهقي في الكبرى (٩/٨٩) ، والحاكم (٣/٢٢) ، وابن أبي شيبة في المصنف (١٤/٣٦٩ ـ ٣٧٠) ، والطبري في تاريخه (٢/٤٦٠)][(٤٦)].

وقدم مِكْرَزُ بن حفص بن الأخْيَف في فداء سهيل بن عمرو ، فلمَّا فاوض المسلمين ، وانتهى إلى رضائهم ، قالوا: هاتِ الَّذي لنا ، قال لهم مِكْرَز بن حفص: اجعلوا رجلي مكان رجله ، وخلُّوا سبيله حتَّى يَبعث إليكم بفدائه ، فخلُّوا سبيل سُهيل، وحبسوا مِكْرزاً عندهم ، وجاء في حديثٍ مُرْسَلٍ: أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لرسول الله (ص) : دعني أنزع ثَنِيَّة سهيل بن عمرٍو ، يدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطنٍ اخر ! فقال رسول الله (ص) : «لا أمثِّل به ، فيمثِّل الله بي؛ وإن كنتُ نبيَّاً» [ابن أبي شيبة في المصنف (٣٨٧/١٤)][(٤٧)]. ثمَّ قال رسول الله (ص) لعمر: «إنَّه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمُّه»[(٤٨)].

قال ابن كثير: وهذا هو المقام الَّذي قامه سهيل بمكَّة حين مات رسول الله (ص) وارتدَّ العرب ، ونجم النِّفاق بالمدينة وغيرها ، فقام بمكَّة ، فخطب في النَّاس ، وثبَّتهم على الدِّين الحنيف[(٤٩)] ، فقد قال في ذلك: «يا معشر قريش! لا تكونوا اخر النَّاس إسلاماً ، وأوَّلهم ردَّةً ، مَنْ رَابنَا ضربنا عنُقَه»[(٥٠)]. فقد أبى رسول الله (ص) أن ينزع ثنيَّة سُهيلٍ ، ورأى: أنَّ ذلك من باب التَّمثيل وتشويه خلقة الإنسان ، وقال لعمر: «لا أمثِّل به ، فيمثِّل الله بي! وإن كنت نبيّاً» وهذا نموذجٌ من منهج رسالته (ص) ، وضعه؛ ليكون نبراساً لأمَّته في انتصاراتها على أعدائها[(٥١)].

ح ـ التَّعليم مقابل الفداء:

قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه: كان ناسٌ من الأُسارى يوم بدرٍ ليس لهم فداءٌ ، فجعل رسولُ الله (ص) فداءهم أن يُعَلِّموا أولاد الأنصار الكتابة[(٥٢)] ، وبذلك شرع الأسرى يعلِّمون غلمان المدينة القراءة ، والكتابة ، وكلُّ مَنْ يُعَلِّم عشَرةً من الغلمان يفدي نفسه[(٥٣)] ، وقَبول النَّبيِّ (ص) تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الَّذي كانوا فيه في أشدِّ الحاجة إلى المال ، يُرينا سموَّ الإسلام في نظرته إلى العلم ، والمعرفة ، وإزالة الأميَّة ، وليس هذا بعجيبٍ مِنْ دينٍ كان أوَّل ما نزل من كتابه الكريم: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ *اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *} [العلق: ١ ـ ٤]. واستفاضت فيه نصوصُ القران ، والسُّنَّة في التَّرغيب في العلم ، وبيان منزلة العلماء ، وبهذا العمل الجليل يُعتبر النَّبيُّ (ص) أوَّل من وضع حجر الأساس في إزالة الأمِيَّة ، وإشاعة القراءة ، والكتابة ، وأنَّ السَّبق في هذا للإسلام[(٥٤)].

ط ـ حكم الأسرى:

إنَّ حكم الأسرى في الإسلام مفوَّضٌ إلى رأي الإمام؛ ليختار حُكْماً من أربعةٍ ، وعلى الإمام أن يراعي مصلحة المسلمين العامَّة؛ والأحكام الأربعة هي:

١ . القتلُ: وقد قتل رسول الله (ص) عُقْبَةَ بن أبي مُعَيْطٍ ، والنَّضْر بن الحارث.

٢ . المنُّ: وهو إطلاق الأسير بدون مقابلٍ ، وهذا ما فعله رسول الله (ص) مع أبي عَزَّةَ الجُمَحِيّ.

٣ . الفداءُ: إطلاق سراح الأسير مقابل مبلغٍ من المال ، وهذا ما حدث مع العبَّاس عمّ النَّبيّ (ص) ، ونوفل بن الحارث ، وعقيل بن أبي طالبٍ ، وغيرهم.

٤ . الاسترقاق: وقد حكم سعدُ بن معاذ رضي الله عنه في يهود بني قريظة أن يُقتل المحارَبون ، وتقسم الأموالُ ، وتُسْبَى الذَّراري والنِّساء[(٥٥)].

* * *

المبحث السَّادس

نتائج غزوة بدرٍ ومحاولة اغتيال النَّبيّ (ص)

أولاً: نتائج غزوة بدرٍ:

١ .كان من نتائج غزوة بدرٍ أن قويت شوكة المسلمين ، وأصبحوا مرهوبين في المدينة ، وما جاورها ، وأصبح مَنْ يريد أن يغزو المدينة ، أو ينال من المسلمين عليه أن يفكِّر ، ويفكِّر قبل أن يُقدِم على فَعْلته ، وتعزَّزت مكانة الرَّسول (ص) في المدينة ، وارتفع نجم الإسلام فيها ، ولم يعد المتشكِّكون في الدَّعوة الجديدة ، والمشركون في المدينة يتجرَّؤون على إظهار كفرهم ، وعداوتهم للإسلام؛ لذا ظهر النِّفاق ، والمكر ، والخداع ، فأعلنوا إسلامهم ظاهراً أمام النَّبيّ (ص) ، وأصحابه ، فدخلوا في عداد المسلمين ، وأبقَوا على الكفر باطناً ، فظلُّوا في عداد الكفار ، فلا هم مسلمون مخلصون في إسلامهم ، ولا هم

كافرون ظاهرون بكفرهم ، وعداوتهم للمسلمين ، قال تعالى: {مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً *} [النساء: ١٤٣].

ومن أجل هذا الموقف المتذبذب شنَّع الله عليهم ، وسمَّع بهم في كثيرٍ من اياته ، وتوعَّدهم بأشدِّ أنواع العذاب ، قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا *} [النساء: ١٤٥].

ومن نتائج موقعة بدر ازدياد ثقة المسلمين بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وبرسوله الكريم (ص) ، واشتداد ساعدهم ، وقوَّتهم ، ودخول عددٍ كبيرٍ من مشركي قريشٍ في الإسلام ، وقد ساعد ذلك على رفع معنويات المسلمين المستضعفين الَّذين كانوا لا يزالون في مكَّة ، فاغتبطت نفوسهم بنصر الله ، واطمأنَّت قلوبهم إلى أن يوم الفرج قريب ، فازدادوا إيماناً على إيمانهم ، وثباتاً على عقيدتهم.

وإلى جانب ذلك ، فقد كسب المسلمون مهارةً عسكريَّةً ، وأساليبَ جديدةً في الحرب ، وشهرةً واسعةً داخل الجزيرة العربيَّة ، وخارجها؛ إذ أصبحوا قوَّةً يحسب لها حسابُها في بلاد العرب ، فلا تهدِّد زعامة قريش وحدَها ، بل زعامةَ جميع القبائل العربية المنتشرة في مختلف

الأَصْقَاع[(٥٦)] والأماكن ، كما أصبح للدَّولة الجديدة مصدرٌ للدَّخل من غنائم الجهاد ، وبذلك انتعش حال المسلمين المادِّيّ والاقتصاديّ بما أفاء الله عليهم من غنائم ، بعد بؤسٍ ، وفقرٍ شديدين ، داما تسعةَ عَشَرَ شهراً[(٥٧)].

٢ ـ أمَّا قريش ، فكانت خسارتها فادحةً ، فإضافةً إلى أنَّ مقتل أبي جهل بن هشام ، وأميَّة بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وغيرِهم من زعماء الكفر؛ الَّذين كانوا من أشد القرشيّين شجاعةً ، وقوةً ، وبأساً لم يكن خسارةً حربيَّةً لقريشٍ فحسب ، بل كان خسارةً معنويَّةً أيضاً؛ ذلك: أنَّ المدينة لم تعد تُهَدِّدُ تجارتَها فقط ، بل أصبحت تهدِّد أيضاً سيادتها ونفوذها في الحجاز كلِّه[(٥٨)].

كان خبر الهزيمة على أهل مكَّة كالصَّاعقة ، ولم يصدِّقوا ذلك في بداية الأمر ، قال ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ: «وكان أوَّل من قدِم مكَّةَ بمصابِ قريش الحَيْسُمان بن عبد الله الخزاعي ، فقالوا له: ما وراءك؟

قال: قُتِل عُتبةُ بن ربيعة ، وشيبةُ بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأميَّة بن خلف، وزَمعةُ بن الأسود، ونُبيه، ومنبَّه ابنا الحجَّاج، وأبو البَخْتريِّ بن هشام ، فلمَّا جعل يُعَدِّد أشراف قريش ، قال صفوان بن أميَّة: والله إن يعقل هذا! فسلوه عنِّي!

فقالوا: ما فعل صفوان بن أميَّة؟

قال: هو ذاك جالسٌ في الحِجْر ، قد والله! رأيت أباه ، وأخاه حين قُتِلا»[(٥٩)].

وهذا أبو رافعٍ مولى رسول الله (ص) ، يقصُّ علينا أثر خبر هزيمة قريشٍ على أبي لهبٍ ـ لعنه الله ـ ، حيث قال: كنت غلاماً للعبَّاس بن عبد المطَّلب ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، وأسلمتْ أمُّ الفضل ، وأسلمتُ ، وكان العبَّاس يهاب قومَه ، ويكره أن يخالفَهم ، وكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مالٍ كثيرٍ متفرّقٍ في قومه ، وكان أبو لهب ـ عدوُّ الله ـ قد تخلَّف عن بدرٍ ، فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة ، فلمَّا جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدرٍ من قريش: كَبَتَهُ[(٦٠)] الله ، وأخزاه ، ووجدْنا في أنفسنا قوَّة وعزّاً.

قال: كنت رجلاً ضعيفاً ، وكنت أعمل الأقداح ، وأنْحَتُها في حُجْرة زمزم ، فوالله! إِنّي لجالس فيها أنحَت القداح ، وعندي أمُّ الفضل (زوجة العبَّاس بن عبد المطلب) جالسةً ، وقد

سرَّنا ما جاءنا من الخبر؛ إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجرُّ رجليه بشَرٍّ ، حتَّى جلس على طُنُبِ[(٦١)] الحجرة ، فكان ظهره إلى ظهري ، فبينما هو جالس؛ إذ قال النَّاس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب قد قدم ، فقال أبو لهب: هلمَّ إليَّ ، فعندك لعمري الخبرُ! قال: فجلس إليه ، والناسُ قيامٌ عليه ، فقال: يابن أخي! أخبرني كيف كان أمر النَّاس؟ قال: والله! ما هو إلا أن لقينا القوم فَمَنَحْناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ، ويأسروننا كيف شاؤوا ، وايْمُ الله! مع ذلك ما لُمتُ النَّاس؛ لقينا رجالاً بيضاً على خيلٍ بُلْق[(٦٢)] بين السَّماء والأرض ، والله! ما تُلِيق[(٦٣)] شيئاً ، ولا يقوم لها شيء ، قال أبو رافع: فرفعت طُنُب الحجرة بيدي ، ثمَّ قلت: تلك والله الملائكة!

قال: فرفع أبو لهب يده ، فضرب بها وجهي ضربةً شديدةً ، قال: وثاوَرْتُه[(٦٤)] ، فاحتملني ، وضرب بي الأرض ، ثمَّ برك عليَّ يضربني ـ وكنت رجلاً ضعيفاً ـ ، فقامت أمُّ الفضل إلى عمود من عُمُدِ الحجرة ، فأخذته فضربته به ضربة فَلَعَتْ[(٦٥)] في رأسه شَجَّةً منكرةً ، وقالت: أستَضعفْتَه أن غاب عنه سيِّدُه؟ فقام مُولِّيَاً ذليلاً ، ثمَّ مات بعد سبع ليالٍ بالعَدَسَة[(٦٦)] ، فقتلته[(٦٧)].

لقد تركت غزوة بدر في نفوس أهل مكَّة المشركين ، كمداً ، وأحزاناً ، والاماً بسبب هزيمتهم ، ومن فُقدوا ، وأُسروا ، فهذا أبو لهب لم يلبث أن أصيب بِعِلَّة ، ومات ، وهذا أبو سفيان فقد ابناً له ، وأُسِر له ابنٌ اخر ، وما من بيتٍ من بيوت مكَّةَ إلا وفيه مناحةٌ؛ على قتل عزيز ، أو قريب ، أو أَسْر أسيرٍ ، فلا عجب أن كانوا صمَّموا في أنفسهم على الأخذ بالثأر، حتَّى إن بعضهم حرَّم على نفسه

الاغتسال[(٦٨)] ، حتى يأخذ بالثَّأر ممَّن أذلُّوهم ، وقتلوا أشرافهم ، وصناديدهم ، وانتظروا يترقَّبون الفرصة للقاء المسلمين والانتصاف منهم ، فكان ذلك في أُحدٍ[(٦٩)].

٣ . أمَّا اليهود؛ فقد هالهم أن ينتصر المسلمون في بدرٍ ، وأن تقوى شوكتُهم فيها ، وأن يَعِزَّ الإسلام ، ويظهر على دينهم ، ويكون لرسوله (ص) دونهم الحُظوةُ ، والمكانة ، فصمَّموا على نقض العهد الَّذي عاهدوا عليه النَّبيَّ (ص) عندما قدِم المدينة ، وأظهروا عداوتهم الَّتي كانت كامنةً في نفوسهم ، وأخذوا يجاهرون بها القول ، ويُعلنون ، ثمَّ راحوا يكيدون للإسلام ولرسوله (ص) ، ويعملون للقضاء عليه بكلِّ الوسائل المتاحة لديهم[(٧٠)] ، وبدؤوا يتحرَّشون بالنَّبيِّ (ص) ، والمسلمين ، وما كان النَّبيُّ (ص) ليخفى عليه شيءٌ من ذلك ، فقد كان يراقبهم عن حذرٍ ، ويقظةٍ؛ حتَّى استخفُّوا بالمقرَّرات الخُلُقيَّة ، والحرمات الَّتي يعتزُّ بها المسلمون ، واستعلنوا بالعداوة ، فلم يكن بدٌّ من حربهم ، وإجلائهم عن المدينة . كما سنفصِّل ذلك فيما بعد إن شاء الله .[(٧١)].

ثانياً: محاولة اغتيال النَّبيِّ (ص) وإسلام عُمير بن وهب (شيطان قريش):

قال عروة بن الزُّبير: جلس عُمير بن وهب الجُمَحيُّ مع صفوان بن أميَّة في الحِجْر ، بعد مصاب أهل بدرٍ بيسير ، وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش ، وممَّن كان يؤذي رسولَ الله (ص) ، وأصحابه ، ويلقون منه عناءً[(٧٢)] ، وهو بمكَّة ، وكان ابنه وهب بن عُمير في أُسارى بدر ، فذكر أصحاب القَلِيب ، ومُصابهم ، فقال صفوان: واللهِ! إنْ في العيش بعدهم خيرٌ.

قال له عُمَيْرٌ: صدقتَ! أما والله ! لولا دينٌ عليَّ ليس عندي قضاؤه ، وعيالٌ أخشى عليهم الضَّيعة[(٧٣)] بعدي؛ لركبتُ إلى محمَّدٍ حتَّى أقتلَه ، فإنَّ لي فيهم عِلَّة[(٧٤)]؛ ابني أسيرٌ في أيديهم.

قال: فاغتنمها صفوان بن أميَّة ، فقال: عليَّ دينُك ، أنا أقضِهِ عنك ، وعيالُك مع عيالي أُواسيهم[(٧٥)] ما بَقُوا ، لا يسعني شيءٌ ، ويعجِز عنهم ، فقال له عُمَيْرٌ: فاكتم شأني ، وشأنك. قال: أَفعَلُ.

قال: ثمَّ أمر عُمَيْرٌ بسيفه، فشُحِذ له ، وسُمَّ ، ثمَّ انطلق حتَّى قدم المدينة ، فبينما عمرُ بن الخطاب في نفرٍ من المسلمين يتحدَّثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به ، وما أراهم في عدوِّهم؛ إذ نظر عمرُ إلى عُمَيْرِ بن وهبٍ ، وقد أناخ راحلتَه على باب المسجد متوشِّحاً سيفه ،

فقال: هذا الكلب عدوُّ الله عُمَيْرُ بنُ وهبٍ ، والله! ما جاء إلا لشرٍّ ، وهو الَّذي حرَّش[(٧٦)] بيننا ، وحزَرنا[(٧٧)] للقوم يوم بدرٍ.

ثم دخل عمر على رسول الله (ص) فقال: يا نبيَّ الله! هذا عدوُّ الله عُمَيْرُ بن وهبٍ قد جاء متوشِّحاً سيفه.

قال: «فأَدْخله عليَّ»، قال: فأقبل عمر حتَّى أخذ بحِمَالَةِ[(٧٨)] سيفه في عنقه فَلَبَّبَهُ[(٧٩)] بها ، وقال لرجالٍ ممَّن كانوا معه من الأنصار: ادْخُلُوا على رسول الله (ص) فاجلسوا عنده ، واحذورا عليه من هذا الخبيث ، فإنَّه غير مأمونٍ.

ثمَّ دخل به على رسول الله (ص) ، فلمَّا راه رسول الله (ص) وعمر اخذٌ بحِمَالَة سيفه في عنقه ، قال: «أرسله يا عمر! ادْنُ يا عُمَيْرُ!».

فدنا ، ثمَّ قال: انعموا صباحاً ـ وكانت تحيَّة أهل الجاهلية بينهم ـ فقال رسول الله (ص) : «أكرمنا الله بتحيَّةٍ خيرٍ من تحيَّتك يا عمير! بالسَّلام تحية أهل الجنَّة»[(٨٠)].

فقال: أما والله يا محمد! إن كنتُ بها لحديث عهدٍ.

فقال: «فما جاء بك يا عُمَيْرُ؟!» قال: جئت لهذا الأسير الَّذي في أيديكم ، فأحسنوا فيه.

قال: «فما بالُ السَّيف في عنقك؟» قال: قَبَّحَها اللهُ من سيوف! وهل أغنت عنا شيئاً؟!

قال: «اصْدُقْني ، ما الَّذي جئتَ له؟» قال: ما جئتُ إلا لذلك.

قال: «بل قعدت أنت وصفوانُ بنُ أميَّة في الحِجْر ، فذكرتما أصحاب القَلِيب من قريشٍ ، ثمُ قُلْتَ: لولا دَيْنٌ عليَّ ، وعيالٌ عندي ، لخرجت حتَّى أقتل محمَّداً ، فتحمَّل لك صفوان بن أميَّة بدَيْنك ، وعيالك على أن تقتلني له ، واللهُ حائلٌ بينك وبين ذلك».

قال عُمَيْرُ: أشهد: أنَّك رسولُ الله ، قد كنَّا يا رسول الله! نكذِّبك بما كنت تأتينا به من خبر السَّماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمرٌ لم يحضرْه إلا أنا وصفوان ، فوالله! إنِّي لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الَّذي هداني للإسلام ، وساقني هذا المساق ، ثمَّ شهد شهادة الحقِّ.

فقال رسول الله (ص) : «فقِّهوا أخاكم في دينه ، وأقرِئُوه القُرانَ ، وأَطْلِقُوا له أسيره» ، ففعلوا.

ثمَّ قال: يا رسولَ الله! إنِّي كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، شديدَ الأذى لمن كان على دين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأنا أحبُّ أن تأذن لي ، فأقدم مكَّة ، فأدعوهم إلى الله تعالى ، وإلى رسوله (ص) ، وإلى الإسلام ، لعلَّ الله يهديهم ، وإلا اذيتهم في دينهم ما كنت أوذي أصحابك في دينهم ، قال: فأذن له رسول الله (ص) ، فلحق بمكَّة ، وكان صفوان بن أميَّة حين خرج عمير بن وهب ، يقول: أبشروا بوقعةٍ تأتيكم الان في أيَّامٍ ، تُنْسيكم وقعة بدرٍ ، وكان صفوان يسأل عنه الرُّكبان ، حتَّى قدم راكبٌ فأخبره بإسلامه ،

فحلف ألاَّ يكلِّمه أبداً ، ولا ينفعه بنفعٍ أبداً. [الطبراني في الكبير (١٧/٥٨) ، ومجمع الزوائد (٨/٢٨٦) ، والإصابة (٣/٣٧)][(٨١)].

وفي هذه القصَّة دروسٌ وعبر؛ منها:

١ ـ حِرْص المشركين على التَّصفية الجسديَّة للدُّعاة؛ فهذا صفوان بن أميَّة ، وعُمَيْر بن وهب ، يتَّفقان على قتل النَّبيِّ (ص) ، وهذا يرشدنا إلى أنَّ أعداء الدَّعوة قد لا يكتفون برفض الدَّعوة ، والتَّشويش عليها ، وصدِّ النَّاس عنها؛ بل يحاولون اغتيال الدُّعاة ، وتدبير المؤامرات لقتلهم ، وقد يستأجرون المجرمين؛ لتنفيذ هذا الغرض الخسيس[(٨٢)] ، وقد يستغلُّ الأغنياء المترفون من أعداء الدَّعوة حاجة الفقراء ، وفقرهم ، فيوجِّهونهم لقاء مبلغ من المال إلى خدمة ماربهم ، وإنْ أدَّى ذلك إلى هلاكهم ، فهاهو صفوان قد استغل فقر عُمَيْرٍ ، وقلَّة ذات يده ، ودَيْنَهُ؛ ليرسله إلى هلاكه[(٨٣)].

٢ ـ ظهور الحسِّ الأمنيِّ الرَّفيع الَّذي تميَّز به الصَّحابة رضي الله عنهم ، فقد انتبه عمر بن الخطَّاب لمجيء عمير بن وهبٍ ، وحذَّر منه ، وأعلن أنَّه شيطانٌ ما جاء إلا لشرٍّ ، فقد كان تاريخه معروفاً لدى عمر ، فقد كان يؤذي المسلمين في مكَّة ، وهو الذي حرَّض على قتال المسلمين في بدرٍ ، وعمل على جمع معلوماتٍ عن عددهم؛ ولذلك شرع عمر في أخذ الأسباب لحماية الرَّسول (ص) ، فمن جهته فقد أمسك بحِمَالة سيف عمير الَّذي في عنقه بشدَّةٍ ، فعطَّله عن إمكانية استخدامه سيفه للاعتداء على الرَّسول (ص) ، وأمر نفراً من الصَّحابة بحراسة النَّبيِّ (ص) .

٣ ـ الاعتزاز بتعاليم هذا الدِّين ، فقد رفض (ص) أن يتعامل بتحيَّة الجاهليَّة ، ولم يردَّ على
تحيَّة عُمَيْرٍ حين قال له: انعموا صباحاً ، وأخبره بأنَّه لا يُحيِّي بتحيَّة أهل الجاهلية؛ لأنَّ الله تعالى أكرم المسلمين بتحيَّة أهل الجنَّة.

٤ ـ سموُّ أخلاق النَّبيِّ (ص) ، فقد أحسن إلى عُمَيْرٍ ، وتجاوز عنه ، وعفا عنه؛ مع أنَّه جاء؛ ليقتله[(٨٤)]؛ بل أطلق ولده الأسير بعد أن أسلم عُمَيْرٌ ، وقال لأصحابه: «فقِّهوا أخاكم في دينه ، وأقرئوه القران ، وأَطْلِقُوا له أسيره»[(٨٥)].

٥ ـ قوَّة إيمان عُمَيْرٍ ، فقد قرَّر أن يواجه مكَّة كلَّها بالإسلام ، وقد أذن له رسول الله (ص) ، وفعل ، وواجه ، وتحدَّى ، وعاد أدراجه إلى المدينة ، وأسلم على يديه ناسٌ كثير ، وكان حين تُعَدُّ الرِّجال يطرحه عمر رضي الله عنه ممَّن يزن عنده ألف رجلٍ ، وكان أحد الأربعة الَّذين أمدَّ بهم أميرُ المؤمنين عُمَرُ عمرَو بن العاص رضي الله عنهم ، الَّذين كان كلُّ واحدٍ منهم بألفٍ[(٨٦)].

* * *

المبحث السَّابع

بعض الدُّروس والعبر والفوائد من غزوة بدر

أولاً: حقيقة النَّصر من الله تعالى:

إنَّ حقيقة النَّصر في بدرٍ كان من الله تعالى ، فقد بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّ النَّصر لا يكون إلا من عند الله تعالى في قوله: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ *} [آل عمران: ١٢٦].

وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [الأنفال: ١٠].

في هاتين الايتين تأكيدٌ على أنَّ النَّصر لا يكون إلا من عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والمعنى: ليس النَّصر إلا من عند الله دون غيره ، و(العزيز) أي: ذو العزَّة؛ التي لا تُرام[(٨٧)] ، و(الحكيم) أي: الحكيم فيما شرعه من قتال الكفَّار مع القدرة على تدميرهم ، وإهلاكهم بحَوْلِهِ ، وقوَّته ـ سبحانه وتعالى ـ[(٨٨)].

ويستفاد من هاتين الايتين: تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده ، وتفويض أمورهم إليه ، مع التَّأكيد على أنَّ النَّصر إنَّما هو من عند الله وحده ، وليس من الملائكة ، أو غيرهم ، فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون؛ لكن يجب ألاَّ يغترُّوا بها ، وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب ، حتى يمدَّهم اللهُ بنصره ، وتوفيقه ، ثم بيَّن سبحانه مظاهر فضله على المؤمنين ، وأنَّ النَّصر الَّذي كان في بدر ، وقتلهم المشركين ، ورمي النَّبيّ (ص) المشركين بالتُّراب يوم بدرٍ؛ إنما كان في الحقيقة بتوفيق الله أوَّلاً ، وبفضله ومعونته.

وبهذه الاية الكريمة ، يربِّي القرانُ المسلمين ، ويعلِّمهم الاعتماد عليه ، قال تعالى: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *} [الأنفال: ١٧].

ولما بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّ النَّصر كان من عنده؛ وضَّح بعض الحِكَم من ذلك النَّصر. قال تعالى: {لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ *لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ *} [آل عمران: ١٢٧ ـ ١٢٨].

وأمر ـ سبحانه وتعالى ـ المؤمنين ، بأن يتذكَّروا دائماً تلك النِّعمة العظيمة ، نعمةَ النَّصر في بدرٍ ، ولا ينسوا كيف كانت حالتُهم قبل النَّصر ، قال تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *} [الأنفال: ٢٦].

ثانياً: يوم الفرقان:

سُمِّيَ يومُ بدرٍ يومَ الفرقان ، ولهذه التَّسمية أهمِّيَّةٌ عظيمةٌ في حياة المسلمين ، وقد تحدَّث الأستاذ سيِّد قطب ، عن وصف الله تعالى ليوم بدرٍ بأنه يوم الفرقان ، في قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [الأنفال: ٤١].

فقال: لقد كانت غزوة بدر ـ الَّتي بدأت ، وانتهت بتدبير الله ، وتوجيهه ، وقيادته ، ومدده ـ فرقاناً ... فرقاناً بين الحقِّ والباطل ـ كما يقول المفسرون إجمالاً ـ وفرقاناً بمعنى أشمل ، وأدق ، وأوسع ، وأعمق كثيراً.

كانت فرقاناً بين الحقِّ والباطل فعلاً ، ولكنَّه الحقُّ الأصيل ، الَّذي قامت عليه السَّمواتُ ، والأرض ، وقامت عليه فطرة الأحياء ، والأشياء ، الحقُّ الَّذي يتمثَّل في تفرُّد اللهِ سبحانه بالألوهيَّة ، والسُّلطان ، والتَّدبير ، والتَّقدير ، وفي عبودية الكون كلِّه؛ سمائه ، وأرضه ، أشيائه ، وأحيائه ، لهذه الألوهية المتفرِّدة ، ولهذا السُّلطان المتوحِّد ، ولهذا التدبير ، وهذا التَّقدير بلا معقِّبٍ ، ولا شريك ، والباطل الزَّائف الطَّارأى ، الَّذي كان يعمُّ وجه الأرض إذ ذاك ، ويُغْشِي على ذلك الحق الأصيل ، ويقيم في الأرض طواغيتَ تتصرَّف في حياة عباد الله بما تشاء ، وأهواءَ تُصَرِّفُ أمر الحياة ، والأحياء.

فهذا الفرقان الكبير الَّذي تمَّ يوم بدرٍ ، حيث فرّق بين ذلك الحقِّ الكبير ، وهذا الباطل الطَّاغي ، وزيَّل[(٨٩)] بينهما ، فلم يعودا يلتبسانِ.

لقد كانت فرقاناً بين الحقِّ والباطل بهذا المدلول الشَّامل الواسع ، الدَّقيق ، العميق على أبعادٍ وامادٍ ، كانت فرقاناً بين هذا الحقِّ ، وهذا الباطل في أعماق الضَّمير ، فرقاناً بين الوحدانيَّة

المجرَّدة المطْلَقَةِ بكلِّ شُعَبِها؛ في الضَّمير والشُّعور ، وفي الخُلُق والسُّلوك ، وفي العبادة والعبودية ، وبين الشِّرك في كلِّ صوره؛ الَّتي تشمل عبودية الضَّمير لغير الله من الأشخاص ، والأهواء ، والقِيَم ، والأوضاع والتَّقاليد والعادات ، وكانت فرقاناً بين هذا الحقِّ ، وهذا الباطل في الواقع الظَّاهر كذلك ، فرقاناً بين العبودية الواقعيَّة للأشخاص ، والأهواء ، وللقِيَم والأوضاع ، وللشَّرائع والقوانين ، وللتَّقاليد والعادات ، وبين الرُّجوع في هذا كله لله الواحد الَّذي لا إله غيره ، ولا حاكم دونه ، ولا مشرّع إلا إيَّاه ، فارتفعت الهامات ، لا تنحني لغير الله ، وتساوت الرؤوس ، فلا تخضع إلا لحاكميته وشرعه ، وتحرَّرت القطعان البشريَّة؛ الَّتي كانت مستعبدةً للطُّغاة.

وكانت فرقاناً بين عهدٍ في تاريخ الحركة الإسلاميَّة ، عهد المصابرة والصَّبر ، والتَّجمُّع والانتظار ، وعهد القوَّة ، والحركة والمبادأة والاندفاع ، والإسلام بوصفه تصويراً جديداً للحياة ، ومنهجاً جديداً للوجود الإنسانيِّ ، ونظاماً جديداً للمجتمع ، وشكلاً جديداً للدَّولة ، بوصفه إعلاناً عامّاً لتحرير الإنسان في الأرض؛ بتقرير ألوهيَّة الله وحده وحاكميته ، ومطاردة الطَّواغيب ، الَّتي تغتصب ألوهيته[(٩٠)].

إلى أن قال: وأخيراً فلقد كانت بدر فرقاناً بين الحقِّ والباطل بمدلولٍ اخر ، ذلك المدلول الَّذي يوحي به قول الله تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ *} [الأنفال: ٧ ـ ٨].

لقد كان الَّذين خرجوا للمعركة من المسلمين؛ إنَّما خرجوا يريدون عِيرَ أبي سفيان ، واغتنام القافلة ، فأراد الله لهم غير ما أرادوا؛ أراد لهم أن تُفلِتَ منهم قافلةُ أبي سفيان (غير ذات الشَّوكة) ، وأن يلاقوا نفير أبي جهل (ذات الشَّوكة) ، وأن تكون معركةً ، وقتالاً ، وقتلاً ، وأسراً ، ولا تكون قافلةً ، وغنيمةً ، ورِحْلةً مريحةً ، وقد قال الله ـ سبحانه ـ: إنَّه صنع هذا؛ {لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ} ، وكانت هذه إشارةٌ لتقرير حقيقةٍ كبيرةٍ...

إنَّ الحقَّ لا يحقُّ ، وإنَّ الباطل لا يبطلُ ـ في المجتمع الإنسانيّ ـ بمجرَّد البيان النَّظريِّ للحقِّ والباطل ، ولا بمجرَّد الاعتقاد النظريِّ بأنَّ هذا حقٌّ ، وهذا باطلٌ ، إنَّ الحقَّ لا يحقُّ ، وإنَّ الباطل لا يبطل ، ولا يذهب من دنيا النَّاس ، إلا بأن يتحطَّم سلطان الباطل ، ويعلو سلطان الحق ، وذلك لا يتمُّ إلا بأن يغلب جند الحقِّ ، ويظهروا ، ويهزم جند الباطل ، ويندحروا.. فهذا الدِّين منهجٌ حركيٌّ واقعيٌّ ، لا مجرَّد نظريةٍ للمعرفة ، والجدل ، أو لمجرد الاعتقاد السَّلبيِّ!

ولقد حقَّ الحقُّ وبطل الباطل بالموقعة ، وكان هذا النَّصر العمليُّ فرقاناً واقعيّاً بين الحقِّ والباطل بهذا الاعتبار ، الَّذي أشار إليه قولُ الله تعالى في معرض بيان إرادته ـ سبحانه ـ من وراء المعركة ، ومن وراء إخراج الرَّسول (ص) من بيته بالحقِّ ، ومن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشَّوكة) ، ولقاء الفئة (ذات الشَّوكة).

ولقد كان هذا كلُّه فرقاناً بين منهج هذا الدِّين ذاته ، تتَّضح به طبيعة هذا المنهج ، وحقيقته في حس المسلمين أنفسهم ، وإنَّه لفرقان ندرك اليوم ضرورته ، حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدِّين من تَميُّعٍ في نفوس من يسمُّون أنفسهم مسلمين! ، حتى ليصل هذا التميُّع إلى مفهومات بعض مَنْ يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين! وهكذا كان يوم بدر: {يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ} [الأنفال: ٤١] بهذه المدلولات المنوَّعة ، الشَّاملة ، العميقة.

: وفي هذا اليوم مَثَلٌ من قدرته على كلِّ {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ *} ، مثلٌ لا يجادِل فيه مجادلٌ ، ولا يُماري فيه ممارٍ[(٩١)] ، مثلٌ من الواقع المشهود؛ الَّذي لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرة الله ، وأنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير[(٩٢)].

ثالثاً: الولاء والبراء من فقه الإيمان:

رسمت غزوة بدر لأجيال الأمَّة صوراً مشرقةً في الولاء ، والبراء ، وجعلت خطّاً فاصلاً بين الحقِّ، والباطل ، فكانت الفرقان النَّفسيَّ ، والماديَّ ، والمفاصلة التامَّة بين الإسلام ، والكفر ، وفيها تجسَّدت هذه المعاني ، فعاشها الصَّحابة واقعاً مادِّياً ، وحقيقةً نفسيَّةً ، وفيها تهاوت القيم الجاهليَّة ، فالتقى الابن بأبيه ، والأخ بأخيه:

١ ـ كان أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة في صفِّ المسلمين، وكان أبوه عُتبة، وأخوه الوليد ، وعمُّه شيبة في صفِّ المشركين ، وقد قُتلوا جميعاً في المبارزة الأولى.

٢ ـ كان أبو بكر الصِّدِّيق في صفِّ المسلمين ، وكان ابنه عبد الرَّحمن في صفِّ المشركين.

٣ ـ كان مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين ، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صفِّ المشركين ، ثمَّ وقع أسيراً في يد أحد الأنصار ، فقال مصعب للأنصاريّ: شُدَّ يدك به؛ فإنَّ أمَّه ذاتُ متاع ، فقال أبو عزيز: يا أخي! هذه وصيَّتك بي؟! فقال مصعب: إنَّه أخي دونك ، تلك كانت حقائق ، وليس مجرَّد كلمات: إنَّه أخي دونك[(٩٣)]!. إنَّها القيم المطروحة لتقوم الإنسانيَّة

على أساسها ، فإذا العقيدة هي اصرةُ النَّسب والقرابة ، وهي الرِّباط الاجتماعيُّ[(٩٤)].

٤ ـ كان شعار المسلمين في بدرٍ: (أحَد... أحَد) وهذا يعني: أنَّ القتال في سبيل عقيدةٍ تتمثَّل بالعبوديَّة للإله الواحد، فلا العصبيَّة ، ولا القبلية ، ولا الأحقاد ، ولا الضَّغائن ، ولا الثأر ، هو الباعث والمحرِّك؛ ولكنَّه الإيمان بالله وحدَه.

ومن هذا المنطلق كانت صور الإيمان مختلفة المظاهر، واحدةً في مضمونها[(٩٥)].

وللإيمان فقهٌ عظيمٌ ، ومن هذا الفقه حينما هاجر رسول الله (ص) إلى المدينة ، هاجر إليها كلُّ من استطاع ذلك من المسلمين في مكَّة ، وحُبِس من كان مضطهداً ، ولم يستطع ذلك ، فلما كان يوم بدر كان بعض هؤلاء في صفِّ المشركين؛ منهم: عبد الله بن سهيل بن عمرو ، والحارث بن زمعة بن الأسود ، وأبو قيس بن الفاكِه ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعليُّ بن أميَّة بن خلف ، والعاصُ بن مُنبِّه.

فأما عبد الله بن سهيل بن عمرو؛ فقد انحاز من صف المشركين إلى رسول الله (ص) ، فشهد المعركةَ ، وكان أحدَ الصَّحابة الذين نالوا هذا الشَّرف العظيم[(٩٦)].

وأمَّا الاخرون؛ فلم يفعلوا ذلك ، وشهدوا المعركة في صفِّ المشركين ، وقد أُصيبوا جميعاً[(٩٧)] ، فقتلوا تحت راية الكفر ، فنزل في حقِّهم قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا *} [النساء: ٩٧] ، البخاري (٤٥٩٦)].

قال ابن عباس: كان قومٌ من المسلمين أقاموا بمكَّة ـ وكانوا يَسْتَخْفُون بالإسلام ـ كان أصحابنا هؤلاء مسلمين ، وأُكرهوا على الخروج ، فنزلت: . إنَّهم لم يُعْذروا إذ كانت إمكانات الانتقال إلى صفِّ المؤمنين {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ} ، ولم يكن الفاصل كبيراً بين الصَّفين ، ولن يُعدموا ـ لو أرادوا ـ الفرصة في الانتقال إلى رسول الله (ص) كما فعل عبد الله بن سهيل[(٩٨)].

إنَّ للإيمان مستلزمات تعبِّر عن صدقه ، وقوَّته ، ومن مستلزماته استعلاؤه على كلِّ القيم ممَّا سواه ، فإذا كان كذلك ، كان لصاحبه الأثرُ الفعَّال ، والقوَّة الفاعلة في بناء الحقِّ والخير؛ الَّذي أراده الله ، إنَّ الإيمان يصبُغ السُّلوك ، فإذا به يشعُّ من خلال الحركة والجهد ، ومن خلال
الكلمة ، والابتسامة ، ومن خلال السَّمْتِ[(٩٩)] ، والانفعال ، ولذا لم يُعذَرِ الَّذين كانوا في صفِّ المشركين؛ لأنَّ الإيمان الَّذي ادَّعوه لم توجد له مستلزماتٌ ، فلم يُؤتِ ثمارَه[(١٠٠)].
وبهذا الفهم العميق لفقه الإيمان ضرب الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم في بدرٍ مُثُلاً عليا لصدق الإيمان ، الَّتي تدل على أنَّهم اثروا رضاء الله ورسوله (ص) على حبِّ الوالد ، والولد ، والأهل ، والعشيرة ، فلا يعجبُ المسلم من ثناء الله تعالى على هذه المواقف الصَّادقة في قوله تعالى: {لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [المجادلة: ٢٢].
رابعاً: المعجزات الَّتي ظهرت في بدرٍ وما حولها:
من المعجزات الَّتي ظهرت على يَدَيْ رسول الله (ص) في بدرٍ إخبارُه عن بعض المغيَّبات ، ومن المعلوم: أنَّ علم الغيب مختصٌّ بالله تعالى وحده ، وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه الكريمة في غير ايةٍ من كتابه العزيز ، قال تعالى: {قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ *} [النمل: ٦٥].
وقال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *} [الأنعام: ٥٩].
ومن المعلوم: أنَّ الأنبياء ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ لا يعلمون الغيب ، ولا اطِّلاع لهم على شيءٍ منه ، فقد قال تعالى: {قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ *} [الأنعام: ٥٠].
وكما جاءت الأدلَّة تدلُّ على أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ قد اختصَّ نفسه بمعرفة علم الغيب ، وأنَّه استأثر به دون خلقه ، جاءت أدلَّةٌ تفيد: أنَّ الله تعالى استثنى من خلقه مَنِ ارتضاه من الرُّسل ، فأودعهم ما شاء الله من غيبه بطريق الوحي إليهم ، وجعله معجزةً لهم ، ودلالةً صادقةً على نبوَّتهم.

قال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ *} [آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا *إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا *} [الجن: ٢٦ . ٢٧] فنخلص من ذلك إلى أنَّ ما وقع على لسان رسول الله (ص) من الإخبار بالمغيَّبات؛ فبوحيٍ من الله تعالى ، وهو إعلام الله . عزَّ وجلَّ . لرسوله (ص) للدَّلالة على ثبوت نبوَّته ، وصحَّة رسالته ، وقد اشتهر وانتشر أمره (ص) بإطلاع الله له على المغيَّبات[(١٠١)] ، وكان لأحداث غزوة بدرٍ نصيبٌ من تلك المعجزات الغيبيَّة؛ منها:

أ . قتل أميَّة بن خلف:

عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: انطلق سعدُ بن مُعاذ معتمراً ، قال: فنزل على أميَّةَ بن خلف أبي صفوان ، وكان أميَّة إذا انطلق إلى الشَّام ، فمرَّ بالمدينة نزل على سعدٍ ، فقال أميَّة لسعدٍ: ألا تنتظر حتى إذا انتصف النَّهارُ ، وغفل النَّاسُ انطلقت فطفتَ! فبينا سعدٌ يطوف إذا أبو جهل ، فقال: مَنْ هذا الذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعدٌ: أنا سعدٌ ، فقال أبو جهل: تطوفُ بالكعبة امناً ، وقد اويتم محمَّداً ، وأصحابه؟ فقال: نعم ، فَتَلاَحَيَا[(١٠٢)] بينهما ، فقال أميَّة لسعدٍ: لا ترفعْ صوتك على أبي الحكم ، فإنه سيِّد أهل الوادي ، ثمَّ قال سعدٌ: والله! لئن منعتني أن أطوفَ بالبيت لأقطعنَّ متجركَ بالشَّام ، قال: فجعل أميَّةُ يقول لسعدٍ: لا ترفعْ صوتك ، وجعل يمسكه ، فغضب سعد ، فقال: دعنا عنك؛ فإنِّي سمعت محمداً (ص) يزعم: أنَّه قاتلُك ، قال: إيَّايَ؟ قال: نعم! قال: والله! ما يكذب محمَّدٌ إذا حدَّث ، فرجع إلى امرأته ، فقال: أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربيُّ؟ قالت: وما قال؟ قال: زعم: أنَّه سمع محمَّداً يزعم: أنَّه قاتلي. قالت: فوالله! ما يكذب محمَّدٌ.

قال: فلمَّا خرجوا إلى بدرٍ وجاء الصَّريخ؛ قالت له امرأته: أما ذكرتَ ما قال لك أخوك اليثربيُّ؟ قال: فأراد ألاَّ يخرجَ ، فقال له أبو جهل: إنَّك مِنْ أشراف الوادي ، فسِرْ يوماً ، أو يومين ، فسار معهم ، يومين ، فقتله الله. [البخاري (٣٦٣٢)].

ب . مصارع الطُّغاة:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كنَّا مع عمرَ بين مكَّة ، والمدينة ، فتراءينا الهلالَ، وكنتُ رجلاً حديدَ البصر[(١٠٣)]، فرأيتُه وليس أحدٌ يزعم: أنَّه راه غيري ، قال: فجعلتُ أقول لعمر: أمَا تراه؟

فجعل يقول: لا يراه. قال: يقول عمر: سأراه ، وأنا مُسْتَلْقٍ على فراشي، ثمَّ أنشأ يحدِّثنا عن أهل بدرٍ ، فقال: إنَّ رسول الله (ص) كان يرينا مصارع أهل بدرٍ بالأمس ، يقول: «هذا
مصرعُ فلانٍ غداً؛ إن شاء الله» قال: فقال عمر: فوالَّذي بعثه بالحقِّ ، ما أخطؤوا الحدودَ التي حَدَّ رسولُ الله (ص) . [مسلم (٢٨٧٣)].

جـ إخبار العباس بن عبد المطَّلب بالمال الَّذي دفنه ، وإعلام عُمير بن وهب بالحديث الَّذي حَدَثَ بينه وبين صفوان:

ومن ذلك لما طلب رسول الله (ص) من عمِّه دفع الفداء ، وأجابه العبَّاس: ما ذاك عندي يا رسولَ الله! فقال له: «أين المالُ الذي دفنته أنت ، وأمُّ الفضل ، فقلتَ لها: إن أُصبت في سفري هذا؛ فهذا المال الَّذي دفنته لبني الفضل ، وعبد الله ، وقُثم؟» قال: والله يا رسول الله! إنِّي لأعلم أنَّك رسولُ الله؛ إنَّ هذا الأمر ما علمه أحدٌ غيري ، وغير أمِّ الفضل.

وما حدَّث به عمير بن وهب لما جاء متظاهراً بفداء ابنه ، وهو يريد قتل النَّبيِّ (ص) باتِّفاقٍ مع صفوان بن أميَّة ، فقد أنبأه نبأ المؤامرة ، فكانت سبباً في إسلامه ، وصدق إيمانه. [سبق تخريجه][(١٠٤)].

ومن المعجزات أيضاً:

ما ذكره ابن القيِّم في زاد المعاد: أنَّ سيف عُكَّاشة بن محصن انقطع يومئذٍ ، فأعطاه النَّبيُّ (ص) جِذْلاً من حطبٍ ، فقال: (دونك هذا) ، فلمَّا أخذه عُكَّاشة ، وهزَّه؛ عاد في يده سيفاً طويلاً شديداً أبيضَ ، فلم يزل عنده يقاتل به حتَّى قُتِل في حروب الردَّة أيام أبي بكرٍ[(١٠٥)]. وقال رفاعة بن رافع: رُميتُ بسهمٍ يوم بدرٍ ، ففُقِئت عيني ، فبصق فيها رسول الله (ص) ودعا لي ، فما اذاني منها شيءٌ[(١٠٦)].

قال الدُّكتور أبو شهبةَ: وما ينبغي لأحدٍ أن يزعم: أنَّ المعجزات الحسِّيَّة لا ضرورة إليها بعد القران ، فها هي قد بدت اثارُها واضحةً جليَّةً في إسلام البعض ، وتقوية يقين البعض الاخر ، وإثبات: أنَّه نبيٌّ يُوحَى إليه ، فقد أخبر بمغيَّبات انتفى في العلم بها كل احتمال إلا أنَّه خبر السَّماء ، وغير خفيٍّ ما يحدثه من انقلاب عودٍ ، أو عُرْجُونٍ[(١٠٧)] في يد صاحبه سيفاً بتَّاراً في إيمانه ، وتقوية يقينه ، وجهاده به جهاداً لا يعرف التَّردُّد ، أو الخور ، وحرصه البالغ على أن يخوض المعارك بسيفٍ خرقت به العادة ، وصار مثلاً ، وذكرى في الأوَّلين ، والاخرين[(١٠٨)].

خامساً: حكم الاستعانة بالمشرك:

في غزوة بدرٍ ، وفي الأحداث الَّتي سبقتها ، أراد مشركٌ أن يلحق بجيش المسلمين ، وطلب من النَّبيِّ (ص) الموافقة على قبوله معهم ، والاشتراك فيما هم ذاهبون إليه ، فقال (ص) : «ارجع ، فلن أستعين بمشرك». [أحمد (٦/١٤٩) ، ومسلم (١٨١٧) ، وأبو داود (٢٧٣٢) ، والترمذي (١٥٥٨) ، وابن ماجه (٢٨٣٢)].

فالحديث يبيِّن: أنَّ القاعدة والأصل عدم الاستعانة بغير المسلم في الأمور العامَّة، ولهذه القاعدة استثناءٌ ، وهو جواز الاستعانة بغير المسلم بشروطٍ معيَّنةٍ ، وهي: تحقُّق المصلحة ، أو رجحانها بهذه الاستعانة ، وألاَّ يكون ذلك على حساب الدَّعوة ومعانيها ، وأن يتحقَّق الوثوق الكافي بمن يُستعان به ، وأن يكون تابعاً للقيادة الإسلاميَّة ، لا متبوعاً ، ومقوداً فيها لا قائداً لها ، وألاَّ تكون هذه الاستعانة مثارَ شبهةٍ لأفراد المسلمين ، وأن تكون هناك حاجة حقيقيَّةٌ لهذه الاستعانة وبمن يُستعان به ، فإذا تحقَّقت هذه الشُّروط؛ جازت الاستعانة على وجه الاستثناء ، وإذا لم تتحقَّق؛ لم تَجُزِ الاستعانة ، وفي ضوء هذا الأصل رفض رسولُ الله (ص) اشتراك المشرك مع المسلمين في مسيرهم إلى عِيرِ قريش؛ إذ لا حاجة به أصلاً.

وفي ضوء الاستثناء ، وتحقُّق شروطه استعان النَّبيُّ (ص) بالمشرك عبد الله بن أريقط؛ الَّذي استأجره النَّبيُّ (ص) ، وأبو بكر في هجرتهما إلى المدينة ، ليدلَّهما على الطريق إليها.. وهكذا على هذا الاستثناء ، وتحقُّق شروطه قَبِل (ص) حماية عمِّه أبي طالب له ، كما قَبِل جوار ، أو إجارة المطْعِم بن عديٍّ له عند رجوعه (ص) من الطَّائف ، وكذلك قبول الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم جوار من أجارهم مِنَ المشركين؛ ليدفع هؤلاء الأذى عمَّن أجاروهم[(١٠٩)] ، وضبْطُ هذه القاعدة مع فهم شروط الاستثناء في واقع الحياة يحتاج إلى فقهٍ دقيقٍ ، وإيمانٍ عميقٍ.

سادساً: حذيفة بن اليمان ، وأسيد بن الحضير رضي الله عنهما:

أ ـ حذيفة بن اليمان ووالده:

قال حذيفة: ما منعنا أن نشهد بدراً إلا أنِّي وأبي أقبلنا نريد رسول الله (ص) ، فأخذنا كفَّار قريش، فقالوا: إنَّكم تريدون محمَّداً، فقلنا: ما نريده؛ إنَّما نريد المدينة، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لتصيرُن إلى المدينة ، ولا تقاتلوا مع محمَّدٍ (ص) ، فلمَّا جاوزناهم أتينا رسول الله (ص) ، فذكرنا له ما قالوا ، وما قلنا لهم؛ فما ترى؟ قال: «نستعين الله عليهم ، ونفي بعهدهم» ، فانطلقنا إلى المدينة ، فذاك الَّذي منعنا أن نشهد بدراً. [الحاكم (٣/٢٠١ ـ ٢٠٢)].

هذه صورةٌ مشرقةٌ في حرص النَّبيّ (ص) لحفظ العهود ، وتربية أصحابه على تطبيق مكارم الأخلاق الرَّفيعة ، وإن كان في ذلك إجحافٌ بالمسلمين ، ومفوّتٌ لهم جُهْدَ بعض أفراد المجاهدين.

ب ـ أُسيد بن الحضير:

عندما رجع رسولُ الله (ص) إلى المدينة قادماً من بدرٍ؛ لقي بالرَّوْحاء رؤوس النَّاس يهنِّئونه بما فتح الله عليه ، فقال أُسَيْدُ بن الحضير: يا رسول الله! الحمد لله الَّذي أظفرك ، وأقرَّ عينك ، والله يا رسول الله! ما كان تخلُّفي عن بدرٍ ، وأنا أظنُّ أنَّك تلقى عدوّاً ، ولكن ظننت أنَّها عيرٌ ، ولو ظننت: أنَّه عدوٌّ؛ ما تخلفت ، فقال رسول الله (ص) : «صَدَقْتَ» [البيهقي في الدلائل (٣/١٣٣)][(١١٠)].

سابعاً: الحرب الإعلاميَّة في بدرٍ:

قال حسَّان رضي الله عنه:

فَمَا نَخْشَى بِحَوْل اللهِ قَوْماً ... وَإِنْ كَثُرُوا وأَجْمَعَتِ الزُّحُوفُ

إِذَا ما ألبسُوا جَمْعاً عَلَيْنَا ... كَفَانَا حدَّهُمْ رَبٌّ رَؤُوفُ

سَمَوْنَا يَوْمَ بَدْرٍ بالعَوَالي ... سِرَاعاً ما تُضَعْضِعُنا الحُتُوفُ[(١١١)]

فَلَمْ تُرَ عُصْبَةٌ في النَّاسِ أَنْكَى ... لِمَنْ عادَوْا إِذَا لَقِحَتْ كُشُوفُ

ولكِنَّا تَوَكَّلْنَا وَقُلْنَا ... ماثِرُنَا وَمَعْقِلُنَا السُّيُوفُ

لَقِيْنَاهُمْ بِهَا لما سَمَوْنَا ... ونَحْنُ عِصَابَةٌ[(١١٢)] وَهُمُ أُلُوفُ[(١١٣)]

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه:

وما حَامَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرٍ ... ولا صَبَرُوا بِهِ عِنْدَ اللِّقَاءِ

وَرَدْنَاهُ بِنُوْرِ الله يَجْلُو ... دُجَى الظَّلْمَاءِ عَنَّا والغِطاءِ

رَسُولُ الله يَقْدُمُنَا بأَمْرٍ ... مِن اَمْرِ الله أُحْكِمَ بالقَضاءِ

فَمَا ظَفِرَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرٍ ... وما رَجَعُوا إِلَيْكُمْ بالسَّوَاءِ

فلا تَعْجَلْ أَبَا سُفْيَانَ وارْقُبْ ... جِيَادَ الخَيْلِ تَطْلُعُ من كَدَاءِ

بِنَصْرِ الله رُوْحُ القُدْسِ فِيْهَا ... وَمِيْكَالٌ ، فَيَا طِيْبَ المِلاءِ[(١١٤)][(١١٥)]

كان النَّبيُّ (ص) يحثُّ شعراء المسلمين على القيام بواجبهم في الدِّفاع عن المسلمين، وإخافة الأعداء بِشِعْرِهِمْ ، فقد كان الشِّعر يمثِّل الحملات الإعلاميَّة المؤثِّرة في دنيا العرب ، فيرفع أقواماً ، ويخفض اخرين ، ويُشْعِل الحروب ، ويُطْفِئها[(١١٦)].

كانت بوادر الحرب الإعلاميَّة قد اندلعت منذ الهجرة ، غير أنَّ ظهورها أكثرُ بدءاً مع حركة السَّرايا قُبيل بدر ، لكنَّها انفجرت انفجاراً ضخماً بعد بدرٍ؛ لأنَّ الجانب الإعلاميَّ للقبائل المجاورة كان هدفاً مُهِمّاً من أهداف الفريقين ، ويظهر: أنَّ القصائد سَرعان[(١١٧)] ما تطير بها الرُّكبان بين يثربَ ، ومكَّةَ ، فيأتي الردُّ من الطَّرف الاخر ، فعند النَّصر تكثر أشعار الفريق المنتصر ، بينما تكثر المراثي عند الفريق الثَّاني ، وكان الصَّفُّ الإسلاميُّ يضمُّ شعراء متخصِّصين؛ أمثال: كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وكان أشدَّهم على الكفَّار حسانُ[(١١٨)].

* * *

المبحث الثَّامن

أهمُّ الأحداث الَّتي وقعت بين غزوتي بدرٍ ، وأحد[(١١٩)]

في أعقاب غزوة بدرٍ أخذت الهيبة العسكريَّة للمسلمين مداها الكبير ، في دائرةٍ واسعةٍ في الجزيرة العربيَّة ، وأحسَّ ضعفاء المشركين بالخطر ، وشعر أقوياؤهم بغلبة الإسلام ، وبدأت النُّفوس تتطلَّع إلى الإيمان؛ فتوسَّعت دائرة الدُّخول في الإسلام ، ورأى الكثيرون أن يدخلوا في الإسلام نفاقاً ، أو خديعةً؛ وبهذا كلِّه أصبحت الدَّولة الجديدة أمام أوضاعٍ جديدةٍ من المكر ، والتَّألُّب ، والتَّحالفات؛ ولكنَّ تأييد الله تعالى، ثمَّ جهاز أمن الدَّولة المتيقِّظ أفشل مخطَّطاتِ أعداء الإسلام[(١٢٠)].

أولاً: الغزوات الَّتي قادها رسول الله (ص) بعد بدرٍ ، وقبل أُحدٍ:

١ ـ ماء الكُدْر[(١٢١)] في بني سُليم:

غزا النَّبيُّ (ص) بعد سبع ليالٍ من عودته إلى المدينة من غزوة بدرٍ ، وبلغ ماء الكُدْر في ديار بني سُلَيم ، الَّذين قصدهم بغزوته هذه ، غير أنَّه لَمْ يلقَ حرباً؛ فأقام ثلاث ليالٍ على الماء ، ثمَّ رجع إلى المدينة[(١٢٢)] ، وكان سبب تلك الغزوة ، تجمُّع أفراد بني سُلَيم لمقاتلة المسلمين ، والاعتداء عليهم بعد معركة بدرٍ مباشرة ، ولكنَّ رسول الله (ص) فاجأهم بهجومٍ سريعٍ غير متوقَّعٍ ، فهرب بنو سليم ،

وتفرَّقوا على رؤوس الجبال ، وبقيت إبلهم مع راعٍ لها يُدعى يساراً ، فاستاق رسولُ الله (ص) الإبلَ مع راعيها ، وعند موضع صرار على ثلاثة أميال من المدينة قسَّم النَّبيُّ (ص) الإبل ـ الَّتي كان عددها خمسمئة بعير ـ على أصحابه ، فأصاب الواحد منهم بعيرين ، ونال النَّبيُّ (ص) خُمْسَها ، وكان يسار من نصيبه ، ولكنَّه أعتقه بعد ذلك[(١٢٣)].

٢ ـ غزوة السَّويق:

قدم أبو سفيان بمئتي فارسٍ من مكَّة ، وسلك طريق النَّجديَّة؛ حتَّى نزلوا حيَّ بني النضير

ليلاً ، واستقبلهم سلاَّم بن مِشْكَم سيِّدُ بني النَّضير ، فأطعمهم ، وسقاهم ، وكشف لهم عن أسرار المسلمين ، وتدارس معهم إحدى الطُّرق لإيقاع الأذى بالمسلمين ، ثمَّ قام أبو سفيان بمهاجمة ناحية العُرَيْض ـ وادٍ بالمدينة في طرف حَرَّةِ وَاقِم ـ فقتل رجلين ، وأحرق نخلاً ، وفرَّ عائداً إلى مكَّة ، فتعقَّبه رسول الله (ص) في مئتي رجلٍ من المهاجرين ، والأنصار ، ولكنَّه لم يتمكن من إدراكهم؛ لأنَّ أبا سفيان ورجاله قد جدُّوا في الهرب ، وجعلوا يتخفَّفون من أثقالهم ، ويُلْقون السَّوِيق[(١٢٤)] التي كانوا يحملونها لغدائهم ، وكان المسلمون يمرُّون بهذه الجُرب ، فيأخذونها؛ حتَّى رجعوا بسَوِيقٍ كثيرٍ ، لذا سمّيت هذه الغزوة بغزوة السَّوِيق ، وعاد رسول الله (ص) إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمسة أيام دون أن يلقى حرباً[(١٢٥)].

٣ ـ غزوة ذي أمر:

جاءت الأخبار من قِبَلِ رجال الاستخبارات الإسلاميَّة ، تفيد بأنَّ رجال قبيلتي ثعلبة ، ومحارب تجمَّعوا بذي أمر ، بقيادة دُعْثُور بن الحارث المحاربيّ ، يريدون حرب رسول الله (ص) ، والإغارة على المدينة ، فاستعمل النَّبيُّ (ص) على المدينة عثمان بن عفَّان ، وخرج في أربعمئة وخمسين من المسلمين بين راكبٍ ، وراجلٍ ، فأصابوا رجلاً بذي القَصَّة يقال له: جُبَار من بني ثعلبة ، كان يحمل أخباراً عن قومه ، أسرَّ بها إلى رسول الله (ص) ، وقد دخل في الإسلام ، وانضمَّ إلى بلال ليتفقَّه في الدين[(١٢٦)].

أمَّا المشركون من بني ثعلبة ، ومحارب ما لبثوا أن فرُّوا إلى رؤوس الجبال عند سماعهم بمسير المسلمين ، وبقي رسولُ الله (ص) في نجد مدةً تقارب الشَّهر دون أن يلقى كيداً من أَحَدٍ ، وعاد بعدها إلى المدينة[(١٢٧)].

وفي هذه الغزوة أسلم دُعثور بن الحارث الَّذي كان سيِّداً مطاعاً ، بعد أن حدثت له معجزة على يديْ رسول الله (ص) ؛ فقد أصاب المسلمين في هذه الغزوة مطرٌ كثيرٌ ، فابتلَّت ثياب رسول الله (ص) ،

فنزل تحت شجرة ، ونشر ثيابه لتجفَّ ، واستطاع دُعثور أن ينفرد برسول الله (ص) بسيفه ، فقال: يا محمد ! من يمنعك منّي اليوم ؟ قال: الله. ودفع جبريل صدره ، فوقع السَّيف من يده ، فأخذه رسول الله (ص) ، فقال: من يمنعك منّي؟ قال: لا أحد! وأنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، واللهِ لا أكثرُ عليك جمعاً أبداً! فأعطاه رسول الله (ص) سيفه ،

فلمَّا رجع إلى أصحابه؛ قالوا: ويلك! ما لك؟ فقال: نظرت إلى رجلٍ طويلٍ ، فدفع صدري ، فوقعت لظهري ، فعرفت: أنَّه مَلَكٌ ، وشهدت أنَّ محمَّداً رسول الله ، واللهِ لا أكثر عليه جمعاً: وجعل يدعو قومه إلى الإسلام. [البيهقي في الدلائل (٣/١٦٨ ـ ١٦٩)][(١٢٨)].

ونزل في ذلك قول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *} [المائدة: ١١].

٤ ـ غزوة بَحْران[(١٢٩)]:

كانت هذه الغزوة في شهر جُمادى الأولى من السَّنة الثالثة للهجرة ، وقد خرج النَّبيُّ (ص) في ثلاثمئةٍ من المسلمين؛ حتَّى بلغ بَحْرَانَ بين مكَّة ، والمدينة ، يريد قتال بني سُلَيم ، فوجدهم قد تفرَّقوا ، فانصرف عنهم ، وعاد إلى المدينة بعد أن أمضى خارجها عَشْرَ ليالٍ[(١٣٠)].

ونلحظ في هذه الغزوات قدرة القيادة الإسلاميَّة على رصد تحرُّكات العدوِّ ، ومعرفة قوَّته ، وخططه ، ومدده؛ لكي تحطِّم هذه التَّجمُّعات المناوئة للدَّولة الإسلاميَّة الفتيَّة قبل أن يستفحل أمر هذه القبائل ، وتصبح خطراً على المدينة.

وهذه الغزوات في هذه الصَّحراء المترامية الأطراف كانت دوراتٍ تدريبيةً تربويَّةً للصَّحابة الكرام ، وسعدت سرايا الصَّحابة بقيادة النَّبيِّ (ص) لها ، فقد كانت تلك الدَّورات العمليَّة التَّدريبيَّة القتاليَّة التَّربويَّة مستمرةً ، وتمتدُّ من خمسة أيام إلى شهر ، تتمُّ فيها الحياة الجماعيَّة، ويتربَّى جنود الإسلام، على السَّمع ، والطَّاعة ، والتَّدريب المتقن ، ويكتسبون خبراتٍ جديدةً تساعدهم على تحطيم الباطل ، وتقوية الحقِّ.

لقد كان المنهاج النَّبويُّ الكريم يهتمُّ بتربية الصَّحابة في ميادين النِّزال ، ولا يَغْفُلُ عن المسجد النَّبويِّ ودوره في صقل النُّفوس، وتنوير العقول ، وتهذيب الأخلاق من خلال وجود المربِّي العظيم (ص) ، الَّذي أصبحت تعاليمُه تشعُّ في أوساط المجتمع من خلال القُدوة ، والعبادة الخاشعة للهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ؛ فالمنهاج النبويُّ الكريم جمع بين الدَّورات المسجديَّة التَّربويَّة، والدَّورات العسكريَّة التَّربويَّة المكثَّفة؛ لكي

يَقْوَى المجتمع الجديد، وتُرَصُّ صفوفُه، ويكسب الخبرات؛ لكي يقوم بنشر الإسلام في الافاق[(١٣١)].

٥ . سرية زيد بن حارثة إلى القَرْدَة:

أصبح مشركو مكَّة بعد هزيمتهم في بدرٍ يبحثون عن طريقٍ أخرى لتجارتهم للشَّام ، فأشار بعضهم إلى طريق نجدٍ العراق ، وقد سلكوها بالفعل ، وخرج منهم تُجَّار ، فيهم أبو سفيان بن حرب ، وصفوان بن أميَّة ، وحويطب بن عبد العُزَّى ، ومعهم فضَّةٌ ، وبضائع كثيرةٌ ، بما قيمته مئة ألف درهمٍ ، فبلغ ذلك رسول الله (ص) بواسطة أحد أفراد جهاز الأمن الإسلاميّ ، يُدعى سليط بن النُّعمان رضي الله عنه[(١٣٢)]، فبعث زيدَ بن حارثة في مئة راكبٍ لاعتراض القافلة، فلقيها زيد عند ماءٍ يقال له: القَرْدَة ، وهو ماء من مياه نجدٍ ، ففرَّ رجالها مذعورين ، وأصاب المسلمون العِيرَ وما عليها ، وأسروا دليلَها فُرات بن حَيَّان؛ الَّذي أسلم بين يدي النَّبيِّ (ص) ، وعادوا إلى المدينة ، فخَمَّسَهَا رسولُ الله (ص) ، ووزَّع الباقي بين أفراد السَّرِيَّة[(١٣٣)].

ثانياً: غزوة بني قَيْنُقَاع[(١٣٤)]:

ذكر الزُّهريُّ: أنَّها وقعت في السَّنة الثَّانية للهجرة ، وذكر الواقديُّ ، وابن سعدٍ: أنها وقعت يوم السَّبت للنِّصف من شوال من السَّنة الثَّانية[(١٣٥)] ، واتَّفق معظم من كَتَبَ في مغازي رسول الله (ص) ، وسيرته على أنَّها وقعت بعد معركة بدرٍ؛ إذ لم يلتزم يهود بني قينقاع بالمعاهدة الَّتي أبرمها الرَّسول (ص) معهم ، ولم يوفوا بالتزاماتهم الَّتي حدَّدتها ، ووقفوا من الرَّسول (ص) والمسلمين مواقفَ عدائيَّةً ، فأظهروا الغضب ، والحسد عندما انتصر المسلمون في بدرٍ ، وجاهروا بعداوتهم للمسلمين[(١٣٦)].

وقد جمعهم النَّبيُّ (ص) في سوقهم بالمدينة ، ونصحهم ، ودعاهم إلى الإسلام ، وحذَّرهم أن يصيبهم ما أصاب قريشاً في بدرٍ[(١٣٧)]؛ غير أنَّهم واجهوا النَّبيَّ (ص) بالتَّحدِّي ، والتَّهديد ، رغم ما يُفترض أن يلتزموا به من الطَّاعة ، والمتابعة لبنود المعاهدة الَّتي جعلتهم تحت رئاسته ، فقد جابهوه بقولهم: «يا محمد! لا يغرنَّك من نفسك أنَّك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً ، لا يعرفون القتال ، إنَّك لو قاتلتنا لعرفت: أنَّا نحن النَّاس ، وأنَّك لم تلقَ مثلنا»[(١٣٨)].

وهكذا بدأت الأزمة تتفاعل؛ إذ لم يكن في جوابهم ما يشير إلى الالتزام ، والاحترام؛ بل

على العكس؛ فإنَّهم قد أظهروا رُوحاً عدائيَّةً ، وتحدِّياً ، واستعلاءً ، واستعداداً للقتال ، فأنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيهم قوله تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ

كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ *} [آل عمران: ١٢ ـ ١٣].

١ ـ الأسباب المباشرة للغزوة:

لما انتصر المسلمون في بدرٍ ، وقال رسول الله (ص) لليهود ما قال؛ أضمرت بنو قينقاع نقض العهد الَّذي بينهم وبين المسلمين ، وأخذوا يتحيَّنون الفرصة السَّانحة لمناوشة المسلمين ، حتَّى جاءتهم فرصتُهم الحقيرة الدَّنيئة؛ عندما جاءت امرأةٌ من العرب بِجَلَبٍ[(١٣٩)] لها ، فباعته بسوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغٍ يهوديٍّ ، فجعلوا يُريدونها على كَشْف وجهها ، فأبت ، فعمد الصَّائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلمَّا قامت انكشفت سَوْءَتُها ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجلٌ من المسلمين على الصَّائغ فقتله ـ وكان يهودياً ـ وشدَّت اليهود على المسلم ، فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشَّرُّ بينهم ، وبين بني قينقاع[(١٤٠)].

فحين علم رسول الله (ص) بذلك ، سار إليهم على رأس جيشٍ من المهاجرين ، والأنصار ، وذلك يوم السَّبت للنِّصف من شوَّال من السَّنة الثَّانية للهجرة[(١٤١)] ، وكان الَّذي حمل لواء المسلمين يومئذٍ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، واستخلف (ص) على المدينة أبا لُبَابَةَ بن عبد المنذر العمريَّ[(١٤٢)] ، واسمه: بشير[(١٤٣)]. وحين سار إليهم رسول الله (ص) ؛ نبذ إليهم العهد ، كما أمره الله تعالى في قوله: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ *} [الأنفال: ٥٨].

٢ ـ ضرب الحصار عليهم:

وحين علم اليهود بمقدَمه (ص) ؛ تحصَّنوا في حصونهم ، فحاصرهم النَّبيُّ (ص) خمسَ عَشْرَةَ ليلةً ـ كما ذكر ابن هشام ـ[(١٤٤)] ، واستمرَّ الحصار حتَّى قذف الله في قلوبهم الرُّعب ، واضطروا

للنُّزول على حكمه (ص) ، فقد فاجأهم (ص) بأسلوب الحصار ، فأربكهم ، وأوقعهم في حيرةٍ من أمرهم؛ بعد أن قطع عنهم كلَّ مددٍ ، وجمَّد حركتهم ، فعاشوا في سجنٍ؛ ممَّا جعلهم في النِّهاية ييأسون من المقاومة ، والصَّبر ، فبعد أن كانوا يهدِّدون رسول الله (ص) ، وبأنَّهم قوم يختلفون بأساً ، وشدَّةً عن مشركي قريش ، إذا بهم يضطرون للنُّزول على حكم رسول الله (ص)[(١٤٥)] ، فأمر بهم ، فرُبطوا ، فكانوا يكتَّفون أكتافاً ، واستعمل رسول الله (ص) على كتافهم المنذر بن قدامة السَّلميَّ الأوسيَّ[(١٤٦)].

٣ ـ مصير يهود بني قينقاع:

حاول ابن سلول زعيم المنافقين أن يحلّ حلفاءه مِنْ وثَاقِهِم ، فعندما مرَّ عليهم قال: حُلُّوهم ، فقال المنذر: أتحلُّون قوماً ربطهم رسول الله (ص) ؟! والله لا يحلُّهم رجلٌ إلا ضَرَبْتُ عنقَه[(١٤٧)] ، فاضطر عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول أن يتراجع عن أمره ، ويلجأ إلى استصدار الأمر من النَّبيّ (ص) بفكِّ أسرهم[(١٤٨)] ، فأتى رسولَ الله (ص) ، فقال: يا محمد! أَحْسِنْ في مواليَّ ـ وكانوا حلفاء الخزرج ـ ، قال: فأبطأ عليه رسول الله (ص) ، فقال: يا محمد! أحسن في مواليَّ ، قال: فأعرض عنه ، فأدخل ابن أُبيٍّ يده في جيبِ درعِ رسولِ الله (ص) ، فقال له رسول الله (ص) : «أرسلني» وغضب رسول الله (ص) ، حتَّى رأوا لوجهه ظُللاً[(١٤٩)] ، ثمَّ قال: «ويحك! أرسلني» ، قال: لا والله ، لا أرسلك حتَّى تُحسِن في مواليَّ؛ أربعمئة حاسرٍ[(١٥٠)] ، وثلاثمئة دارعٍ ، قد منعوني من الأحمر ، والأسود ، تحصدهم في غداة واحدة؟ إنِّي والله امرؤ أخشى الدَّوائر! فقال رسول الله (ص) : «هم لك» [الطبراني في تاريخه (٢/٤٨٠) ، والواقدي في مغازيه (١/١٧٧ ـ ١٧٨) ، والبيهقي في الدلائل (٣/١٧٤) ، وابن هشام (٣/٥١ ـ ٥٢)][(١٥١)].

فخلَّى رسولُ الله (ص) سبيلَهم، ثمَّ أمر بإجلائهم، وغنم رسول الله (ص) والمسلمون ما كان لديهم من مالٍ، وقد تولَّى جمع أموالهم ، وإحصاءها محمَّد بن مسلمة رضي الله عنه[(١٥٢)] ، وحاول ابن أُبي بن سلول أن يحدِّث رسولَ الله (ص) في يهود بني قينقاع؛ لكي يُقرَّهم في ديارهم ، فوجد على باب رسول الله (ص) عُويم بن ساعدة الأنصاريَّ الأوسيَّ، فردَّه عويم، وقال: لا تدخل

حتَّى يأذن رسول الله (ص) لك، فدفعه ابن أُبيٍّ، فغلَّظ عليه عويم، حتَّى جَحَش[(١٥٣)] وجهَ ابن أُبيٍّ الجدارُ، فسال الدَّم[(١٥٤)].

ويظهر في هذا الخبر ، فقه النَّبيِّ (ص) السِّياسيُّ في تعامله مع ابن سلول ، حيث لبَّى طلبه ، فلعلَّ هذا الموقف يغسل قلبه ، ويزيل الغشاوة عنه ، فتتمُّ هدايته ، فقال له: «هم لك» ، ولعلَّ الَّذين يسيرون وراء زعامة ابن أُبيٍّ يَصْلُحون بصلاحه ، فيتماسك الصَّفُّ ، ويلتحم؛ فلا يتأثر مِنْ كيد أعداء الإسلام[(١٥٥)].

وهناك بُعدٌ اخر؛ حيث حرص (ص) أن يتفادى حدوث فتنةٍ في مجتمع المؤمنين؛ حيث إنَّ بعض الأنصار حديثو عهدٍ بالإسلام ، ويُخشى أن يؤثِّر فيهم رأس المنافقين عبد الله بن أبيٍّ لسمعته الكبيرة فيهم[(١٥٦)]؛ ولذلك سلك (ص) معه أسلوب المداراة ، والصَّبر عليه ، وعلى إساءاته؛ تجنُّباً للفتنة ،

وإظهاراً لحقيقة الرَّجل من خلال تصرُّفاته ، ومواقفه عند مَنْ يجهلها ، ومِنْ ثَمَّ يفرُّ النَّاس مِنْ حوله ، ولا يتعاطفون معه ، وقد حقَّق هذا الأسلوب نجاحاً باهراً ، فقد ظهرت حقيقة ابن سلولٍ لجميع النَّاس؛ حتَّى أقرب النَّاس إليه ، ومنهم ولده عبد الله ، فكانوا بعدها إذا تكلَّم؛ أسكتوه ، وتضايقوا من كلامه[(١٥٧)] ، بل أرادوا قتله ـ كما سيأتي بإذن الله تعالى ـ.

٤ ـ تبرُّؤ عبادة بن الصَّامت منهم:

لما نقضت العهدَ بنو قينقاع ، سار عُبادة بن الصَّامت أحد بني عوف ـ لهم من حلف بني قينقاع مثل الَّذي لهم من عبد الله بن أُبيٍّ ـ لرسول الله (ص) ، وخلعهم إليه ، وتبرَّأ إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإلى رسوله (ص) من حلفهم ، وقال: يا رسول الله! أتولَّى الله ورسولَه (ص) ، والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفّار ، وولايتهم[(١٥٨)].

ولما تقرَّر جلاء بني قينقاع ، أمر رسولُ الله (ص) عُبادة بن الصَّامت أن يُجليَهم ، فجعلت قينقاع تقول: يا أبا الوليد! من بين الأوس والخزرج ـ ونحن مواليك ـ فعلت هذا بنا؟ قال لهم عبادة: لما حاربتم جئتُ رسولَ الله (ص) ، فقلتُ: يا رسولَ الله! إنِّي أبرأ إليك منهم، ومن حلفهم، وكان ابن أُبيٍّ ، وعبادة بن الصَّامت منهم بمنزلةٍ واحدةٍ في الحلف ، فقال عبد الله بن أُبيٍّ: تبرَّأتَ من حلف مواليك؟! ما هذا بيدهم عندك ، فذكَّره مواطن قد أبْلَوْا فيها ، فقال عبادة:

يا أبا الحُبَاب! تغيَّرت القلوب ، ومحا الإسلام العهود ، أما والله! إنك لمعْصِمٌ بأمرٍ سنرى غيَّه غداً ، فقالت قينقاع: يا محمد! إنَّ لنا دَيْناً في النَّاس ، قال النَّبيُّ (ص) : «تعَجَّلوا ، وضعوا» وأخذهم عبادة بالرَّحيل ، والإجلاء ، وطلبوا التنفُّس ، فقال لهم: ولا ساعةً من نهارٍ ، لكم ثلاث لا أزيد عليها ، هذا أمر رسول الله (ص) ، ولو كنت أنا ما نفَّستكم ، فلمَّا مضت ثلاث ، خرج في اثارهم حتَّى سلكوا إلى الشَّام ، وهو يقول: الشَّرف الأبعد ، الأقصى ، فالأقصى ، وبلغ خلف الذُّباب ثمَّ رجع ، ولحقوا بأذرعاتٍ[(١٥٩)].

وهكذا خرج بنو قينقاع من المدينة صاغرين ، قد ألقَوا سلاحَهم ، وتركوا أموالهم غنيمةً للمسلمين ، وهم كانوا من أشجع يهود المدينة ، وأشدِّهم بأساً ، وأكثرهم عدداً وعُدَّةً ؛ ولذلك لاذت القبائل اليهوديَّة بالصَّمت ، والهدوء ، فترةً من الزَّمن بعد هذا العقاب الرَّادع ، وسيطر الرُّعب على قلوبها ، وخُضِدَتْ شوكتُها[(١٦٠)].

٥ ـ الايات الَّتي نزلت في موالاة ابن سلول لليهود ، وبراءة عُبادة بن الصَّامت منهم:

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ *وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ *يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ *وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ *} [المائدة: ٥١ ـ ٥٦].

قال ابن عطيَّة في هذه الايات: لما انقضت بدرٌ ، وشجر أمر بني قينقاع؛ أراد رسول الله (ص) قتلهم ، فقام دونهم عبدُ الله بن أبيّ بن سلول ـ وكان حليفاً لهم ـ وكان لعبادة بن الصَّامت من حلفهم مثل ما لعبد الله ، فلمَّا رأى عُبادة منزع رسول الله (ص) ، وما سلكتْه اليهود من المشاقَّة لله ، ولرسوله (ص) ؛ جاء إلى النَّبيّ (ص) ، فقال: يا رسول الله! إنِّي أبرأُ إلى الله من حلف يهود ، وولائهم ، ولا أُوالي إلا الله ، ورسولَه ، وقال عبدُ الله بن أُبيٍّ: أما أنا فلا أبرأ من ولاء يهود ، فإنِّي لابدَّ لي منهم ، إنِّي رجلٌ أخاف الدَّوائر[(١٦١)].

إنَّ الفرق واضحٌ بين ابن سلول الَّذي انغمس في النِّفاق ، وبين عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه الَّذي تربَّى على المنهاج النَّبويِّ ، فَصَفَتْ نفسه ، وتطهَّر قلبُه ، وقوي إيمانه ، وتنوَّر عقله ، فتخلَّص من اثار العصبية الجاهليَّة ، والأهواء ، والمصالح الذَّاتية ، وقدم مصلحة الإسلام على كلِّ مصلحةٍ ، فكان مثلاً حيّاً للمسلم الصَّادق المخلص لعقيدته[(١٦٢)].

ثالثاً: تصفية المحرِّضين على الدَّولة الإسلاميَّة ، ومقتل كعب بن الأشرف:

إنَّ خطر المحرِّضين على الفتنة لا يقلُّ عن خطر الَّذين يشهَرون السُّيوف لقتال المسلمين؛ إذ لولا هؤلاء المحرِّضون لما قامت الفتنة؛ لذلك أخذ رسولُ الله (ص) يتتبَّع هؤلاء المحرِّضين ، ويقتُلهم؛ إطفاءً لنار الفتنة ، وتمكيناً للحقِّ ، وقد قَتل منهم خلقاً بعد موقعة بدرٍ[(١٦٣)] ، ومنهم:

أ ـ عصماء بنت مَرْوان: الَّتي كانت تحرِّض على النَّبيِّ (ص) ، وتعيب الإسلام ، فقد أقدم عُمَيْرُ بنُ عديٍّ الخُطميُّ رضي الله عنه على قتلها ، وحين سأل النَّبيَّ(ص) بعد ذلك عمَّا إذا كان عليه شيء ؟ قال له النَّبيُّ (ص) : «نصرت الله ورسوله يا عمير!» ، ثمَّ قال: «لا ينتطح فيها عنزان» [الخطيب

البغدادي في تاريخه (٩٩/١٣)، وكشف الخفاء (٣١٣٧)]، وقد أسلم نتيجة ذلك عددٌ من بني خَطَمَةَ ، وجهر بالإسلام منهم مَنْ كان يستخفي[(١٦٤)].

ب ـ مقتل أبي عفكٍ اليهوديّ:

كان أبو عفك شيخاً كبيراً من بني عمرو بن عوف ، وكان يهوديّاً ، يُحرِّض على رسول الله (ص) ويقول الشِّعر ، فقال رسول الله (ص) : «من لي بهذا الخبيث؟» فخرج له الصَّحابيُّ سالم بن عُمَيْرٍ ، فقتله[(١٦٥)].

وأهمُّ حدثٍ في تصفية المحرِّضين على الدَّولة ما بين بدرٍ ، وأُحدٍ هو مقتل كعب بن الأشرف.

جـ مقتل كعب بن الأشرف:

ينتسب كعب بن الأشرف إلى بني نَبْهان من قبيلة طيِّء ، وكان أبوه قد أصاب دماً في الجاهليَّة ، فقدم المدينة ، وحالف يهود بني النَّضير ، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق ، فولدت له كعباً[(١٦٦)]، وكان شاعراً، ناصب الإسلام العداء، وقد غاظه انتصار المسلمين على قريشٍ في معركة بدرٍ، فسافر إلى مكَّةَ يهجو النَّبيَّ (ص) ، ويحرِّض قريشاً على الثأر لقتلاهم ، الَّذين كان ينوح

عليهم ، ويبكيهم في شعره ، ويدعو إلى القضاء على الرَّسول (ص) ، والمسلمين[(١٦٧)] ، وممَّا قاله من الشِّعر في قتلى بدرٍ من المشركين:

طَحَنَتْ رَحَى بَدْرٍ لِمُهْلَكِ أَهْلِهِ ... وَلِمثْلِ بَدْرٍ تَسْتَهِلُّ وتدْمَعُ

قُتِلَتْ سُرَاةُ الناس حَوْلَ حِيَاضِهِمْ ... لا تَبْعَدُوا إِنَّ الملُوكَ تُصَرَّعُ

كَمْ قَدْ أُصِيب بِهَا من ابْيَضَ مَاجِدٍ ... ذِي بَهجَةٍ تأْوِي إِلَيْهِ الضُّيَّعُ

ويَقُولُ أَقْوَامٌ أُذَلُّ[(١٦٨)] بِسُخْطِهِمْ ... إِنَّ ابنَ الأَشْرَف ظَلَّ كَعْباً يَجْزَعُ

صَدَقُوا فَلَيْتَ الأَرْضَ سَاعَةَ قُتِّلُوا ... ظَلَّتْ تَسُوْخُ بأَهْلِهَا وتَصَدَّعُ

نُبِّئْتُ أَنَّ بَنِي كِنَانَةَ كُلَّهُمْ ... خَشَعُوا لِقَوْلِ أَبِي الولِيْدِ وَجُدِّعُوا[(١٦٩)]

واستمرَّ كعب بن الأشرف في أذيَّة رسول الله (ص) بالهجاء ، وتشجيع قريشٍ لمحاربة المسلمين ، واستغواهم على رسول الله (ص) ، فقال له أبو سفيان: أناشدك الله، أديننا أحبُّ إلى الله أم دين محمَّدٍ ، وأصحابه؟ قال: أنتم أهدى منهم سبيلاً[(١٧٠)] ، ثمَّ خرج مقبلاً قد أجمع رأي المشركين على قتال رسول الله (ص) ، معلناً بعداوته وهجائه[(١٧١)].

ولما قدم المدينة؛ أعلن معاداة النَّبيّ (ص) ، وشرع في هجائه ، وبلغت به الوقاحة والصَّلَفُ[(١٧٢)] أن يمتدَّ لسانه إلى نساء المسلمين ، وشَبَّب بأمِّ الفضل بنت الحارث رضي الله عنها زوجة العبَّاس عمِّ النَّبي (ص) ، فقال فيها:

أَذَاهِبٌ أَنْتَ لَمْ تَحْلُلْ بِمَنْقَبَةٍ وتَارِكٌ أَنْتَ أَمَّ الفَضْلِ بالحَرَمِ

صَفْرَاءُ رَادِعَةٌ لَوْ تُعْصَرُ انْعَصَرتْ مِنْ ذِي القَوارِيْرِ والحِنَّاء والكَتَمِ[(١٧٣)]

إحْدَى بَنِي عَامِرٍ هَامَ الفؤادُ بها وَلَوْ تَشَاءُ شَفَتْ كَعْباً مِنَ السَّقَمِ

لَمْ أَرَ شَمْسَاً بِلَيْلٍ قَبْلَهَا طَلَعَتْ حَتَّى تَبَدَّتْ لَنَا فِي لَيْلَةِ الظُّلَمِ[(١٧٤)]

١ ـ حسَّان بن ثابت لابن الأشرف بالمرصاد:

كان رسولُ الله (ص) يحثُّ حسَّاناً للتصدِّي لكعب بن الأشرف ، فكان (ص) يُعْلِم حسَّاناً أين نزل ابن الأشرف في مكَّة؟ فعندما نزل على المطَّلب بن أبي وَدَاعة بن ضبيرة السَّهمي وزوجته عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص ، فأبلغ (ص) حسَّان بن ثابت بذلك ، فهجاهم لإيوائهم ابن الأشرف ، فلمَّا بلغ عاتكة بنت أسيد هِجَاءُ حسان ، نبذت رحل اليهوديِّ كعب بن الأشرف ، وقالت لزوجها: مالنا ولهذا اليهوديِّ؟ ألا ترى ما يصنع بنا حسَّان؟![(١٧٥)].

وتحوَّل كعب إلى أناسٍ اخرين ، وكان كلَّما تحوَّل إلى قومٍ ، دعا رسولُ الله (ص) حساناً ، وأخبره أين نزل ابن الأشرف ، فيهجو مَنْ نزل عندهم ، فيطردونه ، وظلَّ يلاحقه حتَّى لفظه كلُّ بيتٍ هناك ، فعاد إلى المدينة راغماً بعد أن ضاقت في وجهه السُّبل ينتظر مصيره المحتوم ، وجزاءه الَّذي يستحقُّه[(١٧٦)].

كانت الحرب الإعلاميَّة التي شَنَّها حسَّان ضدَّ كعب بن الأشرف ، قد حققت أهدافها؛ وهذه بعض الأبيات الَّتي قالها حسَّان بن ثابت رضي الله عنه في الردِّ على كعب بن الأشرف:

أبَكَى لِكَعْبٍ ثُمَّ عُلَّ[(١٧٧)] بِعَبْرَةٍ مِنْهُ وَعَاشَ مُجَدَّعَاً لاَ يَسْمَعُ؟

وَلَقَدْ رأَيْتُ بِبَطْنِ بَدْرٍ مِنْهُمُ قَتْلَى تَسُحُّ لَهَا العُيُونُ وتَدْمَعُ

فَابْكِ فَقَدْ أَبْكَيْتَ عَبْدَاً رَاضِعاً شِبْهَ الكُلَيْبِ إِلَى الكُلَيْبةِ يَتْبَعُ

وَلَقد شَفَى الرَّحْمنَ مِنَّا سَيِّداً وأَهَانَ قَوْماً قَاتَلُوهُ وَصُرِّعُوا

وَنَجا وأَفْلَتَ مِنْهُمُ مَنْ قَلْبُه شَغِفٌ يَظَلُّ لِخَوْفِهِ يَتَصَدَّعُ[(١٧٨)]

٢ ـ جزاء ابن الأشرف:

لقد قام اليهوديُّ ابن الأشرف بجرائمَ كثيرةٍ ، وخياناتٍ عديدةٍ ، وإساءاتٍ متعدِّدةٍ لرسول الله (ص) ، وللمسلمين ، والمسلمات القانتات العابدات ، وكلُّ جريمة من هذه الجرائم تُعَدُّ نقضاً للعهد ، تستوجب عقوبة القتل ، فكيف إذا اجتمعت هذه الجرائم كلُّها في هذا اليهوديِّ الشِّرّير؟![(١٧٩)].

إنَّ ابن الأشرف بهجائه للنَّبيِّ (ص) ، وإظهاره التَّعاطُفَ مع أعداء المسلمين ، ورثاءِ قتلاهم ، وتحريضِهم على المسلمين ، يكون قد نقض العهد ، وصار محارباً مهدورَ الدَّم؛ ولذلك[(١٨٠)] أمر النَّبيُّ (ص) بقتله ، وقد فَصَّلَ البخاريُّ خبر مقتله ، فقد روى في صحيحه بإسناده إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قال رسول الله (ص) : «مَنْ لكعب بن الأشرف؛ فإنَّه قد اذى الله ورسوله؟» ، فقام محمَّد بن مسلمة ، فقال: يا رسول الله! أتحبُّ أن أقتله؟

قال: «نعم».

قال: فائذن لي أن أقول شيئاً.

قال: «قل».

فأتاه محمَّد بن مسلمة[(١٨١)] فقال: إنَّ هذا الرَّجل قد سألنا صدقةً، وإنَّه قد عَنَّانا[(١٨٢)]، وإنِّي قد أتيتك أستسلفُك ، قال: وأيضاً والله لَتَمَلُّنَّهُ! قال: إنَّا قد اتَّبعناه ، فلا نحبُّ أن ندعه حتَّى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا وَسْقاً ، أو وَسْقَين.

فقال: نعم ، أرهنوني.

قالوا: أيُّ شيءٍ تريد؟

قال: أرهنوني نساءكم.

قالوا: كيف نرهنُك نساءنا ، وأنت أجمل العرب؟

قال: فأرهنوني أبناءكم.

قالوا: كيف نرهنك أبناءنا ، فيُسَبُّ أحدُهم ، فيقال: رُهن بِوَسْقٍ ، أو وَسْقَيْنِ! هذا عارٌ علينا ، ولكن نرهنك الَّلأْمَةَ ، قال سفيان: يعني: السِّلاح.

فواعده أن يأتيه ، فجاء ليلاً ، ومعه أبو نائلة ، وهو أخو كعب من الرَّضاعة ، فدعاهم إلى الحصن ، فنزل إليهم ، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه السَّاعة؟

فقال: إنما هو محمَّد بن مسلمة ، وأخي أبو نائلة.

قالت: أسمع صوتاً كأنَّه يقطر منه الدَّم.

قال: إنَّما هو أخي محمَّد بن مسلمة ، ورضيعي أبو نائلة ، إنَّ الكريم لو دُعي إلى طعنةٍ بليلٍ ، لأجاب.

وجاء محمَّد بن مسلمة برجلين[(١٨٣)] ، وقال: إذا ما جاء فإنِّي قائلٌ (أي اخذٌ) بِشَعْرِهِ فأشمُّه ، فإذا رأيتموني استمكنتُ من رأسه ، فدونكُم ، فاضربوه ، فنزل منهم متوشحاً ، وهو يَنْفُحُ منه ريح الطِّيب.
قال: ما رأيت كاليوم ريحاً! . أي: أطيب .؛ أتأذن لي أن أشمَّ رأسك؟
قال: نعم! فشمَّه ، ثمَّ أشمَّ أصحابه ، ثمَّ قال: أتأذن لي؟
قال: نعم ، فلمَّا استمكن منه ، قال: دونكم؛ فقتلوه ، ثم أتَوا النَّبيَّ (ص) ، فأخبروه. [البخاري (٤٠٣٧) ، ومسلم (١٨٠١)].
وجاء في السِّيرة النَّبوية لابن هشام: أنَّ محمَّد بن مسلمة مكث ثلاثة أيام بعد أن استعد لقتل كعب بن الأشرف ، لا يأكل ، ولا يشرب إلاَّ ما يُعْلِقُ به نفسَه ، فذُكِرَ ذلك لرسول الله (ص) ، فدعاه ، فقال له: «لِمَ تركت الطَّعام والشَّراب؟».
فقال: يا رسول الله! قلت لك قولاً لا أدري: هل أَفِيَنَّ لك به ، أم لا؟!
فقال رسول الله (ص) : «إنَّما عليك الجَهْد».
فقال: لابدَّ لنا من أن نقول. قال: «قولوا ما بدا لكم» [ابن هشام ٥٨/٣)].
وجاء في السِّيرة النَّبويَّة عن ابن إسحاق بإسنادٍ حسنٍ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّ النبي (ص) مشى معهم إلى بقيع الغرقد ، ثمَّ وجَّههم ، فقال: «انطلقوا على اسم الله ، اللَّهم أَعِنْهم!» [ابن هشام (٥٩/٣)].
دروسٌ وعبرٌ:
* إنَّ في مقتل كعب بن الأشرف ، دروساً ، وعبراً ، وفوائد في فقه النَّبيِّ (ص) في تعامله مع خصوم الإسلام ، والدَّولة الإسلاميَّة ، فقد اتَّضح أنَّ عقوبة النَّاقض للعهد القتل ، وهذا ما حكم به النَّبيُّ (ص) ، وعقوبة المعَاهَدِ الَّذي يَشْتُمُ الرَّسولَ (ص) ، ويؤذيه بهجاءٍ ، أو غيره هي القتل ، وهذا ما كان لابن الأشرف ، ويؤخذ من هذا: أنَّ شاتم الرَّسول (ص) سواءٌ أكان معاهداً ، أو غيره ، تُضْرب عنقه عقوبةً له ، وقد أجاد شيخ الإسلام ابن تيميَّة في تفصيل هذه الأحكام ، في كتابه القيِّم: «الصارم المسلول على شاتم الرَّسول (ص)».

* يؤخذ من طريقة تنفيذ حكم الرَّسول (ص) باليهوديِّ ابن الأشرف: أنَّ الحُكْمَ قد تقتضي المصلحة العامَّة للمسلمين أن يُنَفَّذ سرّاً ، ويتأكَّد هذا؛ إن كان يترتَّب على تنفيذه بغير هذه الصُّورة السِّرِّيَّة ، فتنةٌ ، أو خطرٌ قد يكلِّف المسلمين باهظاً[(١٨٤)]. وقد بيَّنت هذه الصُّورة: أنَّ مواجهة الكفَّار أعداء الإسلام ، ومحاربي الدَّولة الإسلاميَّة ، لا يقتصر على مواجهتهم في ميدان المعارك ، وإنَّما يتعدَّى ذلك إلى كلِّ عملٍ تحصل به النِّكاية بالأعداء؛ ما لم يكن إثماً ، وقد يوفِّر القضاء على رجلٍ له دوره البارز في حرب المسلمين جهوداً كبيرة ، وخسائر فادحةً يتكبَّدها المسلمون.

وهذا مشروطٌ بالأمن من الفتنة ، وذلك بأن يكون للمسلمين شوكةٌ ، وقوَّةٌ ، ودولةٌ ، بحيث لا يترتَّب على نوعيَّة هذا العمل فتكٌ بالمسلمين ، واجتثاث الدُّعاة من بلدانهم ، وإفسادٌ في مجتمعاتهم[(١٨٥)] ، وقد أخطأ بعض المسلمين في العالم الإسلاميِّ ، وتعجَّل الصِّدام المسلَّح ، واستدلُّوا على ما ذهبوا إليه بمثل هذه الحادثة ، ولا حجَّة لهم فيها؛ لأنَّ ذلك كان بالمدينة ، وللمسلمين شوكةٌ ، ودولةٌ ، أمَّا هم فليس لهم دولةٌ ، ولا شوكةٌ ، ثمَّ إنَّ ذلك كان إعزازاً للدِّين ، وإرهاباً للكافرين ، وكانت كلُّها مصالح لا مفسدة معها ، أمَّا ما يحدث في فترات الاستضعاف من هذه الحوادث ، فإنَّها يعقبها من الشَّرِّ ، والفساد ، واستباحة دماء المسلمين ، وأعراضهم ، وأموالهم ما لا يخفى على بصيرٍ[(١٨٦)].

إنَّ النَّبيَّ (ص) لم يقم بمحاولة تصفيةٍ لأيِّ أحدٍ من المشركين في مكَّة؛ مع القدرة على قتل زعماء الشِّرك كأبي جهلٍ، وأميَّة بن خلف ، وعتبة ، ولو أشار إلى حمزةَ ، أو عمرَ بذلك ، أو غيرهم من الصَّحابة ، لقاموا بتنفيذ ذلك ، ولكنَّ الهدي النَّبويَّ الكريم ، يعلِّمنا: أنَّ فقه قتل زعماء الكفر يحتاج إلى شوكةٍ ، وقوَّةٍ ، كما أنَّ هذا الفقه يحتاج إلى فتوى صحيحةٍ من أهلها، واستيعاب فقه المصالح، والمفاسد ، وهذا يحتاج إلى علماءَ راسخين؛ حيث تتشابك المصالح في عصرنا ، وحيث للرَّأي العام دوره الكبير في قرارات الدُّول ، وحيث احتمالات توسُّع الأضرار[(١٨٧)].

* ونلحظ قيمة الكلمة عند الصَّحابة رضي الله عنهم ، في موقف محمَّد بن مسلمة رضي الله عنه ، بعد أن أعطى كلمة لرسول الله (ص) ، يتعهَّد فيها بقتل اليهودي ابن الأشرف ، ثمَّ إبطاؤه في ذلك؛ أعيته الحيلة بقيام صعوباتٍ في سبيل تحقيق ما وعد ، حيث امتنع عن الطَّعام ،

والشَّراب ، وأصابه الغمُّ ، والحزن ، لأنَّه قال قولاً يخشى ألاَّ يستطيع الوفاء به. ونلاحظ في مجتمعاتنا المعاصرة: أنَّ كثيراً من النَّاس يعطون عهوداً ، ومواثيق ، ولا يقدِّرون قيمتها ، ويخفِرون ذمَّتهم ،

ويتراجعون عن عهودهم ، ومواثيقهم ، وتبقى حِبْراً على ورقٍ ، فهؤلاء ليسوا أصحاب مبادأى ، ومواقف يُبْتَغَى بها وجه الله؛ بل هم أصحاب مصالح ، ومنافع ، يُخشى عليهم أن يعبدوها من دون الله. إنَّ أصحاب الدَّعوات ، يؤثِرون أن تندقَّ أعناقهم ، وأن تَضْوَى[(١٨٨)] أجسامُهم ، وتَزْهَق أرواحهم؛ على أن يتراجعوا عن كلماتهم وعهودهم ومواثيقهم؛ يستعذبون الموت والعذاب في سبيل عقائدهم وإسلامهم[(١٨٩)].

* في قول رسول الله (ص) : «إنَّما عليك الجَهْدُ» [سبق تخريجه][(١٩٠)] توجيهٌ نبويٌّ كريمٌ ، وهو أنَّ النصر لا يأتي إلا بعد بذل الجَهْدِ ، والصَّبر عند الابتلاء ، قال تعالى: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ *} [هود: ٤٩].

وعلى المسلم أن يُفَرّغ كلَّ ما في وُسْعِهِ؛ من جهدٍ فكريٍّ ، وطاقةٍ جسميَّةٍ في سبيل تحقيق ما وعد ، ثمَّ يتوكَّل على الله بعد ذلك في النتائج[(١٩١)].

* وفي قوله (ص) : «قولوا ما بدا لكم» [سبق تخريجه][(١٩٢)] فقهٌ نبويٌّ كريمٌ ، فقد قالوا كلاماً هو في الأحوال العاديَّة كفرٌ ، ومِنْ هنا تعرفُ: أنَّه مِنْ أجل تحقيق المهامِّ العسكريَّة ، فلا حدود للكلام الَّذي يقال؛ ولكن تأتي هنا مسألةٌ أخرى ، وهي ما إذا كان النَّجاح في المهامِّ العسكرية يقتضي أفعالاً لا تجوز ، أو يقتضي ترك فرائض؛ فما العمل؟ المعروف: أنَّه ليس هناك من الذُّنوب أعظم من الكفر ، والشرك ، فإذا جاز التَّظاهر بالكفر لذلك ، فمن باب أولى جواز غيره ، على أن يتأكَّد طريقاً للوصول إلى الهدف ، أو يغلب الظَّنُّ على ذلك ، على أن يقتصر فيه على الحدِّ الَّذي لابدَّ منه ، سواءٌ أكانت الوسيلة تأخير فريضةٍ ، أم ارتكاب محظورٍ؛ على أنَّ هذا ، وهذا مقيَّدانِ بالفتوى، فهناك محظوراتٌ لا يصحُّ فعلُها بحالٍ، كالزِّنى، واللِّواط[(١٩٣)].

هناك بعض القضايا تحتاج لأهل الفتوى المؤهَّلين لأن يفتوا فيها ، خصوصاً في الظُّروف الاستثنائيَّة ، والحالات الاضطراريَّة ، وفي المحكات السِّياسيَّة ، والعسكريَّة؛ لأنَّها تحتاج إلى الموازنات ، والفتاوى الاستثنائيَّة؛ الَّتي لا يستطيعها كلُّ إنسانٍ ، فالأحكام الأصليَّة ليست مجهولةً ، وإنَّما الأحكام الاستثنائيَّة الَّتي تقتضيها الظُّروف الاستثنائيَّة تحتاج إلى علماءَ ربانيِّين ، وفقهاءَ راسخين ، لهم القدرة على فهم مقاصد الشَّريعة ، وواقعهم الَّذي يعيشون فيه[(١٩٤)].

* وفي قوله (ص) : «قولوا ما بدا لكم» فقهٌ عظيمٌ يوضِّحه قوله (ص) : «الحرب خَدْعَةٌ» [البخاري (٣٠٢٩) ، ومسلم (١٧٤٠)][(١٩٥)].

* قوله (ص) : «انطلقوا على اسم الله ، اللهم أَعِنْهم!» [سبق تخريجه] كان لهذا التَّذكير بالإخلاص في الجهاد: «انطلقوا على اسم الله» والدُّعاء لهم بالتَّوفيق ، والعون: «اللَّهم أعنهم!» كلُّ ذلك كان حافزاً على الثَّبات ورافعاً للمعنويَّات ، فلم يعبؤوا بقوَّة ابن الأشرف ، ومَنْ حوله من النَّاس؛ لأنَّهم استشعروا معيَّة الله لهم ، ودعاء الرَّسول (ص) ربَّه بإعانتهم ، وتحقيق مسعاهم.

ونلحظ في الهدي النَّبويِّ الأخذ بجميع الأسباب المادِّيَّة ، والتَّخطيط السَّديد ، ولا يُنسى جانب الدُّعاء النَّبويِّ الكريم ، فإنهم لم يغفلوا الأسباب الموصلة بهم إلى نجاح مقصودهم؛ لأنَّ المسلم مأمورٌ بالجمع بين التوكُّل على الله تعالى ، والأخذ بالأسباب الَّتي شرعها الله سبحانه[(١٩٦)]؛ ولذلك كانت خطَّة محمَّد بن مسلمة مع إخوانه محكمةً ، وأتقنوا فقه سنَّة الأخذ بالأسباب ، فقد كانت الأسباب الَّتي ساعدت على نجاح الخطَّة ، كالتالي:

ـ إنَّ أبا نائلةَ كان أخاه من الرَّضاعة ، وهو يطمئنُّ إليه ، ولا يتوجَّس منه خيفةً.

ـ وفي بعض الرِّوايات: طمأن أبو نائلة كعبَ بن الأشرف ، وأدخل الأنس إلى قلبه بمناشدته في الشِّعر قبل أن يحدِّثه عن حاجته.

ـ ولم يحدِّثه عن حاجته حتى أخرج كعباً من حصنه ، وظلُّوا يتحدَّثون ساعةً ، حتَّى اطمأنَّ إليهم ، وكان ذلك من سبل التَّوفيق ، ولو بقي أولئك هناك لربما كشف الأمر؛ فحديثُهم معه على انفرادٍ كان في غاية التوفيق.

ـ تظاهرهم بالنَّيل ، والتَّبرُّم ، والتَّظلُّم من الرَّسول (ص) طمأن كعب بن الأشرف.

ـ فكرة رهن السِّلاح كانت في غاية التَّوفيق ، حتَّى يكون اصطحابهم للسِّلاح غيرَ مريبٍ ،

ولا يبعث على الرِّيبة؛ ذلك لأنَّهم أحضروا ما سيرهنونه إلى كعب ، وفي الوقت نفسه يستطيعون أن يستخدموا هذا السِّلاح في أي وقت التقوا به فيه.

ـ أخذ الموعد من كعب بن الأشرف كان إحكاماً في الخطَّة؛ بحيث يتسنَّى لهم في أيِّ وقتٍ من اللَّيل أن يأتوه ، ويطرقوا عليه الباب؛ دون أن يشكَّ فيهم ، وفي نيَّتهم.

ـ اطمئنانُ ابن الأشرف إلى أبي نائلة ، ومحمَّد بن مسلمة جعله يخرج في وقتٍ لا يخرج فيه الإنسان من بيته عادةً؛ تحسُّباً لقتال عدوٍّ على حين غِرَّة ، وغفلةٍ[(١٩٧)].

ـ إن خطَّة إبعاد ابن الأشرف عن بيته ، إلى مكانٍ يخلو به فيه دون رقيبٍ ، أو نصيرٍ كانت موفَّقةً.

ـ استدراج أبي نائلة لابن الأشرف ، وشمُّه طيب رأسه ، وإمساكُه بشَعْرِهِ ليشمَّه ، كان موفقاً ، وتَقْدِمَةً ليمسك بهذا الرَّأس الخبيث ، ويتمكَّن منه ، لتكون الفرصةُ سانحةً لتنفيذ حكم الله في هذا اليهوديِّ اللَّعين[(١٩٨)].

ـ وتظهر قدرة الصَّحابة الفائقة في الحفاظ على السِّرِّيَّة ، وذلك في كتمان هذه الخطَّة مع كثرة مَنْ في المدينة من اليهود ، والمنافقين ، ومع تأخُّر تنفيذها ، وكون النَّبيِّ (ص) عرض هذا الأمر في مشهدٍ من الصحابة ، وجرت فيه مشورةٌ ، وهذا دليلٌ على قوة إيمان هؤلاء الصَّحابة ، وإخلاصهم لدينهم[(١٩٩)].

وقام هؤلاء المغاوير[(٢٠٠)] بتنفيذ أدوار الخطَّة المحكمة ، الَّتي اتَّفقوا عليها ، وأدركوا مقصودهم الأسمى ، ورسول الله (ص) معهم بإحساسه الكبير ، ومشاعره الفيَّاضة ، فقد كانوا يقومون بتنفيذ العمليَّة بعقولهم ، وأجسامهم ، ورسولُ الله (ص) يتولَّى قيادتها العليا بالاتِّصال بالله تعالى ، ودعائه لهم بالنَّصر والإعانة[(٢٠١)].

٣ ـ أثر مقتل اليهودي ابن الأشرف على اليهود:

انتشر خبر مقتل ابن الأشرف في المدينة ، فأسرع أحبار اليهود إلى رسول الله (ص) يشتكون ويحتجُّون على ما فعله أصحابه ، فلم يَحْفَلِ النَّبيُّ (ص) بهم ؛ بل أكَّد مقتله ، الَّذي كان نتيجةً حتميَّةً لموقفه المعادي ، وقد أوقعت هذه الحادثة الرُّعب في نفوس اليهود جميعهم ، فلم يعد

أحدٌ من عظمائهم يجرؤ على الخروج من حصنه ، كما لم يعد أحدٌ من يهود المدينة إلا ويخاف على نفسه من المسلمين[(٢٠٢)] ، واضطرَّ اليهود لتجديد المعاهدة ، وكان لمقتل كعب بن الأشرف أثرٌ عميقٌ في نفوسهم ، فمضوا يكيدون للإسلام ـ كما سيتبيَّن من الأحداث ـ وَمِنَ الجدير بالذِّكر أنَّ الرسول (ص) لم يؤاخذ بني النَّضير بجَرِيرَةِ[(٢٠٣)] كعب بن الأشرف ، واكتفى بقتله جزاءَ غدره ، وجدَّد المعاهدة معهم[(٢٠٤)]. ومن الفقه النَّبويِّ في معاملة اليهود نستفيد أنَّ العلاج الأمثل لليهود هو زجرهم ، وإرهابهم ، وقتل أهل الفتن فيهم ، ومطاردتهم؛ لأنَّهم أهل شرورٍ ، لا يتخلَّصون منها ، ولا يتوقَّفون عنها[(٢٠٥)].

رابعاً: بعض المناسبات الاجتماعيَّة:

أ ـ زواج النَّبيِّ (ص) بحفصةَ بنت عمر:

قال عمر رضي الله عنه حين تأيَّمت[(٢٠٦)] حفصةُ بنتُ عُمرَ من خُنَيس بن حُذافة السَّهميِّ ـ وكان من أصحاب رسول الله (ص) ، فتوفي بالمدينة ـ: «أتيتُ عثمانَ بن عفَّان ، فعرضت عليه حفصةَ بنتَ عمر ، فقال: سأنظر في أمري ، فلبثتُ لياليَ ، ثمَّ لقيني فقال: قد بدا لي ألاَّ أتزوجَ يومي هذا.

قال عمر: فلقيتُ أبا بكر الصِّدِّيقَ ، فقلتُ: إن شئتَ زوجتُك حفصةَ بنت عمرَ ، فصمت أبو بكرٍ الصِّدِّيق ، فلم يرجع إليَّ شيئاً ، وكنت أوجدَ عليه منِّي على عثمان.

فلبثتُ لياليَ ، ثمَّ خطبها رسولُ الله (ص) ، فأنكحتُها إيَّاه ، فلقيني أبو بكرٍ ، فقال: لعلَّك وجدت عليَّ حين عرضتَ عليَّ حفصة ، فلم أرجع إليك شيئاً؟

قال عمرُ: قلتُ: نعم ، قال أبو بكر: فإنَّه لم يمنعْني أن أَرْجِعَ إليك فيما عرضتَ عليَّ ، إلا أنِّي كنتُ علمتُ: أنَّ رسولَ الله (ص) قد ذكرها ، فلم أكن لأفشيَ سرَّ رسولِ الله (ص) ، ولو تركها رسولُ الله (ص) ؛ قبلتُها» [البخاري (٥١٢٢) ، والبيهقي في الدلائل (٣/١٥٨)].

ب ـ زواج عليٍّ رضي الله عنه بفاطمةَ رضي الله عنها:

قال عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: خُطِبَتْ فَاطِمَةُ إلى رسول الله (ص) ، فقالت مولاةٌ لي: هل علمت: أنَّ فاطمة قد خُطِبَتْ إلى رسول الله (ص) ؟ قلت: لا! قالت: فقد خُطِبَتْ فما يمنعك أن تأتيَ رسولَ الله (ص) ، فيزوجَك ، فقلت: وعندي شيءٌ أتزوَّج به! فقالت: إنَّك إن جئت رسول الله (ص) ؛ زَوَّجَكَ.

قال: فوالله ما زالت ترجيني حتَّى دخلتُ على رسول الله (ص) ، فلمَّا أن قعدتُ بين يديه؛ أفحمت ، فوالله ما استطعت أن أتكلَّم جلالةً وهيبةً.

فقال رسول الله (ص) : «ما جاء بك؟ ألك حاجة؟» فسكتُّ ، فقال: «لعلك جئت تخطب فاطمة؟» فقلت: نعم! فقال: «وهل عندك من شيءٍ تستحلُّها به؟» فقلت: لا والله يا رسول الله! فقال: «ما فعلت دِرْعٌ سَلَّحْتُكَها؟ فوالذي نفس عليٍّ بيده! إنَّها لَحُطَمِيَّةٌ[(٢٠٧)] ما قيمتُها أربعة دراهم» ، فقلت: عندي ، فقال: «قد زوجتُكها ، فابعث إليها بها ، فاستحلَّها بها» فإنَّها كانت لَصَداقُ فاطمةَ بنتِ رسول الله (ص) [البيهقي في الدلائل (٣/١٦٠)][(٢٠٨)] وقد جهَّز رسول الله (ص) فاطمة في خَمِيلٍ[(٢٠٩)] ، وقِرْبَة ، ووسادة أَدَمٍ[(٢١٠)] ، حشوها إذخرْ[(٢١١)] رضي الله عنها[(٢١٢)].

وهكذا كانت حياتهم في غاية البساطة بعيدةً عن التعقيد ، وهي إلى شظف العيش أقرب منها إلى رغده[(٢١٣)] ، والقصَّة التالية تصور لنا حال السَّيدة فاطمة ، وتعبها ، وموقف رسول الله (ص) منها عندما طلبت إليه أن يعطيها خادماً من السَّبْي ، فقد جاء في مسند الإمام أحمد: «قال عليٌّ لفاطمةَ ذات يومٍ: والله! لقد سَنَوْتُ[(٢١٤)] حتى لقد اشتكيتُ صدري ، قال: وجاء الله أباك بسبيٍ ، فاذهبي ، فاستخدميه[(٢١٥)] ، فقالت: أنا والله قد طحَنْتُ حتَّى مجلت يدي[(٢١٦)]. فأتيت النَّبيَّ (ص) فقال: «ما جاء بك أيْ بُنَيَّة؟!» قالت: جئت لأسلِّم عليك ، واسْتَحْيَتْ أن تسأله ، ورجعت ، فقال: ما فعلتِ؟ قالت: اسْتَحْيَيْتُ أن أسأله ، فأتينا جميعاً ، فقال عليٌّ: يا رسول الله! والله! لقد سنوتُ حتَّى اشتكيتُ صدري ، وقالت فاطمة: قد طحنتُ حتَّى مجلت يداي ، وقد جاءك الله بسبيٍ ، وسعةٍ ، فأخدمنا ، فقال رسول الله (ص) : «والله! لا أُعْطيكما ، وأدعُ أهلَ الصُّفة
تطوى[(٢١٧)] بطونهم ، لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكنِّي أبيعهم ، وأنفق عليهم أثمانهم»، فرجعا ، فأتاهما النَّبيُّ (ص) ؛ وقد دخلا في قطيفتهما، إذا غطت رؤوسهما ، تكشفت أقدامُهما، وإذا غطَّيا أقدامهما؛ تكشفت رؤوسهما، فثارا، فقال: «مكانكما»، ثمَّ قال: «ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟» قالا: بلى! فقال: «كلماتٌ علَّمنيهنَّ جبريلُ عليه السلام ، فقال: «تُسَبِّحَانِ في دبر كلِّ صلاةٍ عشراً ، وتحمدان عشراً ، وتكبران عشراً ، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين ، وكبِّرا أربعاً وثلاثين» [أحمد (١/١٠٦ ـ ١٠٧)][(٢١٨)].
وهكذا كان الهدي النَّبويُّ في تربية أهل بيته ، وأقربائه ، فلقد أخفقت مساعي السَّيدة فاطمة ، وعليٍّ رضي الله عنهما للحصول على خادم؛ لأنَّ السَّبْيَ يريد ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ أن يبيعه ، وينفق ثمنه على أهل الصُّفَّة؛ الَّذين يتلوَّون من الجوع ، فهم أيضاً من خاصَّة رسول الله (ص) مثل عليٍّ، وفاطمة، والطَّعام مقدَّم على الخدمة[(٢١٩)] ، ولقد تأثر عليٌّ رضي الله عنه بهذه التَّربية النَّبويَّة ، ويمرُّ الزَّمن بالفتى عليّ، فيصبح خليفةَ المسلمين، فإذا به من اثار هذه التربية يترفَّع عن الدُّنيا وزخارفها، وبيده كنوز الأرض ، وخيراتها؛ لأن ذكر الله يملأ قلبه ، ويغمر وجوده ، ولقد حافظ على وصيَّة رسول الله (ص) له ، وقد حدَّثنا عن ذلك ، فقال: فوالله ما تركتهُنَّ منذ علَّمنيهنَّ ، فسأله أحد أصحابه: ولا ليلة صفين؟! فقال: ولا ليلة صفِّين[(٢٢٠)]!

وكان كما وصفه ضرار بن ضمرة في مجلس معاوية: «... يستوحش من الدُّنيا، وزهرتها ، ويستأنس باللَّيل ، وظلمته ، كان والله! غزيرَ العَبْرَة ، طويل الفكرة ، يقلِّب كفَّه ، ويخاطب نفسه ، يُعجبُه من اللباس ما قصر ، ومن الطَّعام ما جَشِبَ[(٢٢١)]....»[(٢٢٢)].

* * *

الفصل التَّاسع
غزوة أُحدٍ[(٢٢٣)]

المبحث الأوَّل
أحداث ما قبل المعركة

أولاً: أسباب الغزوة:

كانت أسباب غزوة أحدٍ متعددةً؛ منها: الدِّينيُّ ، والاجتماعيُّ ، والاقتصاديُّ ، والسِّياسيُّ.

١ ـ السَّبب الدِّينيُّ:

قد أخبر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنَّ المشركين ينفقون أموالهم في الصدِّ عن سبيل الله ، وإقامة العقبات أمام الدَّعوة الإسلاميَّة ، ومَنْعِ النَّاس من الدُّخول في الإسلام ، والسَّعي للقضاء على الإسلام ، والمسلمين ، ودولتهم الناشئة. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ *} [الأنفال: ٣٦].

قال الطَّبريُّ: «يصرفون أموالهم ، وينفقونها؛ ليمنعوا النَّاس عن الدُّخول في الإسلام»[(٢٢٤)].
وقال ابن كثيرٍ: «أخبر تعالى: أنَّ الكفار ينفقون أموالهم؛ ليصدُّوا عن اتِّباع طريق الحقِّ»[(٢٢٥)].
وقال الشَّوكانيُّ: «والمعنى: أنَّ غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم ، هو الصَّدُّ عن سبيل الحقِّ ، بمحاربة رسول الله (ص) ، وجمع الجيوش لذلك»[(٢٢٦)].
من هذا يظهر: أنَّ أهم أسباب غزوة أحدٍ ، هو السَّبب الدِّينيُّ؛ الَّذي كان من أهداف قريشٍ للصَّدِّ عن سبيل الله واتِّباع طريق الحقِّ ، ومنع النَّاس من الدُّخول في الإسلام ، ومحاربة
الرَّسول (ص) ، والقضاء على الدَّعوة الإسلاميَّة[(٢٢٧)].
٢ ـ السَّبب الاجتماعيُّ:
كان للهزيمة الكبيرة في بدرٍ ، وقتل السَّادة ، والأشراف من قريشٍ ، وَقْعٌ كبيرٌ من الخزي ، والعار الَّذي لحق بهم ، وجعلهم يشعرون بالمذلَّة ، والهزيمة؛ ولذلك بذلوا قُصَارَى جهدهم في غسل هذه الذِّلَّة ، والمهانة ، الَّتي لصقت بهم؛ ولذلك شرعوا في جمع المال لحرب رسول الله (ص) فور عودتهم من بدرٍ.
قال ابن إسحاق: «لما أُصيب يوم بدرٍ من كفار قريش أصحابُ القَليب ، ورجع فَلُّهُم إلى مكَّةَ ، ورجع أبو سفيان بِعِيرِهِ ، فأوقفها بدار النَّدوة ـ وكذلك كانوا يصنعون ـ ، فلم يحرِّكها ، ولا فرَّقها ، فطابت أنفس أشرافهم أن يجهِّزوا منها جيشاً لقتال رسول الله (ص) ، مشى عبدُ الله بن أبي ربيعة ، وعكرمةُ بن أبي جهل ، والحارث بن هشام ، وحويطب بن عبد العزَّى ، وصفوان بن أميَّة في رجالٍ من قريش ممَّن أصيب اباؤهم ، وأبناؤهم ، وإخوانهم يوم بدرٍ ، فكلَّموا أبا سفيان بن حربٍ ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارةٌ ، فقالوا: يا معشرَ قريش! إنَّ محمَّداً قد وتَرَكُمْ[(٢٢٨)] ، وقتل خياركم؛ فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلَّنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ، فقال أبو سفيان: أنا أول من أجاب إلى ذلك»[(٢٢٩)].
ودعا جُبَيْرُ بن مُطْعم غلاماً له حبشيّاً ، يقال له: وَحْشيٌّ ، يقذف بحربة له قَذْفَ الحبشة ، قلَّما يخطأى بها ، فقال له: اخرج مع النَّاس ، فإن أنت قتلت حمزة عمَّ محمَّد بعمِّي طُعَيْمَةَ بن عديٍّ ، فأنت عتيقٌ[(٢٣٠)].
٣ ـ السَّبب الاقتصاديُّ:
كانت حركة السَّرايا الَّتي تقوم بها الدَّولة الإسلاميَّة ، قد أثَّرت على اقتصاد قريشٍ ، وفرضت عليهم حصاراً اقتصاديّاً قويّاً ، وكان الاقتصاد المكِّيُّ قائماً على رحلتي الشِّتاء ، والصَّيف؛ رحلة الشِّتاء إلى

اليمن ، وتُحمل إليها بضائعُ الشَّام ، ومحاصيلُها ، ورحلة الصَّيف إلى الشَّام ، تحمل إليها محاصيل اليمن ، وبضائعها ، وقَطْعُ أحدِ جناحي هاتين الرِّحلتين ضرٌّ للجناح الاخر؛ لأنَّ تجارتَهم إلى الشَّام قائمةٌ على سلع اليمن ، وتجارتهم إلى اليمن قائمةٌ على سلع الشَّام[(٢٣١)].

قال تعالى: {لإِ◌ِيلاَفِ قُرَيْشٍ *إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ *فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ *الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوفٍ *} [قريش: ١ ـ ٤] .

ويشير إلى هذا قول صفوان بن أميَّة: «إنَّ محمداً ، وأصحابه قد عوزوا علينا متاجرنا ، فما ندري كيف نصنع بأصحابه ، وهم لا يبرحون السَّاحل ، قد وادعهم[(٢٣٢)] ، ودخل عامَّتُهم معه ، فما ندري أين نسلك ، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ، ونحن في ديارنا هذه ، ما لنا بها بقاء ، وإنَّما نزلناها على التِّجارة إلى الشَّام في الصيف ، وفي الشِّتاء إلى الحبشة»[(٢٣٣)].

٤ ـ السَّبب السِّياسيُّ:

أخذت سيادة قريش في الانهيار بعد غزوة بدرٍ ، وتزعزع مركزها بين القبائل بوصفها زعيمةً لها ، فلا بدَّ من ردِّ الاعتبار ، والحفاظ على زعامتها؛ مهما كلَّفها الأمر من جهودٍ ، ومالٍ وضحايا.

هذه أهمُّ الأسباب الَّتي جعلت قريشاً تبادر إلى المواجهة العسكريَّة ضدَّ الدَّولة الإسلاميَّة بالمدينة[(٢٣٤)].

ثانياً: خروج قريش من مكَّة إلى المدينة:

استكملت قريش قواها في يوم السَّبت ، لسبع خلون من شوال ، من السَّنة الثَّالثة من الهجرة[(٢٣٥)] ، وعَبَّأَتْ جيشها المكوَّن من ثلاثة الاف مقاتل ، مستصحبين معهم النِّساء ، والعبيد ، ومَنْ تبعها من القبائل العربيَّة المجاورة ، فخرجت قريشٌ بحدِّها ، وحديدها وأحابيشها[(٢٣٦)] ، ومن تبعها من كنانةَ وأهل تهامة ، وخرجوا بالظُّعُن[(٢٣٧)] ، التماسَ الحفيظة؛ لئلا يفرُّوا.

فخرج أبو سفيان ـ وهو قائد النَّاس ـ بهندٍ بنت عُتبة بن ربيعةَ[(٢٣٨)] ، وخرج صفوان بن أميَّة بن خلف بِبَرْزَةَ بنت مسعودٍ الثَّقفية ، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأمِّ حكيمٍ بنت الحارث بن هشام بن المغيرة ، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمةَ بنت الوليد بن المغيرة[(٢٣٩)] ،

فأقبلوا حتَّى نزلوا ببطن السَّبخة من قناة ، على شفير الوادي ممَّا يلي المدينة[(٢٤٠)].

كانت التَّعبئة القرشيَّة قد سبقتها حملةٌ إعلاميَّة ضخمةٌ ، تولَّى كِبْرَهَا أبو عزَّة عمرو بن عبد الله الجُمَحِيُّ، وعمرو بن العاص، وهبيرة المخزوميُّ، وابن الزِّبعرى، وقد حقَّقت نتائج كبيرةً[(٢٤١)] ، وبلغت النَّفقات الحربيَّة لجيش قريش خمسين ألف دينارٍ ذهباً[(٢٤٢)].

ثالثاً: الاستخبارات النَّبويَّة تتابع حركة العدوِّ:

كان العبَّاس بن عبد المطلب ، يرقب حركات قريش، واستعداداتها العسكريَّة ، فلمَّا تحرك هذا الجيش؛ بعث العباسُ رسالةً عاجلةً إلى النَّبيِّ (ص) ، ضمَّنها جميع تفصيلات الجيش ، وأسرع رسولُ العبَّاس بإبلاغ الرِّسالة ، وجَدَّ في السَّير؛ حتَّى إنَّه قطع الطريق بين مكَّة والمدينة . الَّتي تبلغ مسافتها خمسمئة كيلو متراً . في ثلاثة أيام ، وسَلَّمَ الرِّسالة إلى النَّبيِّ (ص) ، وهو في مسجد قُباء[(٢٤٣)].

كان النَّبيُّ (ص) يتابع أخبار قريش بدقَّةٍ بواسطة عمِّه العبَّاس. قال ابن عبد البرِّ: «وكان رضي الله عنه يكتب أخبار المشركين إلى رسول الله (ص) ، وكان المسلمون يتقوَّون به بمكَّة ، وكان يحبُّ أن يقدم على رسول الله (ص) ، فكتب إليه رسول الله (ص) : أنَّ مقامك في مكَّة خيرٌ»[(٢٤٤)].

كانت المعلومات الَّتي قدَّمها العبَّاس لرسول الله (ص) دقيقةً؛ فقد جاء في رسالته: «إنَّ قريشاً قد أجمعت المسيرَ إليك ، فما كنت صانعاً إذا حلُّوا بك فاصنعه ، وقد توجَّهوا إليك ، وهم ثلاثة الاف ، وقادوا مئتي فرس ، وفيهم سبعمئة دارع ، وثلاثة الاف بعيرٍ ، وأوعبوا[(٢٤٥)] من السِّلاح»[(٢٤٦)].

وقد احتوت هذه الرِّسالة على أمورٍ مهمَّة؛ منها:

١ . معلومات مؤكَّدة عن تحرُّك قوَّات المشركين نحو المدينة.

٢ . حجم الجيش ، وقدراته القتاليَّة ، وهذا يعين على وضع خطَّةٍ تواجه هذه القوَّات الزَّاحفة.

لم يكتفِ النَّبيُّ (ص) بمعلومات المخابرات المكيَّة؛ بل حَرَصَ على أن تكون معلوماتُه عن هذا العدوِّ متجددةً مع تلاحق الزَّمن ، وفي هذا إرشادٌ لقادة المسلمين ، بأهمِّيَّة متابعة الأخبار الَّتي يتولَّد عنها وضع خططٍ ، واستراتيجيَّات نافعةٍ؛ ولذلك أرسل (ص) الحُبَابَ بن المنذر بن الجموح إلى قريشٍ يستطلع الخبر ، فدخل بين جيش مكَّة ، وحزَرَ[(٢٤٧)] عَدَدَهُ ، وعُدَدَهُ ، ورجع ، فسأله رسول الله (ص) : «ما رأيتَ؟» قال: رأيتُ يا رسول الله! عدداً ، حزرتهم ثلاثة الاف يزيدون قليلاً ، أو ينقصون قليلاً ، والخيل مئتا فرسٍ ، ورأيت دروعاً ظاهرة حزرتها سبعمئة درعٍ ، قال: «هل رأيتَ ظُعُناً؟» قال: رأيتُ النِّساء معهنَّ الدِّفاف ، والأكبار[(٢٤٨)] ، فقال رسول الله (ص) : «أَرَدْنَ أن يحرِّضْنَ القوم ،

ويُذَكِّرْنَهُمْ قتلى بدرٍ ، هكذا جاءني خبرهم ، لا تذكر من شأنهم حرفاً ، حسبنا اللهُ ونعم الوكيلُ ، اللّهم! بك أجولُ ، وبك أصولُ»[(٢٤٩)].

كما أرسل (ص) أنساً ، ومؤنساً ابني فَضالة يَتَنَصَّتان[(٢٥٠)] أخبار قريشٍ ، فَأَلْفَياهَا[(٢٥١)] قد قاربت المدينة ، وأرسلت خَيْلَها ، وإبلَها ترعى زروع يثرب المحيطة بها ، وعادا ، فأخبراه بخبر القوم[(٢٥٢)].

وبعد أن تأكَّد من المعلومات حَرَصَ (ص) على حصر تلك المعلومات على المستوى القياديّ؛ خوفاً من أن يؤثِّر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العُدَّة؛ ولذلك حين قرأ أُبيٌّ بن كعب رسالة العبَّاس؛ أمره (ص) بكتمان الأمر ، وعاد مسرعاً إلى المدينة ، وتبادل الرَّأي مع قادة المهاجرين ، والأنصار في كيفية مواجهة الموقف ، وكان (ص) قد أطلع سيِّد الأنصار سعدَ بن الرَّبيع على خبر رسالة العبَّاس فقال: والله! إنِّي لأرجو أن يكون خيراً ، فاستكتمه إيَّاه؛ فلمَّا خرج رسول الله (ص) من عند سعدٍ؛ قالت له امرأته: ما قال لك رسول الله؟ فقال لها: لا أمَّ لكِ! أنت وذاك. فقالت: قد سمعتُ ما قال لك! فأخْبَرَتْهُ بما أسَرَّ به الرَّسول (ص) ، فاسترجع سعدٌ ، وقال: يا رسول الله! إنِّي خفت أن يفشو الخبر ، فترى أنِّي أنا المفشي له؛ وقد اسْتَكْتَمْتَني إيَّاه ، فقال رسول الله (ص) : «خلِّ عنها»[(٢٥٣)].

وفي هذه الحادثة ، درسٌ بالغٌ للعسكريِّين ، وتحذيرٌ لهم من إطلاع زوجاتهم على أسرارهم

العسكريَّة ، وخططهم ، وأوامرهم ، وينبغي الحذر من إفشاء مثل هذه الأسرار؛ لأنَّ إفشاءها يهدِّد الأمَّة ، ومستقبلها بكارثةٍ كبرى.

إنَّ تاريخ الأمم والشُّعوب في القديم ، والحديث يحدِّثنا: أنَّ كثيراً من الهزائمِ ، والماسي ، والالام ، قد حَلَّت بكثيرٍ من الأمم نتيجة لتسرُّب أسرار الجيوش إلى أعدائها عن طريق زوجةٍ خائنةٍ ، أو خائنٍ في ثوب صديقٍ ، أو قريبٍ في الظَّاهر عدوّ في الحقيقة ، والواقع[(٢٥٤)].

رابعاً: مشاورته (ص) لأصحابه رضي الله عنهم:

بعد أن جمع (ص) المعلومات الكاملة عن جيش كفَّار قريشٍ ، جمع أصحابه رضي الله عنهم ، وشاورهم في البقاء في المدينة والتَّحصُّن فيها ، أو الخروج لملاقاة المشركين ، وكان رأي النَّبيِّ (ص) البقاء في المدينة ، وقال: «إنَّا في جُنَّة حصينةٍ ، فإن رأيتم أن تقيموا ، وتَدَعُوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا؛ أقاموا بشرِّ مُقامٍ ، وإن دخلوا علينا؛ قاتلناهم فيها»[(٢٥٥)] وكان رأيُ عبد الله بن أُبيِّ بن سلول مع رأي رسول

الله (ص)][(٢٥٦)] ، إلا أنَّ رجالاً من المسلمين ممَّن فاتتهم بدرٌ قالوا: يا رسول الله! اخرج بنا إلى أعدائنا.

قال ابن كثير: «وأبى كثيرٌ من النَّاس إلا الخروج إلى العدوِّ ، ولم يتناهوا إلى قول رسول الله (ص) ، ورأيه ، ولو رضُوا بالَّذي أمرهم كان ذلك ، ولكن غلب القضاء والقدر ، وعامَّة مَنْ أشار عليه بالخروج رجالٌ لم يشهدوا بدراً ، قد علموا الَّذي سبق لأهل بدرٍ من الفضيلة»[(٢٥٧)].

وقال ابن إسحاق: فلم يزلِ النَّاسُ برسول الله (ص) الَّذين كان من أمرهم حُبُّ لقاء القوم ، حتَّى دخل رسولُ الله (ص) بيته ، فلبس لأمَتَهُ[(٢٥٨)] ، فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبيُّ الله (ص) بأمرٍ ، وعرضتم بغيره ، فاذهب يا حمزة! فقل لنبيِّ الله (ص) : «أمرنا لأمرك تَبَعٌ» ، فأتى حمزةُ ، فقال له: يا نبيَّ الله! إنَّ القوم تلاوموا ، فقالوا: أمرُنا لأمرك تبع ، فقال رسول الله (ص) : «إنَّه ليس لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها؛ حتَّى يقاتل» [أحمد (٣/٣٥١) ، وعبد الرزاق في المصنف (٥/٣٦٤ ـ ٣٦٥) ، وابن سعد (٢/٣٨) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٠٨) ، ومجمع الزوائد (٦/١٠٧)][(٢٥٩)].

كان رأيُ مَنْ يرى الخروج إلى خارج المدينة مبنيَّاً على أمورٍ؛ منها:

١ ـ أنَّ الأنصار قد تعاهدوا في بيعة العقبة الثَّانية ، على نصرة الرَّسول (ص) ، فكان أغلبُهم يرى: أنَّ المكوث داخل المدينة ، تقاعسٌ عن الوفاء بهذا العهد.

٢ ـ أنَّ الأقليَّة من المهاجرين ، كانت ترى: أنَّها أحقُّ من الأنصار بالدِّفاع عن المدينة ، ومهاجمة قريش ، وصدِّها عن زروع الأنصار.

٣ ـ أنَّ الَّذين فاتتهم غزوة بدر كانوا يتحرَّقون شوقاً من أجل ملاقاة الأعداء؛ طمعاً في الحصول على الشَّهادة في سبيل الله.

٤ ـ أنَّ الأكثرين كانوا يَرَوْنَ: أنَّ في محاصرة قريشٍ للمدينة ، ظفراً يجب ألا تَحْلُم به ، كما توقَّعوا: أنَّ وقت الحصار سيطول أمده ، فيصبح المسلمون مهدَّدين بقطع المؤن عنهم[(٢٦٠)].

أمَّا رأي مَنْ يرى البقاء في المدينة فهو مبنيٌّ على التَّخطيط الحربيِّ الاتي:

١ ـ إنَّ جيش مكَّةَ لم يكن موحَّدَ العناصر؛ وبذلك يستحيل على هذا الجيش البقاء زمناً طويلاً؛ إذ لابدَّ من ظهور الخلاف بينهم. إن عاجلاً ، أو اجلاً.

٢ ـ إنَّ مهاجمة المدن المصمَّمة على الدِّفاع عن حياضها ، وقلاعها ، وبيضتها أمرٌ بعيد المنال؛ وخصوصاً إذا تشابه السِّلاح عند كِلا الجيشين ، وقد كان يوم أحدٍ متشابهاً.

٣ ـ إنَّ المدافعين إذا كانوا بين أهليهم؛ فإنَّهم يستبسلون في الدِّفاع عن أبنائهم ، وحماية نسائهم ، وبناتهم ، وأعراضهم.

٤ ـ مشاركة النِّساء ، والأبناء في القتال ، وبذلك يتضاعف عدد المقاتلين.

٥ ـ استخدام المدافعين أسلحةً لها أثر في صفوف الأعداء؛ مثل الأحجار وغيرها ، وتكون إصابة المهاجمين في متناولهم[(٢٦١)].

من الواضح: أنَّ الرَّسول (ص) ، عوَّد أصحابه على التَّصريح بارائهم عند مشاورته لهم؛ حتَّى ولو خالفت رأيه ، فهو إنَّما يشاورهم فيما لا نصَّ فيه؛ تعويداً لهم على التَّفكير في الأمور العامَّة ، ومعالجة مشكلات الأمَّة ، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرَّأي ، ولم يحدث أن لام الرَّسولُ (ص) أحداً؛ لأنه أخطأ في اجتهاده ، ولم يوفَّق في رأيه ، وكذلك فإنَّ الأخذ بالشُّورى مُلْزِمٌ للإمام ، فلابدَّ أن يُطبِّق الرَّسول (ص) التَّوجيه القراني: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ *} [آل عمران: ١٥٩] لتعتاد الأمَّة على ممارسة الشُّورى ، وهنا يظهر الوعي السِّياسيُّ عند الصَّحابة رضي الله عنهم ، فرغم أنَّ لهم إبداءَ الرَّأي ، إلا أنَّه ليس لهم فرضه

على القائد ، فحسبهم أن يبينوا رأيهم ، ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجَّح لديه من الاراء ، فلمَّا رأوا أنَّهم ألحوا في الخروج ، وأنَّ الرسول (ص) عزم على الخروج بسبب إلحاحهم ، عادوا فاعتذروا إليه ، لكن الرَّسول الكريم (ص) علَّمهم درساً اخر هو من صفات القيادة النَّاجحة ، وهو عدم التردُّد بعد العزيمة والشُّروع في التنفيذ ، فإنَّ ذلك يزعزع الثِّقة بها ، ويغرس الفوضى بين الأتباع[(٢٦٢)].

كان النَّبيُّ (ص) قد عزم على الخروج ، وقد أعلن حالة الطَّوارأى العامَّة ، وتجهَّز الجميع للقتال ، وأَمْضَوْا ليلتهم في حذرٍ؛ كلٌّ يصحب سلاحه ، ولا يفارقه حتَّى عند نومه ، وأمر (ص) بحراسة المدينة ، واختار خمسين من أشدَّاء المسلمين ، ومحاربيهم بقيادة محمَّد بن مسلمة رضي الله عنه ، واهتمَّ الصحابة بحراسة رسول الله (ص) ، فبات سعد بن معاذ ، وأُسَيْد بن حضير ، وسعد بن عبادة ، في عدَّةٍ من الصَّحابة رضي الله عنهم ليلة الجمعة ، مُدَجَّجِينَ بالسِّلاح على باب المسجد ، يحرسون رسول الله (ص)[(٢٦٣)] .

خامساً: خروج جيش المسلمين إلى أحدٍ:

أ ـ من الأسباب المهمَّة الَّتي اتَّخذها (ص) لملاقاة أعدائه اختيارُه لوقت التحرُّك ، والطَّريق التي تناسب خطَّته ، فقد تحرَّك بعد منتصف اللَّيل ، حيث يكون الجوُّ هادئاً ، والحركة قليلةٌ ، وفي هذا الوقت بالذَّات يكون الأعداء ـ غالباً ـ في نومٍ عميق؛ لأنَّ الإعياء ، ومشقَّة السَّفر قد أخذا منهم مجهوداً كبيراً.
ومن المعروف: أنَّ مَنْ نام بعد تعبٍ يكون ثقيلَ النَّوم ، فلا يشعر بالأصوات العالية ، والحركة الثَّقيلة.
قال الواقديُّ ـ رحمه الله ـ: ونام رسول الله (ص) حتى أدلج ، فلمَّا كان في السَّحَر؛ قال: «أين الأدلاَّءُ؟[(٢٦٤)]»[(٢٦٥)].
ثمَّ إنَّه (ص) اختار الطَّريق المناسب الَّذي يسلكه حتَّى يصل إلى أرض المعركة ، وذكر صفةً ينبغي أن تتوافر في هذا الطَّريق ، وهي السِّرِّيَّة ، حتَّى لا يرى الأعداء جيش المسلمين ، فقال (ص) لأصحابه: «مَنْ رجلٌ يخرج بنا على القوم مِنْ كَثَبٍ[(٢٦٦)] من طريق لا يمرُّ بنا عليهم؟» ، فأبدى أبو خيثمة رضي الله عنه استعداده قائلاً: أنا يا رسولَ الله! فنفذ به في حَرَّةِ بني حارثة وبين أموالهم ، حتَّى سلك به في مالٍ لربعي بن قَيْظيٍّ ـ وفي رواية ابن هشام: لمربع بن قَيظيٍّ ـ ،
وكان رجلاً منافقاً ضرير البصر ، فلمَّا أحس برسول الله (ص) ومن معه من المسلمين ، قام يحثي في وجوههم التُّراب ، وهو يقول: إن كنتَ رسولَ الله فلا أُحلُّ لك أن تدخل حائطي.
وقد ذُكر: أنَّه أخذ حفنةً من ترابٍ بيده ، ثمَّ قال: والله! لو أعلم: أنِّي لا أصيب بها غيرك يا محمد! لضربتُ بها وجهك ، فابتدره القوم: ليقتلوه ، فقال (ص) : لا تقتلوه؛ فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر ، وقد بَدَرَ إليه سعدُ بن زيدٍ أخو بني عبد الأشهل[(٢٦٧)] قبل نهي رسول الله (ص) عنه ، فضربه بالقوس في رأسه ، فشجَّه. [الواقدي في المغازي (١/٢١٨) ، والطبري في تاريخه (٢/٥٠٦) ، وابن هشام (٣/٦٩)].
ولا شك في أنَّ مروره (ص) بين الأشجار ، والبساتين ، يدلُّنا على حرصه (ص) على الأخذ بالاحتياطات الأمنيَّة المناسبة في أثناء السَّير؛ لأنَّ الطُّرق العامَّة تكشف للأعداء عن مقدار قوَّات المسلمين ، وهذا أمرٌ محذورٌ ، فالرَّسول (ص) علَّم الأمَّة الأخذ بالسِّرِّيَّة من حيث المكان ، ومن حيث الزَّمان؛ لئلا يستطيع الأعداء معرفة قوَّاتهم ، فيضعوا الخطط المناسبة لمجابهتها ، وبذلك يذهب تنظيم القادة ، وإعدادهم لجيوشهم في مهبِّ الرِّياح.
وفي هذا الخبر تطبيقٌ عمليٌّ لتقديم المصلحة العامَّة على المصلحة الخاصَّة ، إذا تعارضت المصلحتان؛ فالرَّسول (ص) حينما مرَّ بالجيش في أرض المنافق مربع بن قَيْظيٍّ ، وترتَّب على ذلك إفساد المزرعة؛ مرَّ

ولم يعبأ بذلك؛ لأنَّ في ذلك مصلحة الجيش باختصار الطَّريق إلى أُحدٍ ، فبيَّن (ص) أنَّ ما يكون به مصلحةٌ للدِّين مقدَّمٌ على ما سواه من المصالح الأخرى ، فهنا تعارضت مصلحتان: مصلحةٌ عامَّةٌ ، ومصلحةٌ خاصَّة ، ومصلحة الدِّين في هذا الموقف مصلحةٌ عامَّةٌ ، وهي مقدَّمة على المصلحة الخاصَّة ، وهي مصلحة المال[(٢٦٨)].

وقد رتَّب الشَّارع الحكيم مقاصد الشَّرع في تحقيق المنافع لعباده؛ مِنْ حفظ دينهم ، ونفوسهم ، وعقولهم ، ونسلهم ، وأموالهم ، طبقَ ترتيبٍ معيَّنٍ فيما بينها[(٢٦٩)] ، فإذا نظرنا إلى كلِّيات الدِّين الخمس ، وأهمِّيتها ، وجدنا: أنَّ هذه الكلِّيات متدرِّجةٌ حسب الأهمِّيَّة: الدِّين ، والنَّفس ، والعقل ، والنَّسل ، والمال ، فما يكون به حفظ الدِّين مقدَّمٌ على ما يكون به حفظ النَّفس عند تعارضهما ، وما يكون به حفظ النَّفس مقدَّمٌ على ما يكون به حفظ العقل ، وما يكون به حفظ النَّسل مقدَّم على ما يكون به حفظ المال ، والتَّرتيب بهذا الشَّكل من هذه الكلِّيات يحظى باتفاق العلماء[(٢٧٠)].

إنَّ العلماء المتعمِّقين في دراسة السِّيرة النَّبويَّة ، والهدي النَّبويِّ الكريم قد استنبطوا قواعدَ مهمَّة في تقديم المصلحة العامَّة على المصلحة الخاصَّة؛ ومنهم: الشَّاطبيُّ ، والعزُّ بن عبد السَّلام ، فقد قال الشَّاطبيُّ: «الضَّابط في ذلك: التَّوازن بين المصلحة والمفسدة ، فما رُجِّح منها؛ غُلِّب ، وإن استويا؛ كان محلَّ إشكال. وخلافٌ بين العلماء قائم من مسألة انخرام المناسبة تلزم راجحةً أو مساويةً»[(٢٧١)].

وقال العزُّ بن عبد السَّلام: «وتقديم المصالح الرَّاجحة على المرجوحة محمودٌ حسنٌ ، ودرء المفاسد الرَّاجحة على المفاسد المرجوحة محمودٌ حسنٌ ، اتَّفق الحكماء على ذلك ، وكذلك الشَّرائع ، فإن تساوت الرُّتب؛ تخيِّر ، وإن تفاوتت الرُّتب؛ استعمل التَّرجيح عند عرفانه»[(٢٧٢)].

وقال في موضع اخر: «والضَّابط: أنه مهما ظهرت المصلحة الخالية عن المفاسد؛ يسعى في تحصيلها ، ومهما ظهرت المفاسد الخالية عن المصالح؛ يسعى في درئها»[(٢٧٣)].

ب . انسحاب المنافق ابن سلول بثلث الجيش:

عندما وصل جيش المسلمين الشَّوْط[(٢٧٤)] ، انسحب المنافق ابن سلول بثلاثمئة من المنافقين ، بحجَّة: أنَّه لن يقع قتالٌ مع المشركين ، ومعترضاً على قرار القتال خارج المدينة ، قائلاً: أطاع الولدان ، ومن لا رأي له ، أطاعهم ، وعصاني ، علام نقتلُ أنفسنا؟![(٢٧٥)] وكان هدفه الرَّئيس من هذا التَّمرُّد ، أن يحدث بلبلةً ، واضطراباً في الجيش الإسلاميِّ ، لتنهار معنوياتُه ، ويتشجَّع العدوُّ ، وتعلو همَّته ، وعمله هذا ينطوي على خيانةٍ عظمى ، وبُغْضٍ للإسلام والمسلمين ، وقد اقتضت حكمة الله أن

يمحّص الله الجيش؛ ليظهر الخبيث من الطَّيِّب؛ حتَّى لا يختلطَ المخلص بالمغْرض ، والمؤمن بالمنافق[(٢٧٦)].

قال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ} [آل عمران: ١٧٩].

فالجبن ، والنُّكوص هما اللَّذان كشفا عن طوية المنافقين ، فافتضحُوا أمام أنفسهم وأمام النَّاس قبل أن يفضَحهم القران[(٢٧٧)].

ج ـ موقف عبد الله بن عمرو بن حَرَام من انخذال المنافقين:

حاول عبد الله بن حرام رضي الله عنه إقناع المنافقين بالعودة ، فأبوا ، فقال: يا قوم! أذكِّركم الله ألا تخذلوا قومكم ، ونبيَّكم عندما حضر من عدوِّهم؛ فقالوا: لو نعلم أنَّكم تقاتلون؛ لما أسلمناكم ، ولكنَّا لا نرى أنه يكون قتالٌ ، فلمَّا استعصوا عليه ، وأبوا إلا الانصراف عنهم؛ قال: أبعدَكم اللهُ أعداءَ الله ، فسيغني الله عنكم نبيَّه[(٢٧٨)].

وفي هؤلاء المنخذلين نزل قول الله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ *وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ *} [آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧].

د ـ بنو سلمة ، وبنو حارثة:

ولما رجع ابن أُبي بن سلول ، وأصحابُه؛ همَّت بنو سلمةَ ، وبنو حارثة أن ترجعا ، ولكنَّ الله ثبَّتهما ، وعصمهما ، وفي ذلك نزل قوله سبحانه: {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *} [آل عمران: ١٢٢] قال جابر بن عبد الله: نزلت هذه الاية فينا ـ بني سلمة ، وبني حارثة ، وما أحبُّ أنَّها لم تنزل ، والله يقول: {وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا} [آل عمران: ١٢٢]. [البخاري (٤٠٥١)].

لقد أثَّر موقف المنافقين في نفوس طائفتين من المسلمين ، ففكروا في العودة إلى المدينة ، ولكنَّهم غالبوا الضَّعف الذي ألمَّ بهم ، وانتصروا على أنفسهم بعد أن تولاَّهم الله تعالى ، فدفع عنهم الوهن ، فثبتوا مع المؤمنين.

وقد ظهر رأيان في أوساط الصَّحابة تجاه موقف ابن سلول:

الأوَّل: يرى قتل المنافقين الَّذين خذلوا المسلمين بعودتهم ، وانشقاقهم عن الجيش.
الثَّاني: لا يرى قتلهم.
وقد بين القران الكريم موقف الفريقين[(٢٧٩)] في هذه الاية: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً *} [النساء: ٨٨].

هـ الاستعانة بغير المسلمين:

عندما وصل رسول الله (ص) إلى مكان يُدعى الشَّيخين ، رأى كتيبةً لها صوتٌ وجَلَبَةٌ ، فقال: ما هذه؟ فقالوا: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أُبي بن سلول من يهود ، فقال (ص) : «لا نستنصر بأهل الشِّرك على أهل الشِّرك»[(٢٨٠)] وهذا أصلٌ وضعه النَّبيُّ (ص) في عدم الرُّكون إلى أعداء الإسلام في الاستنصار بهم[(٢٨١)].

و . رَدُّ النَّبيِّ (ص) بعض الصَّحابة لصغر سنِّهم:

ردَّ النبيُّ (ص) في معسكره بالشَّيخين جماعةً من الفتيان لصغر أعمارهم؛ إذ كانوا في سن الرَّابعة عشرة ، أو دون ذلك؛ منهم: عبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن أرقم ، والبراء بن عازب ، وأبو سعيد الخدري؛ بلغ عددهم أربعة عشر صبيّاً ، وقد ثبت أنَّ ابن عمر كان منهم[(٢٨٢)] ، وأجاز منهم رافع بن خديج لما قيل له: إنَّه رامٍ ، فبلغ ذلك سَمُرَةَ بن جُنْدب ، فذهب إلى زوج أمِّه مرّي بن سنان بن ثعلبة . عمّ أبي سعيد الخدريّ ، وهو الذي ربَّى سَمُرَة في حِجْرِه . يبكي ويقول له: يا أبتِ! أجاز رسولُ الله (ص) رافعاً ، وردَّني ، وأنا أصرع رافعاً ، فذهب زوج أمِّه إلى النَّبيِّ (ص) ، وأخبره بذلك، فالتفت النَّبيُّ (ص) إلى رافع، وسَمُرَةَ، فقال لهما: تصارعا ، فصرع سمرة رافعاً ، فأجازه كما أجاز رافعاً ، وجعلهما من جنده ، وعسكر كتائبه ، ولكلٍّ منهما مجالُه ، واختصاصُه[(٢٨٣)].

ونلحظ: أنَّ رسول الله (ص) أجاز رافعاً ، وسَمرة لامتيازٍ عسكريٍّ امتازوا به على أقرانهما ، وردَّ صغار السِّنِّ خشية ألاَّ يكون لهم صبرٌ على ضرب السُّيوف ، ورمي السِّهام ، وطعن الرِّماح ، فيفرُّوا من المعركة إذا حمي الوطيس[(٢٨٤)] ، فيُحْدِث فرارُهم خلخلةً في صفوف المسلمين[(٢٨٥)].

ونلحظ: أنَّ المجتمع الإسلاميَّ يضجُّ بالحركة ، ويسعى للشَّهادة ، شيوخاً ، وشباباً؛ حتَّى الصبيانُ يُقبلون على الموت ببسالةٍ ، ورغبةٍ في الشَّهادة ، تبعث على الدَّهشة ، دون أن يجبرهم قانون التَّجنيد ، أو تدفع بهم قيادةٌ إلى ميدان القتال ، وهذا يدلُّ على أثر المنهج النَّبويِّ الكريم ،

في تربية شرائح الأمَّة المتعدِّدة ، على حبِّ الاخرة ، والترفُّع عن أمور الدُّنيا.

سادساً: خطَّة الرَّسول (ص) لمواجهة كفار مكَّة:

أ . وَضَعَ الرَّسول (ص) خطَّةً محكمةً لمواجهة المشركين من قريشٍ؛ حيث اختار الموقع المناسب ، وانتخب مَنْ يصلح للقتال ، وردَّ من لم يكن صالحاً ، واختار خمسين منهم للرِّماية ، وشدَّد الوصيَّة عليهم ، وقام بتقسيم الجيش إلى ثلاث كتائب ، وأعطى اللِّواء لأحد أفراد الكتيبة ، وهذه الكتائب هي:

١ .كتيبة المهاجرين: وأعطى لواءها مصعب بن عميرٍ رضي الله عنه.

٢ .كتيبة الأوس من الأنصار: وأعطى لواءها أُسيد بن حضيرٍ رضي الله عنه.

٣ .كتيبة الخزرج من الأنصار: وأعطى لواءها الحُباب بن المنذر رضي الله عنه[(٢٨٦)].

ب . وكان من هديه (ص) أن يُحرِّض أصحابه على قتال الأعداء ، ويحثَّهم على التَّحلِّي بالصَّبر في ميادين القتال ، لكي تتقوى رُوحهم المعنويَّة ، ويصمدوا عند ملاقاة أعدائهم ، ومن ذلك ما فعله يوم أُحدٍ ، وفي ذلك يقول الواقديُّ: «ثمَّ قام رسولُ الله (ص) ، فخطب النَّاس:

«يا أيها الناس! أُوصيكم بما أوصاني الله في كتابه؛ من العمل بطاعته ، والتَّناهي عن محارمه ، ثمَّ إنَّكم اليوم بمنزل أجرٍ ، وذُخْرٍ؛ لمن ذكر الَّذي عليه ، ثمَّ وطَّن نفسه له على الصَّبر ، واليقين ، والجدِّ ، والنَّشاط ، فإنَّ جهاد العدو شديدٌ كربُه ، قليلٌ من يصبر عليه إلا من عزم الله رشدَه ، فإنَّ الله مع مَنْ أطاعه ، وإنَّ الشَّيطان مع مَنْ عصاه ، فافتتحُوا أعمالكم بالصَّبر على الجهاد ، والتمِسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالَّذي امركم؛ فإنِّي حريصٌ على رشدكم ، فإنَّ الاختلاف ، والتَّنازع ، والتَّثبيط ، من أمر العجز ، والضَّعف ، ممَّا لا يحبُّ الله ، ولا يعطي عليه النَّصر ، ولا الظَّفر»[(٢٨٧)].

ويتَّضح من هذه الخُطبة عدَّةُ أهدافٍ؛ منها:

١ . الحثُّ على الجدِّ ، والنَّشاط في ميدان الجهاد.

٢ . الحثُّ على الصَّبر عند قتال الأعداء.

٣ . بيان مساوأى الاختلاف ، والتَّنازع[(٢٨٨)].

إنَّ هذا الهدي المبارك الَّذي سَنَّهُ (ص) يعلِّمنا حقائق ثابتةً ، وهي: أنَّ الجيوش مهما عظم تسليحها ، وتنظيمها ، فإنَّ ذلك لا يغني شيئاً إلا إذا حملته نفوسٌ قويَّةٌ ، تحرص على الموت أشدَّ مِنْ حرصها على الحياة ، وهذا يكون بتعبئة الجنود بالموعظة والتَّوجيه ، وغرس حبِّ الجهاد ، والشَّهادة في نفوسهم.

ج . أدرك الرَّسول (ص) أهمِّية جبل أحد لحماية جيش المسلمين ، فعندما وصل جيش المسلمين إلى جبل أحد؛ جعل الرَّسولُ (ص) ظهورَهم إلى الجبل ، ووجوههم إلى المدينة ، وانتقى خمسين من الرُّماة تحت إمرة عبد الله بن جُبَيْرٍ[(٢٨٩)] ، ووضعهم فوق جبل عَينين المقابل لجبل أحد ، وذلك حتَّى يمنع التفاف جيش المشركين حول جيش المسلمين ، وأصدر أوامره إليهم قائلاً: «إن رأيْتُمونا تَخطَفُنا الطَّيرُ؛ فلا تَبرحُوا مكانَكم هذا حتَّى أُرسلَ إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القومَ ، وأوطَأْنَاهُم فلا تَبْرحُوا حتَّى أُرْسلَ إليكم» [البخاري (٣٠٣٩) ، وأحمد (٢٩٣/٤) ، وأبو داود (٢٦٦٢)].

وقال رسول الله (ص) للجيش: «لا تبرحوا حتَّى أوذنكم» ، وقال: «لا يقاتلنَّ أحدٌ حتَّى امره بالقتال».

وقال لأمير الرُّماة: «انضحِ الخيلَ عنا بالنَّبْل؛ لا يأتونا مِنْ خَلفنا ، واثبت مكانك إن كانت لنا ، أو علينا» [الطبري في تاريخه (٥٠٧/٢) ، والواقدي في المغازي (٢٢٥/١) ، والبيهقي في الدلائل (٢٢٧/٣) ، وابن هشام (٧٠/٣)]. وقال للرُّماة: «الزموا مكانكم ، لا تبرحوا منه ، فإذا رأيتمونا نَهْزِمُهُمْ حتَّى ندخل عسكرهم؛ فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نُقتل؛ فلا تغيثونا ، ولا تدفعوا عنَّا ، وارشقوهم بالنَّبْل؛ فإنَّ الخيل لا تقدم على النَّبل ، إنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم ، اللّهمَّ إنِّي أُشهدك عليهم»[(٢٩٠)].

سيطر المسلمون على المرتفعات ، وتركوا الوادي لجيش مكَّة ليواجه أُحداً ، وظهره إلى المدينة ، وأصبحت مهمَّة الرُّماة في النقاط التالية: احتلال الموقع ، حماية المسلمين من الخلف ، صدُّ الخيل عن المسلمين[(٢٩١)].

د . تسوية الصُّفوف ، وتنظيم الجيش؛ تقدَّم رسولُ الله (ص) أصحابه ، وصفَّهم على هيئة صفوف الصَّلاة ، وجعل رسولُ الله (ص) يمشي على رجليه ، يُسوِّي تلك الصُّفوف ، ويبوِّأى

أصحابه للقتال ، يقول: تقدَّم يا فلان! وتأخر يا فلان! فهو يقوِّمهم... حتَّى استوت الصُّفوف[(٢٩٢)] ، فوضع (ص) في مقدِّمة الصُّفوف الأشداء؛ لكي يفتحوا الطَّريق لمن خلفهم ، وقد أخذ الرَّسول (ص) بهذا الأسلوب؛ لأنَّه أبلغ في قتال الأعداء[(٢٩٣)].

هـ عدم القتال إلا بأمرٍ من القائد: قال الطَّبريُّ: «فجعل ظهره ، وعسكره إلى أحدٍ ، وقال: لا يقاتلنَّ أحدٌ حتَّى نأمره بالقتال»[(٢٩٤)].

وفي هذا التَّوجيه فائدةٌ مهمَّةٌ ، وهي توحيد القيادة والمسؤوليَّة؛ لأنَّه (ص) أدرى بالمصلحة.

* * *

المبحث الثَّاني

في قلب المعركة[(٢٩٥)]

أولاً: بدء القتال واشتداده ، وبوادر الانتصار للمسلمين:

في بداية القتال ، حاول أبو سفيان أن يُوجِدَ شرخاً ، وتصدُّعاً في جبهة المسلمين المتماسكة ، فأرسل إلى الأنصار يقول: «خَلُّوا بيننا وبين ابن عمِّنا ، فننصرف عنكم ، فلا حاجة بنا إلى قتالكم» فردُّوا عليه بما يكره[(٢٩٦)].

ولما فشلت المحاولة الأولى؛ لجأت قريش إلى محاولةٍ أخرى ، عن طريق عميلٍ خائن من أهل المدينة ، وهو أبو عامر الرَّاهب ، حيث حاول أبو عامر الرَّاهب أن يستزل بعض الأنصار ، فقال: يا معشرَ الأوس! أنا أبو عامر! قالوا: فلا أنعم اللهُ بك عيناً يا فاسق! فلمَّا سمع ردَّهم عليه؛ قال: لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ ، ثمَّ قاتلهم قتالاً شديداً ، ورماهم بالحجارة[(٢٩٧)].

وبدأ القتال بمبارزةٍ بين عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، وطلحةَ بن عثمان حامل لواء المشركين يوم أُحدٍ ، يقول صاحب السِّيرة الحلبية: خرج طلحةُ بن عثمان ، وكان بيده لواء المشركين ، وطلب المبارزة مراراً ، فلم يخرج إليه أحدٌ ، فقال: يا أصحابَ محمد! إنَّكم تزعمون أنَّ الله ـ تعالى ـ يُعجلنا بسيوفكم إلى النَّار ، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنَّة ، فهل أحدٌ منكم يعجلني بسيفه إلى النَّار ، أو أعجله بسيفي إلى الجنَّة؟ فخرج إليه عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، فقال له عليٌّ رضي الله عنه: والَّذي نفسي بيده! لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفي إلى النَّار ، أو يعجلني بسيفك إلى الجنَّة ، فضربه عليٌّ فقطع رِجْلَهُ ، فوقع على الأرض ، فانكشفت عورتُه ، فقال: يا بن عمِّي! أنشدك الله ، والرَّحم! فرجع عنه ،

ولم يجهز عليه ، فكبَّر رسولُ الله (ص) . وقال بعض الصَّحابة لعليٍّ: أفلا أجهزت عليه؟! قال: إنَّ ابن عمِّي ناشدني الرَّحم حين انكشفت عورتُه ، فاستحييتُ منه[(٢٩٨)].

والتحم الجيشان ، واشتدَّ القتال ، وشرع رسولُ الله (ص) يشحذ همم أصحابه ، ويعمل على رفع معنوياتهم ، وأخذ سيفاً ، وقال: «مَنْ يأخذُ منِّي هذا؟» فبسطوا أيديهم ، كلُّ إنسان منهم يقول: أنا ، أنا. قال: «فمن يأخذه بحقِّه؟» قال: فأحْجَمَ القومُ ، فقال سِمَاكُ بنُ خَرَشَةَ أبو دُجَانة: وما حقُّه يا رسولَ الله؟! قال: «أن تضرب به العدوَّ حتَّى ينحني» ، قال: أنا اخذه بحقِّه. فدفعه إليه وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ـ أي يمشي مشية المتكبِّر ـ ، وحين راه رسول الله (ص) يتبختر بين الصَّفَّينِ قال: «إنَّها لمشيَةٌ يُبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن» ، وأخذه ، وفلق به هامَ المشركين [أحمد (١٢٣/٣) ، ومسلم (٢٤٧٠) ، والحاكم (٥٥٦/٣) ، والبيهقي في الدلائل (٢٣٢/٣)].
وهذا الزُّبير بن العوَّام يصف لنا ما فعله أبو دجانة يوم أُحدٍ ، قال: وجدت في نفسي حين سألتُ رسول الله (ص) السَّيْفَ ، فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة ، وقلت: أنا ابن صفيَّة عمَّتِه ، ومِنْ قريشٍ ، وقد قمتُ إليه ، وسألته إيَّاه قَبْلَه ، فأعطاه أبا دُجانة ، وتركني ، والله! لأنظرنَّ ما يصنع ، فاتبعته ، فأخرج عصابةً له حمراء ، فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار: أخرج أبو دُجانة عِصَابة الموت ـ وهكذا كانت تقول له إذا تعصَّب بها ـ ، فخرج؛ وهو يقول:

أنَا الَّذي عاهَدَني خَلِيْلي وَنَحْنُ بالسَّفْحِ لَدَى النَّخِيْلِ

ألا أقومَ الدَّهرَ في الكَيُّولِ[(٢٩٩)] أضْرِبْ بِسَيْفِ اللهِ والرَّسُولِ[(٣٠٠)]

فجعل لا يَلْقى أحداً إلا قتله ، وكان في المشركين رجلٌ لا يَدعُ لنا جريحاً إلا ذفَّف[(٣٠١)] عليه ، فجعل كلُّ واحدٍ منهما يدنو من صاحبه ، فدعوتُ الله أن يجمع بينهما ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشركُ أبا دجانة ، فاتَّقاه بدَرَقَتِه ، فعضَّت بسيفه ، وضربه أبو دُجانة فقتله ، ثمَّ رأيتُه قد حمل السَّيف على مَفْرِق رأس هند بنت عُتبة ، ثمَّ عدل السَّيف عنها ، فقلت: الله ورسولُه أعلم. قال ابن إسحاق: قال أبو دُجانة: رأيت إنساناً يَخْمش[(٣٠٢)] النَّاس خَمْشاً شديداً ، فصمدتُ له[(٣٠٣)] ، فلمَّا حملتُ عليه السَّيفَ؛ وَلْوَلَ ، فإذا امرأةٌ ، فأكرمتُ سيفَ رسول الله أن أضرب به امرأةً [ابن هشام (٧٣/٣) ، والبيهقي في الدلائل (٢٣٣/٣)][(٣٠٤)].

ثانياً: مخالفة الرُّماة لأمر الرَّسول (ص):

استبسل المسلمون في مقاتلة المشركين ، وكان شعارُهم: أَمِتْ.... أَمِتْ ، واستماتوا في قتالٍ بطوليٍّ ملحميٍّ ، سجَّل فيه أبطال الإسلام صوراً رائعةً من البطولة ، والشَّجاعة[(٣٠٥)] ، وسجَّل التَّاريخ روائعَ بطولاتِ حمزةَ بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وأبي دُجانةَ ، وأبي طلحة الأنصاريِّ ، وسعد بن أبي وقَّاص ، وأمثالهم كثيرٌ[(٣٠٦)] ، وحقَّق المسلمون الانتصار في الجولة الأولى من المعركة[(٣٠٧)].

وفي ذلك يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه العزيز: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ *} [آل عمران: ١٥٢].

ولما رأى الرُّماةُ الهزيمةَ الَّتي حلَّت بقريشٍ ، وأحلافها ، ورأوا الغنائم في أرض المعركة؛ جذبهم ذلك إلى ترك مواقعهم؛ ظنَّاً منهم: أنَّ المعركة انتهت ، فقالوا لأميرهم عبد الله بن جُبيرٍ: «الغنيمة أي قَوْم! الغنيمة! ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جُبَيْرٍ: أنَسِيتُم ما قال لكم رسولُ الله (ص) ؟ قالوا: واللهِ لنأتينَّ النَّاسَ فلنُصيبَنَّ من الغنيمة» [البخاري (٣٠٣٩)].

ثمَّ انطلقوا يجمعون الغنائم ، ولم يعبؤوا بقول أميرهم ، ووصف ابن عباس رضي الله عنهما حالة الرُّماة في ذلك الموقف ، فقال: «فلمَّا غنم النَّبيُّ (ص) ، وأباحوا عسكر المشركين ، أكبَّ الرُّماة جميعاً ، فدخلوا في المعسكر ينهبون ، وقد التقت صفوف أصحاب رسول الله (ص) ، فهم هكذا ـ وشبك بين أصابع يديه ـ ، والتبسوا ، فلمَّا أخلَّ الرُّماة تلك الخَلَّة الَّتي كانوا فيها ، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النَّبيِّ (ص) ، فضرب بعضهم بعضاً ، والتبسوا ، وقُتل من المسلمين ناسٌ كثير» [أحمد (١/٢٨٧ ـ ٢٨٨)].

ورأى خالد بن الوليد ـ وكان على خيَّالة المشركين ـ ، الفرصة سانحةً ليقوم بالالتفاف حول المسلمين ، ولما رأى المشركون ذلك ، عادوا إلى القتال من جديدٍ، وأحاطوا بالمسلمين من جهتين ، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى ، وأخذوا يقاتلون بدون تخطيطٍ ، فأصبحوا يقاتلون متفرِّقين ، فلا نظام يجمعهم ، ولا وحْدَة تشملهم ، بل لم يعودوا يميِّزون بعضهم ، فقد قَتَلُوا اليَمانَ ـ والد حُذيفة بن اليَمان ـ خطأً [البخاري (٤٠٦٥) ، وابن هشام (٣/١٢٩)] . وأخذ المسلمون

يتساقطون شهداء في الميدان ، وفقدوا اتِّصالهم بالرَّسول (ص) ، وشاع: أنَّه قُتِل[(٣٠٨)] ، واختلط الحابِلُ بالنَّابل[(٣٠٩)] واشتدَّت حرارة القتال ، وصار المشركون يقتلون كلَّ من يلقونه من المسلمين ، واستطاعوا الخلوص قريباً من النَّبيِّ (ص) ، فرموه بحجر كسر أنفه الشَّريف ، ورباعيَتَهُ[(٣١٠)] ، وشجَّه[(٣١١)] في وجهه الكريم ، فأثقله وتفجَّر الدَّم[(٣١٢)] منه (ص) .

عن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله (ص) كُسِرَتْ رَبَاعيَّتُه يوم أُحدٍ ، وشُجَّ في رأسه ، فجعل يَسْلُتُ الدَّمَ عنه ، ويقول: كيف يُفْلح قومٌ شجُّوا نبيَّهم ، وكسروا رَبَاعيَّته ، وهو يدعوهم إلى الله؟ [البخاري تعليقاً (١١٢/٨) ، ومسلم (١٧٩١)] فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ *} [آل عمران: ١٢٨].

وحمل ابن قَمِئَةَ على مُصعب بن عمير رضي الله عنه حيث كان شديدَ الشَّبه برسول الله (ص) ، فقتله ، فقال لقريش: قد قتلت محمَّداً[(٣١٣)].

وشاع: أنَّ محمَّداً قد قُتِل ، فتفرَّق المسلمون ، ودخل بعضهم المدينة ، وانطلقت طائفةٌ منهم فوق الجبل ، واختلطت على الصَّحابة أحوالهم ، فما يدرون كيف يفعلون من هول الفاجعة[(٣١٤)] ، ففرَّ جَمْعٌ من المسلمين من ميدان المعركة ، وجلس بعضهم إلى جانب ميدان المعركة بدون قتالٍ ، واثر اخرون الشَّهادة بعد أن ظنُّوا: أنَّ رسول الله (ص) قد مات؛ ومن هؤلاء أنسُ بن النَّضر ، الَّذي كان يأسف لعدم شهوده بدراً ، والَّذي قال في ذلك: «والله! لئن أراني اللهُ مشهداً مع رسول الله (ص) ليرينَّ اللهُ كيف أصنع» وقد صدق في وعده ، فقد مرَّ يوم أُحدٍ على قومٍ ممَّن أذهلتهم الشَّائعةُ ، وألقوا بسلاحهم ، فقال: ما يجلسكم ؟ قالوا: قُتل رسولُ الله (ص) ! فقال: يا قوم ! إن كان محمَّدٌ قد قُتل ، فإن ربَّ محمَّد لم يُقتل ، وموتوا على ما مات عليه. وقال: اللَّهمَّ إنِّي أعتذر إليك ممَّا قال هؤلاء ـ يعني: المسلمين ـ ، وأبرأ إليك ممَّا جاء به هؤلاء ـ يعني: المشركين ـ ، ثم لقي سعد بن معاذ ، فقال: يا سعد! إنِّي لأجد ريح الجنَّة دون أحدٍ ، ثمَّ ألقى بنفسه في أَتُونِ المعركة ، وما زال يقاتل؛ حتَّى اسْتُشْهِد ، فوُجد فيه بضعٌ

وثمانون ما بين ضربةٍ بسيفٍ ، أو طعنةٍ برمح ، أو رميةٍ بسهم ، فلم تعرفه إلا أختُه ببنانه [البخاري (٤٠٤٨) ، وابن هشام (٨٨/٣)][(٣١٥)].

وفي هذا ، وأمثاله نزل قولُ الله تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً *} [الأحزاب: ٢٣].

أمَّا أولئك النَّفر الَّذين فرُّوا لا يلوون على شيءٍ رغم دعوة النَّبيّ (ص) لهم بالصُّمود، والثَّبات ، فقد نزل فيهم قوله تعالى: {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *} [آل عمران: ١٥٣].

ولقد حكى القران الكريم خبرَ فرار هذه المجموعة من الصَّحابة ، الَّذين ترخَّصوا في الفرار بعد سماعهم نبأ مقتل النَّبيِّ (ص) ، الَّذي شاع في ساحة المعركة ، وكان أوَّل مَنْ علم بنجاة الرَّسول (ص) ، وأنَّه حيٌّ هو الصَّحابيُّ كعب بن مالك ، الَّذي رفع صوتَه بالبُشرى ، فأمره النَّبيُّ (ص) بالسُّكوت حتَّى لا يفطنَ المشركون إلى ذلك [الطبراني في الأوسط (١١٠٨) ، وفي الكبير (١٩/١٠٠) ، ومجمع الزوائد (٦/١١٢)][(٣١٦)].

وقد نصَّ القران الكريم على أنَّ الله تعالى قد عفا عن تلك الفئة الَّتي فرَّت.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ *} [آل عمران: ١٥٥].

ثالثاً: خطَّة الرَّسول (ص) في إعادة شتات الجيش:

عندما ابتدأ الهجوم المعاكس من المشركين خلف المسلمين ، والهدف الرَّئيس فيه شخص النَّبيِّ (ص) ، لم يتزحزح (ص) من موقفه؛ والصَّحابة يسقطون واحداً تلو الواحد بين يديه ، وحُوصرَ رسولُ الله (ص) في قلب المشركين ، وليس معه إلا تسعةٌ من أصحابه؛ سبعةٌ منهم من الأنصار. [مسلم (١٧٨٩)].

وكان الهدف أن يفكَّ هذا الحصار ، وأن يصعد في الجبل ليمضي إلى جيشه ، واستبسل الأنصار في الدِّفاع عن رسول الله (ص) ، واستشهدوا واحداً بعد الاخر[(٣١٧)] ، ثمَّ قاتل عنه طلحةُ بن عبيد الله حتَّى أُثْخِنَ ، وأصيب بسهم شَلَّت يمينَه ، وأراد النَّبيُّ (ص) أن يصعد صخرةً فلم يستطع ،

فقعد طلحةُ تحته حتَّى استوى على الصَّخرة، قال الزُّبير: فسمعت النَّبيَّ (ص) يقول: «أوجب طلحة» [أحمد (١/١٦٥) ، والترمذي (١٦٩٢)][(٣١٨)].

وقاتل سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه بين يدي رسول الله (ص) ، وكان يناوله النِّبال ويقول له: «ارمِ يا سعد! فداك أبي ، وأمِّي!» [أحمد (١/١٣٧) ، والبخاري (٤٠٥٥) ، ومسلم (٢٤١٢)].

كما قاتل بين يديه أبو طلحة الأنصاري؛ الَّذي كان من أمهر الرُّماة ، وهو الَّذي قال عنه النَّبيُّ (ص) : «لصوت أبي طلحة في الجيش ، أشدُّ على المشركين من فئةٍ» [أحمد (٣/٢٠٣) ، وعبد بن حميد (١٣٨٤)]. وقد كان متترِّساً على رسول الله بحَجَفةٍ له ، وكان رامياً شديدَ النَّزع ، كَسَرَ يومئذٍ قوسين ،

أو ثلاثاً ، وكان الرَّجل يمرُّ معه الجَعْبَةُ[(٣١٩)] من النَّبْل ، فيقول رسولُ الله (ص) : «انثرها لأبي طلحة» ، ثمَّ يشرف إلى القوم ، فيقول أبو طلحة: «يا نبيَّ الله! بأبي أنت وأمي! لا تُشْرِف[(٣٢٠)] يصيبك سهمٌ من سِهام القوم ، نَحْرِي دون نحرك[(٣٢١)]!» [البخاري (٤٠٦٤)].

ووقفت نُسَيْبة بنت كعب تذبُّ عن رسول الله (ص) بالسَّيف ، وترمي بالقوس ، وأُصيبت بجراحٍ كبيرةٍ ، وترَّس أبو دجانة دون رسول الله (ص) بنفسه؛ يقع النَّبل في ظهره وهو مُنْحَنٍ عليه حتَّى كثر فيه النَّبْلُ[(٣٢٢)].

والتفَّ حول الرَّسول (ص) في تلك اللَّحظات العصيبة أبو بكرٍ ، وأبو عبيدة ، وقام أبو عبيدة بنزع السَّهمين من وجه النَّبيِّ (ص) بأسنانه ، ثمَّ توارد مجموعةٌ من الأبطال المسلمين؛ حيث بلغوا قرابة الثَّلاثين ، يذودون عن رسول الله (ص) ؛ منهم: قتادة ، وثابت بن الدَّحداح ، وسهل بن حنيف ، وعمر بن الخطَّاب ، وعبد الرَّحمن بن عوف ، والزُّبير بن العوَّام.

واستطاع عمر بن الخطَّاب أن يردَّ هجوماً مضادّاً ، قاده خالد ضدَّ المسلمين من عالية الجبل ، واستبسل الصَّحابة الَّذين كانوا مع عمر في ردِّ الهجوم العنيف ، وعاد المسلمون ، فسيطروا على الموقف من جديد[(٣٢٣)] ، ويئس المشركون من إنهاء المعركة بنصرٍ حاسمٍ ، وتعبوا

من طولها ، ومن جَلادة المسلمين ، وانسحب النَّبيُّ (ص) بمن معه ومن لحق به من أصحابه إلى أحَد شعاب جبل أُحدٍ ، وكان المسلمون في حالةٍ من الألم ، والخوف ، والغمِّ لما أصاب رسولَ الله (ص) ، وما أصابهم رغم نجاحهم في ردِّ المشركين[(٣٢٤)] ، فأنزل الله عليهم النُّعاس ، فناموا يسيراً ، ثمَّ أفاقوا امنين مطمئنين.

قال تعالى: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ *} [آل عمران: ١٥٤].

وقد أجمع المفسرون على أنَّ الطَّائفة الَّتي قد أهمَّتهم أنفسُهم هم المنافقون[(٣٢٥)].

أمَّا قريشٌ فإنَّها يئست من تحقيق نصرٍ حاسمٍ، وأُجْهد رجالُها من طول المعركة ، ومن صمود المسلمين وجَلَدهم ، وخاصَّةً بعد أن اطمأنُّوا ، وأنزل الله عليهم الأمنة ، والصُّمود ، فالتفُّوا حول النَّبيِّ (ص) ؛ ولذلك كَفُّوا عن مطاردة المسلمين ، وعن محاولة اختراق قوَّاتهم[(٣٢٦)].

رابعاً: من شهداء أُحد:

أ ـ حمزة بن عبد المطَّلب رضي الله عنه سيِّد الشُّهداء عند الله تعالى يوم القيامة:

قاتل أسدُ الله حمزةُ قتالاً ضارياً ، وأثخن في المشركين قتلاً ، وأطاح برؤوس نفرٍ من حملة لواء المشركين من بني عبد الدَّار ، وبينما هو على هذه الحال من الشَّجاعة ، والإقدام ، كَمَنَ له وحشيٌّ؛ حتَّى تمكَّن منه ، ثمَّ رماه بحربته ، فأصاب منه مقتلاً ، ولندع وحشيّاً يخبرُنا عن هذا المشهد المؤلم. قال وحشيٌّ: إنَّ حمزة قتل طُعَيْمةَ بن عديٍّ بن الخيار ببدرٍ ، فقال لي مولاي جُبَيْر بن مُطْعِم: إنْ قتلتَ حمزةَ بعمِّي؛ فأنت حرٌّ ، فلمَّا أنْ خرج النَّاسُ عام عَيْنَين ـ وعينين جبلٌ بحيال أحدٍ ، بينه وبينه وادٍ ـ ، خرجتُ مع النَّاس إلى القتال ، فلمَّا اصطفُّوا للقتال؛ خرج سِبَاعٌ ، فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزةُ بن عبد المطلب ، فقال: يا سِباعُ! يا بنَ أمِّ أنمارٍ مُقطِّعة البُظور[(٣٢٧)] ، أتحادُّ الله ورسولَه (ص) ؟ ثمَّ شدَّ عليه ، فكان كأمس الذَّاهب ، قال:

وكَمَنتُ لحمزة تحت صخرةٍ ، فلمَّا دنا منِّي رميتُه بحربتي ، فأضَعُها في ثُنَّتِهِ[(٣٢٨)] حتَّى خَرَجَتْ من بين وَرِكيه ، قال: فكان ذاك العهدَ به[(٣٢٩)] ، فلمَّا رجع النَّاس؛ رجعت معهم ، فأقمت بمكَّة حتى فشا فيها الإسلامُ.

ثمَّ خرجتُ إلى الطَّائف ، فأرسلوا إلى رسول الله (ص) رُسلاً ، فقيل لي: إنَّه لا يَهيج الرُّسُلَ[(٣٣٠)] ، قال: فخرجتُ معهم حتَّى قدمتُ على رسول الله (ص) ، فلمَّا راني؛ قال: « أنت وحشيٌّ؟ » قلت: نعم ، قال: « أنت قتلتَ حمزة؟ » قلت: قد كان من الأمر ما قد بلغك ، قال: « فهل تستطيعُ أن تُغَيِّبَ وجهك عنِّي؟ » قال: فخرجتُ ، فلمَّا قُبض رسولُ الله (ص) ، فخرج مسيلمةُ الكذَّاب ، قلت: لأخرجنَّ إلى مسيلمة لَعَلِّي أقتلُه فأكافأى به حمزة ، قال: فخرجت مع النَّاس فكان من أمره ما كان ، قال: فإذا رجل قائمٌ في ثَلَمةِ جدار[(٣٣١)] كأنَّه جمل أَوْرَقُ[(٣٣٢)] ثائر الرأس، قال: فرميتُه بحربتي ، فأضعها بين ثدييه حتَّى خرجت من بين كتفيه ، قال: ووثب إليه رجلٌ من الأنصار ، فضربه بالسَّيف على هامته. قال: قال عبد الله بن الفضل: فأخبرني سليمان بن يسار: أنَّه سمع عبد الله بن عمر رضي

الله عنهما يقول: «فقالت جاريةٌ على ظهر بيتٍ: وا أميرَ المؤمنين! قتله العبدُ الأسود» [البخاري (٤٠٧٢) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٤١ ـ ٢٤٣) ، والطبري في تاريخه (٢/٥١٦ ـ ٥١٧)].

١ ـ سؤال النَّبيِّ (ص) عن مقتل حمزة رضي الله عنه:

بعد انتهاء المعركة ، سأل رسولُ الله (ص) أصحابه: «مَنْ رأى مقتل حمزة؟» فقال رجل: أنا رأيت مقتله ، قال: «فانطلق أرناه» فخرج رسول الله (ص) حتَّى وقف على حمزة ، فراه وقد شُقَّ بطنُه ، وقد مُثِّل به ، فقال: يا رسول الله! مُثِّل به والله![الطبراني في الكبير (١٩/٨٢) ، ومجمع الزوائد (٦/١١٩)][(٣٣٣)]. وفي روايةٍ: لما بلغ النَّبيَّ (ص) قتلُ حمزة؛ بكى، فلمَّا نظر إليه شهِق، ووقف بين ظهراني القتلى، فقال: «أنا شهيد على هؤلاء، كفِّنوهم في دمائهم ، فإنَّه ليس جرحٌ يجرح في الله إلا جاء يوم القيامة يَدمى؛ لونُه لون الدَّم ، وريحُه ريحُ المسك ، قدِّموا أكثرهم قراناً ، فاجعلوه في اللَّحد» [البخاري (٢٠٧٩) ، وأبو داود (٣١٣٨)، والترمذي (١٠٣٦) ، والنسائي (١٩٥٤) ، وابن ماجه (١٥١٤)].

وباستشهاد حمزة وأصحاب رسول الله (ص) في أُحدٍ تحقَّقت رؤيا رسولِ الله (ص) ، فقد أخبر أصحابه عن رؤياه قبل الخروج إلى أُحدٍ، فقال: «رأيت في سيفي ذي الفقار فَلاًّ[(٣٣٤)]، فأوَّلْتُه فَلاًّ يكون فيكم (أي: انهزاماً) ، ورأيت أنِّي مردفٌ كَبْشاً ، فأوَّلْتُه كبش الكتيبة، ورأيت أنِّي في درع حصينةٍ، فأوَّلتها المدينة ، ورأيت بقراً تُذبح ، فبقرٌ والله خيرٌ! فبقرٌ والله خيرٌ!» فكان الَّذي قال رسول الله (ص) . [أحمد (١/٢٧١) ، والترمذي (١٥٦١)][(٣٣٥)] .

٢ ـ صبر صفيةَ بنت عبد المطلب على شقيقها حمزة:

قال الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه: إنَّه لما كان يوم أُحد؛ أقبلت امرأة تسعى ، حتَّى كادت أن تشرف على القتلى ، قال: فَكَرِهَ النَّبيُّ (ص) أن تراهم ، فقال: المرأة ... المرأة! قال الزُّبير: فتوسَّمتُ: أنَّها صفيَّة ، قال: فخرجت أسعى إليها ، قال: فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى ، قال: فَلَدَمَتْ[(٣٣٦)] صدري ، وكانت امرأة جَلْدةً ، قالت: إليك عنِّي ، لا أرضَ لك! فقلت: إنَّ رسول الله (ص) عزم عليك.

قال: فوقفت ، وأخرجت ثوبين معها ، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة ، فقد بلغني مقتله ، فكفِّنوه فيهما. قال: فجئنا بالثَّوبين لنكفِّن فيهما حمزة ، فإذا إلى جنبه رجلٌ من الأنصار قتيل فُعِلَ به كما فُعل بحمزة ، قال: فوجدنا غضاضةً وحياءً أن يكفَّن حمزة في ثوبين والأنصاريُّ لا كفن له ، فقلنا:

لحمزة ثوبٌ وللأنصاريِّ ثوبٌ ، فقدَّرناهما ، فكان أحدُهما أكبر من الاخر ، فأقرعنا بينهما ، فكفَّنا كلَّ واحدٍ منهما في الثَّوب الَّذي صار له. [أحمد (١/١٦٥) ، والبزار (١٧٩٧) ، وأبو يعلى (٦٨٦) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٩٠) ، ومجمع الزوائد (٦/١١٨)][(٣٣٧)].

٣ . من شعر صفيَّة في بكاء حمزة:

أَسَائِلةٌ أصْحَابَ أُحْدٍ مَخَافةً ... بَنَاتُ أَبِي مِنْ أَعْجَمٍ[(٣٣٨)] وخَبيرِ

فَقَالَ الخَبِيْرُ إنَّ حَمْزَةَ قَدْ ثَوَى ... وَزِيْرُ رَسُولِ اللهِ خَيْرُ وَزِيْرِ

دَعَاهُ إلهُ الحقِّ ذُو العَرْشِ دَعْوَةً ... إلَى جنَّةٍ يَحْيَا بِهَا وَسُرُوْرِ

فَذَلِكَ مَا كُنَّا نُرَجِّي وَنَرْتَجِي ... لِحَمْزَةَ يَوْمَ الحَشْرِ خَيْرَ مَصِيْرِ

فَوَاللهِ لاَ أَنْسَاكَ ما هبَّتِ الصَّبا ... بُكَاءً وَحُزْناً مَحْضَري وَمَسِيْرِي

عَلَى أَسَدِ الله الَّذِيْ كَانَ مِدْرَهاً[(٣٣٩)] ... يَذُوْدُ عَنِ الإسْلاَمِ كلَّ كَفُوْرِ

فَيَا لَيْتَ شِلْوِي عِنْدَ ذَاكَ وَأَعْظُمِي ... لَدَى أضْبُعٍ تَعْتَادُنِي وَنُسُورِ[(٣٤٠)]

أَقُولُ وَقَدْ أعْلَى النَّعِيُّ عَشِيْرَتِي ... جَزَى اللهُ خَيْراً مِنْ أخٍ وَنَصِيْرِ[(٣٤١)]

٤ . حمزة لا بواكي له:

لما رجع رسولُ الله (ص) من أُحدٍ؛ سمع نساء الأنصار يبكين ، فقال: «لكنَّ حمزة لا بواكيَ له» ، فبلغ ذلك نساءَ الأنصار ، فبكين حمزة[(٣٤٢)] ، فنام رسول الله (ص) ، ثمَّ استيقظ ، وهنَّ يبكين ، فقال: «يا ويحهنَّ! ما زلن يبكين منذ اليوم ، فليبكين ، ولا يبكين على هالكٍ بعد اليوم» [أحمد (٢/٤٠ ، ٨٤ ، ٩٢) ، وابن ماجه (١٥٩١) ، والطبراني في الكبير (٢٩٤٣) ، وأبو يعلى (٣٥٧٦) ، ومجمع الزوائد (٦/١٢٠)]. وبذلك حرِّمت النِّياحة على الميت ، وبعد فترة من الزَّمن نزل الوحي يشدِّد على تحريم النِّياحة على الميت ، ويجعلها من كبائر الذُّنوب ، وهو بذلك يتغلغل داخل أعماق المؤمنين ، والمؤمنات ، يتتبَّع اثار الجاهلية؛ لكي يمحوها ، ويغرس مكانها تعاليم الإسلام[(٣٤٣)]».

قال (ص) : «النِّياحة على الميت من أمر الجاهليَّة ، وإن النَّائحة إذا لم تتب قبل أن تموت ، فإنَّها تُبْعَثُ يوم القيامة عليها سرابيلُ من قطران ، ثمَّ يُعلى عليها بدروعٍ من لهب النَّار» [ابن ماجه (١٥٨٢)].

وقال (ص) : «اثنتان في النَّاس هما بهم كفرٌ: الطَّعنُ في النَّسب ، والنِّياحةُ على الميِّت» [أحمد (٢/٤٩٦) ، ومسلم (٦٧)]. فتوقف النُّواح ، ولم تتوقف الدُّموع.

٥ . رسول الله (ص) يسمِّي غلاماً للأنصار بحمزة:

قال جابر بن عبد الله: ولد لرجل منَّا غلام ، فقالوا: ما نسمِّيه؟ فقال النَّبيُّ (ص) : «سمُّوه بأحبِّ الأسماء إليَّ ، حمزة بن عبد المطلب» [الحاكم (١٩٦/٣)]؛ فحمزة مُتجَذِّرٌ في القلب النَّبويِّ ، عالقٌ بالذَّاكرة الكريمة ، ولكن الله سبحانه ينزل على نبيِّه (ص) فيما بعد أحبَّ الأسماء إليه ، فيقولها (ص) لمن حوله: «إنَّ أحبَّ أسمائكم إلى الله: عبدُ الله ، وعبدُ الرَّحمن» [مسلم (٢١٣٢) ، وأبو داود (٤٩٤٩) ، والترمذي (٢٨٣٣)، وابن ماجه (٣٧٢٨)].

٦ ـ «فهل تستطيع أن تُغَيِّبَ وجهَك عنِّي» [البخاري (٤٠٧٢) ، وأحمد (٥٠٧٣)]:
في هذا التَّوجيه الكريم لا يوجد فيه شيءٌ من المؤاخذة والتَّأثيم لوحشيٍّ؛ وإنَّما هو تذكيرٌ له بأنَّ رؤيته إيَّاه تجلب له شيئاً من المتاعب النَّفسيَّة ، وتُحرِّك في نفسه ذكريات حادث القتل ، وما تبعه من تمثيلٍ شنيعٍ بَشعٍ بعمِّه ، فتثير عنده حزازاتٍ بشريَّة ربما لا يكون من المستطاع منعها ، ومقاومتها إلا بشيءٍ من العسر ، والعنت الشَّديد؛ ممَّا قد يُشْغِلُ النَّبيَّ (ص) ويُقْلِقُه[(٣٤٤)] ، فأشار عليه (ص) بأن يغيِّب وجهه حتَّى يفقد مصدر التَّذكير بتلك المصيبة[(٣٤٥)]. في روايةٍ صحيحةٍ: قال وحشيٌّ: أتيتُ النَّبيَّ (ص) ، فقال لي: «وحشيٌّ» قلت: نعم ، قال: «قتلت حمزة؟» ، قلت: نعم ، الحمد لله الَّذي أكرمه بيدي ، ولم يهنِّي بيده ، فقالت له قريش: أتحبُّه؛ وهو قاتل حمزة. فقلت: يا رسول الله! فاستغفر لي ، فتفل رسول الله (ص) في الأرض ثلاثةً ، ودفع صدري ثلاثةً ، وقال: «وحشيٌّ ، اخرج فقاتلْ في سبيل الله ، كما قاتلت لِتَصُدَّ عن سبيل الله» [الطبراني في الكبير (١٣٩/٢٢) ، ومجمع الزوائد (١٢٧/٦)].
فهذا من التَّوجيه الإرشاديِّ النَّبويِّ إلى مكفِّرات ما سلف من الكفر ، ومحادَّة الله تعالى ورسوله (ص) ، وذكرُ القتال في سبيل الله بيانٌ للأمر الأنسب في التَّكفير ، وفيه حضٌّ من النَّبيِّ (ص) لإعلاء راية الجهاد ، ولعلَّ مخرجَ وحشيٍّ إلى اليمامة ، وقتله مسيلمةَ الكذَّاب كان أثراً من اثار توجيه النَّبيِّ (ص) إلى أفضل ما يمحو الخطايا ، ويحتُّ[(٣٤٦)] الذُّنوب ، ويطهِّر الاثام.
وقد أدرك وحشيٌّ ذلك، فقال حين قتل مسيلمةَ الكذَّاب: قتلتُ خير النَّاس ـ يعني: سيِّد الشُّهداء حمزةَ بنَ عبد المطَّلب ـ، وقتلتُ شرَّ النَّاس مسيلمةَ الكذَّاب[(٣٤٧)].
ب ـ مصعب بن عمير رضي الله عنه:
قال خبَّاب رضي الله عنه: هاجرنا مع رسول الله (ص) ونحن نبتغي وجه الله ، فوقع أجرُنا على الله؛ فَمِنَّا مَنْ مضى في سبيله ، ولم يأكل مِنْ أجره شيئاً ، منهم مصعبُ بن عمير قُتل يوم أُحدٍ ، ولم يترك إلا نَمِرَةً ، فكنَّا إذا غطَّينا رأسه؛ بدت رجلاه ، وإذا غطَّينا رجليه بدا رأسُه ، فقال رسولُ الله (ص) : «غطُّوا

رأسَه ، واجعلوا على رجليه الإذخر»[(٣٤٨)] ، ومنا من أينعت له ثمرتُه ، فهو يَهْدِبُها[(٣٤٩)]. [البخاري (١٢٧٦) و(٣٨٩٧)].

ومن حديث عبد الرَّحمن بن عوف أنَّه أُتي بطعامٍ ، وكان صائماً ، فقال: قُتل مصعب بن عمير ، وكان خيراً منّي ، فلم يوجد له ما يُكفَّن فيه إلا بُرْدَةٌ ، وقتل حمزة ـ أو رجلٌ اخر ـ خيرٌ منِّي ، فلم يُوجد له ما يُكفَّن فيه إلا بُرْدَةٌ ، لقد خَشِيتُ أن يكون قد عُجِّلت لنا طيِّباتُنا في حياتنا الدُّنيا ، ثمَّ جعل يبكي حتَّى ترك الطَّعام [البخاري (١٢٧٤) ، و(١٢٧٥) ، و(٤٠٤٥)].

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله (ص) حين انصرف من أُحدٍ، مرَّ على مصعب بن عمير ؛ وهو مقتولٌ على طريقه ، فوقف عليه ، ودعا له ، ثمَّ قرأ هذه الاية: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً *} [الأحزاب: ٢٣] ، ثمَّ قال رسول الله (ص) : «أشهد: أنَّ هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة ، فائتوهم ، وزوروهم ، والَّذي نفسي بيده ، لا يسلِّم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة، إلا ردُّوا عليه» [الحاكم (٣/٢٠٠) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٨٤)].

ج ـ سعد بن الرَّبيع رضي الله عنه:

هذا هو الَّذي اسْتَكْتَمَهُ رسولُ الله (ص) خبرَ مسير قريشٍ ، وكان رسول الله (ص) يحبُّه ، فلمَّا انتهت معركة أُحدٍ؛ قال رسول الله (ص) : «مَنْ رجلٌ ينظرُ ما فعل سعدُ بن الرَّبيع ، أفي الأحياء هو ، أم في الأموات؟» لأنَّ النَّبيَّ (ص) قد رأى الأسِنَّة أشرِعَتْ إليه ، فقال أُبيُّ بن كعب رضي الله عنه: أنا أنظره لك يا رسول الله! فقال له: «إن رأيتَ سعد بن الرَّبيع ، فأقرئه منِّي السَّلام ، وقل له: يقول لك رسول الله (ص) : كيف تجدُك؟» فنظر أُبَيٌّ ، فوجده جريحاً به رَمَقٌ.

فقال له: إنَّ رسول الله (ص) أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت ، أم في الأموات ، فقال: قد طُعِنْتُ اثنتي عَشرةَ طعنةً ، وقد أنفذت إلى مقاتلي[(٣٥٠)]. وفي روايةٍ صحيحةٍ قال: على رسول الله ، وعليك السَّلام ، قل له: يا رسول الله! أجد ريح الجنَّة ، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إنْ خُلِصَ إلى رسول الله (ص) ؛ وفيكم عينٌ تطرُف[(٣٥١)] ، قال: وفاضت نفسُه رحمه الله. [الحاكم (٣/٢٠١) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٨٥)][(٣٥٢)]! وهذا نُصْحٌ لله ، ورسولِه (ص) في سكرات الموت يدلُّ على قوَّة الإيمان ، والحرص على الوفاء بالبيعة ، لم يتأثر بالموت ولا الام القروح.

د ـ عبد الله بن جحشٍ رضي الله عنه:

قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: إنَّ عبد الله بن جحشٍ قال له يوم أُحدٍ: ألا تدعو الله ، فَخَلَوْا في ناحيةٍ ، فدعا سعدٌ ، فقال: يا ربِّ! إذا لقيتُ العدوَّ ، فَلَقِّني رجلاً شديداً بأسُه ، شديداً حردُه ، أقاتلُه ، ويقاتلني ، ثمَّ ارزقني الظَّفَرَ عليه حتَّى أقتلَه ، واخذَ سَلَبَهُ ، فأمَّن عبد الله بن جحشٍ ، ثمَّ قال: اللَّهمَّ ارزقني رجلاً شديداً حردُه ، شديداً بأسُه ، أقاتله فيك ويقاتلُني ، ثمَّ يأخذُني ، فَيَجْدَعُ أنفي ، وأذني ، فإذا لقيتُك غداً ، قلتَ: من جَدَعَ أنفَك ، وأذنَك؟ فأقول: فيك ، وفي رسولك ، فتقول: صدقتَ. قال سعد: يا بنيَّ ، كانت دعوة عبد الله بن جحش خيراً من دعوتي ، لقد رأيتُه اخر النَّهار وإنَّ أنفه ، وأذنه لمعلَّقان في خيطٍ[(٣٥٣)]. وفي هذا الخبر جواز دعاء الرَّجل أن يُقتل في سبيل الله ، وتمنِّيه ذلك ، وليس هذا من تمنِّي الموت المنهيّ عنه[(٣٥٤)].

هـ حنظلةُ بن أبي عامرٍ رضي الله عنه (غَسِيل الملائكة):

لما انكشف المشركون؛ ضرب حنظلةُ فرسَ أبي سفيان بن حربٍ ، فوقع على الأرض ، فصاح وحنظلةُ يريد ذبحه ، فأدركه شدَّاد بن الأسود ، ويقال له: ابن شَعوب ، فحمل على حنظلةَ بالرُّمح ، فأنفذه ، ومشى إليه حنظلة بالرُّمح وقد أثبته ، ثمَّ ضرب الثَّانية فقتله ، فذُكِر ذلك لرسول الله (ص) فقال: «إنِّي رأيت الملائكة تغسِّله بين السَّماء والأرض بماء المزْن ، في صِحَافِ الفضَّة» فقال رسول الله (ص) : «فاسألوا أهلَه ما شأنُه؟» فسألوا صاحبته عنه ، فقالت: خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة[(٣٥٥)] ، فقال رسول الله (ص) : «فلذلك غَسَّلَتْهُ الملائكة» [الحاكم (٣/٢٠٤ ـ ٢٠٥) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/١٥) ، والطبراني الكبير (١٢٠٩٤) ، ومجمع الزوائد (٣/٢٣)][(٣٥٦)].

وفي رواية الواقديّ: وكان حنظلة بن أبي عامر تزوَّج جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول ، فأُدخلت عليه في اللَّيلة الَّتي في صبحها قتال أُحدٍ ، وكان قد استأذن رسولَ الله (ص) أن يبيتَ عندها ، فأذن له ، فلمَّا صلَّى بالصَّبح غدا يريد رسولَ الله (ص) ، ولزمته جميلةُ فعاد ، فكان معها ، فأجنب منها ، ثمَّ أراد الخروج ، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعةٍ من قومها فأشهدتهم أنَّه قد دخل بها ، فقيل لها بَعْدُ: لم أشهدتِ عليه؟ قالت: رأيت كأنَّ السَّماء فُرِجَتْ فدخل فيها حنظلة ، ثمَّ أُطبقت ، فقلت: هذه الشَّهادة ، فأشهدْتُ عليه: أنَّه قد دخل بي. وتَعْلَقُ بعبد الله بن حنظلة ، ثمَّ تزوَّجها ثابت بن قيس بعدُ ، فولدت له محمَّد بن ثابت بن قيس[(٣٥٧)].

وفي هذا الخبر مواقفُ ، وعبرٌ؛ منها:

١ . في تعلُّق جميلة بنت عبد الله بن أُبي ، بحنظلة بن أبي عامر حين رأت له تلك الرُّؤيا الَّتي فسَّرتها بالشَّهادة ، فالمظنون في مثل هذه الحال أن تحاول الابتعاد عنه حتَّى لا تحمل منه ، فتكون بعد ذلك غير حظيَّة لدى الخُطَّاب ، لكنَّها تعلَّقت به رجاءَ أن تحمل منه ، فتلد ولداً ينسب لذلك الشَّهيد ، الَّذي بلغ درجاتٍ عليا في الصَّلاح أولاً ، ثمَّ بما ترجوه من نيله الشَّهادة. ولقد حصل لها ما أمَّلت به ، فحملت منه ، وولدت ولداً ذكراً سمِّي عبد الله ، وكان له ذِكْرٌ بعد ذلك ، وكان مِنْ أعلى ما يفتخر به أن يقول: أنا ابنُ غَسِيْلِ الملائكة.

٢ . حَرَصَ حنظلةُ القويُّ على مقارعة أعداء الله ، الَّذي يتمثَّل في سرعة خروجه إلى الميدان ، الأمر الذي لم يتمكَّن معه من غسل الجنابة.

٣ . شجاعتُه الفائقة الَّتي تظهر في تصدِّيه لقائد المشركين ، أبي سفيان بن حرب ، والقائد غالباً يكون حوله مَنْ يحميه ، وهو فارسٌ ، وحنظلة راجلٌ.

٤ . تشريفٌ ربانيٌّ كريمٌ ، في نزول الملائكة لتغسيل حنظلة بمياه الْمُزْن في صحاف الفضَّة.

٥ . معجزةٌ نبويَّةٌ في إخبار الصَّحابة عمَّا قامت به الملائكة مِنْ تغسيلٍ؛ حيث رأى (ص) الملائكة وهي تغسل ، ولم يرَ الصَّحابةُ ذلك[(٣٥٨)].

٦ . إذا كان الشَّهيد جنباً غُسِّل ، كما غسلت الملائكةُ حنظلةَ بن أبي عامر[(٣٥٩)].

و . عبد الله بن عمرو بن حَرَامٍ رضي الله عنه:

أصرَّ عبدُ الله بن عمرو بن حرامٍ على الخروج في غزوة أُحدٍ ، فخاطب ابنه جابراً بقوله: يا جابرُ! لا عليك أن تكون في نظاري المدينة حتَّى تعلم إلى ما يصيرُ أمرُنا ، فإنِّي والله لولا أنِّي أترك بنات لي بعدي؛ لأحببتُ أن تُقْتلَ بين يديَّ. [أحمد (٣/٣٩٧ . ٣٩٨) ، ومجمع الزوائد (٤/١٣٥)].

وقال لابنه أيضاً: ما أراني إلا مقتولاً في أوَّل من يُقْتَلُ من أصحاب النَّبيِّ (ص) ، وإنِّي لا أتركُ بعدي أعَزَّ عليَّ منك؛ غيرَ نفسِ رسول الله (ص) ، وإنَّ عليَّ ديناً فاقضِ ، واستوصِ بإخوتك خيراً [البخاري (١٣٥١)].

وخرج مع المسلمين ونال وسام الشَّهادة في سبيل الله ، فقد قُتل في معركة أُحدٍ ، وهذا جابرُ يحدِّثنا عن ذلك ، حيث يقول: لما قُتل أبي يوم أحدٍ ، جعلتُ أكشفُ عن وجهه ، وأبكي،

وجعل أصحابُ رسول الله (ص) ينهونني وهو لا ينهاني ، وجَعَلَتْ عمَّتي تبكيه ، فقال النَّبيُّ (ص) : «تبكين ، أو لا تبكين ، ما زالت الملائكة تُظِلُّهُ بأجنحتها حتَّى رَفَعْتُموه» [البخاري (١٢٤٤) ، ومسلم (١٣٠/٢٤٧١)].

وقال رسول الله (ص) : «يا جابر! مالي أراك منكسراً؟» قال: يا رسول الله ، استشهد أبي ، وترك عيالاً ، ودَيناً. قال (ص) : «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قال: بلى يا رسول الله! قال (ص) : «ما كَلَّمَ اللهُ أحداً قطُّ إلاَّ من وراء حجاب ، وكلَّم أباك كفاحاً[(٣٦٠)]. يا جابر! أما علمت أنَّ الله أحيا أباك ، فقال: يا عبدي! تمنَّ عليَّ أُعطِك. قال: يا رب! تحييني فأُقتل فيك ثانيةً. فقال الرَّبُّ سبحانه: إنَّه سبق منِّي أنَّهم إليها لا يُرجعون. قال: يا رب! فأبلغ مَنْ ورائي» [الترمذي (٣٠١٠) ، وابن ماجه (١٩٠) و(٢٨٠٠)][(٣٦١)] ، فأنزل الله تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ *} [آل عمران: ١٦٩].

وقد رأى عبد الله بن عمرو رؤيا في منامه قبل أُحد؛ قال: رأيت في النَّوم قبل أُحدٍ، مبشِّر بن عبد المنذر يقول لي: أنت قادم علينا في أيامٍ ، فقلت: وأين أنت؟ فقال: في الجنَّة نَسْرَحُ فيها كيف نشاء. قلت له: ألم تُقْتَل يوم بدرٍ ؟ قال: بلى! ثمَّ أُحييتُ. فذكر ذلك لرسول الله (ص) ، فقال: «هذه الشَّهادة يا أبا جابر» ! [الحاكم (٢٠٤/٣)، والبيهقي في الدلائل (٢٤٩/٣)][(٣٦٢)] وقد تحقَّقت تلك الرُّؤيا بفضل الله ومَنِّهِ.

ز. خيثمة أبو سعد رضي الله عنه:

قال خيثمة أبو سعد ـ وكان ابنه استشهد مع رسول الله (ص) يوم بدرٍ ـ: لقد أخطأتني وقعة بدرٍ ، وكنت والله عليها حريصاً ، حتَّى ساهمتُ ابني في الخروج ، فخرج سَهْمُهُ ، فرُزِقَ الشَّهادة ، وقد رأيت البارحة ابني في النَّوم في أحسن صورةٍ ، يسرح في ثمار الجنَّة ، وأنهارها ، ويقول: الحق بنا ترافقنا في الجنَّة ، فقد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً ، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنَّة ، وقد كبِرَتْ سِنِّي ، ورَقَّ عظمي ، وأحببتُ لقاء ربِّي ، فادعُ الله يا رسول الله! أن يرزقني الشَّهادة ، ومرافقة سعدٍ في الجنَّة ، فدعا له رسول الله (ص) بذلك ، فقُتِل بأُحدٍ شهيداً. [البيهقي في الدلائل (٢٤٩/٣)][(٣٦٣)].

ح ـ وهب المزنيُّ ، وابن أخيه رضي الله عنهما:

أقبل وهب بن قابوس المزنيُّ ، ومعه ابن أخيه الحارث بن عُقبة بن قابوس بغنمٍ لهما من جبل مُزَينة ، فوجدا المدينة خلواً ، فسألا: أين النَّاس؟ فقالوا: بأُحدٍ؛ خرج رسول الله (ص) يقاتل المشركين من قريشٍ. فقالا: لا نبتغي أثراً بعد عين ، فخرجا حتَّى أتيا النَّبي (ص) بأُحدٍ ، فيجدان القوم يقتتلون ، والدَّولة لرسول الله (ص) وأصحابه ، فأغارا مع المسلمين في النَّهْب ، وجاءت الخيل مِنْ وراءهم ، خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ، فاختلطوا ، فقاتلا أشدَّ القتال ، فانفرقت فرقةٌ من المشركين ، فقال رسول الله (ص) : «من لهذه الفرقة؟» فقال وهب بن قابوس: أنا يا رسول الله! فقام فرماهم بالنَّبْل حتَّى انصرفوا ، ثمَّ رجع.

فانفرقت فرقةٌ ثانيةٌ ، فقال رسول الله (ص) : «من لهذه الكتيبة؟» فقال المزنيُّ: أنا يا رسول الله! فقام فذبَّها بالسَّيف حتى ولَّوْا ، ثمَّ رجع المزَنيُّ ، ثمَّ طلعت كتيبةٌ ثالثة ، فقال: «مَنْ يقوم لهؤلاء؟» فقال المزنيُّ: أنا يا رسول الله! فقال: «قم ، وأبشر بالجنَّة» ، فقام المزنيُّ مسروراً ، يقول: والله لا أقيل ، ولا أستقيل ، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسَّيف ، ورسول الله (ص) ينظر إلى المسلمين حتَّى خرج من أقصاهم ، ورسول الله (ص) يقول: «اللّهم ارحمه!» ثمَّ يرجع فيهم فما زال كذلك ، وهم مُحدقون به ، حتَّى اشتملت عليه أسيافهم ، ورماحهم ، فقتلوه ، فوُجد به يومئذ عشرون طعنةً برمح ، كلُّها قد خلصت إلى مقتلٍ ، ومُثِّلَ به أقبح مُثلةٍ يومئذٍ ، ثمَّ قام ابن أخيه ، فقاتل قتاله حتَّى قتل ، فكان عمر بن الخطَّاب يقول: إنّ أحبَّ ميتةٍ أموت لما مات عليها المزنيُّ. [المغازي للواقدي (٢٧٥/١)].

وكان بلال بن الحارث المزنيُّ يُحدِّث ، يقول: شهدنا القادسيَّة مع سعد بن أبي وقَّاص ، فلمَّا فتح اللهُ علينا ، وقُسمت بيننا غنائمنا ، فأُسْقِطَ فتىً من ال قابوس من مُزينة[(٣٦٤)] ، فجئت سعداً حين فرغ من نومه ، فقال: بلال؟ قلت: بلال! قال: مرحباً بك ، مَنْ هذا معك؟ قلت: رجلٌ من قومي مِنْ ال قابوس. قال سعد: ما أنت يا فتى من المزني الَّذي قُتل يوم أُحد؟ قال: ابن أخيه. قال سعد: مرحباً ، وأهلاً ، وأنْعَمَ الله بك عَيْناً ، ذلك الرَّجل شهدتُ منه يوم أُحد مشهداً ما شهدتُه من أحدٍ ، لقد رأيتنا وقد أحدق المشركون بنا من كلِّ ناحيةٍ ، ورسولُ الله (ص) وسطنا ، والكتائب تطلع من كلِّ ناحيةٍ ، وإنَّ رسول الله (ص) ليرمي ببصره في النَّاس يتوسَّمُهم[(٣٦٥)] يقول: «من لهذه الكتيبة؟» كلُّ ذلك يقول المزنيُّ: أنا يا رسول الله! كلُّ ذلك يردُّه ، فما أنسى اخر مرَّةٍ قامها ، فقال رسول الله (ص) : «قم وأبشر بالجنَّة!» قال سعد: وقمت على أثره ، يعلم الله أنِّي أطلب مثل ما يطلب يومئذ من الشَّهادة ، فخضنا حَوْمتهم حتَّى رجعنا فيهم الثَّانية ، وأصابوه

ـ رحمه الله! ـ ووَدِدْتُ والله أنِّي كنت أُصبتُ يومئذٍ معه ، ولكنَّ أجَلِي استأخر ، ثمَّ دعا سعد من ساعته بسهمه ، فأعطاه ، وفضَّله ، وقال: اختر في المقام عندنا ، أو الرُّجوع إلى أهلك ، فقال بلال: إنَّه يستحبُّ الرُّجوع ، فرجعنا.

وقال سعد: أشهدُ لرأيتُ رسول الله (ص) واقفاً عليه؛ وهو مقتولٌ ، وهو يقول: «رضي الله عنك فإنِّي عنك راضٍ» ، ثمَّ رأيتُ رسولَ الله (ص) قام على قدميه وقد نال النَّبيَّ (ص) من الجراح ما ناله ، وإنِّي لأعلم أنَّ القيام ليشقُّ عليه على قبره حتى وُضع في لحده ، وعليه بُرْدَةٌ لها أعلام خضر، فمدَّ رسول الله (ص) البُردة على رأسه ، فخمَّره ، وأدرجه فيها طولاً ، وبلغت نصف ساقيه ، وأمرنا فجمعنا الحَرْمَل ، فجعلناه على رجليه؛ وهو في لحده ، ثمَّ انصرف. فما حالٌ أموتُ عليها أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله تعالى على حال المزَنِيّ[(٣٦٦)].

وهكذا يفعل الإيمان بأصحابه ، فهذا وَهْبٌ المزنيُّ ، وابن أخيه ، تركوا الأغنام بالمدينة ، والتحقوا بصفوف المسلمين ، وحرصوا على نيل الشَّهادة ، فأكرمهم الله بها ، وقد كانت تلك الملحمة الَّتي سطَّرها المزنيُّ محفورةً في ذاكرة الصَّحابة ، فهذا سعد بن أبي وقَّاص يتذكَّرها بعد مرور ثلاث عشرة سنة تقريباً على غزوة أُحدٍ ، لمجرَّد سماع اسم رجل من عشيرة المزنِيّ ، ويتمنَّى أن يموت ، ويلقى الله على مثل حالة المزنِيّ.

ط ـ عمرو بن الجَمُوح رضي الله عنه:

كان عمرو بن الجموح رضي الله عنه أعرجَ شديدَ العرج ، وكان له بنونَ أربعةٌ مثل الأُسد[(٣٦٧)] ، يشهدون مع رسول الله (ص) المشاهد ، وهم: خلاَّد ، ومُعوَّذ ، ومُعاذ ، وأبو أيمن ، فلمَّا كان يوم أُحد أرادوا حَبْسَهُ ، وقالوا: إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد عذرك ، فأتى رسولَ الله (ص) ، فقال: إنَّ بَنِيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه ، والخروج معك فيه ، فو الله! إنِّي لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنَّة. فقال له رسول الله (ص) : «أمَّا أنت فقد عذرك الله تعالى ، فلا جهاد عليك» ، وقال لبنيه: «ما عليكم ألاَّ تمنعوه ، لعلَّ الله أن يرزقه الشَّهادة» فخرج؛ وهو يقول مستقبل القبلة: اللهم! لا تردَّني إلى أهلي خائباً. فقُتل شهيداً رضي الله عنه.

وفي رواية: أتى عمرو بن الجموح رضي الله عنه إلى رسول الله (ص) ، فقال: يا رسولَ الله! أرأيتَ إنْ قاتلت في سبيل الله حتَّى أُقتل ، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنَّة ـ وكانت رجله عرجاء ـ؟ فقال

رسول الله (ص) : «نعم» ، فقتلوه يوم أُحد هو ، وابن أخيه ، ومولى لهما ، فمرَّ بهم رسولُ الله (ص) ، فجُعلُوا في قبرٍ واحد [أحمد (٥/٢٩٩) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٤٦) ، والواقدي في المغازي (١/٢٦٤) ، وابن هشام (٣/٩٦) ، ومجمع الزوائد (٩/٣١٥)].

وفي هذا الخبر ، دليلٌ على أنَّ مَنْ عذره الله في التَّخلُّف عن الجهاد لمرضٍ ، أو عَرَج يجوز له الخروج إليه ، وإن لم يجب عليه ، كما خرج عمرو بن الجَمُوح؛ وهو أعرج[(٣٦٨)].

وفيه دليلٌ على شجاعة عمرو بن الجَمُوح ، ورغبته في نيل الشَّهادة ، وصدقه في طلبها ، وقد أكرمه الله بذلك.

ي ـ أبو حذيفة بن اليمان وثابت بن وقش رضي الله عنهم:

لما خرج رسول الله (ص) إلى أُحدٍ ، رُفع حُسَيل بن جابر ، وهو اليمان أبو حذيفة ابن اليمان ، وثابت بن وَقش في الاطام[(٣٦٩)] ، مع النِّساء ، والصِّبيان ، فقال أحدُهما لصاحبه ـ وهما شيخان كبيران ـ: لا أبا لك! ما تنتظر؟ فو الله ما بقي لواحدٍ منَّا من عمره إلا ظِمء[(٣٧٠)] حمارٍ ، إنَّما نحن هامةُ اليوم ، أو غد[(٣٧١)] ، أفلا نأخذ أسيافنا ، ثمَّ نلحق برسول الله (ص) ، لعلَّ الله يرزقنا شهادةً مع رسول الله (ص) ؟!

فأخذا أسيافهما ، ثمَّ خرجا حتَّى دخلا في النَّاس ولم يُعلم بهما ، فأمَّا ثابت بن وقش؛ فقتله المشركون ، وأمَّا حُسَيل بن جابرٍ فاختلفت عليه أسيافُ المسلمين ، فقتلوه ، ولا يعرفونه ، فقال حذيفة: أبي! فقالوا: والله إن عرفناه ، وصدقوا. قال حذيفة: يغفر الله لكم ، وهو أرحم الرَّاحمين ، فأراد رسول الله (ص) أن يَديَهُ ، فتصدَّق حذيفةُ بديته على المسلمين ، فزاده ذلك عند رسول الله (ص) خيراً. [سبق تخريجه][(٣٧٢)].

وفي هذا الخبر يظهر أثر الإيمان في نفوس الشُّيوخ الكبار؛ الَّذين عذرهم الله في الجهاد ، وكيف ترَكُوا الحصون ، وخرجوا إلى ساحات الوَغى طلباً للشَّهادة ، وحباً ، وشوقاً للقاء الله تعالى ، وفيه موقفٌ عظيم لحذيفة؛ حيث تصدَّق بدية والده على المسلمين ، ودعا لهم بالمغفرة؛ لكونهم قتلوا والده خطأً ، وفيه أيضاً: أنَّ المسلمين إذا قتلوا واحداً منهم في الجهاد يظنُّونه كافراً؛ فعلى الإمام دِيَتُه من بيت المال؛ لأنَّ رسول الله (ص) أراد أن يَدِيَ اليمان أبا حذيفة ، فامتنع من أخذ الدِّية ، وتصدَّق بها على المسلمين[(٣٧٣)].

ك ـ الأمور بخواتيمها:

إنَّ الأمور بخواتيمها ، وقد وقع في غزوة أُحدٍ ما يحقِّق هذه القاعدة المهمَّة في هذا الدِّين ، فقد وقع حادثان يؤكِّدان هذا الأمر ، وفيهما عظةٌ ، وعبرةٌ لكلِّ مسلمٍ متَّعظٍ ، ومعتبرٍ[(٣٧٤)] ، وهما:

١ ـ شأن الأُصَيْرِم رضي الله عنه:

واسمه عمرو بن ثابت بن وَقش ، عُرض عليه الإسلام ، فلم يُسلِم ، وروى قصَّته أبو هريرة رضي الله عنه ، قال: إنَّ الأُصَيْرم كان يأبى الإسلام على قومه ، فجاء ذات يومٍ ورسولُ الله (ص) ، وأصحابه بأُحدٍ ، فقال: أين سعدُ بن معاذ؟ فقيل: بأُحدٍ ، فقال: أين بنو أخيه؟ قيل: بأُحدٍ. فسأل عن قومه ، فقيل: بأُحدٍ ، فبدا له الإسلام ، فأسلم ، وأخذ سيفه ، ورمحه ، وأخذ لأمتَهُ ، وركب فرسه ، فعدا حتَّى دخل في عُرْض النَّاس ، فلمَّا راه المسلمون؛ قالوا: إليك عنا يا عمرو! قال: إنِّي قد امنت. فقاتل حتَّى أثخنته الجراح ، فبينما رجالٌ من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة؛ إذا هم به ، فقالوا: والله إنَّ هذا للأُصيرم ، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنَّه مُنكرٌ لهذا الحديث ، فسألوه: ما جاء بك ؟ أحدَبٌ على قومك ، أم رغبةٌ في الإسلام؟ فقال: بل رغبةً في الإسلام ، امنت بالله تعالى ورسوله (ص) ، وأسلمت، ثمَّ أخذت سيفي فغدوتُ مع رسول الله (ص) ، ثمَّ قاتلتُ حتَّى أصابني ما أصابني ، وإن متُّ فأموالي إلى محمَّد يضعها حيث شاء ، فذكروه لرسول الله (ص) فقال: إنَّه من أهل الجنَّة. [ابن هشام (٣/٩٥) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٤٧)].

وقيل: مات ، فدخل الجنة ، وما صلَّى من صلاةٍ ، فقال النَّبيُّ (ص) : «عَمِلَ يسيراً وأُجرَ كثيراً» [البخاري (٢٨٠٨) ، ومسلم (١٩٠٠)].

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: حدِّثوني عن رجلٍ دخل الجنَّة ، ولم يُصلِّ قطُّ! فإذا لم يعرفه النَّاس؛ سألوه مَنْ هو؟ قال: هو أُصَيرِم بن عبد الأشهل[(٣٧٥)].

٢ ـ شأن مُخَيْرِيق:

لما كانت غزوة أُحدٍ ، وخرج رسول الله (ص) يقاتل المشركين ، جمع مُخَيْرِيقٌ قومه اليهود وقال لهم: يا معشرَ يهود! والله! لقد علمتم أنَّ نصر محمدٍ عليكم لحقٌّ. قالوا: إنَّ اليوم يوم السَّبت ، قال: لا سبت لكم!

فأخذ سيفه ، وعُدَّتَهُ ، وقال: إن أُصِبْتُ فمالي لمحمَّدٍ يَصْنَعُ فيه ما شاء. ثمَّ غدا إلى رسول الله (ص) ، فقاتل معه حتى قُتِل ، فقال رسول الله (ص) : «مُخَيْرِيق خيرُ يهود» [ابن سعد (١/٥٠١) ، وأبو نعيم في الدلائل (ص ١٨) ، والطبري في تاريخه (٢/٥٣١) ، والواقدي في المغازي (١/٢٦٣)].

وقد اختلف في إسلامه ، فنقل الذَّهبيُّ في التَّجريد ، وابن حجر في الإصابة عن الواقديِّ[(٣٧٦)]: أنَّ مخيريق مات مسلماً. وذكر السُّهيليُّ في الرَّوض الأُنف: أنَّه مسلمٌ ، وذلك حين قال معقِّباً على رواية ابن إسحاق عن رسول الله (ص) : أنَّه قال: «مُخَيْريق خير يهود» قال: ومُخَيْرِيق مسلمٌ ، ولا يجوز أن يقال في مسلم هو خير النَّصارى ، ولا خير اليهود؛ لأنَّ أفعل من كذا إذا أضيف ، فهو بعض ما أضيف إليه ، فإن قيل: وكيف جاز هذا؟ قلنا: لأنَّه قال: خير يهود ، ولم يقل خير اليهود ، ويهود اسم علم كثمود ، يقال: إنَّهم نُسبوا إلى يهوذا بن يعقوب ، ثمَّ عربت الذَّال دالاً[(٣٧٧)] ، وقد حقَّق هذه المسألة الدُّكتور عبد الله الشقاري في كتابه: «اليهود في السُّنَّة المطهَّرة» وذهب إلى أنَّ مُخَيْرِيق قد أسلم، ودفعه ذلك إلى القتال مع المسلمين، وإلى التصدُّق بماله مع كثرته ، ومع ما عرف عن اليهود من حبِّ المال ، والتَّكالب عليه[(٣٧٨)].

ل ـ إنما الأعمال بالنِّيَّات:

كان ممَّن قاتل مع المسلمين يوم أُحدٍ رجلٌ يدعى قُزْمَان، كان يُعرف بالشَّجاعة ، وكان رسول الله (ص) يقول إذا ذُكر له: «إنَّه لمن أهل النار» ، فتأخَّر يوم أُحدٍ ، فعيَّرته نساء بني ظَفَر ، فأتى رسولَ الله (ص) وهو يسوِّي الصفوف ، حتَّى انتهى إلى الصفِّ الأوَّل ، فكان أوَّل من رمى من المسلمين بسهمٍ ، فجعل يرسل نبلاً كأنَّها الرِّماح ، ويكتُّ كتيت الجمل ، ثمَّ فعل بالسَّيف الأفاعيل ، حتَّى قتل سبعةً ، أو تسعةً ، وأصابته جِرَاحَةٌ ، فوقع ، فناداه قتادة بن النُّعمان: يا أبا الغَيْداق! هنيئاً لك الشَّهادة! وجعل رجالٌ من المسلمين يقولون له: والله! لقد أبليتَ اليوم يا قُزْمَان ، فأبشر! قال: بماذا؟ فوالله ما قَاتلتُ إلا عن أحساب قومي ، ولولا ذلك ما قاتلتُ. فذُكِرَ ذلك لرسول الله (ص) فقال: «إنَّه من أهل النَّار ، إنَّ الله تعالى يؤيِّد هذا الدِّين بالرَّجل الفاجر» [البخاري (٤٢٠٣) ، ومسلم (١١١ ، ١١٢)][(٣٧٩)].

وفي هذا الخبر ، بيانٌ لمكان النِّيَّة في الجهاد ، وأنَّه مَنْ قاتل حميَّةً عن قومه ، أو ليقال: شجاعٌ ، ولم تكن أعماله لله تعالى؛ لا يقبل الله منه.

خامساً: من دلائل النُّبوَّة:

١ ـ عين قتادة بن النُّعمان رضي الله عنه:

أُصيبت عينُ قتادة رضي الله عنه حتَّى سقطت على وَجْنَتِهِ ، فردَّها رسولُ الله (ص) بيده، فكانت أحسن عينيه ، وأحَدَّهُمَا. [الحاكم (٢٩٥/٣) ، والطبراني في الكبير (٨/١٩) ، والبيهقي في الدلائل

(٣/٢٥١ ـ ٢٥٢)، ومجمع الزوائد (٦/١١٣)]. وأصبحت لا ترْمَد إذا رمدت الأخرى[(٣٨٠)]، وقد قدم ولده على عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ ، فسأله: من أنت؟ فقال له مرتجلاً:

أنا ابْنُ الَّذي سَالَتْ عَلَى الخَدِّ عَيْنُهُ فَرُدَّتْ بكَفِّ المصْطَفى أَحْسَنَ الرَّدِّ

فَعَادَتْ كَمَا كَانَتْ لأَوَّلِ أَمْرِهَا فَيَا حُسْنَهَا عَيْناً وَيَا حُسْنَ ما ردِّ

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تِلْكَ المكَارِمُ لا قَعْبَانِ[(٣٨١)] مِنْ لَبَنٍ شيْبا بمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالا

ثمَّ وصله ، فأحسن جائزته[(٣٨٢)].

٢ ـ مقتل أُبيِّ بن خلف:

كان أُبَيُّ بن خلف يَلْقَى رسولَ الله (ص) بمكَّة ، فيقول: يا محمد! إنَّ عندي العَوْذ؛ فرساً أَعْلِفُه كلَّ يوم فَرَقاً[(٣٨٣)] من ذُرَةٍ ، أقتلك عليه ، فيقول رسول الله (ص) : «بل أنا أقتلك إن شاء الله» فلمَّا كان يوم أُحد ، وأُسند رسولُ الله (ص) في الشِّعْب؛ أدركه أُبَيُّ بن خلف ، وهو يقول: أي محمد! لا نجوتُ إن نجوتَ! فقال القوم: يا رسول الله! أيعطفُ عليه رجلٌ منا؟ فقال رسول الله (ص) : «دَعُوه» ، فلمَّا دنا ، تناول رسولُ الله (ص) الحَرْبَةَ من الحارث بن الصِّمَّة ، فلمَّا أخذها رسولُ الله (ص) منه انتفض بها انتفاضة تطايَرنا عنه تطايرَ الشَّعراء[(٣٨٤)] عن ظهر البعير إذا انتفض بها ، ثمَّ استقبله ، فطعنه في عنقه طعنةً تدأدأ[(٣٨٥)] منها عن فرسه مراراً ، فلمَّا رجع إلى قريش وقد خَدَشَهُ في عنقه خَدشاً غير كبيرٍ ، فاحتقَنَ الدَّم ، قال: قتلني والله محمدٌ! قالوا له: ذهب والله فؤادك! والله إنْ بك من بأسٍ ، قال: إنَّه قد كان قال لي بمكَّة: أنا أقتلُك ، فو الله! لو بَصَق عليَّ؛ لقتلني ، فمات عدوُّ الله بسَرِفٍ[(٣٨٦)] وهم قافلون به إلى مكَّة. [الطبري في تاريخه (٢/٥١٨ ـ ٥١٩) ، والواقدي في المغازي (١/٢٥١) ، وابن سعد (٢/٤٦) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢١١ و٢٥٨)][(٣٨٧)].

وفي هذا الخبر مَثَلٌ رفيعٌ على شجاعة رسول الله (ص) ، فقد كان أُبي بن خلف مُدَجَّجاً بالسِّلاح ، ومتدرِّعاً بالحديد الواقي ، ومع ذلك استطاع رسولُ الله (ص) أن يطعنه بالرُّمح من فُرْجَةٍ صغيرة في عنقه بين الدِّرْع ، والبيضة ، وهذا يدلُّ على قدرة رسول الله (ص) القتاليَّة ، ودقَّته في إصابة الهدف. وفي هذا الخبر معجزةٌ للنَّبيِّ (ص) ، فقد أخبر أُبَيّاً بأنه سوف يقتله بمشيئة الله ، وتمَّ ذلك ، وفي الخبر عبرةٌ في إيمان المشركين بصدق النَّبيِّ (ص) ، وأنه إذا قال شيئاً؛ وقع ، فقد كان أُبيُّ بن خلف على يقينٍ بأنَّه سيموت من تلك الطَّعنة ، ومع ذلك لم يدخلوا في الإسلام لعنادهم ، وعبادة أهوائهم[(٣٨٨)].

وقد خلَّد حسَّانُ بن ثابت هذه الحادثة في شعره فقال:

لَقَدْ وَرِثَ الضَّلاَلَةَ عَنْ أَبِيْهِ　　أُبَيٌّ يَوْمَ بَارَزَهُ الرَّسُولُ

أتيْتَ إِلَيْهِ تَحْمِلُ رِمَّ عَظْمٍ　　وَتُوْعِدُهُ وَأَنْتَ بِهِ جَهُوْلُ[(٣٨٩)]

* * *

المبحث الثالث

أحداث ما بعد المعركة

أولاً: حوار أبي سفيان مع الرَّسول (ص) وأصحابه:

قال البَراءُ رضي الله عنه: وأشرفَ أبو سفيان ، فقال: أفي القوم محمَّدٌ؟ فقال رسولُ الله (ص) : «لا تجيبوه» فقال: أفي القوم ابنُ أبي قُحَافَةَ؟ قال: «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابنُ الخطَّاب؟ فقال: إنَّ هؤلاء القوم قُتلوا ، فلو كانوا أحياءً لأجابوا فلم يملك عمرُ رضي الله عنه نفسَه ، فقال: كذبتَ يا عدوَّ الله! أبقى اللهُ عليك ما يُخزيك. قال أبو سفيان: اعْلُ هُبَلُ[(٣٩٠)]! فقال النَّبيُّ (ص) : «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجلُّ». قال أبو سفيان: لنا العُزَّى. ولا عُزَّى لكم. فقال النَّبيُّ (ص) : «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «اللهُ مولانا ، ولا مولى لكم». قال أبو سفيان: يومُ بيوم بدر ، والحرب سِجَالٌ ، وتجدون مُثلةً لم امُرْ بها ، ولم تَسُؤْني. [البخاري (٤٠٤٣) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٦٨)][(٣٩١)] وفي روايةٍ: قال عمر: لا سواء! قتلانا في الجنَّة ، وقتلاكم في النَّار». [أحمد (١/٤٦٣)][(٣٩٢)] ، ومجمع الزوائد (٦/١١٠)].

كان في سؤال أبي سفيان عن رسول الله (ص) ، وأبي بكرٍ ، وعمر رضي الله عنهما دلالةٌ واضحةٌ على اهتمام المشركين بهؤلاء دون غيرهم؛ لأنَّه في علمهم أنَّهم أهل الإسلام ، وبهم قام صَرْحُهُ ، وأركان دولته ، وأعمدة نظامه ، ففي موتهم يعتقد المشركون: أنَّه لا يقوم الإسلام بعدهم.

وكان السُّكوت عن إجابة أبي سفيان أوّلاً؛ تصغيراً له ، حتَّى إذا انتشى ، وملأه الكِبْر؛ أخبروه بحقيقة الأمر ، وردُّوا عليه بشجاعةٍ[(٣٩٣)].

وفي هذا يقول ابن القيّم في تعليقه على هذا الحوار: فأمرهم بجوابه عند افتخاره بالهته ، وبشركه؛ تعظيماً للتَّوحيد ، وإعلاماً بعزَّة من عَبَدَهُ المسلمون ، وقوَّة جانبه ، وأنَّه لا يُغْلَبُ ،

ونحن حزبُه ، وجندُه ، ولم يأمرهم بإجابته حين قال: أفيكم محمَّد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ بل روي: أنَّه نهاهم عن إجابته ، وقال: «لا تجيبوه»؛ لأنَّ كلْمَهم لم يكن برد في طلب القوم ، ونارُ غيظهم بعدُ متوقِّدةٌ ، فلمَّا قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كُفيتُموهم؛ حمي عمر بن الخطَّاب ، واشتد غضبه ، وقال: كذبت يا عدوَّ الله! فكان في هذا الإعلام من الإذلال ، والشَّجاعة ، وعدم الجبن ، والتَّعرُّف إلى العدوِّ في تلك الحال ما يؤذنهم بقوَّة القوم ، وبسالتهم ، وأنَّهم لم يهِنوا ، ولم يَضْعُفُوا ، وأنَّه ، وقومَه جديرون بعدم الخوف منهم ، وقد أبقى الله لهم ما يسوؤهم منهم ، وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثَّلاثة وهلةٌ بعد ظنِّه ، وظنِّ قومه: أنَّهم قد أُصيبوا من المصلحة ، وغيظ العدوِّ ، وحزبه ، والفتِّ في عَضُده ما ليس في جوابه حين سأل عنهم واحداً ، واحداً ، فكان سؤاله عنهم ، ونعيُهم لقومه اخر سهام العدوِّ ، وكيده ، فصبر له النَّبيُّ (ص) حتَّى استوفي كيده ، ثمَّ انتدب له عمر ، فردَّ بسهام كيده عليه ، وكان ترك الجواب عليه أحسن ، وذكره ثانياً أحسن ، وأيضاً: فإنَّ في ترك إجابته حين سأله عنهم إهانةً له ، وتصغيراً لشأنه ، فلمَّا مَنَّتْهُ نفسهُ موتهم ، وظنَّ: أنهم قد قُتلوا ، وحصل له بذلك من الكبر ، والأشر[(٣٩٤)] ما حصل ، كان في جوابه إهانةٌ له ، وتحقيرٌ ، وإذلالٌ ، ولم يكن هذا مخالفاً لقول النَّبيِّ (ص) : «لا تجيبوه» فإنَّه إنَّما نهى عن إجابته حين سأل: أفيكم محمَّد؟ أفيكم فلان؟ ولم يَنْهَ عن إجابته حين قال: أما هؤلاء فقد قُتلوا، وبكلِّ حالٍ ، فلا أحسنَ مِنْ ترك إجابته أولاً ، ولا أحسنَ مِنْ إجابته ثانياً[(٣٩٥)].

ثانياً: تفقد الرَّسول (ص) الشُّهداء:

بعد أن انسحب أبو سفيان من أرض المعركة ، ذهب الرَّسول (ص) ليتفقَّد أصحابه رضي الله عنهم ، فمرَّ على بعضهم ، ومنهم حمزةُ بن عبد المطَّلب ، ومُصْعَب بن عُمَيرٍ ، وحنظلةُ بن أبي عامرٍ ، وسعد بن الرَّبيع ، والأُصَيْرِمُ ، وبقيَّة الصحابة رضي الله عنهم ، فلمَّا أشرف عليهم رسول الله (ص) قال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء ، إنَّه ما من جَرِيح يُجْرَح في الله ، إلا والله يبعثه يوم القيامة يَدْمَى جُرْحُهُ؛ اللَّونُ لونُ

دمٍ ، والرِّيح ريح المسك ، انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقران ، فاجعلوه أمام أصحابه في القبر» [سبق تخريجه].

وقال جابر بن عبد الله في رواية البخاريّ: إنَّ النَّبيَّ (ص) كان يجمع بين الرَّجلين من قَتْلَى أُحدٍ في ثوبٍ واحد ، ثمَّ يقول: «أيُّهم أكثرُ أخذاً للقران؟» فإذا أُشِيرَ له إلى أَحدٍ؛ قدَّمه في اللَّحْدِ ، وقال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء يوم القيامة» ، وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يُصَلِّ عليهم ، ولم
يُغَسَّلُوا. [البخاري (٤٠٧٩) ، وأبو داود (٣١٣٨) ، والترمذي (١٠٣٦) ، والنسائي (٤/٦٢) ، وابن ماجه (١٥١٤)].

وأمر رسولُ الله (ص) أن يدفنوا حيثُ صُرِعوا ، وأُعيد مَنْ أُخذ؛ ليدفن داخل المدينة. [النسائي (٤/٧٩)].

ولما رأى رسولُ الله (ص) حمزةَ بن عبد المطلب وقد مُثِّل به؛ حزن حزناً شديداً ، وبكى حتَّى نشغ[(٣٩٦)] من البُكاء[(٣٩٧)] وقال (ص) : «لولا أن تحزن صفيَّة ، ويكون سنةً من بعدي؛ لتركتُه حتَّى يكون في بطون السِّباع ، وحواصل الطَّير ، ولئن أظهرني الله على قريشٍ في موطن من المواطن؛ لأمثلنَّ بثلاثين رجلاً منهم» فلمَّا رأى المسلمون حُزْنَ رسول الله (ص) وغيظه على مَنْ فعل بعمِّه ما فعل ، قالوا: والله! لئن أظفرنا الله عليهم يوماً من الدَّهر ، لنمثلنَّ بهم مُثلَةً لم يُمَثِّلْهَا أحدٌ من العرب. [أحمد (٣/١٢٨) ، وأبو داود (٣١٣٦) ، والترمذي (١٠١٦) ، والحاكم (٣/١٩٦) ، وابن أبي شيبة (١٤/٣٩١ ـ ٣٩٢)][(٣٩٨)] ، فنزل قول الله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ *} [النحل: ١٢٦].

لقد ارتكب المشركون صوراً من الوحشيَّة ، حيث قاموا بالتَّمثيل بقتلى المسلمين ، فبقروا بطون كثيرٍ من القتلى ، وجَدَعُوا أنوفَهم ، وقطعوا الاذان ، ومذاكير بعضهم[(٣٩٩)]؛ ومع ذلك صَبَرَ رسولُ الله (ص) وأصحابه ، واستجابوا لتوجيه المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ فعفا ، وصبر ، وكَفَّر عن يمينه ، ونهى عن المثْلَةِ.

روى ابن إسحاق بسنده عن سَمُرة بن جُنْدب ، قال: ما قام رسولُ الله (ص) في مقامٍ قطُّ ففارقه ، حتَّى يأمرنا بالصَّدقة ، وينهانا عن المثْلَة. [ابن هشام (٣/١٠٢)].

ثالثاً: دعاء الرَّسول (ص) يوم أُحدٍ:

صلّى رسولُ الله (ص) بأصحابه الظُّهر قاعداً لكثرة ما نزف من دمه ، وصلَّى وراءه المسلمون قعوداً ، وتوجَّه النَّبيُّ (ص) بعد الصَّلاة إلى الله بالدُّعاء ، والثَّناء على ما نالهم من الجَهْد ، والبلاء ، فقال

لأصحابه: «استووا حتَّى أُثني على ربِّي ـ عزَّ وجلَّ» ، فصاروا خلفه صفوفاً ، ثمَّ دعا بهذه الكلمات الدَّالة على عمق الإيمان[(٤٠٠)] ، فقال (ص) : «اللَّهمَّ! لك الحمدُ كلُّه ، اللَّهُمَّ لا قابضَ لِمَا بَسطتَ ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لما أضلَلْتَ ، ولا مُضِلَّ لمنْ هديت ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، ولا مانع لما أعطيتَ ، ولا مُقَرِّب لما باعدْتَ ، ولا مُبْعِد لما قرَّبْتَ.

اللَّهُمَّ! ابسطْ علينا من بركاتك ، ورحمتك ، وفضلك ، ورزقك. اللّهُمَّ! إنِّي أسألك النَّعيم المقيم؛ الَّذي لا يَحُول ، ولا يزول. اللَّهُمَّ! إنِّي أسألك النَّعيم يوم الغلبة ، والأمنَ يوم الخوف. اللَّهُمَّ! عائذٌ بك من شرِّ ما أعطيتنا ، وشرِّ ما منعتنا. اللَّهُمَّ! حَبِّبْ إلينا الإيمان ، وزيِّنه في قلوبنا ، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق ، والعصيان ، واجعلنا من الرَّاشدين. اللَّهُمَّ توفَّنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصَّالحين غيرَ خزايا ، ولا نادمين ، ولا مفتونين. اللَّهُمَّ! قاتل الكفرة الَّذين يكذِّبون رُسُلَكَ ، ويصدُّون عن سبيلك ، واجعلْ عليهم رجزكَ ، وعذابك. اللَّهُمَّ قاتل الكفرة الَّذين أوتوا الكتاب ، إله الحَلْق» [أحمد (٣/٤٢٤) ، والبزار (١٨٠٠) ، والطبراني في المعجم (٤٥٤٩) ، والبخاري في الأدب المفرد (٦٩٩) ، ومجمع الزوائد (٦/١٢١ ـ ١٢٢)] ثمَّ ركب فرسه ، ورجع إلى المدينة[(٤٠١)].

وهذا أمرٌ عظيم ، شرعه رسول الله (ص) لأمَّته ، لكي يطلبوا النَّصر ، والتَّوفيق من ربِّ العالمين ، وبيَّن لأمَّته: أنَّ الدُّعاء مطلوبٌ في ساعة النَّصر ، والفتح ، وفي ساعة الهزيمة؛ لأنَّ الدُّعاء مُخُّ العبادة ، كما أنَّه من أقوى الأسباب في دفع المكروه ، وحصول المطلوب ، ويجعل القلوب متعلِّقة بخالقها ، فينزل عليها السَّكينة ، والثَّبات ، والاطمئنان ، ويمدُّها بقوَّةٍ رُوحيَّةٍ عظيمةٍ ، فترتفع المعنويات نحو المعالي ، وتتطلَّع إلى ما عند الله تعالى.

في أعقاب المعركة ، يتَّخذ النَّبيُّ (ص) أُهْبَتَهُ ، وينظِّم المسلمين صفوفاً ، لكي يُثْنِيَ على ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ إنَّه لموقفٌ عظيمٌ ، يُجَلِّي إيماناً عميقاً ، ويكشف عن العبودية المطلقة لربِّ العالمين الفعَّال لما يريد ، فهو القابض ، والباسط ، والمعطي ، والمانع ، لا رادَّ ، ولا مُعَقِّب لحُكْمِه.

إنَّ هذا الموقف من أعظم مواقف العبوديَّة الَّتي تسمو بالعابدين ، وتجلُّ المعبود كأعظم ما يكون الإجلال ، والإكبار ، وأبرز ما يكون الحَمْدُ والثَّناء[(٤٠٢)].

رابعاً: معرفة وِجْهَةِ العدو:

بعد أن انسحب جيش المشركين من أرض المعركة أرسل رسولُ الله (ص) عليَّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه بعد الغزوة مباشرة ، وذلك لمعرفة اتِّجاه العدوِّ ، فقال له: «اخرج في اثار القوم ، وانظر ماذا

يصنعون ، وما يريدون؟ فإن كانوا قد جَنَّبُوا الخيلَ[(٤٠٣)] ، وامتطوا الإبل[(٤٠٤)] [الواقدي في المغازي (٢٩٨/١) ، والطبري في تاريخه (٥٢٧/٢) ، والبيهقي في الدلائل (٢٨٢/٣)]؛ فإنَّهم يريدون مكَّة ، وإن ركبوا الخيل ، وساقوا الإبل ، فهم يريدون المدينة ، والَّذي نفسي بيده! إن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ، ثمَّ لأناجزنَّهم». قال عليٌّ: فخرجت في أثرهم أنظرُ ماذا يصنعون ، فجَنَّبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، ووجَّهوا إلى مكَّة[(٤٠٥)] ، فرجع عليٌّ رضي الله عنه ، وأخبر رسول الله (ص) بخبر القوم.

وفي هذا الخبر عدَّة دروسٍ ، وعبرٍ؛ منها: يقظة الرَّسول (ص) ، ومراقبتُه الدَّقيقة لتحرُّكات العدوِّ ، وقدرته (ص) على تقدير الأمور ، وظهور قوَّته المعنويَّة العالية؛ ويظهر ذلك في استعداده لمقاتلة المشركين لو أرادوا المدينة ، وفيه ثقة النَّبيِّ (ص) بعليٍّ رضي الله عنه ، ومعرفته بمعادن الرِّجال ، وفيه شجاعة عليٍّ رضي الله عنه؛ لأنَّ هذا الجيش لو أبصره ما تورَّع عن محاولة قتله[(٤٠٦)].

ونلحظ: أنَّ النَّبيَّ (ص) أقام في أرض المعركة بعد أن انتهت؛ تفقَّد خلالها الجرحى، والشُّهداء ، وأمر بدفنهم ، ودعا ربَّه ، وأثنى عليه سبحانه ، وأرسل عليّاً ليتتبَّع خبر القوم؛ كلُّ ذلك من أجل أن يحافظ على النَّصر الذي أحرزه المسلمون في غزوة أُحُدٍ ، وهذا من فقه سنن الله تعالى في الحروب والمعارك ، فقد جعل سبحانه من سننه في خلقه أن جعل للنَّصر أسباباً ، وللهزيمة أسباباً ، فمن أخذ بأسباب النَّصر ، وصدق التَّوكُّل على الله ـ سبحانه وتعالى ـ حقيقة التوكُّل؛ نال النَّصر بإذن الله ـ عزَّ وجل ـ ، كما قال تعالى: {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً *} [الفتح: ٢٣].

ويتجلَّى فقه النَّبيِّ (ص) في ممارسة سنَّة الأخذ بالأسباب ، في غزوة حمراء الأسد.

خامساً: غزوة حمراء الأسد:

نجد في بعض الرِّوايات: أنَّ النَّبيَّ (ص) تابع أخبار المشركين بواسطة بعض أتباعه، حتَّى بعد رجوعهم إلى مكَّة ، وبلغه مقالة أبي سفيان يلوم فيها جنده لكونهم لم يشفوا غليلهم من محمَّد ، وجنده ، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لما انصرف أبو سفيان والمشركون من أُحدٍ ، وبلغوا الرَّوْحاء[(٤٠٧)] ، قال أبو سفيان: لا محمَّداً قتلتُم ، ولا الكواعب أردفتُم ، شرٌّ ما صنعتم! فبلغ ذلك رسول الله (ص) [الطبراني في المعجم الكبير (١١٦٣٢) ، ومجمع الزوائد (١٢١/٦)]. وتفيد هذه الرِّواية خبر استطلاع الرَّسول (ص) أعداءه حتَّى بعد انتهاء المعركة؛ وذلك لكي يطمئنَّ على عدم مباغتتهم له.

وعندما سمع ما كانت تعزم عليه قريش من العودة إلى المدينة ، خرج بمن حضره يوم أُحُدٍ من المسلمين دون غيرهم إلى حمراء الأسد.

قال ابن إسحاق: كان يوم أُحُد يوم السَّبت للنِّصف مِنْ شوَّال ، فلمَّا كان الغدُ من يوم الأحد لستَّ عشرة ليلةً مضت من شوَّال؛ أذَّن مؤذنُ رسولِ الله (ص) في النَّاس بطلب العدوِّ ، وأذَّن مؤذِّنه ألاَّ يخرجنَّ معنا أحَدٌ إلا مَنْ حضر يومنا بالأمس ، فاستأذنه جابر بن عبد الله في الخروج معه ، فأذن له ، وإنَّما خرج مُرْهِباً للعدوِّ ، وليظنُّوا أنَّ الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوِّهم. [ابن هشام (١٠٧/٣) ، والبيهقي في الدلائل (٣١٤/٣)][(٤٠٨)]. وقد استجاب أصحاب النَّبيّ (ص) لنداء الجهاد ، حتَّى الَّذين أُصيبوا بالجروح؛ فهذا رجلٌ من بني عبد الأشهل يقول: شهدت أُحُداً أنا ، وأخٌ لي ، فرجعنا جريحَين ، فلما أذَّن مؤذِّن رسول الله (ص) بالخروج في طلب العدوِّ؛ قلت لأخي ـ أو قال لي ـ: أتفوتُنا غزوةٌ مع رسول الله (ص) ؟ والله ما لنا من دابةٍ نَرْكَبُها ، وما منا إلا جريحٌ ثقيلٌ ، فخرجنا مع رسول الله (ص) ، وكنت أيسرَ جُرْحاً منه ، فكان إذا غُلب؛ حملته عُقبةً ومشى عُقبةً (فترةً) ، حتَّى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون[(٤٠٩)].

وسار رسول الله (ص) إلى حمراء الأسد ، واقترب بجنوده من جيش المشركين ، فأقام فيه ثلاثة أيام يتحدَّى المشركين ، فلم يتشجَّعوا على لقائه ، ونزاله ، وكان رسول الله (ص) قد أمرَ بإشعال النِّيران، فكانوا يشعلون في وقتٍ واحد خمسمئة نار[(٤١٠)].

وأقبل مَعبدُ بن أبي معبد الخزاعيُّ إلى رسول الله (ص) فأسلم ، فأمره أن يلحق بأبي سفيان ، فيخذِّله ، فلحقه بالرَّوحاء ـ ولم يعلم بإسلامه ـ فقال: ما وراءك يا معبد؟! فقال: محمَّدٌ وأصحابه ، فقد تحرَّقوا[(٤١١)] عليكم ، وخرجوا في جمعٍ لم يخرجوا في مثله ، وقد ندم من كان تخلَّف عنهم من أصحابهم. فقال: ما تقول؟! فقال: ما أرى أن ترتحل حتَّى يطلع أوَّل الجيش من وراء هذه الأكمة[(٤١٢)] ، فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرَّة عليهم لنستأصلهم. قال معبد: فإنِّي أنهاك عن ذلك ، ووالله! لقد حملني ما رأيتُ على أن قلتُ فيه أبياتاً من شعرٍ:

قال: وما قلتَ؟ قال: قلتُ:

كَادَتْ تُهَدُّ مِنَ الأصْوَاتِ رَاحِلَتِي   إذْ سَالَتِ الأرْضُ بالجُرْدِ[(٤١٣)] الأَبابِيْلِ

تَرْدِي[(٤١٤)] بأُسْدٍ كِرَامٍ لاَ تَنابِلَةٍ[(٤١٥)]   عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلاَ مِيْلٍ[(٤١٦)] مَعَازِلِ[(٤١٧)]

فَظَلْتُ أَعْدُو أَظُنُّ الأَرْضَ مَائِلَةً   لما سَمَوْا بِرَئِيْسٍ غَيْرِ مَخْذُوْلِ

فَقُلْتُ: وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمُ   إذَا تَغَطْمَطَتِ[(٤١٨)] البَطْحَاءُ بِالجِيْلِ

إِنِّي نَذِيْرٌ لأَهْلِ البَسْلِ ضَاحِيَةً   لِكُلِّ ذِيْ إِرْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُوْلِ

مِنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لاَ وَخْشٍ[(٤١٩)] تَنَابِلَةٌ وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أَنْذَرْتُ بِالقِيْلِ[(٤٢٠)]

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه ، وحاول أبو سفيان أن يغطِّي انسحابه هذا بشنِّ حربٍ نفسيَّة على المسلمين ، لعلَّه يُرهبهم ، فأرسل مع رَكْبِ عبد القيس . وكانوا يريدون المدينة للْمِيْرَةِ[(٤٢١)] . [البيهقي في الدلائل (٣/٣١٥ ـ ٣١٧) ، وابن هشام (٣/١٠٨ ـ ١١٠)] رسالةً إلى رسول الله (ص) ، مفادها: أنَّ أبا سفيان وجيشه قد أجمعوا على السَّير إليه ، وإلى أصحابه ليستأصلهم من الوجود ، وواعد أبو سفيان الرَّكبَ أن يعطيهم زبيباً عندما يأتونه في سوق عُكَاظ ، ومرَّ الرَّكبُ برسول الله (ص) وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالَّذي قاله أبو سفيان ، فقال هو والمسلمون: حسبنا اللهُ ، ونِعْمَ الوكيلُ[(٤٢٢)].

واستمرَّ المسلمون في معسكرهم ، واثرت قريش السَّلامة ، والأوبةَ[(٤٢٣)] ، فرجعوا إلى مكَّة ، وبعد ذلك عاد المسلمون إلى المدينة بروحٍ قويَّةٍ متوثِّبةٍ ، غسلت عَارَ الهزيمة ، ومسحت مغبَّةَ[(٤٢٤)] الفشل ، فدخلوها أعزةً رفيعي الجانب ، عبثوا بانتصار المشركين ، وهزُّوا أعصابهم ، وأحبطوا شماتة المنافقين ، واليهود في المدينة ، وأشار القران الكريم إلى هذه الحرب الباردة ، وسجَّل ظواهرها[(٤٢٥)] بقوله تعالى[(٤٢٦)]: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ *إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *} [آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٥] ووقع في أسر النَّبيِّ (ص) قبل رجوعه إلى المدينة ، أبو عزَّة الجُمَحِيُّ الشَّاعر ، فقُتِل صبراً؛ لأنَّه أخلف وعده للرَّسول (ص) بألاَّ يقاتل ضدَّه عندما منَّ عليه ببدرٍ ، وأطلقه ، فعاد فقاتل في أُحدٍ ، وقد حاول أبو عزَّة أن يتخلَّص من القتل ، وقال: يا رسول الله! أقِلْني[(٤٢٧)] ، فقال رسول الله (ص) : «لا والله! لا تمسح عارضيك[(٤٢٨)] بمكَّة بعدها ، وتقول: خدعتُ محمَّداً مرَّتين ، اضرب عنقه يا زُبيرُ!» [ابن سعد (٢/٤٣) ، والبيهقي في السنن الكبرى[(٤٢٩)] (٩/٦٥) ، وفي دلائل النبوة (٣/٢٨٠ ـ ٢٨١)]. فضرب عُنقَه ، فقال النَّبيُّ (ص) حينئذٍ: «لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ واحدٍ مرَّتين» [البخاري (٦١٣٣) ، ومسلم (٢٩٩٨)][(٤٣٠)] ، فصار هذا الحديث مثلاً ، ولم يسمع قبل ذلك.

ويعد هذا العمل من قبيل السِّياسة الشَّرعية؛ لأنَّ هذا الشَّاعر من المفسدين في الأرض ، الدَّاعين إلى الفتنة ، ولأنَّ في المنِّ عليه تمكيناً له من أن يعود حرباً على المسلمين.

ولم يُؤْسَرْ من المشركين سوى أبي عزَّةَ الجُمَحيّ[(٤٣١)].

وأمَّا عدد القتلى من المسلمين في أُحدٍ؛ فقد انجلت المعركة عن سبعين شهيداً من المسلمين ، ويؤيِّد هذا تفسير قوله تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [آل عمران: ١٦٥] أنَّها نزلت تسليةً للمؤمنين عمَّن أُصيب منهم يوم أُحدٍ. قال ابن عطيَّة ـ رحمه الله ـ: وكان المشركون قد قتلوا منهم سبعين نفراً ، وكان المسلمون قد قتلوا من المشركين ببدرٍ سبعين ، وأسروا سبعين[(٤٣٢)].

أمَّا عدد الَّذين قُتلوا يوم أُحدٍ من المشركين ، فكان اثنين وعشرين قتيلاً[(٤٣٣)].

كان خروج رسول الله (ص) لملاحقة المشركين في غزوة حمراء الأسد ، يهدف إلى تحقيق مجموعة من المقاصد المهمَّة؛ منها:

١ ـ ألاَّ يكون اخر ما تنطوي عليه نفوس الَّذين خرجوا يوم أُحدٍ هو الشُّعور بالهزيمة.

٢ ـ إعلامهم: أنَّ لهم الكرَّة على أعدائهم متَى نفضوا عنهم الضَّعف ، والفشل ، واستجابوا لدعوة الله ، ورسوله (ص) .

٣ ـ تجرئة الصَّحابة على قتال أعدائهم.

٤ ـ إعلامُهم: أنَّ ما أصابهم في ذلك اليوم ، إنَّما هو منحةٌ ، وابتلاءٌ اقتضتها إرادة الله ، وحكمتُه ، وأنَّهم أقوياء ، وأنَّ خصومهم الغالبين في الظَّاهر ضعفاء[(٤٣٤)].

كما أنَّ في خروج النَّبيِّ (ص) إلى حمراء الأسد إشارةً نبويَّةً إلى أهمِّيَّة استعمال الحرب النَّفسيَّة للتأثير على معنويات الخصوم؛ حيث خرج (ص) بجنوده إلى حمراء الأسد ، ومكث فيها ثلاثة أيَّامٍ ، وأمر بإيقاد النِّيران ، فكانت تُشاهدُ من مكانٍ بعيدٍ ، وملأت الأرجاء بأنوارها ، حتَّى خُيِّل لقريش: أنَّ جيش المسلمين ذو عددٍ كبير لا طاقة لهم به ، فانصرفوا؛ وقد ملأ الرُّعب أفئدتهم[(٤٣٥)].

قال ابن سعد: «ومضى رسولُ الله (ص) بأصحابه حتَّى عسكروا بحمراء الأسد ، وكان المسلمون يوقِدون تلك اللَّيالي خمسمئة نارٍ حتَّى تُرى من المكان البعيد ، وذهب صوت معسكرهم ، نيرانهم في كلِّ وجهٍ؛ فكبَتَ اللهُ تعالى بذلك عدوَّهم»[(٤٣٦)].

سادساً: مشاركة نساء المسلمين في معركة أُحدٍ:

كانت غزوة أحدٍ أوَّل معركة في الإسلام تشارك فيها نساءُ المسلمين ، وقد ظهرت بطولاتُ النِّساء ، وصدق إيمانهنَّ في هذه المعركة ، فقد خرجن لكي يسقين العطشى ، ويداوين الجرحى ، ومنهنَّ مَنْ

قامت بردِّ ضربات المشركين الموَجَّهة للرَّسول (ص) ، وممَّن شاركن في غزوة أحدٍ: أمُّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصِّدِّيق، وأمُّ عمارة ، وحَمْنَة بنت جَحْشٍ الأسديَّة ، وأمُّ سَلِيط ، وأمُّ سُلَيْم ، ونسوةٌ من الأنصار. [مسلم (١٨٠٩ و١٨١٠ و١٨١١)].

قال ثعلبة بن أبي مالكٍ رضي الله عنه: إنَّ عمر بن الخطاب قَسَمَ مُرُوطاً بين نساءٍ من نساء أهل المدينة، فبقي منها مِرطٌ جيِّدٌ، فقال له بعض مَنْ عنده: يا أمير المؤمنين! أعطِ هذا بنت رسول الله الَّتي عندك ـ يريدون أمَّ كلثوم بنتَ عليٍّ ـ فقال عمر رضي الله عنه: أم سَليط أحقُّ به. وأمُّ سليط من نساء الأنصار مِمَّن بايع رسولَ الله (ص) . قال عمر: فإنها كانت تُزْفِرُ[(٤٣٧)] لنا القِرَبَ يوم أُحدٍ. [البخاري (٢٨٨١ ، ٤٠٧١)].

أ ـ سقي العطشى من المجاهدين:

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «لما كان يوم أُحدٍ ، انهزمَ النَّاسُ عن النَّبيِّ (ص) ، قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكرٍ ، وأمَّ سُلَيم ، وإنَّهما لمشمِّرتان ، أرى خَدَمَ سُوقِهنَّ تَنْقُزَانِ[(٤٣٨)] القِرَبَ ـ وقال غيره: تنقلان القربَ ـ على متونهما ، ثمَّ تُفْرِغَانِهِ في أفواه القوم ، ثمَّ ترجعان ، فتملانها ، ثمَّ تجيئان ، فتُفرغَانه في أفواه القوم» [البخاري (٢٨٨٠)].

وقال كعب بن مالكٍ رضي الله عنه: «رأيتُ أمَّ سُلَيم بنت ملحان ، وعائشة ، على ظهورهما القِرَبُ ، يحملانها يوم أُحدٍ ، وكانت حَمْنَةُ بنت جحشٍ تسقي العطشى ، وتداوي الجرحى ، وكانت أمُّ أيمن تسقي الجرحى».

ب ـ مداواة الجرحى ، ومواساة المصابين:

عن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله (ص) يغزو بأمِّ سُلَيم ، ونسوةٍ من الأنصار معه؛ إذا غزا ، فيسقين الماءَ ، ويداوين الجرحى. [مسلم (١٨١٠)].

وأخرج عبد الرَّزاق عن الزُّهريِّ: كان النِّساء يشهدن مع النَّبيِّ (ص) المشاهد ، ويسقين المقاتلة ، ويداوين الجرحى[(٤٣٩)]. وعن الرُّبيِّع بنت مُعَوِّذٍ ، قالت: كنَّا مع النَّبيِّ (ص) نسقي القوم، ونداوي الجرحى، ونردُّ القتلى إلى المدينة. [البخاري (٢٨٨٢)]. وفي روايةٍ: كنَّا نغزو مع النَّبيِّ (ص) ، فنسقي القوم ، ونخدمُهم ، ونردُّ الجرحى ، والقتلى إلى المدينة. [البخاري (٢٨٨٣)].

وعن أبي حازمٍ: أنَّه سمع سهل بن سعدٍ رضي الله عنه وهو يسأل عن جرح رسول الله (ص) ، فقال: أما والله! إنِّي لأعرفُ مَنْ كان يغسلُ جُرحَ رسول الله (ص) ، ومن كان يسكب الماء ، وبما دُوويَ. قال:

كانت فاطمةُ رضي الله عنها بنتُ رسول الله (ص) تغسلُه ، وعليٌّ يسكب الماء بالمجنِّ ، فلمَّا رأت فاطمة: أنَّ الماء لا يزيدُ الدَّم إلا كثرةً؛ أخذت قطعةً من حصيرٍ ، فأحرقتها ، وألصقتها ، فاستمسك الدَّم. [البخاري (٤٠٧٥) ، ومسلم (١٧٩٠)].

ج ـ الدِّفاع عن الإسلام ورسوله (ص) بالسَّيف:

لم تقاتل المشركين يوم أُحدٍ إلا أمُّ عُمارة نُسَيبة المازنيَّة رضي الله عنها ، وهذا ضَمْرَةُ بن سعيدٍ يحدث عن جدَّته ، وكانت قد شهدت أُحداً تسقي الماء ، قالت: سمعت النَّبيَّ (ص) يقول: لَمُقَامُ نُسَيْبة بنتِ كعبٍ اليوم خيرٌ من مُقام فلانٍ ، وفلان ، وكان يراها تُقاتل يومئذٍ أشدَّ القتال ، وإنَّها لحاجزةٌ ثوبها على وسطها ، حتَّى جُرِحَتْ ثلاثة عشرَ جرحاً ، فلمَّا حضرتها الوفاة كنت فيمن غسَّلها ، فعددت جراحها جُرْحاً جُرْحاً ، فوجدتها ثلاثة عشر جرحاً. وكانت تقول: إنِّي لأنظرُ إلى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها ـ وكان أعظم جراحها ، لقد داوته سنةً ـ ثم نَادَى منادي النَّبيِّ (ص) : إلى حمراء الأسد! فشدَّت عليها ثيابها ، فما استطاعت من نزف الدَّم ، ولقد مكثنا ليلنا نكمِّد الجراح حتَّى أصبحنا ، فلمَّا رجع رسول الله (ص) من الحمراء ، ما وصل إلى بيته حتَّى أرسل إليها عبدَ الله بن كعبٍ المازني[(٤٤٠)] ـ أخا أمِّ عُمارة ـ يسأل عنها ، فرجع إليه يخبره بسلامتها ، فسُرَّ النَّبيُّ (ص) بذلك[(٤٤١)].

وقد علَّق الأستاذ حسين الباكريُّ على مشاركة نُسَيبة بنت كعب في القتال ، فقال: «وخروج المرأة للقتال مع الرِّجال لم يثبت في ذلك منه شيءٌ غيرُ قصَّة نُسَيبة؛ وقتال نسيبة إنَّما كان اضطراريّاً؛ حين رأت: أنَّ رسول الله (ص) أصبح في خطرٍ حين انكشف عنه النَّاس ، فأمُّ عُمارة إذاً كانت في موقفٍ أصبح حَمْلُ السِّلاح فيه واجباً على مَنْ يقدر على حمله؛ رجلاً كان ، أو امرأةً»[(٤٤٢)].

وعلَّق الدُّكتور أكرم ضياء العمري على الاثار الدَّالة على مشاركة النِّساء في أحدٍ بقوله: «وهذه الاثار تدلُّ على جواز الانتفاع بالنِّساء عند الضَّرورة ، لمداوة الجرحى ، وخدمتهم؛ إذا أُمِنَتْ فتنتهُنَّ مع لزومهنَّ السِّتر ، والصِّيانة ، ولهنَّ أن يُدافعْنَ عن أنفسهن بالقتال؛ إذا تعرَّض لهنَّ الأعداء ، مع أنَّ الجهاد فرضٌ على الرِّجال وحدهم ، إلا إذا داهم العدوُّ ديار المسلمين ، فيجب قتاله من الجميع رجالاً ، ونساء»[(٤٤٣)].

وأمَّا الأستاذ محمَّد أحمد باشميل؛ فقد قال: «وقد كانت معركة أُحدٍ أوَّل معركةٍ في الإسلام قاتلت فيها المرأة المسلمة المشركين ، ومن الثَّابت: أنَّ امرأةً واحدةً فقط اشتركت في هذه المعركة ، وهي تدافع عن

رسول الله (ص) ، كما أنَّه من الثَّابت أيضاً: أنَّ المرأة الَّتي اشتركت في معركة أحدٍ لم تخرج بقصد القتال ، فهي لم تكن مجنَّدةً فيها كالرِّجال؛ وإنَّما خرجت لتنظر ما يصنع النَّاس لتقوم بأيَّة مساعدةٍ يمكنها القيام بها للمسلمين؛ كإغاثة الجرحى بالماء ، وما شابه ذلك ، يضاف إلى هذا أنَّ هذه المرأة الَّتي خاضت معركة أُحدٍ ، هي امرأةٌ قد تخطَّت سِنَّ الشَّباب ، كما أنَّها لم تخرج إلى المعركة إلاَّ مع زوجها ، وابنيها ، الَّذين كانوا من الجند

الَّذين قاتلوا في المعركة ، يضاف إلى هذا الرَّصيد الهائل؛ الَّذي لديها من المناعة الخُلقيَّة والتَّربية الدِّينيَّة ، فلا يقاس على هذه الصَّحابية الجليلة ، مجنَّدات هذا الزَّمان ، الَّلائي يرتدين لباس الميدان ، وعنصر الإغراء ، والفتنة هو أهمُّ عنصرٍ يتميَّزن به ، ويحرصن على إظهاره للرِّجال؛ فأين الثَّرَى مِنَ الثُّرَيَّا؟!

كذلك رجال ذلك العصر لا يقاس عليهم أحدٌ من رجال هذا الزَّمان ، من ناحية الشَّهامة ، والاستقامة ، والعفَّة والرُّجولة ، فكلُّ المحاربين الَّذين اشتركت معهم المرأة في معركة أُحدٍ ، كانوا صفوة الأمَّة الإسلاميَّة ، ورمز نبلها ، وشهامتها ، وعنوان رجولتها ، واستقامتها ، فلا يصحُّ مطلقاً جعل اشتراك تلك المرأة في معركة أُحدٍ قاعدةً تقاس عليها (من النَّاحية الشَّرعيَّة) إباحة تجنيد المرأة في هذا العصر ، لتقاتل بجانب الرَّجل (كعنصر أساسٍ من عناصر الجيش) فالقياس في هذه الحالة قياسٌ مع الفارق ، وهو قياسٌ باطلٌ قطعاً»[(٤٤٤)].

سابعاً: دروس في الصَّبر تقدِّمها صحابيَّاتٌ للأمَّة:

أ ـ صفية بنت عبد المطَّلب رضي الله عنها:

لما استُشهد أخوها حمزةُ بن عبد المطَّلب رضي الله عنه في أُحدٍ ، وجاءت لتنظر إليه؛ وقد مَثَّلَ به المشركون ، فجدعوا أنفه ، وبقروا بطنه ، وقطعوا أذنيه ، ومذاكيره ، فقال رسول الله (ص) لابنها الزُّبير بن العوَّام: «الْقَها ، فأَرْجعها؛ لا ترى ما بأخيها» فقال لها: يا أُمَّه! إنَّ رسول الله (ص) يأمرك أن ترجعي ، قالت: ولِمَ؟ وقد بلغني: أنَّه قد مُثِّلَ بأخي ، وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبنَّ ، ولأصبرنَّ إن شاء الله.

فلمَّا جاء الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه إلى رسول الله (ص) فأخبره بذلك ، قال: «خَلِّ سبيلها» فأتته ، فنظرت إليه ، فصلَّت عليه ، واسترجعت[(٤٤٥)] ، واستغفرت له. [سبق تخريجه][(٤٤٦)].

ب ـ حَمْنَةُ بنت جحش رضي الله عنها:

لما فرغ رسول الله (ص) من دفن أصحابه رضي الله عنهم ، ركب فرسه ، وخرج المسلمون حوله راجعين إلى المدينة ، فلقيته حَمْنَةُ بنت جحشٍ ، فقال لها رسول الله (ص) : يا حمنةُ! احتسبي! قالت: مَنْ يا رسول الله؟! قال: أخاك عبدَ الله بن جحشٍ ، فاسترجعت ، واستغفرت له ، ثمَّ قال لها رسولُ الله (ص) : احتسبي! فقالت: مَنْ يا رسول الله؟! قال: خالك حمزة بن عبد المطَّلب ، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ، هنيئاً له الشهادة. ثمَّ قال لها: احتسبي ! قالت: مَنْ يا رسول الله؟ قال: زوجُك مصعب بن عُمَيْرٍ ، قالت: واحزناه !

وصاحت ، ووَلْوَلَتْ. فقال رسول الله (ص) : «إنَّ زوج المرأة منها لبمكانٍ»؛ لما رأى من تَثَبُّتِها عند أخيها ، وخالها ، وصياحها على زوجها. [ابن ماجه (١٥٩٠)، والطبري في تاريخه (٢/٥٣٢)، والبيهقي في الدلائل (٣/٣٠١)، وابن هشام (٣/١٠٤)]. ثمَّ قال لها: ولِمَ قلتِ هذا؟ قالت: يا رسول الله! ذكرت يُتْمَ بنيه ، فراعني ، فدعا لها رسول الله (ص) ، ولوَلدِها أن يحسن الله تعالى عليهم من الخَلَفِ[(٤٤٧)] ، فتزوَّجت طلحةَ بن عبيد الله ، فولدت منه محمَّداً ، وعمران[(٤٤٨)] ، وكان محمَّد بن طلحة أوصل النَّاس لولدها[(٤٤٩)].

ج ـ المرأة الدِّينارية رضي الله عنها:

قال سعد بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه: مرَّ رسول الله (ص) بامرأةٍ من بني دينار ، وقد أُصيب زوجُها ، وأخوها ، وأبوها مع رسول الله (ص) بأُحدٍ ، فلمَّا نُعُوا لها؛ قالت: فما فعل رسولُ الله (ص) ؟ قالوا: خيراً يا أمَّ فلان! هو بحمد الله كما تحبِّين ، قالت: أَرُونيه حتَّى أنظرَ إليه ، فأُشير لها إليه ، حتَّى إذا رأته؛ قالت: كلُّ مصيبةٍ بعدَك جَلَلٌ[(٤٥٠)]. [الواقدي في المغازي (١/٢٩٢) ، والطبري في تاريخه (٢/٥٣٣) ، والبيهقي في الدلائل (٢/٣٠٢) ، وابن هشام (٣/١٠٥)]. ـ تريد: صغيرةٌ .. وهكذا يفعل الإيمان في نفوس المسلمين!

د ـ أمُّ سعد بن مُعاذٍ ، وهي كبشةُ بنت عبيد الخزرجيَّة رضي الله عنها:

خرجت أمُّ سعد بن معاذ تعدو نحو رسولِ الله (ص) ، ورسولُ الله (ص) واقفٌ على فرسه ، وسعد بن معاذ اخذٌ بعنَانِ[(٤٥١)] فرسه ، فقال سعد: يا رسول الله! أمِّي! فقال رسول الله (ص) : مرحباً بها ، فدنت حتَّى تأمَّلت رسولَ الله ، فقالت: أما إذ رأيتك سالماً؛ فقد أشوت[(٤٥٢)] المصيبة ، فعزَّاها رسول الله (ص) بعمرو بن معاذٍ ابنها ، ثمَّ قال: يا أمَّ سعد! أبشري ، وبشِّري أهليهم: أنَّ قتلاهم قد ترافقوا في الجنَّة جميعاً ـ وهم اثنا عشر رجلاً ـ وقد شُفِّعوا في أهليهم. قالت: رضينا يا رسول الله! ومن

يبكي عليهم بعد هذا؟! ثمَّ قالت: ادعُ يا رسولَ الله! لمن خُلِّفوا. فقال رسول الله (ص) : « اللّهُمَّ أذهب حُزن قلوبهم ، واجْبُرْ مصيبتهم ، وأحسن الخَلَفَ على من خُلِّفُوا». [مغازي الواقدي (١/٣١٥ ـ ٣١٦)].

* * *

المبحث الرَّابع

بعض الدُّروس ، والعبر ، والفوائد

لقد وصف القران الكريم غزوة أُحدٍ وصفاً دقيقاً ، وكان التَّصويرُ القرانيُّ للغزوة أقوى حيويَّة ، ووضوحاً من الرِّوايات الَّتي جاءت في الغزوة ، كما أنَّ أسلوب الايات المطمئنة ، المبشِّرة ، واللاَّئمة ، والمسكِّنة ، والواعظة كان رائعاً ، وقويّاً ، فبيَّن القران الكريم نفوس جيش النَّبيِّ (ص) ، وهذا تَمَيُّزٌ لحديث القران عن الغزوة ، ينفرد به عمَّا جاء في كتب السِّيرة ، فسلَّط القران الكريم الأضواء على خفايا القلوب؛ الَّتي ما كان المسلمون أنفسُهم يعرفون وجودها في قلوبهم ، والنَّاظر عموماً في منهج القران في التَّعقيب على غزوة أُحدٍ يجد الدِّقَّة ، والعمق ، والشُّمول. يقول سيِّد قطب: «الدِّقَّة في تناول كلِّ موقفٍ ، وكلِّ حركةٍ ، وكلِّ خالجةٍ ، والعمق في التَّدسُّس إلى أغوار النَّفس ، ومشاعرها الدَّفينة ، والشُّمول لجوانب النَّفس ، وجوانب الحادث.

كما نجد الحيويَّة في التَّصوير ، والإيقاع ، والإيحاء ، بحيث تتماوجُ المشاعر مع التَّعبير ، والتَّصوير تماوجاً عميقاً عنيفاً ، ولا تملك أن تقف جامدةً أمام الوصف والتَّعقيب؛ فهو وصفٌ حيٌّ ، يستحضر المشاهِدَ كما لو كانت تتحرَّك ، ويشيع حولها النَّشاط المؤثِّر ، والإشعاع النَّافذ ، والإيحاء المثِيْر»[(٤٥٣)].

إنَّ حركة النَّبيِّ (ص) في تربية الأمَّة ، وإقامة الدَّولة ، والتَّمكين لدين الله ، يعتبر انعكاساً في دنيا الحياة لمفاهيم القران الكريم، الَّتي سيطرت على مشاعره، وأفكاره، وأحاسيسه (ص) ، ولذلك نجد أنَّ النَّبيَّ (ص) في علاجه لأثر الهزيمة في أُحدٍ تابعٌ للمنهج القرانيّ الكريم ، ونحاول تسليط الأضواء على بعض النُّقاط المهمَّة في هذا المنهج:

أولاً: تذكير المؤمنين بالسُّنن ودعوتهم للعلوِّ الإيماني:

قال تعالى: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ *وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *} [آل عمران: ١٣٧ ـ ١٣٩].

إنَّ المتأمِّل في هذه الايات الكريمة يجد: أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يترك المسلمين لوساوس الشَّيطان في محنة غزوة أحدٍ ، بل خاطبهم بهذه الايات؛ الَّتي بعث بها الأمل في قلوبهم ، وأرشدهم إلى ما يقوِّيهم ، ويثبِّتهم ، ويمسح بتوجيهاته دموعهم ، ويخفِّف عنهم الامهم[(٤٥٤)].

قال القرطبيُّ: هو تسلية من الله تعالى للمؤمنين[(٤٥٥)].

ففي الايات السَّابقة دعوةٌ للتأمُّل في مصير الأمم السَّابقة؛ الَّتي كذَّبت دعوة الله تعالى ، وكيف جرت فيهم سنَّته على حسب عادته ، وهي الإهلاك ، والدَّمار؛ بسبب كفرهم ، وظلمهم ، وفسوقهم عن أمره.

وجاء التَّعبير بلفظ: «كيف» الدَّال على الاستفهام ، المقصود به تصوير حالة هؤلاء المكذِّبين؛ الَّتي تدعو إلى التعجُّب ، وتثير الاستغراب ، وتغرس الاعتبار والاتِّعاظ في قلوب المؤمنين؛ لأنَّ هؤلاء المكذِّبين مكَّن الله لهم في الأرض ، ومنحهم الكثير من نعمه ، ولكنَّهم لم يشكروه عليها ، فأهلكهم بسبب طُغيانهم[(٤٥٦)].

وفي قوله تعالى: دعاهم إلى ترك {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *} ، ومحاربة الجبن ، والتَّخلُّص من الوهن ، وعدم الحزن ، لأنَّهم هم الأعْلَوْن بسبب إيمانهم.

ثانياً: تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أُحدٍ:

قال تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ *وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ *أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ *} [آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤٣].

بيَّن لهم: أنَّ الجروح ، والقتلى يجب ألاَّ تؤثِّر في جدِّهم ، واجتهادهم في جهاد العدوِّ؛ وذلك لأنَّه كما أصابهم ذلك؛ فقد أصاب عدوَّهم مِثْلُه من قبل ذلك ، فإذا كانوا مع باطلهم ،

وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب ، فبِأنْ لا يلحقُكم الفتورُ مع حسن العاقبة ، والتمسُّك بالحقِّ أولى[(٤٥٧)].

وقال صاحب الكشَّاف: والمعنى: إن نالوا منكم يوم أُحدٍ؛ فقد نِلتُم منهم قبله يوم بدرٍ ، ثمَّ لم يُضْعِفْ ذلك قلوبَهم ، ولم يثبِّطْهم عن معاودتكم بالقتال ، فأنتم أولى ألاَّ تضعفوا[(٤٥٨)].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: إنَّه كان يوم أُحد بيوم بدرٍ ، قُتل المؤمنون يوم أُحدٍ ، واتَّخذ اللهُ منهم شهداءَ ، وغلب رسولُ الله (ص) يوم بدرٍ المشركين ، فجعل الدَّولة عليهم[(٤٥٩)].

وجواب الشَّرط في قوله تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ...} إلخ محذوفٌ ، والتَّقدير: إن يمسكم قرح؛ فاصبروا عليه ، واعقدوا عزمكم على قتال أعدائكم ، فقد مسَّهم قرحٌ مثلُه قبل ذلك.

وعبَّر عمَّا أصاب المسلمين في أُحدٍ بصيغة المضارع «يمسسكم» لقربه من زمن الحال، وعمَّا أصاب المشركين بصيغة الماضي لبُعْدِهِ؛ لأنَّ ما أصابهم كان في غزوة بدرٍ.

وقوله: {وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} بيانٌ لسنَّة الله الجارية في كونه ، وتسليةٌ للمؤمنين عمَّا أصابهم في أُحدٍ[(٤٦٠)].

وقوله: {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا}: قال القرطبيُّ: معناه: وإنَّما كانت هذه المداولة؛ ليَرى المؤمن مِنَ المنافق ، فيميزَ بعضَهم من بعضٍ[(٤٦١)].

وقوله: {وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ}: قال ابن كثير: يعني: يُقْتَلُون في سبيله ، ويَبْذلون مُهَجَهُمْ في مرضاته[(٤٦٢)].

ثمَّ ختم سبحانه الاية الكريمة بقوله: {وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ *}

ثمَّ ذكر ـ سبحانه ـ حكمتين أخريين لما جرى للمؤمنين في غزوة أحدٍ ، فقال: {وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ *} ، وقوله: من {وَلِيُمَحِّصَ} ، بمعنى التَّنقية والتَّخليص ، أو من التَّمحيص ، بمعنى الابتلاء ، والاختبار.

وقوله: من {وَيَمْحَقَ} ، وهو محو الشَّيء ، والذَّهاب به. قال الطَّبريُّ: والمعنى:

وليختبر الله الَّذين صدقوا الله ، ورسوله ، فيبتليهم بإزالة المشركين منهم ، حتَّى يتبيَّن المؤمن منهم المخلص الصَّحيح الإيمان من المنافق[(٤٦٣)].

وقال ابن كثير: قوله: أي: يكفِّر عنهم من ذنوبهم {وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا} إن كانت لهم ذنوب ـ ، وإلاَّ رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أُصيبوا به.

وقوله: أي: فإنَّهم إذا ظفروا؛ {وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ *} ، وبطروا ، فيكون ذلك سبب دمارهم ، وهلاكهم ، ومحقهم ، وفنائهم[(٤٦٤)] ، والمعنى: ولقد فعل ـ سبحانه ـ ما فعل في غزوة أحدٍ ، لكي يطهِّر المؤمنين ، ويصفِّيهم من الذُّنوب ، ويخلِّصهم من المنافقين المندسِّين بينهم ، ولكي يُهلك الكافرين ، ويمحقهم؛ بسبب بغيهم ، وبطرهم.

وقد ذكر الله تعالى أربع حكمٍ لما حدث للمؤمنين في غزوة أُحدٍ ، وهي: تحقُّق علم الله تعالى ، وإظهاره للمؤمنين ، وإكرام بعضهم بالشَّهادة الَّتي توصل صاحبها إلى أعلى الدَّرجات ، وتطهير المؤمنين ، وتخليصهم من ذنوبهم ، ومن المنافقين ، ومحق الكافرين ، واستئصالهم رويداً ، رويداً[(٤٦٥)].

ثمَّ قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ *} [آل عمران: ١٤٢] والمعنى: أحسبتم يا من انهزم يوم أحد! أن تدخلوا الجنَّة كما دخل الَّذين قُتلوا ، وصبروا على ألم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم، وتصبروا صبرهم؟! لا؛ حتَّى { يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ} أي: علم شهادةٍ؛ حتَّى يقع عليه الجزاء { وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ *} [(٤٦٦)]

وقال ابن كثيرٍ: أي: لا يحصل لكم دخول الجنَّة؛ حتَّى تُبْتَلوا ، ويرى اللهُ منكم المجاهدين في سبيله ، والصَّابرين على مقاومة الأعداء[(٤٦٦)].

ثمَّ قال تعالى: {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ *} [آل عمران: ١٤٣].

قال ابن كثيرٍ: قد كنتم ـ أيَّها المؤمنون! ـ قبل هذا اليوم ، تتمنَّون لقاء العدوِّ ، وتحترقون
عليه ، وتودُّون مناجزتهم ، ومصابرتهم ، فها قد حصل لكم الَّذي تمنَّيتموه ، وطلبتُموه ، فدونكم ، فقاتلوا ، وصابروا[(٤٦٧)].

ثالثاً: كيفية معالجة الأخطاء:

تَرَفَّقَ القران الكريم وهو يعقِّب على ما أصاب المسلمين في (أُحدٍ) ، على عكس ما نزل في بدرٍ من ايات ، فكان أسلوب القران الكريم في محاسبة المنتصر على أخطائه ، أشدَّ من حساب المنكسر ، فقال في غزوة بدر: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *} [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨].

وقال في أُحدٍ: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ *} [آل عمران: ١٥٢] وفي هذا حكمةٌ عمليَّةٌ ، وتربية قرانيَّةٌ ، يحسن أن يلتزمها أهل التَّربية ، والقائمون على التَّوجيه[(٤٦٨)].

رابعاً: ضرب المثل بالمجاهدين السَّابقين:

قال تعالى: {وَكَأَيِّن مِن نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ *وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *} [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨].

قال ابن كثير: عاتب اللهُ بهذه الايات والَّتي قبلها مَنِ انهزم يوم أُحدٍ ، وتركوا القتال لما سمعوا الصَّائح يصيح بأن محمَّداً قد قُتل ، فَعَذَلَهم[(٤٦٩)] الله على فرارهم ، وتركهم القتال[(٤٧٠)].

وضرب الله لهم مثلاً بإخوانهم المجاهدين السَّابقين ، وهم جماعاتٌ كثيرةٌ ، ساروا وراء أنبيائهم في درب الجهاد في سبيل الله ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضَعُفُوا عن الجهاد بعد الَّذي أصابهم منه ، وما استكانوا للعدوِّ؛ بل ظلُّوا صابرين ثابتين في جهادهم ، وفي هذا تعريضٌ بالمسلمين الَّذين أصابهم الوهن ، والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله (ص) ،

وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين ، واستكانتهم لهم ، وضرب الله مثلاً للمؤمنين لتثبيتهم بأولئك الرَّبَّانيّين ، وبما قالوه: {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *} [آل عمران: ١٤٧].

وهذا القول ـ وهو إضافة الذُّنوب ، والإسراف إلى نفوسهم مع كونهم ربَّانيّين ـ هضمٌ لها ، واعترافٌ منهم بالتَّقصير ، ودعاؤهم بالاستغفار من ذنوبهم مقدَّمٌ على طلبهم تثبيت أقدامهم أمام العدوِّ ، ليكون طلبُهم إلى ربِّهم النَّصر عن زكاةٍ ، وطهارةٍ ، وخضوعٍ ، وفي هذا تعليمٌ للمسلمين إلى أهمِّيَّة التَّضرُّع ، والاستغفار ، وتحقيق التَّوبة ، وتظهر أهمِّية ذلك في إنزال النَّصر على الأعداء: أي: وبذلك نالوا ثواب الدَّارين: {فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *} ، والغنيمة في الدُّنيا ، والثَّواب الحسن في الاخرة ، جزاءَ إحسانهم في أدب الدُّعاء والتَّوجُّه إلى الله ، وإحسانهم في موقف

الجهاد ، وكانوا بذلك مثلاً يضربه الله للمسلمين المجاهدين ، وخصَّ اللهُ تعالى ثواب الاخرة بالحُسْنِ دلالةً على فضله ، وتقدُّمه على ثواب الدُّنيا ، وأنَّه هو المعتمدُ عنده[(٤٧١)].

خامساً: مخالفة وليِّ الأمر تسبب الفشل لجنوده:

ويظهر ذلك في مخالفة الرُّماة لأمر النَّبيِّ (ص) ، ووقوعهم في الخطأ الفظيع الَّذي قَلَبَ الموازين ، وأدَّى إلى الخسائر الفادحة الَّتي لحقت بالمسلمين ، ولكي نعرف أهمِّيَّة الطَّاعة لوليِّ الأمر؛ نلحظ أنَّ انخذال عبد الله بن أُبيٍّ، ومن معه من المنافقين ، لم يؤثِّر على المسلمين ، بينما الخطأ الَّذي ارتكبه الرُّماة؛ الَّذين أحسن الرَّسولُ (ص) ترتيبَهُمْ ، وأسند لكلِّ واحدٍ منهم عملاً ، ثمَّ خالفوا أمره (ص) كان ضرره على المسلمين عامَّةً ، حيث سلَّط الله عليهم عدوَّهم ، وذلك بسبب عصيان الأوامر ، ثمَّ اختلطت أمورهم ، وتفرَّقت كلمتُهم ، وكاد يُقْضى على الدَّعوة الإسلاميَّة وهي في مهدها.

ونلحظ من خلال أحداث غزوة أحد: أن المسلمين انتصروا في أول الأمر حينما امتثل الرُّماة لأوامر الرَّسول (ص) ، وانقادوا لتعليمات قائدهم ، وأميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه ، بينما انهزموا حينما خالفوا أمره (ص) ، ونزل الرُّماة من الجبل لجمع الغنائم مع بقيَّة الصَّحابة رضي الله عنهم[(٤٧٢)]. قال تعالى: {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *} [آل عمران: ١٥٣].

يقول الشَّيخ محمد بن عثيمين: «ومن اثار عدم الطَّاعة ما حصل من معصية بعض الصَّحابة رضي الله عنهم للنبيِّ (ص) ؛ وهم يجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، والَّذي حصل: أنَّه لما كانت الغلبة للمؤمنين ، ورأى بعض الرُّماة: أنَّ المشركين انهزموا؛ تركوا الموضع الَّذي أمرهم النَّبيُّ (ص) ألاَّ يبرحوه، وذهبوا مع النَّاس ، وبهذا كرَّ العدوُّ عليهم من الخلف ، وحصل ما حصل من الابتلاء، والتَّمحيص للمؤمنين ، وقد أشار الله تعالى إلى هذه العلَّة بقوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ *} [آل عمران: ١٥٢].

هذه المعصية؛ الَّتي فات بها نصرٌ انعقدت أسبابُه ، وبدأت أوائله ، وهي معصيةٌ واحدةٌ ، والرَّسول (ص) بين أظهرهم ، فكيف بالمعاصي الكثيرة؟! ولهذا نقول: إنَّ المعاصي من اثارها: أنَّ الله يسلِّط

بعض الظالمين على بعضٍ بما كانوا يكسبون ، ويفوتهم من أسباب النَّصر ، والعزَّة بقدر ما ظلموا فيه أنفسهم»[(٤٧٣)].

إنَّ طاعة وليِّ الأمر أمرٌ ضروريٌّ ، تأتي بعد طاعة الله ورسوله. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً *} [النساء: ٥٩].

قال العلماء: «نزلت الاية في الرَّعية من الجيوش وغيرهم ، عليهم أن يطيعوا وُلاةَ الأمر ، الفاعلين لذلك ، في قَسْمهم وحكمهم ، ومغازيهم ، وغير ذلك»[(٤٧٤)].

إنَّ طاعة وليِّ الأمر «أصلٌ عظيم من أصول الواجبات الدِّينية ، حتَّى أدرجها الأئمَّة في جملة العقائد الإيمانيَّة»[(٤٧٥)].

ولها أهمِّيَّة في تربية الأمَّة ، وإقامة الدَّولة ، ويمكن أن نلخِّص أهمِّيَّة الطَّاعة في النقاط الاتية:

١ ـ الامتثال لأمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وطاعته فيما أمر. قال الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً *} [النساء: ٥٩].

٢ ـ إنَّ طاعة وليِّ الأمر وسيلةٌ وليست غايةً؛ وسيلةٌ لإقامة شرع الله في الأرض ، وإحقاق الحقِّ ، وإقامة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر؛ لتحقيق خيرية هذه الأمَّة ، وإعلاء كلمة التَّوحيد ، وإفراد العبوديَّة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

٣ ـ اجتماع كلمة المسلمين؛ لأنَّ في الخلاف فساد أحوالهم ، في دينهم ، ودنياهم[(٤٧٦)].

٤ ـ أن يستعينوا بها على إظهار دينهم ، وطاعة ربِّهم.

٥ ـ إنَّ فيها سعادةَ الدُّنيا.

ولهذا كان من أصول مذهب أهل السُّنَّة والجماعة: أننا: «لا نرى الخروج على أئمَّتنا وولاة أمورنا؛ وإن جاروا ، ولا ندعو عليهم ، ولا ننزع يداً مِنْ طاعتهم ، ونرى طاعتهم مِنْ طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهي فريضةٌ ، ما لم يأمروا بمعصيةٍ ، وندعوا لهم بالصَّلاح ، والمعافاة»[(٤٧٧)].

سادساً: خطورة إيثار الدُّنيا على الاخرة:

وردت نصوصٌ عديدةٌ من اياتٍ ، وأحاديث ، تبيِّن منزلة الدُّنيا عند الله ، وتصف زخارفها ، وأثرها على فتنة الإنسان ، وتحذِّر من الحرص عليها. قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ

وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ *} [آل عمران: ١٤] ، وقال تعالى: {فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ *} [لقمان: ٣٣].

وقد حذَّر الرَّسول الكريم (ص) أمَّته من الاغترار بالدُّنيا ، والحرص الشَّديد عليها في أكثر من موضعٍ ، وذلك لما لهذا الحرص من أثر سيِّءٍ على الأمَّة عامَّةً ، وعلى مَنْ يحملون لواء الدَّعوة خاصَّةً؛ ومن ذلك:

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ (ص) قال: «إنَّ الدُّنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وإنَّ الله مستخلفُكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدُّنيا ، واتَّقوا النِّساء؛ فإنَّ أوَّل فتنة بني إسرائيل كانت في النِّساء» [مسلم (٢٧٤٢) ، وأحمد (٢٢/٣) ، وابن حبان (٣٢٢١)] ويظهر للباحث أثر الحرص على الدُّنيا في غزوة أحدٍ.

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: لما هزم الله المشركين يوم أُحدٍ ، قال الرُّماة: «أدركوا النَّاس؛ ونبيَّ الله؛ لا يسبقوكم إلى الغنائم؛ فتكون لهم دونكم». وقال بعضهم: «لا نريم[(٤٧٨)]

حتَّى يأذن لنا النَّبيُّ (ص) »[(٤٧٩)] فنزلت: {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ} [آل عمران: ١٥٢].

قال الطَّبريُّ: قوله سبحانه: يعني الغنيمة. قال ابن {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا} ما كنت أرى أحداً من أصحاب رسول الله (ص) يريد الدُّنيا حتى نزل فينا يوم أحدٍ[(٤٨٠)]: {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ}

إنَّ الَّذي حدث في أُحدٍ ، عبرةٌ عظيمةٌ للدُّعاة ، وتعليمٌ لهم بأنَّ حبَّ الدُّنيا قد يتسلَّل إلى قلوب أهل الإيمان ، ويخفى عليهم ، فيؤثرون الدُّنيا ، ومتاعها على الاخرة ، ومتطلَّبات الفوز بنعيمها ، ويعصون أوامر الشَّرع الصَّريحة؛ كما عصى الرُّماة أوامر الرَّسول (ص) الصَّريحة بتأويلٍ ساقطٍ ، يرفعه هوى النَّفس ، وحبُّ الدُّنيا، فيخالفون الشَّرع ، وينسون المحكم من أوامره ، كلُّ هذا يحدث ، ويقع من المؤمن؛ وهو غافلٌ عن دوافعه الخفيَّة ، وعلى رأسها حبُّ الدُّنيا ، وإيثارُها على الاخرة ، ومتطلَّبات الإيمان ، وهذا يستدعي من الدُّعاة التَّفتيش الدَّائم الدَّقيق في خبايا نفوسهم ، واقتلاع حبِّ الدُّنيا منها ، حتَّى لا تحولَ بينهم وبين أوامر الشَّرع ، ولا تُوقعهم في مخالفته بتأويلاتٍ ملفوفةٍ بهوى النَّفس، وتَلفُّتها إلى الدُّنيا، ومتاعها[(٤٨١)].

سابعاً: التَّعلُّق والارتباط بالدِّين:

قال ابن كثير: لما انهزم مَنِ انهزم من المسلمين يوم أُحدٍ ، وقُتل مَنْ قُتِل منهم ، نادى الشَّيطانُ: ألا إن محمَّداً قد قُتل ، ورجع ابنُ قميئةَ إلى المشركين ، فقال لهم: قتلتُ محمَّداً ، وإنَّما كان قد ضرب رسولَ الله (ص) فشجَّه في رأسه ، فوقع ذلك في قلوب كثيرٍ من الناس ، واعتقدوا: أنَّ رسول الله (ص) قد قُتِل ، وجَوَّزوا عليه ذلك ، كما قد قصَّ الله عن كثيرٍ من الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ فحصل ضعفٌ ، ووهنٌ ، وتأخُّرٌ عن القتال ، ففي ذلك أنزل الله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ *} [آل عمران: ١٤٤] أي: له أُسوةٌ بهم في الرِّسالة ، وفي جواز القتل عليه[(٤٨٢)].

وقد جاء في تفسير الاية السَّابقة: «إنَّ الرُّسل ليست باقيةً في أقوامها أبداً ، فكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ، ومهمَّة الرَّسول تبليغ ما أُرسل به؛ وقد فعل ، وليس من لوازم رسالته البقاء دائماً مع قومه ، فلا خلودَ لأحدٍ في هذه الدُّنيا ، ثمَّ قال تعالى منكراً على مَنْ حصل له ضعفٌ لموت

النَّبيِّ (ص) ، أو قتله: {أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى} أي: رجعتم {أَعْقَابِكُمْ} ، وقعدتم عن الجهاد ، والانقلاب على الأعقاب يعني: الإدبار عمَّا كان رسول الله (ص) يقوم به من أمر الجهاد ومتطلَّباته ، الَّذين لم {وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ *} ، أو ظلُّوا ثابتين على دينهم ، متَّبعين رسوله حيّاً ، أو ميتاً»[(٤٨٣)].

لقد كان من أسباب البلاء والمصائب الَّتي حدثت للمسلمين يوم أُحدٍ: أنَّهم ربطوا إيمانهم ، وعقيدتهم ، ودعوتهم إلى الله لإعلاء كلمته ، بشخص رسول الله (ص) ، فهذا الرَّبط بين عقيدة الإيمان بالله ربّاً معبوداً وحدَه ، وبين بقاء شخص النَّبيِّ (ص) خالداً فيهم خالطه الحبُّ المغلوب بالعاطفة ، الرَّبط بين الرِّسالة الخالدة وبين الرَّسول (ص) البشر؛ الَّذي يلحقه الموت كان من أسباب ما نال الصَّحابةَ رضي الله عنهم من الفوضى ، والدَّهشة ، والاستغراب ، ومتابعة الرَّسول (ص) أساس وجوب التأسِّي به في الصَّبر على المكارِهِ ، والعمل الدَّائب على نشر الرِّسالة ، وتبليغ الدَّعوة ، ونصرة الحقِّ.

وهذا التَّأسِّي هو الجانب الأغرُّ من جوانب منهج رسالة الإسلام ، لأنَّه الدِّعَامَةُ الأولى في بناء مسيرة الدَّعوة لإعلاء كلمة الله ، ونشرها في افاق الأرض ، وعدم ربط بقاء الدِّين واستمرار الجهاد في سبيله ببقاء شخص النَّبيِّ (ص) في هذه الدُّنيا ، لا يلحقه فناءٌ بموتٍ ، أو قتلٍ ، وإيجاب متابعة الرَّسول (ص)

والتأسِّي به علماً ، وعملاً هما الوَشيجةُ العظمى لتماسك المجتمع المسلم ، ولا سيَّما الدُّعاة إلى الله من أتباعه[(٤٨٤)].

قال ابن القيِّم: «إنَّ غزوة أحدٍ كانت مقدِّمةً ، وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله (ص) ، فثبَّتهم ، ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم؛ إن مات رسول الله (ص) ، أو قُتل ، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه ، وتوحيده ، ويموتوا عليه ، أو يُقتلوا ، فإنهم إنَّما يعبدون ربَّ محمَّدٍ ، وهو لا يموت ، فلو مات محمَّد ، أو قُتل ، لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه ، وما جاء به ، فكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ، وما بُعِثَ محمَّد (ص) ليخلَّد ، لا هو ، ولا هم ، بل ليموتوا على الإسلام والتَّوحيد ، فإنَّ الموت لابدَّ منه ، سواءٌ أمات رسول الله (ص) ، أم بقي ، ولهذا وبَّخهم على رجوع مَنْ رجع منهم عن دينه لما صرخ الشَّيطان: إنَّ محمَّداً قد قُتل ، فقال: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ *} [آل عمران: ١٤٤].

والشَّاكرون هم الَّذين عرفوا قدر النِّعمة ، فثبتوا عليها؛ حتَّى ماتوا ، أو قُتِلُوا ، فظهر أثرُ هذا العتاب ، وحكمُ هذا الخطاب يوم مات رسول الله (ص) ، وارتدَّ من ارتدَّ على عقبيه ، وثبت

الشَّاكرون على دينهم ، فنصرهم الله ، وأعزَّهم ، وظفَّرهم بأعدائهم ، وجعل العاقبة لهم»[(٤٨٥)].

قال القرطبيُّ: « فهذه الاية من تَتِمَّةِ العتاب مع المنهزمين ، أي: لم يكن لهم الانهزام وإن قُتل محمَّد، والنُّبوَّة لا تَدْرأ الموت ، والأديان لا تزول بموت الأنبياء»[(٤٨٦)]. وكلامه ـ رحمه الله ـ نفيسٌ جدّاً ، فالَّذين ظنُّوا مِنْ قبل: أنَّ الإسلام قد انتهى بموت النَّبيِّ (ص) ، والَّذين يظنُّون: أنَّ ظهور الإسلام ، ودعوته متوقفٌ على شخصٍ بعينه ، فهؤلاء ، وأولئك قد أخطؤوا ، ولم يقدِّروا هذا الدِّين قدره ، ولم يوفوه حقَّه؛ لأنَّ ظهور هذا الدِّين ، وهيمنته على كلِّ الأديان ، هو قدر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وسنته ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ *} [التوبة: ٣٣].

فسبب ظهور هذا الدِّين: أنَّه حقٌّ ، وأنَّه هدىً[(٤٨٧)].

في غزوة أُحدٍ نزل التَّشريع الإلهيُّ بالعتاب على ما حدث منهم أثناء أحداث غزوة أُحد ، وعند موت الرَّسول (ص) جاء التَّطبيق؛ حيث «لما تُوفِّي رسولُ الله (ص) أقبل أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه على فرسٍ من مَسكنَه بالسُّنْحِ ، حتَّى نزل ، فدخل المسجد ، فلم يكلِّم الناسَ ، حتَّى دخل على عائشة

رضي الله عنها ، فتيمَّمَ[(٤٨٨)] رسولَ الله (ص) وهو مُغَشَّىً بثوب حَبِرَةٍ[(٤٨٩)] ، فكشف عن وجهه (ص) ، ثمَّ أكبَّ عليه ، فقبَّله ، وبكى ، ثُمَّ قال: بأبي أنت وأمِّي! والله! لا يجمع الله عليك موتتين ، أمَّا الموتةُ التي كُتِبَتْ عليك ، فقدْ مُتَّها».

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: «إنَّ أبا بكر خرج ، وعمرُ يكلِّم النَّاسَ ، فقال: اجلس يا عمرُ! فأبى عمرُ أن يجلسَ ، فأقبل النَّاسُ إليه ، وتركوا عمرَ رضي الله عنه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمَّا بعدُ: مَنْ كان منكم يعبد محمَّداً (ص) فإنَّ محمَّداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت. قال الله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ *} [آل عمران: ١٤٤].

وقال: والله لكأنَّ الناسَ لم يعلموا: أنَّ الله أنزل هذه الاية حتَّى تلاها أبو بكر ، فتلقَّاها منه النَّاسُ كلُّهم ، فما أسمعُ بشراً من النَّاس إلا يتلوها. فأخبرني سعيد بن المسيِّب: أنَّ عمر رضي

الله عنه قال: والله! ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكرٍ رضي الله عنه تلاها ، فَعَقِرْتُ[(٤٩٠)]؛ حتَّى ما تُقلَّني رجلاي ، وحتَّى أهويتُ إلى الأرض ، حين سمعتُه تلاها؛ علمت: أنَّ النَّبيَّ (ص) قد مات» [البخاري (٤٤٥٤)].

ثامناً: معاملة النَّبيِّ (ص) للرُّماة الَّذين أخطؤوا ، والمنافقين الَّذين انخذلوا:

أ ـ الرُّماة:

إنَّ الرُّماة الَّذين أخطؤوا الاجتهاد في غزوة أُحدٍ لم يُخْرِجْهم الرَّسول (ص) خارج الصَّفِّ ، ولم يقل لهم: إنَّكم لا تصلحون لشيءٍ من هذا الأمر بعدما بدا منكم في التَّجربة من النَّقص ، والضَّعف ، بل قبل ضعفهم هذا في رحمةٍ ، وعفوٍ ، وفي سماحةٍ ، ثمَّ شمل ـ سبحانه وتعالى ـ برعايته وعفوه جميع الَّذين اشتركوا في هذه الغزوة ، رغم ما وقع مِنْ بعضهم مِنْ أخطاءٍ جسيمةٍ ، وما ترتَّب عليه مِنْ خسائرَ فادحةٍ، فعفا ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم عفواً غسل به خطاياهم ، ومحا به اثار تلك الخطايا.

قال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ *} [آل عمران: ١٥٢].

وهناك أمرٌ مهمٌّ يتَّصل بهذا العفو، قد يترك أثراً في نفوسهم يعوِّقها بعض الشَّيء، ذلك هو موقف رسول الله (ص) ممَّا حدث منهم؛ إنَّهم يشعرون: أنَّ الرَّسول (ص) هو وحده الَّذي تحمَّل نتيجة تلك الأخطاء

، فلابدَّ أن ينالوا منه عفواً؛ تطيب به نفوسهم ، وتتمُّ به نعمة الله عليهم؛ لهذا أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيَّه (ص) بأن يعفو عنهم ، وحثَّهُ على الاستغفار لهم ، كما أمره أن يأخذ رأيهم ، والاستماع إلى مشورتهم، ولا يجعل ما حدث صارفاً له عن الاستفادة من خبراتهم، ومشورتهم[(٤٩١)].

قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ *} [آل عمران: ١٥٩].

ب ـ انخذال ابن سلول المنافق:

كان هدف عبد الله بن سلول بانسحابه بثلاثمئةٍ من المنافقين ، أن يُحدث بلبلةً ، واضطراباً في الجيش الإسلاميّ؛ لتنهار معنويَّاته ، ويتشجَّع العدو ، وتعلو همَّته. وعملُه هذا ينطوي على

استهانةٍ بمستقبل الإسلام ، وغدرٍ به في أحلك الظُّروف ، وقد حاول عبد الله بن حرام أن يمنعهم من ذلك الانخذال ، إلا أنَّهم رفضوا دعوتَه[(٤٩٢)] ، وفيهم نزل قول الله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ *وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ *} [آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧].

فبالرَّغم من خطورة الموقف ، وحاجة المسلمين لهذا العدد لقلَّة جيش المسلمين ، وكثرة جيش قريش ، إلا أنَّ الرَّسول (ص) ترك هؤلاء المنافقين ، وشأنهم ، ولم يُعِرْهم أيَّ اهتمامٍ ، واكتفى بفضح أمرهم أمام النَّاس[(٤٩٣)] ، وكان لهذا الأسلوب أثرُه في توبيخ وإهانة ابن سلولٍ ، فعندما رجع رسول الله (ص) من غزوته من حمراء الأسد، أراد ابن سلول أن يقوم كعادته لحثِّ الناس على طاعة رسول الله (ص) .

قال الإمام الزُّهريُّ: كان عبد الله بن أُبيٍّ له مقامٌ يقومه كلَّ جمعة؛ لا ينكسر له شرفٌ في نفسه ، وفي قومه ، وكان فيهم شريفاً ، إذا جلس رسولُ الله (ص) يوم الجمعة وهو يخطب النَّاسُ؛ قام ، فقال: أيُّها النَّاسُ ، هذا رسولُ الله بين أظهركم ، أكرمكم الله به ، وأعزَّكم به ، فانصروه ، وعزِّروه ، واسمعوا له ، وأطيعوا ، ثمَّ يجلس ، حتى إذا صنع يوم أُحد ما صنع ، ورجع النَّاس ، قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه مِنْ نواحيه ، وقالوا: اجلس أي عدوَّ الله! واللهِ لستَ لذلك بأهلٍ؛ وقد صنعت ما صنعتَ! فخرج يتخطَّى رقابَ النَّاس؛ وهو يقول: والله لكأنَّما قلتُ بُجَراً[(٤٩٤)]؛ أن قمت أشدِّد

أمره ، فلقيه رجالٌ من الأنصار بباب المسجد ، فقالوا: ويلك! ما لك؟ قال: قمت أشدِّد أمره ، فوثب إليَّ رجال من أصحابه يجبذونني ، ويعنفونني ، لكأنَّما قلت بُجَراً أن قمت أشدِّد أمره ، قالوا: ويلك! ارجعْ يستغفرْ لك رسول الله. قال: والله! ما أبغي أن يستغفر لي[(٤٩٥)].

تاسعاً: «أُحد جبل يُحبُّنا ونحبُّه»:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: إنَّ النَّبيَّ (ص) طَلَعَ لَه أُحُدٌ ، فقال: «هذا جبلٌ يُحِبُّنا ، ونُحبُّه» [البخاري (٤٠٨٤) ومسلم (١٣٦٥)].

وهذا يدلُّ على دقَّة شعور النَّبيِّ (ص) ؛ حيث قارن بين ما كسبه المسلمون من منعة التحصُّن ، والاحتماء بذلك الجبل ، وما أودعه الله تعالى فيه من قابليَّةٍ لذلك ، فعبَّر عن ذلك بأرقى وشائج الصِّلة ، وهي المحبَّة ، أفلا يُعتبر هذا الوجدان الحيُّ ، والإحساس المرهف مثلاً أعلى على التخلُّق بخلق الوفاء؟!

ألا وإنَّ الَّذي يعترف بفضل الحجارة الصمَّاء ، ويُضفي عليها من الأخلاق السَّامية ما لا يتَّصف به إلا أفاضل العقلاء لجديرٌ به أن يعترف بأدنى فضلٍ يكون من بني الإنسان ، وإذا كان وفاؤه (ص) للجماد قد سَمَا حتَّى حاز أرقى العبارات وأرقَّها؛ فأخْلِقْ ببني الإنسان الأوفياء أن ينالوا منه أعظم مِنْ ذلك ، فضلاً عمّن تجمعه بهم الأخوَّة في الله تعالى![(٤٩٦)].

والحديث النَّبويُّ الشَّريف فيه كثيرٌ من المعاني ؛ منها ما ذكره الحميديُّ ، ومنها ما قاله الأستاذ صالح الشَّامي؛ حيث قال: والإنسان كثيراً ما يربط بين المصيبة وبين مكانها ، أو زمانها ، وحتَّى لا تنسحبَ هذه العادة ، وتستمر بعد أن جاء الإسلام ، كان هذا القول الكريم بياناً للحقِّ ، وابتعاداً عن الطِّيَرَة ، والتَّشاؤم ، وذلك المعنى الذي يبقي الاثار السَّيئة في نفس الإنسان ، ولا شكَّ: أن المسلمين سيقفون على أُحدٍ ، يتذكرون تلك المعركة ، فحتَّى لا يرتبطَ بفكرهم ذلك المعنى السَّيىء ، بيَّن لهم: أن المكان ، والزَّمان مخلوقاتٌ لله ، لا علاقة لهما ، ولا أثر بما يحدث فيهما ، وإنَّما الأمورُ بيد الله تعالى ، والاستشهادُ في سبيل الله كرامةٌ لصاحبه ، لا مصيبةٌ، وهكذا تتساوى المفاهيم في إطارها الإيمانيّ ، وإذا «أُحُدٌ» يُكرَمُ ، ويُحَبُّ انطلاقاً من هذا القول الكريم ، وكيف لا يُكرم وقد اختاره الله ليثوي فيه حمزةُ ، وأصحابه ، ممَّن اختارهم الله في ذلك اليوم ، فجادوا بأنفسهم ابتغاءَ مرضاته؟![(٤٩٧)].

عاشراً: الملائكة في أُحدٍ:

قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: رأيتُ عن يمين رسول الله (ص) وعن شماله يوم أُحدٍ رجلين عليهما ثيابُ بياضٍ ، يقاتلان عنه كأشدِّ القتال ، ما رأيتُهما قبلُ ، ولابعدُ . يعني: جبريلَ ، وميكائيلَ عليهما السَّلام . [البخاري (٤٠٥٤) ، ومسلم (٢٣٠٦)].

وهذا خاصٌّ بالدِّفاع عن النَّبيِّ (ص) ؛ لأنَّ الله تكفَّل بعصمته من النَّاس ، ولم يصحَّ: أنَّ الملائكة قاتلت في أُحدٍ سوى هذا القتال . وإنْ وعدهم الله تعالى أنْ يمدَّهم ـ؛ لأنه جعل وعده معلقاً على ثلاثة أمورٍ: الصَّبر ، والتَّقوى ، وإتيان الأعداء من فورهم ، ولم تتحقَّق هذه الأمور ، فلم يحصل الإمداد[(٤٩٨)].

قال تعالى: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلاآئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ *} [آل عمران: ١٢٤ ـ ١٢٥].

حادي عشر: قوانين النَّصر والهزيمة من سورة الأنفال ، وال عمران:

تحدَّثت سورة الأنفال عن غزوة بدرٍ بشيءٍ من التَّفصيل ، وتحدَّثت سورة ال عمران عن غزوة أُحدٍ ، لكي تتعلَّم الأمَّة كثيراً من المفاهيم ، تتعلَّق بمفهوم القضاء والقدر ، ومفهوم الحياة والموت ، ومفهوم النَّصر والهزيمة ، ومفهوم الرِّبح والخسارة ، ومفهوم الإيمان والنِّفاق ، ومفهوم المحنة والمحق... إلخ ، ومن المفاهيم الَّتي تعلَّمها الصَّحابة رضي الله عنهم من خلال أحداث بدرٍ ، وأحدٍ ، وسورتي الأنفال ، وال عمران قوانينُ النَّصر والهزيمة ، وهذه القوانين قد بيَّنتها الايات الكريمة ، ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

١ ـ النَّصر ابتداءً وانتهاءً بيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وليس مُلْكاً لأحدٍ من الخلق ، يهبه الله لمن يشاء ، ويصرفه عمَّن يشاء ، مثله مثل الرِّزق ، والأجل ، والعمل: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [الأنفال: ١٠].

٢ ـ وحين يقدِّر الله تعالى النَّصر؛ فلن تستطيع قوى الأرض كلُّها الحيلولة دونه ، وحين يقدِّر الهزيمة؛ فلن تستطيع قوى الأرض أن تحول بينه وبين الأمَّة. قال تعالى: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *} [آل عمران: ١٦٠].

٣ ـ ولكنَّ هذا النَّصر له نواميسُ ثابتةٌ عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نحن بحاجةٍ إلى فقهها ، فلابدَّ أن تكون الرَّاية خالصةً لله سبحانه عند الَّذين يمثِّلون جنده. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ

وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ *} [محمد: ٧] ، ونصرُ الله في الاستجابة له ، والاستقامة على منهجه ، والجهاد في سبيله.

٤ ـ ووحدة الصَّفِّ ووحدة الكلمة أساسٌ في النَّصر. وتفريقُ الكلمة ، والاختلاف في الرأي دمارٌ وهزيمةٌ. قال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ *} [الأنفال: ٤٦].

٥ ـ وطاعة أمرِ الله تعالى ، ورسوله (ص) وعدم الخروج عليها أساسٌ في النَّصر ، أمَّا المعصية؛ فتقود إلى الهزيمة. قال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ *} [الأنفال: ٤٦].

٦ ـ وحب الدُّنيا ، والتَّهافت عليها يُفْقدُ الأمَّة عون الله ، ونصره. قال تعالى: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ} [آل عمران: ١٥٢].

٧ ـ ونقص العدد والعُدَّة ليس هو سبب الهزيمة. قال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *} [آل عمران: ١٢٣].

٨ ـ ولكن لابدَّ من الإعداد المادِّيِّ ، والمعنويِّ لمواجهة العدوِّ[(٤٩٩)]. قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ *} [الأنفال: ٦٠].

٩ ـ والثَّبات عند المواجهة ، والصَّبر عند اللِّقاء ، من العوامل الرَّئيسية في النَّصر. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *} [الأنفال: ٤٥] ، وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ *} [الأنفال: ١٥].

١٠ ـ ولا شيء يعين على الثبات والصَّبر عند اللِّقاء ، مثل ذكر الله الكثير ، باتجاه القلب إلى الله وحده منزّل النَّصر ، وطلب العون منه ، والتوكُّل عليه ، وعدم الاعتماد على العدد ، أو العدَّة ، أو الذَّات ، والتَّبرُّؤ من الحول ، والقوَّة ، هو عاملٌ أساسيٌّ من عوامل النَّصر[(٥٠٠)]. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *} [الأنفال: ٤٥].

ثاني عشر: فضل الشُّهداء وما أعدَّه الله لهم من نعيمٍ مقيمٍ:

قال رسول الله (ص) : لما أُصيب إخوانُكم بأُحدٍ ، جعل اللهُ أرواحَهم في أجواف طيرٍ خُضْرٍ ، تَرِدُ أنهارَ الجنَّة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهبٍ في ظلِّ العرش ، فلمَّا وجدوا طيبَ مشربهم ، ومأكلهم ، وحُسْنَ مقيلهم ، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا يَنْكُلُوا[(٥٠١)] عن الحرب! فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنا أبلِّغهم عنكم ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على رسوله (ص) هذه الايات. [أحمد (١/٢٦٦) ، وأبو داود (٢٥٢٠) ، وأبو يعلى (٢٣٣١)][(٥٠٢)].
قال الله تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ *فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ *} [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

وقد جاء في تفسير الايات السَّابقة ما رواه الواحديُّ عن سعيد بن جبير: أنَّه قال: لما أُصيب حمزةُ بن عبد المطَّلب ، ومصعب بن عمير يوم أُحدٍ ، ورأوا ما رزقوا من الخير؛ قالوا: ليت إخوانَنا يعلمون ما أصابنا من الخير؛ كي يزدادوا في الجهاد رغبةً ، فقال الله تعالى: أنا أبلِّغهم عنكم ، فأنزل الله تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي} إلى قوله: { وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ *}[(٥٠٣)]
وروى مسلمٌ بسنده عن مسروقٍ ، قال: سألنا عبدَ الله بن مسعودٍ عن هذه الاية: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ *} [آل عمران: ١٦٩].
قال: أمَا إنَّا قد سألْنا عن ذلك ، فقال: «أرواحُهم في جوف طيرٍ خُضْرٍ ، لها قناديلُ معلَّقةٌ بالعرش ، تسرح من الجنَّة حيث شاءت ، ثمَّ تأوي إلى تلك القناديل ، فاطَّلَعَ إليهم ربُّهم اطِّلاعةً ، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أيَّ شيءٍ نشتهي؛ ونحن نَسْرَحُ من الجنَّة حيث شئنا؟! ففعل ذلك بهم ثلاثَ مراتٍ ، فلمَّا رأوا: أنهم لن يُتْرَكُوا من أن يُسْألوا ، قالوا: يا ربِّ! نريد أن تَرُدَّ أرواحَنا في أجسادنا؛ حتَّى نُقْتَلَ في سبيلك مرَّةً أخرى ، فلمَّا رأى أن ليس لهم حاجةٌ؛ تُرِكُوا» [مسلم (١٨٨٧)].
ثالث عشر: الهجوم الإعلاميُّ على المشركين:
كان الإعلام في العهد النَّبويِّ يقوم على الشِّعر ، وكان شعراء المشركين في بدرٍ في موقف الدِّفاع والرِّثاء ، وفي أُحدٍ حاول شعراء قريش أن يضخموا هذا النَّصر ، فجعلوا من الحبة قبَّةً ، وأمام هذا الكبرياء المزيَّف انبرى حسَّان بن ثابتٍ ، وكعب بن مالكٍ ، وعبد الله بن رواحة للردِّ على حملات المشركين الإعلاميَّة؛ الَّتي قادها شعراؤهم؛ كهبيرة ابن أبي وهبٍ ، وعبد الله بن الزِّبعرى ، وضرار بن الخطَّاب ، وعمرو بن العاص[(٥٠٣)].

وكانت قصائد حسَّان كالقنابل على المشركين ، وقد أشاد بشجاعة المسلمين ، حيث استطاعوا أن يقتلوا حملةَ لواءِ المشركين ، ويُوبّخ المشركين ، ويصفهم بالجبن حينما لم يستطيعوا حماية لوائهم ، حتَّى كان في النِّهاية بيد امرأةٍ منهم ، وولَّى أشرافُهم، وتركوه ، وفي هذا الهجاء تذكيرٌ للمشركين بمواقف الذُّلِّ ، والجبن؛ الَّتي تعرَّضوا لها في بداية المعركة ، حتَّى لا يغترُّوا بما حصل في نهايتها من إصابة المسلمين.

ولقد أصاب حسَّان من المشركين مقتلاً ، حينما عَيَّرهم بالتخلِّي عن اللِّواء ، وإقدام امرأةٍ منهم على حمله ، وهذا يتضمَّن وصفهم بالجُبْنِ الشَّديد ، حيث أقدمتِ امرأةٌ على ما نَكَلُوا عنه[(٥٠٤)].

وممَّا قاله في شأن عَمرة بنت علقمة الحارثيَّة ، ورفعها اللِّواء:

إِذَا عَضَلٌ سِيْقَتْ إِلَيْنا كَأَنَّهَا جِدَايةُ شِرْكٍ مُعْلِماتِ الحَواجِبِ[(٥٠٥)]

أَقَمْنَا لَهُمْ طَعْناً مُبِيراً مُنَكِّلاً وحُزْنَاهمُ بالضَّرْبِ مِنْ كلِّ جَانِبِ[(٥٠٦)]

فَلوْلاَ لِوَاءُ الحَارِثِيَّةِ أصْبَحُوا يُباعون في الأَسْوَاقِ بَيْعَ الجَلائِبِ[(٥٠٧)]

وعندما أخذ اللِّواءَ من الحارثيَّة غلامٌ حبشيٌّ لبني أبي طَلْحَةَ . وكان لواء المشركين قد أخذه صؤاب من الحارثيَّة . وقاتل به قتالاً عنيفاً قتل على أثره ، فرمى حسان بن ثابتٍ أبياته في هذا الموضوع ، فقال:

فَخَرْتُمْ بِاللِّواءِ وَشَرُّ فَخْرٍ لِوَاءٌ حِيْنَ رُدَّ إلى صُؤابِ

جَعَلْتُمْ فَخْرَكَمْ فِيْهِ بِعَبْدٍ وَأَلأمِ مَنْ يَطَا عَفَر التُّرَابِ

ظَنَنْتُمْ والسَّفِيْهُ لَهُ ظُنُونٌ وَمَا إِنْ ذَاكَ مِنْ أَمْرِ الصَّوَابِ[(٥٠٨)]

وممَّا قاله كعبُ بن مالكٍ رضي الله عنه في الردِّ على بعض شعراء قريش:

أَبْلِغْ قُرَيْشاً وَخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُهُ والصِّدْقُ عِنْدَ ذَوِي الألبابِ مَقْبُولُ[(٥٠٩)]

أَنْ قَدْ قَتَلْنا بِقَتْلاَنَا سَرَاتَكُمُ أَهْلَ اللِّوَاءِ فَفِيْمَا يَكْثُرُ القِيْلُ

وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِيْنَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ فِيْهِ مَعَ النَّصْرِ مِيْكَالٌ وَجِبْرِيْلُ

إِنْ تَقْتُلُونَا فَدِيْنُ الْحَقّ فِطْرَتُنَا وَالقَتْلُ فِي الحَقّ عِنْدَ الله تَفْضِيْلُ

وَإِنْ تَرَوا أَمْرَنا فِي رَأْيِكُمْ سَفَهاً فَرَأْيُ مَنْ خَالَفَ الإِسْلاَمَ تَضْلِيْلُ[(٥١٠)]

وَمِنْ أعجب ما قرأت في المعركة الإعلاميَّة بين المسلمين ، والمشركين محاولةُ ضرار بن الخطَّاب قبل إسلامه أن يفتخر ببدرٍ على اعتبار النَّصر كان لرسول الله (ص) والمهاجرين ، وفي ذلك قوله:

فَإِنْ تَظْفَرُوا فِي يَوْمِ بَدْرٍ فَإِنَّمَا بِأَحْمَدَ أَمْسَى جَدُّكمْ وَهُوَ ظَاهِرُ

وَبِالنَّفَرِ الأَخْيَارِ هُمْ أَوْلِيَاؤُهُ يُحَامُوْنَ فِي اللأْوَاءِ وَالْمَوْتُ حَاضِرُ

يُعَدُّ أَبُو بَكْرٍ وَحَمْزَةُ فِيْهِمُ وَيُدْعَى عَلِيٌّ وَسْطَ مَنْ أَنْتَ ذاكرُ

وَيُدْعَى أَبُو حَفْصٍ وَعُثْمَانُ مِنْهُمُ وَسَعْدٌ إِذَا مَا كَانَ فِي الْحَرْبِ حاضرُ

أُولَئِكَ لاَ مَنْ نَتَّجَت مِنْ دِيَارِها بَنُو الأَوْسِ وَالنَّجَّارِ حِيْنَ تُفَاخِرُ[(٥١١)]

وهكذا حوَّلها إلى لغة قبليةٍ ، تقوم على مفاهيم جاهليَّةٍ ، ولقد أجابه كعبٌ رضي الله عنه:

وفينا رسولُ الله والأَوْسُ حَوْلَهُ لَهُ مَعْقِلٌ مِنْهُمْ عَزِيْزٌ وَنَاصِرُ

وجَمْعُ بَنِي النَّجَّارِ تَحْتَ لِوَائِهِ يُمْسُونَ فِي المأذَى والنَّقْعُ ثَائِرُ

إلى أن قال:

وَكَانَ رَسُوْلُ اللهِ قَدْ قَالَ: أَقْبِلُوا فَوَلَّوا وقالُوا: إِنَّما أَنْتَ سَاحِرُ

لأمْرٍ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَهْلِكُوا بِهِ ولَيْسَ لأَمْرٍ حَمَّه النَّارُ زَاجِرُ

كما أجابه بقوله:

وَبِيَوْمِ بَدْرٍ إِذْ نَرُدُّ وُجُوْهَهُمْ جِبْرِيْلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

وهو أفخرُ بيتٍ قالته العرب .كما قال صاحب العِقد الفريد .[(٥١٢)].

* * *

الفصل العاشر

أهمُّ الأحداث ما بين أحدٍ والخندق

المبحث الأوَّل

محاولات المشركين لزعزعة الدَّولة الإسلاميَّة

كانت غزوة أُحدٍ مشجِّعةً لأعداء الدَّولة الإسلاميَّة على مواجهتها ، وساد الشُّعورُ لدى الأعراب المشركين بإمكان مناوشة المسلمين ، والتَّغلُّب عليهم ، واتَّجهت أنظار المشركين من الأعراب إلى غزو المدينة؛ لاستئصال شَأْفَتِهم[(٥١٣)] ، وكسر شوكتهم ، فطمعت بنو أسد في الدَّولة الإسلاميَّة ، وشرع خالد بن سفيان الهُذليُّ لجمع الحشود؛ لكي يهاجم بها المدينة ، وتجرَّأت عَضَل وقارَة[(٥١٤)] على خداع المسلمين ، وقام عامر بن الطُّفَيل بقتل القُرَّاء الدُّعاة الامنين ، وحاولت يهود بني النَّضير أن تغتال رسولَ الله (ص) ، فتصدَّى لهذه المحاولات الماكرة الحبيبُ المصطفى (ص) بشجاعةٍ فائقةٍ ، وسياسةٍ ماهرةٍ ، وتخطيطٍ سليمٍ ، وتنفيذٍ دقيقٍ.

أولاً: طمع بني أسدٍ في الدَّولة الإسلاميَّة:

بلغت النَّبيَّ (ص) بواسطة عيونه المنبثة في الجزيرة العربيَّة أخبارُ الاستعدادات الَّتي قام بها بنو أسدِ بن خزيمة بقيادة طُلَيْحة الأسديِّ من أجل غزو المدينة؛ طمعاً في خيراتها ، وانتصاراً لشركهم ، ومظاهرةً لقريش في عدوانها على المسلمين ، فسارع النَّبيُّ (ص) إلى تشكيل سريةٍ من مئةٍ وخمسين رجلاً من المهاجرين ، والأنصار ، وأمَّر عليهم أبا سلمة بن عبد الأسد[(٥١٥)] المخزوميَّ ، وعقد له لواءً ، وقال له: سِرْ حتَّى تنزلَ أرض بني أسد ، فأغرْ عليهم قبل أن تتلاقى عليك جموعُهم[(٥١٦)] ، فسار إليهم أبو سلمةَ في المحرَّم[(٥١٧)] ، فأغار على أنعامهم ، ففرُّوا مِنْ

وجهه؛ فأخذها ، ولم يلقَ عناءً في تشتيت أعداء الإسلام ، وعاد إلى المدينة مظفَّراً. وأبو سلمةَ يعدُّ من السَّابقين إلى الإيمان ، ومن خيرة الرَّعيل الأوَّل ، وقد عاد من هذه الغزوة متعباً؛ إذ نَفَر جرحُه الَّذي أصابه في (أُحدٍ) فلم يلبث حتَّى مات[(٥١٨)].

ونلحظ في هذه السَّريَّة عدَّة أمورٍ؛ منها: الدِّقَّة في التَّخطيط الحربيِّ عند النَّبيِّ (ص) ؛ حيث فرَّق أعداءه قبل أن يجتمعوا ، فذهلوا لمجيء سريَّة أبي سلمة؛ وهم يظنُّون: أنَّ المسلمين قد أضعفتهم وقعة أُحدٍ ، وأذهلتْهم عن أنفسهم ، فأُصيب المشركون بالرُّعب من المسلمين ، ووَهَنتْ عزيمتُهم ، وانشغلوا بأنفسهم عن مهاجمة المدينة. وتظهر دقَّة المسلمين في الرَّصد الحربيِّ ، واختيارهم التَّوقيت الصَّحيح ، والطَّريق المناسبة؛ حيث وصلوا إلى الأعداء قبل أن يعلموا عنهم أيَّ شيءٍ رغم بُعْدِ المسافة ، وكان هذا هو أهمُّ عوامل نجاح المسلمين في هذه السَّريَّة ، وتركت هذه السَّريَّة في نفوس الأعداء شعوراً مؤثِّراً على معنويَّاتهم ، ألا وهو قناعتهم بقدرة المسلمين على الاستخفاء ، والقيام بالحروب الخاطفة المفاجئة ، الَّتي تجعلهم

يمتلئون رعباً منهم ، ويتوقَّعون الإغارة في أيِّ وقتٍ ، وهذا الشُّعور حملهم على الاعتراف بقوَّة المسلمين ، ومسالمتهم[(٥١٩)].

ثانياً: خالد بن سفيان الهُذليُّ وتصدِّي عبد الله بن أنيسٍ رضي الله عنه له:

قام خالد بن سفيان الهذليُّ يجمِّع المقاتلة من هُذَيْلٍ وغيرها في عرفات ، وكان يتهيَّأ لغزو المسلمين في المدينة ؛ مظاهرةً لقريشٍ ، وتقرُّباً إليها ، ودفاعاً عن عقائدهم الفاسدة ، وطمعاً في خيرات المدينة؛ فأرسل رسولُ الله (ص) الصَّحابيَّ عبدَ الله بن أُنَيْس الجُهَنيَّ إليه بعد أن كلَّفه مهمَّة قتله[(٥٢٠)] ، وهذا عبد الله بن أنيس يحدِّثنا بنفسه ، قال رضي الله عنه: دعاني رسول الله (ص) ، فقال: «إنَّه قد بلغني: أنَّ خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي النَّاس؛ ليغزوني ، وهو بعرنة ، فائته ، فاقتله» ، قال: قلت: يا رسولَ الله ، انعته حتَّى أعرفه ، قال: «إذا رأيته وجدت له قُشَعريرةً»[(٥٢١)].

قال: فخرجتُ متوشحاً سيفي ، حتَّى وقعتُ عليه بعرنة مع ظَعْنٍ يرتاد لهنَّ منزلاً ، حين كان وقت العصر ، فلمَّا رأيتُه وجدت ما وصف لي رسول الله من القُشَعريرة ، فأقبلتُ نحوه ، وخشيتُ أن يكون بيني وبينه محاولةٌ تشغلني عن الصَّلاة ، فصلَّيتُ وأنا أمشي نحوه أومأى برأسي الرُّكوع ، والسُّجود ، فلمَّا انتهيت إليه قال: مَنِ الرَّجلُ؟ قلت: رجلٌ من العرب سمع بك ،

وبجمعك لهذا الرَّجل ، فجاءك لهذا ، قال: أجل أنا في ذلك ، قال: فمشيت معه شيئاً ، حتَّى إذا أمكنني حملت عليه بالسَّيف حتَّى قتلتُه ، ثمَّ خرجت ، وتركت ظعائنه مكبَّاتٍ عليه ، فلمَّا قدمت على رسول الله (ص) فراني ، فقال: «أفلح الوجه» ، قال: قلت: قتلتُه يا رسول الله! قال: «صدقت» ، قال: ثمَّ قام معي رسول الله فدخل في بيته ، فأعطاني عصاً ، فقال: «أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أُنَيْس!».

قال: فخرجت بها على النَّاس ، فقالوا: ما هذه العصا؟ قال: قلت: أعطانيها رسول الله (ص) ، وأمرني أن أمسكَها ، قالوا: أوَ لا ترجع إلى رسول الله (ص) فتسأله عن ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول الله (ص) ، فقلت: يا رسول الله! لِمَ أعطيتني هذه العصا؟ قال: «ايةٌ بيني وبينك يوم القيامة ، إن أقلَّ النَّاس المختصرون[(٥٢٢)] يومئذ يوم القيامة» فقرنها عبد الله بسيفه ، فلم تزل معه ، حتَّى إذا مات أمر بها ، فضمَّت معه في كفنه ، ثمَّ دُفنا جميعاً. [أحمد (٣/٤٩٦) ، وأبو يعلى (٩٠٥) ، ومجمع الزوائد (٦/٢٠٣) ، وأبو داود مختصراً (١٢٤٩)].

وفي هذا الخبر فوائدُ ، ودروسٌ ، وعبرٌ؛ منها:

١ . دقَّة الرَّصد الحربيّ:

كان رسول الله (ص) يعطي للجانب الأمنيّ أهمِّيَّته ، ولذلك كان يتابع تحرُّكات الأعداء ، ويعدُّ بعد ذلك الحلول المناسبة للمشكلات ، والأزمات في وقتها الملائم ، ولذلك لم يمهل خالد بن سفيان حتَّى يكثر جمعُه ، ويشتدَّ ساعدُه؛ بل عمل على القضاء على الفتنة وهي في أيَّامها الأولى بحزمٍ ، وبذلك حقَّق للأمَّة مكاسب كبيرةً ، وقلَّل الخسائر المتوقَّعة من مجيء خالد بن سفيان بجيشٍ لغزو المدينة ، وهذا العمل يحتاج لقدرةٍ في الرَّصد الحربيّ ، وسرعةٍ في اتِّخاذ القرار.

٢ . فِراسَةُ[(٥٢٣)] النَّبيّ (ص) في اختيار الرِّجال:

كان (ص) يتمتَّع بِفراسَةٍ عظيمةٍ في اختيار الرِّجال ، ومعرفةٍ كبيرةٍ لذوي الكفاءات من أصحابه ، فكان يختار لكلِّ مهمَّةٍ مَنْ يناسبها ، فيختار للقيادة مَنْ يجمع بين سداد الرَّأي ، وحسن التَّصرُّف والشَّجاعة ، ويختار للدَّعوة والتَّعليم مَنْ يجمع بين غزارة العلم ، ودَمَاثَةِ[(٥٢٤)] الخُلُق والمهارة في اجتذاب النَّاس ، ويختار للوِفَادة على الملوك والأمراء مَنْ يجمع بين حُسْنِ المظهر ، وفصاحة اللِّسان ، وسرعة البديهة ، وفي الأعمال الفدائيَّة يختار مَن يجمع بين

الشَّجاعة الفائقة ، وقوَّة القلب ، والمقدرة على التحكُّم في المشاعر[(٥٢٥)]. وقد كان عبد الله بن أُنَيْس الجُهَنيُّ قويَّ القلب ، ثبت الجنان ، راسخ اليقين ، عظيم الإيمان[(٥٢٦)] ، وبجانب هذه الصِّفات العظيمة التي أهَّلته لهذه المهمَّة ، فهناك سببٌ اخر ، فقد كان يمتاز بمعرفة مواطن تلك القبائل لمجاورتها ديار قومه «جُهَينة»[(٥٢٧)].

٣ . المكافأة على هذا العمل أخروية:

لم تكن المكافأة على هذا العمل العظيم الجريء ، مادِّيةً دنيويَّةً . كما يتمنَّاه الكثير ممَّن يقوم بالمهمات الشَّاقَّة في جيوش العالم قديماً ، وحديثاً . بل كانت أسمى من ذلك ، وأعظم؛ فهي وسام شرفٍ أخرويٍّ قليلٌ مَنْ يناله[(٥٢٨)] ، فقد كان الصَّحابة رضي الله عنهم وسائرُ المتَّقين لا ينتظرون جزاءً في الدُّنيا . ولو حصلوا على شيءٍ من متاع الدُّنيا فإنَّه لا يعتبر عندهم شيئاً كبيراً؛ وإنَّما ينتظرون جزاءهم في الاخرة ، ولهذا كانت مكافأة عبد الله بن أنيسٍ تلك العصا؛ الَّتي ستكون علامةً بينه وبين رسول الله (ص) يوم القيامة ، وهذا يدلُّ على علوِّ مكانته في الاخرة[(٥٢٩)].

٤ . بعض الأحكام الفقهيَّة:

تضمَّن هذا الخبر بعض الأحكام ، والفوائد؛ منها: (صلاة الطَّالب). قال الخطَّابيُّ: واختلفوا في صلاة الطَّالب ، فقال عوام أهل العلم: إذا كان مطلوباً كان له أن يُصَلِّيَ إيماءً ، وإذا كان طالباً نزل إن كان راكباً ، وصلَّى بالأرض راكعاً ، وساجداً[(٥٣٠)] ، وكذلك قال ابن المنذر(٤) ، أمَّا الشَّافعيُّ فشرط شرطاً لم يشترطه غيره ، قال: إذا قلَّ الطَّالبون عن المطلوبين وانقطع الطَّالبون عن أصحابهم ، فيخافون عودة المطلوبين عليهم ، فإذا كان هكذا؛ كان لهم أن يصلُّوا يومئون إيماءً.

قال الخطَّابيُّ: وبعض هذه المعاني موجودةٌ في قصَّة عبد الله بن أُنيس[(٥٣١)].

وقد ذكر بدر العيني في عمدة القاري مذاهب الفقهاء في هذا الباب ، فعند أبي حنيفة إذا كان الرَّجل مطلوباً؛ فلا بأس بصلاته سائراً ، وإن كان طالباً؛ فلا ، وقال مالكٌ ، وجماعةٌ من أصحابه: هما سواءٌ ، كلُّ واحدٍ منهما يصلِّي على دابَّته.

وقال الأوزاعيُّ ، والشَّافعيُّ في اخرين كقول أبي حنيفة ، وهو قول عطاء ، والحسن والثَّوريُّ ، وأحمد ، وأبي ثور.

وعن الشَّافعيِّ: إن خاف الطَّالب فوت المطلوب؛ أومأ ، وإلاَّ؛ فلا[(٥٣٢)].

٥ ـ جواز الاجتهاد في زمن النَّبيِّ (ص):

يجوز الاجتهاد في زمن النَّبيِّ (ص) ؛ فعبد الله بن أنيس رضي الله عنه أدَّاه اجتهاده أن يصلِّي هذه الصَّلاة ، ولم ينكر عليه (ص) ممَّا يدلُّ على جواز الصَّلاة عند شدَّة الخوف بالإيماء[(٥٣٣)].

وهذا الاستدلال صحيحٌ ، لاشكَّ فيه؛ لأنَّ عبد الله بن أُنيس فعل ذلك في حياة النَّبيِّ (ص) ، وذلك زمن الوحي ، ومحالٌ: أنَّ النَّبيَّ (ص) لم يطَّلع عليه[(٥٣٤)].

٦ ـ مِنْ دلائل النُّبوَّة:

وَصَفَ (ص) خالدَ بن سفيان الهذليَّ لعبد الله بن أُنَيس وصفاً دقيقاً دون أن يراه ، حتَّى إنَّ ابن أُنيس عندما ردَّ على رسول الله (ص) متعجباً ـ كما وقع في رواية الواقديِّ ـ: يا رسول الله! ما فَرِقْتُ[(٥٣٥)] من شيءٍ قطُّ ، قال له رسول الله (ص) : «بلى ، اية ما بيني وبينه أن تجد له قُشَعريرةً إذا رأيته[(٥٣٦)]» ، وقد وجد عبد الله بن أُنيس خالدَ الهُذليَّ على الصِّفة؛ الَّتي ذكر رسول الله (ص) ، يقول عبد الله: فلما رأيته؛ هبته ، وفَرِقْتُ منه ، فقلت: صدق الله ، ورسولُه[(٥٣٧)].

٧ ـ ما قاله عبد الله بن أُنيس من الشِّعر في قتله لخالد الهُذليِّ:

تَرَكْتُ ابْنَ ثَوْرٍ كالحُوَارِ وَحَوْلَهُ نَوَائِحُ تَفْرِيْ كُلَّ جَيْبٍ مُقَدَّدِ

تَنَاوَلْتُهُ والظُّعْنُ خَلْفِي وَخَلْفَهُ		بِأَبْيَضَ مِنْ مَاءِ الحَديْدِ المهَنَّدِ
أَقُولُ لَهُ وَالسَّيْفُ يَعْجُمُ رَأْسَهُ		أَنَا ابْنُ أُنَيْسٍ فَارِسَاً غَيْرَ قُعْدُدِ
وَقُلْتُ لَهُ خُذْهَا بِضَرْبَةِ مَاجِدٍ		حَنِيْفٍ عَلَى دِيْنِ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ
وَكُنْتُ إِذَا هَمَّ النَّبِيُّ بِكَافِرٍ		سَبَقْتُ إِليهِ بِاللِّسَانِ وَباليَدِ[(٥٣٨)]

ثالثاً: غدر قبيلتي عَضلُ والقَارَّة ، وفاجعة الرَّجيع[(٥٣٩)]:

اختلفت مروياتُ سريَّة الرَّجيع فيما بينها كثيراً حول السَّبب الَّذي من أجله بعث النَّبيُّ (ص) هذه السَّريَّة ، وفي الوقت الَّذي يورد البخاريُّ بأنَّه إنما بعث عيناً لتجمع المعلومات عن العدوِّ [البخاري (٤٠٨٦)] ، فإنَّ مروياتٍ أخرى بأسانيد صحيحةٍ ورد فيها: أنَّه قدِم على رسول الله (ص) رهطٌ من قبيلتي عضل ، والقَارَّة المضَريَّتَيْنِ إلى المدينة وقالوا: «إنَّ فينا إسلاماً ، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقِّهوننا ، ويقرئوننا القران ويعلِّمونا شرائع الإسلام»[(٥٤٠)] ويظهر: أنَّ قبيلة هُذيل قد سعت للثَّأر من المسلمين لخالدٍ ابن سفيان الهذليّ ، فلجأت إلى الخديعة والغدر. وقد جزم الواقديُّ[(٥٤١)] بأنَّ السبب هو أن بني لحيان ـ وهم حيٌّ من هُذَيل ـ مَشَتْ إلى عَضَل ، والقَارَّة ، وجعلت لهم جُعْلاً ليخرجوا إلى رسول الله (ص) ويطلبوا منه أن يخرج معهم مَنْ يدعوهم إلى الإسلام، ويفقِّههم في الدِّين، فيكمُنوا لهم، ويأسروهم، ويُصيبوا بهم ثمناً في مكَّة[(٥٤٢)].

وهكذا بعث الرَّسول (ص) هذه السَّريَّة الَّتي تتألَّف من عشرةٍ من الصَّحابة [البخاري (٣٩٨٩)] ، وجعل عليهم عاصم بن ثابت بن الأقلح أميراً ، حتَّى إذا كانوا بين عُسْفان ومكَّة أغار بنو لحيان ـ وهم قريبٌ من مئتي مقاتل ـ ، فألجؤوهم إلى تلٍّ مرتفع بعد أن أحاطوا بهم من كل جانب ، ثم أعطوهم الأمان من القتل ، ولكن قائد السرية أعلن رفضه أن ينزل في ذمَّة كافرٍ[(٥٤٣)] ، وقال عاصم بن ثابت: إنِّي نذرت ألا أقبل جوار مشركٍ أبداً ، فجعل عاصم يقاتلهم ، وهو يقول:

مَا عِلَّتِي وَأَنَا جَلْدٌ نَابِلُ		النَّبْلُ وَالْقَوْسُ لَهَا بَلابِلُ[(٥٤٤)]
تَزِلُّ عَنْ صَفْحَتِهَا المِعَابِلُ[(٥٤٥)]		الموْتُ حَقٌّ والحَيَاةُ بَاطِلُ
وَكُلُّ مَا حَمَّ[(٥٤٦)] الإلهُ نَازِلُ		بِالمرْءِ والمرْءُ إِلَيْهِ ائلُ
إِنْ لَمْ أُقَاتِلْكُمْ فَأُمِّي هَابِلُ[(٥٤٧)]

فرماهم بالنَّبْل؛ حتَّى فنيت نبلُه ، ثمَّ طاعنهم بالرُّمح حتَّى كُسِر رمحُه ، وبقي السَّيف فقال: اللّهمّ حَمَيْتُ دينَك أوَّل نهاري ، فاحْمِ لي لحمي اخره! وكانوا يجرِّدون كُلَّ مَنْ قُتِل مِنْ

أصحابه ، فكسر غِمْدَ سيفه ، ثُمَّ قاتلَ حتَّى قُتِل ، وقد جَرَحَ رجلين وقَتل واحداً ، وكان يقول؛ وهو يقاتل:

أَبُو سُلَيْمانَ وَمِثْلِي رَامي   وَكَانَ قَوْمِي مَعْشَراً كِرَاما

ثمَّ شرعوا فيه الأسنَّة حتَّى قتلوه ، وكانت سُلافةُ بنت سعد بن الشُّهَيْد قد قُتِل زوجُها وبنوها أربعةٌ ، قد كان عاصم قتل منهم اثنين: الحارث ، ومُسافعاً ، فنذرت لئن أمكنها الله منه أن تشرب في قحفِ[(٥٤٨)] رأسه الخمرَ ، وجعلَتْ لمن جاء برأس عاصم مئة ناقةٍ ، قد علمت بذلك العرب ، وعلمته بنو لحيان ، فأرادوا أن يحتزُّوا رأس عاصم؛ ليذهبوا به إلى سُلافةَ بنت سعد ليأخذوا منها مئة ناقةٍ ، فبعث الله تعالى عليهم الدَّبْر[(٥٤٩)] فحمتْهُ ، فلم يَدْنُ إليه أحدٌ إلا لدغت وجهه ، وجاء منها شيءٌ كثير لا طاقة لأحدٍ به ، فقالوا: دعوه إلى اللَّيل ، فإنَّه إذا جاء اللَّيل؛ ذهب عنه الدَّبْر ، فلما جاء اللَّيل بعث الله عليه سيلاً ـ ولم يكن في السَّماء سحابٌ في وجه من الوجوه ـ ، فاحتمله ، فذهب به؛ فلم يَصِلُوا إليه. [البيهقي في الدلائل (٣/٣٢٨) ، وابن هشام (٣/١٨٠)][(٥٥٠)].

لقد قُتِلَ عاصمٌ في سبعةٍ من أفراد السَّريَّة بالنَّبْلِ ، ثُمَّ أعطى الأعرابُ الأمانَ من جديدٍ للثَّلاثة الباقين ، فقبلوا ؛ غير أنَّهم سرعان ما غدروا بهم بعد ما تمكَّنوا منهم ، وقد قاومهم عبد الله بن طارق فقتلوه ، واقتادوا الاثنين إلى مكَّة ، وهما خبيب ، وزيد بن الدَّثِنَّة؛ فباعوهما لقريشٍ[(٥٥١)] وكان ذلك في صفر سنة ٤ هـ[(٥٥٢)].

فأما خُبَيْب فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل ، ليقتلوه بالحارث الذي كان خبيبٌ قد قتله يوم بدر ، فمكث عندهم أسيراً ، حتى إذا أجمعوا قتله استعار مُوسَى من بعض بنات الحارث ليستحدَّ بها ، فأعارته ، وغفلت عن صبيٍّ لها ، فدرج فجلس على فَخذه ، ففزعت المرأة لئلا يقتله انتقاماً منه ، فقال خبيبٌ: أتخشينَ أن أقتله؟! ما كنتُ لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى ، فكانت تقول: ما رأيتُ أسيراً قطُّ خيراً من خبيب؛ لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذٍ ثمرة ، وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزقٌ رَزَقَهُ الله ، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه ، فقال: دعوني أصلِّ ركعتين ، ثمَّ انصرف إليهم ، فقال: لولا أن تقولوا إنَّ ما بي جَزَعٌ من الموت؛

لزدت ، فكان أوَّل مَنْ سنَّ الرَّكعتين عند القتل هو[(٥٥٣)] ، ثُمَّ قال: «اللّهُمَّ أحصهم عدداً ، واقتلهم بَدداً[(٥٥٤)] ، ولا تُبْقِ منهم أحداً» [البخاري (٣٩٨٩) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٣٢٤ ـ ٣٢٥) ، وابن هشام (٣/١٨١ ـ ١٨٢)] ثُمَّ قال:

لَقَدْ أَجْمَعَ الأَحْزَابُ حَوْلِي وَأَلَّبُوا قَبَائِلَهُمْ وَاسْتَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعِ
وَكُلُّهم مُبْدِي العَدَاوة جَاهِدٌ عَلَيَّ لأنِّي فِي وَثَاقٍ بِمَضْيَعِ
وَقَدْ قَرَّبُوا أَبْنَاءَهُم وَنِسَاءَهُمْ وَقُرِّبْتُ مِنْ جِذْعٍ طَوِيْلٍ مُمَنَّعِ
إلى اللهِ أَشْكُو غُرْبَتِي بَعْدَ كُرْبَتِيْ وَمَا أَرْصَدَ الأَحْزَابُ لي عِنْدَ مَصْرَعِيْ
فذَا العَرْشِ صَبِّرْنِي عَلَى مَا يُرَادُ بِيْ فَقَدْ بَضَّعُوا لَحْمِي وَقَدْ يَاسَ[(٥٥٥)] مَطْمَعي
وَقَدْ خَيَّرُونِي الكفر والموْتُ دُوْنَه فَقَدْ ذَرَفَتْ عَيْنَايَ مِنْ غَيْرِ مَجْزَعِ
وَمَا بِيْ حَذَارِ الموْتِ إِنِّي لَمَيِّتٌ وَإِنَّ إلى رَبِّي إِيَابِي وَمَرْجِعي
وَلَسْتُ أُبَالِي حِيْنَ أُقْتَلُ مُسْلِماً عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ فِي الله مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ
فَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلْعَدُوِّ تَخَشُّعاً وَلاَ جَزَعاً إِنِّي إلى الله مَرْجِعي[(٥٥٦)]

فقال له أبو سفيان: أيسُرُّك: أنَّ محمَّداً عندنا يُضربُ عنقُه؛ وأنَّك في أهلك؟ فقال: لا والله! ما يسرُّني أنِّي في أهلي ، وأنَّ محمَّداً في مكانه الَّذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه[(٥٥٧)]. ثُمَّ قُتِل ، وصلبوه ، ووكَّلوا به مَنْ يحرُس جُثَّتَه ، فجاء عَمْرُو بنُ أميَّة الضَّمْرِيُّ ، فاحتمله بجذعه ليلاً ، فذهب به ، ودفنه[(٥٥٨)] وأمَّا زيد بن الدَّثِنَّة ، فاشتراه صفوان بن أميَّة وقتله بأبيه أميَّة بن خلف الَّذي قُتل ببدر، وقد سأله أبو سفيان قبل قتله: أنشدك الله يا زيد! أتحبُّ أنَّ محمداً الان عندنا مكانك تضربُ عنقُه؛ وأنت في أهلك؟ فقال: والله ما أحبُّ أنَّ محمَّداً الان في مكانه الَّذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه وإنِّي جالسٌ في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيتُ من النَّاس أحداً يحبُّ أحداً؛ كحبِّ أصحاب محمَّدٍ محمَّداً[(٥٥٩)].

وقد عُرِفت هذه الحادثة المفجعة بالرَّجيع ، نسبةً إلى ماء الرَّجِيع الَّذي حصلت عنده.

وفي هذه الحادثة دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد؛ منها:

١ ـ فوائد ذَكَرها ابن حجر:

«وفي الحديث: أنَّ للأسير أن يمتنع من قبول الأمان ، ولا يمكِّنَ من نفسه؛ ولو قُتل؛ أَنَفَةً من أن يجري عليه حكم كافرٍ ، وهذا إذا أراد الأخذ بالشِّدَّة ، فإن أراد الأخذ بالرُّخصة؛ فله أن يستأمن. قال الحسن البصريُّ: لا بأس بذلك ، وقال سفيان الثَّوريُّ: أكره ذلك. وفيه الوفاء للمشركين بالعهد ، والتورُّع عن قتل أولادهم ، والتلطُّف بمن أريد قتلُه ، وإثبات كرامة الأولياء ، والدُّعاء على المشركين بالتَّعميم ،

والصَّلاة عند القتل ، وفيه إنشاء الشِّعر ، وإنشاده عند القتل ، ودلالة على قوَّة يقين خبيب ، وشدَّته في دينه.

وفيه: أنَّ الله يبتلي عبده المؤمن بما شاء كما سبق في علمه ، ليثيبه ، ولو شاء ربُّك ما فعلوه ، وفيه استجابة دعاء المسلم ، وإكرامه حيّاً وميتاً ، وغير ذلك من الفوائد ممَّا يظهر بالتأمُّل. وإنَّما استجاب الله له مِنْ حماية لحمه من المشركين ، ولم يمنعهم من قتله؛ لما أراد من إكرامه بالشَّهادة ، ومن كرامته حمايته مِنْ هتك حرمته بقطع لحمه»[(٥٦٠)].

٢ ـ بين التَّسليم ، والقتال حتَّى الموت:

يستدلُّ ممَّا سبق أنَّ للأسير في يد العدوِّ أن يمتنع مِنْ قبول الأمان ، ولا يمكِّن من نفسه؛ ولو قُتل؛ ترفعاً عن أن يجري عليه حكم كافرٍ ، كما فعل عاصمٌ ، فإن أراد التَّرخُّص؛ فله أن يستأمن ، مترقباً الفرصة مؤمِّلاً الخلاص ، كما فعل خبيبٌ ، وزيدٌ؛ ولكن لو قدر الأسير على الهرب؛ لزمه ذلك في الأصح ، وإن أمكنه إظهار دينه بينهم؛ لأنَّ الأسير في يد الكفار مقهورٌ مهانٌ ، فكان من الواجب عليه تخليص نفسه مِنْ هوان الأسر ، ورقِّه[(٥٦١)].

وهذا الحدث يفتح أمام المسلمين باباً واسعاً في التَّعامل مع الأحداث؛ في اختيارهم الأسر إذا طُلبوا مظلومين ، أو اختيارهم القتال حتَّى الموت؛ ما دام الطَّالب لا يطلبهم بعدلٍ ، وما دامت السُّلطة غير إسلاميَّة[(٥٦٢)].

٣ ـ تعظيم سنَّة النَّبيِّ (ص):

وفي الحديث يظهر تعظيم الصَّحابة لسنَّة النَّبيِّ (ص) ، وكيف أن خُبَيْباً مع أنَّه في أسر

المشركين ، ويعلم: أنَّه سيُقتل بين عشيَّةٍ ، أو ضحاها ، ومع ذلك كان حريصاً على سنَّة الاستحداد ، واستعار السِّكِّين لذلك ، وفي هذا تذكيرٌ لِمَنْ يستهين بكثيرٍ من السُّنن ، بل والواجبات؛ بحجَّة: أنَّه لا ينبغي أن ينشغل المسلمون بذلك للظُّروف الَّتي تمرُّ بها الأمَّة ، وفي الواقع لا منافاة بين تعظيم السُّنَّة والدُّخول في شرائع الإسلام كافَّةً[(٥٦٣)].

٤ ـ الإسلام ينتزع الغدر ، والأحقاد:

عندما استعار خبيب مُوسى مِنْ بعض بنات الحارث؛ ليستحدَّ بها ، فأعارته؛ قالت المرأة: فغفلتُ عن صبيٍّ لي ، دَرَجَ إليه حتَّى أتاه ، فوضعه على فخذه فلما رأيتُه؛ فَزِعْتُ منه فَزِعةً عرف ذلك منِّي ، وفي

يده الموسى ، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك؛ إن شاء الله. [البخاري (٤٠٨٦)][(٥٦٤)].
إنَّه موقفٌ رائعٌ يدلُّ على سموِّ الرُّوح ، وصفاء النَّفس ، والالتزام بالمنهج الإسلاميِّ ، فقد قال تعالى: {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الإسراء: ١٥].
إنَّه الوفاء يتعلَّمُه النَّاس ممَّن غدر بهم؛ فإنَّ الاستقامة طبيعة سلوك المسلم في حالتي الرَّخاء ، والشِّدَّة[(٥٦٥)].
وفي قول خبيبٍ رضي الله عنه: (ما كنت لأفعل؛ إن شاء الله) يشير هذا الأسلوب في البيان العربيِّ إلى أنَّ هذا الفعل غير واردٍ ، ولا متصوَّرٍ ، ولا هو في الحسبان ، في هذا الظَّرف الحاسم ، الَّذي قد يتعلَّق فيه الاستثناء لموقع الضَّرورة ، وإنقاذ المهَجِ ، لكنَّ المبدأ الأصليَّ الوفاءُ ، والكفُّ عن البُراء لا تنهض له هذه الاعتبارات الموهومة[(٥٦٦)] ، وهذا مثلٌ من عظمة الصَّحابة رضي الله عنهم حين يطبِّقون أخلاق الإسلام على أنفسهم مع أعدائهم ـ وإن كانوا قد ظلموهم ـ ، وهذا دليلٌ على وعيهم ، وكمال إيمانهم[(٥٦٧)].
٥ ـ حبُّ النَّبيِّ (ص) عند الصَّحابة:
إنَّ حظَّ الصَّحابة من حبِّه (ص) كان أتمَّ ، وأوفرَ ، ذلك: أنَّ المحبَّة ثمرةُ المعرفة ، وهم بقدره (ص) ، ومنزلته أعلمُ ، وأعرفُ مِنْ غيرهم ، فبالتَّالي كان حبُّهم له (ص) أشدَّ ، وأكبر[(٥٦٨)].

في حادثة الرَّجيع يظهر هذا الحبُّ في الحوار الهادأى بين أبي سفيان ، وبين زيدٍ ابن الدثنَّة؛ إذ قال له أبو سفيان: أتحبُّ أنَّ محمَّداً الان عندنا مكانك تضرب عنقُه، وأنَّك في أهلك؟ فقال زيد: والله! ما أحبُّ أنَّ محمَّداً الان في مكانه الَّذي هو فيه تصيبه شوكةٌ؛ وإنِّي جالسٌ في أهلي[(٥٦٩)].
وهذا الحبُّ من الإيمان ، فقد قال (ص) : «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: مَنْ كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، ومَنْ أحبَّ عبداً لا يحبُّه إلا لله ، ومَنْ يكرهُ أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يُلقى في النَّار» [البخاري (٢١) ، ومسلم (٤٣)].
٦ ـ ممَّا قاله حسَّان في ذمِّ بني لِحْيَان:
تأثَّر المسلمون بمقتل أصحاب الرَّجيع تأثُّراً بالغاً ، وكان حسَّان رضي الله عنه بشعره يعبِّر عن حال المسلمين ، فمن يستحقُّ الهجاء ، هجاه ، ومَنْ يستحقُّ المدح؛ مدحه ، فقال في هجاء بني لِحْيان:
إِنْ سرَّكَ الغَدْرُ صِرْفاً لا مِزاجَ لَهُ فَائْتِ الرَّجيْعَ فَسَلْ عَنْ دَارِ لِحْيَانِ

قَوْمٌ تَوَاصَوا بِأَكْلِ الجَارِ بَيْنَهُمُ   فَالكَلْبُ والقِرْدُ والإِنْسَانُ مِثْلانِ

لَوْ يَنْطِقُ التَّيْسُ يَوْماً قَامَ يَخطُبُهُمْ   وَكَانَ ذَا شَرَفٍ فِيْهِمْ وَذَا شَانِ[(٥٧٠)]

رابعاً: طمع عامر بن الطُّفَيْل في المسلمين وفاجعة بئر معونة (٤هـ):

عامر بن الطُّفيل زعيمٌ من زعماء بني عامرٍ ، كان متكبِّراً متغطرساً ، طامعاً في الملك ، وكان يرى: أنَّ النَّبيَّ (ص) سوف تكون له الغلبة على الجزيرة العربيَّة؛ ولذلك جاء هذا المشرك إلى النَّبيِّ (ص) ، وقال له: أُخيِّرك بين ثلاث خصالٍ: أن يكون لك أهلُ السَّهل ، ولي أهلُ المدَرِ ، أو أكونَ خليفَتَك ، أو أغزوك بأهل غَطَفان بألف أشقر وألف شقراء [البخاري (٤٠٩١)] ، فرفض (ص) تلك المطالب الجاهليَّة ، وجاء إلى المدينة مُلاعِبُ الأسنَّة سيِّد بني عامر عمُّ عامر بن الطُّفَيْل ، وقدَّم إلى النَّبيِّ (ص) هَدِيَّةً، فعرض عليه النَّبيُّ (ص) الإسلام ، فلم يُسْلِم ، ولم يَبْعُدْ من الإسلام ، وقال: يا محمد! لو بعثتَ رجالاً من أصحابك إلى أهل نجدٍ ، رجوتُ أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله (ص) : إنِّي أخشى عليهم أهل نجدٍ ، قال مُلاعِبُ الأسنَّة (أبو براء): أنا لهم جارٌ ، فابعث إلى أهل نجدٍ مَنْ شئت. فبعث إليهم بقومٍ فيهم المنذرُ بن عمرو ، وهو الَّذي يقال له: الْمُعْنِق لِيَمُوت[(٥٧١)] ، أو أعنق الموت ، فاستجاش[(٥٧٢)] عليهم عامر بن الطُّفيل بني عامر ، فأبوا أن

يطيعوه ، وأبوا أن يخفروا مُلاعِبَ الأسنَّة ، فاستجاش عليهم بني سُلَيم ، فأطاعوه ، فأتبعهم بقريب من مئة رجل رامٍ ، فأدركهم ببئر مَعُونة ، فقتلوهم إلا عمرو بن أميَّة[(٥٧٣)].

ومن حديث أنسٍ رضي الله عنه قال: جاء ناسٌ إلى النَّبيِّ (ص) ، فقالوا: أن ابعث معنا رجالاً يعلِّمونا القران ، والسُّنَّة. فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار ، يقال لهم القُرَّاء ، فيهم خالي حَرَام ، يقرؤون القران ، ويتدارسون باللَّيل يتعلَّمون ، وكانوا بالنَّهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ، ويحتطبون ، فيبيعونه ، ويشترون به الطَّعام لأهل الصُّفَّة ، وللفقراء ، فبعثهم النَّبيُّ (ص) إليهم ، فعَرَضُوا لهم ، فَقَتَلُوهم ، قبل أن يَبْلُغُوا المكانَ ، فقالوا: اللّهم بَلِّغْ عنا نبيَّنا: أنَّا قد لَقِيناك ، فرضينا عنك ، ورضيت عنَّا.

قال: وأتى رجلٌ حراماً خال أنسٍ مِنْ خلفه ، فطعنه بِرُمْحٍ حتَّى أَنْفَذَهُ ، فقال حرام: فُزْتُ وربِّ الكعبة ، فقال رسول الله (ص) لأصحابه: «إنَّ إخوانكم قد قُتلوا ، وإنَّهم قالوا: اللّهم بَلِّغْ عنا نبيَّنا أنا قد لقيناك ، فرضينا عنك ، ورضيت عنَّا» [أحمد (٤١٦/١) ، ومسلم (٦٧٧) ، والبيهقي في الدلائل (٣٤٤/٣)].

وفي هذه الحادثة المؤلمة ، والفاجعة المفجعة دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد؛ منها:

١ ـ لابدَّ للدَّعوة من تضحيات:

رأينا كيف غَدَرَ حلفاء هُذَيْل بأصحاب الرَّجِيع من القُرَّاء ، الَّذين أرسلهم النَّبيُّ (ص) معلِّمين ، ومفقِّهين في غزوة الرَّجيع ، وها هنا عامر بن الطُّفيل يغدر بالسَّبعين القرَّاء ، الَّذين استنفروا للدَّعوة إلى الله ، والتَّفقيه في دين الله ، في مجزرة رهيبةٍ دنيئةٍ ، وذلك في يوم بئر معونة.

وقد تركتْ هذه المصائب في نفس رسول الله (ص) اثاراً غائرةً ، بعيدة الأعماق ، حتَّى إنَّه لبث شهراً يَقْنُت في صلاة الفجر داعياً على قبائل سُلَيْم؛ الَّتي عَصَتِ اللهَ ، ورسولَه (ص)[(٥٧٤)] ؛ فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: قنت رسول الله (ص) شهراً متتابعاً في الظُّهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، وصلاة الصُّبح ، في دبر كلِّ صلاة ، إذا قال: «سمع اللهُ لمن حمده» من الرَّكعة الأخيرة ، يدعو على أحياءٍ من بني سُلَيم؛ على رِعْلٍ وذَكْوَانَ وعُصَيَّةَ ويؤمِّنُ مَنْ خلفه. [أحمد (١/٣٠١ ـ ٣٠٢) ، وأبو داود (٤٤٣) ، وابن خزيمة (٦١٨)].

قال أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه: وذلك بدء القنوت ، وما كنَّا نَقنُتُ ، وسأل رجلٌ أنساً عن القنوت: أبعد الرُّكوع ، أو عند فراغٍ من القراءة ، قال: لا ، بل عند فراغٍ من القراءة. [البخاري (٤٠٨٨)][(٥٧٥)].

لكن ذلك لم يفتَّ في عَضُدِ المسلمين ، ولا فتَّر من حميَّتهم في الدَّعوة إلى الله ، ولا كسر من عزمهم في مواصلة الدَّعوة ، وخدمة دين الله ، لأنَّ مصلحة الدَّعوة فوق الأنفس والدِّماء؛ بل إنَّ الدعوة لا يكتب لها النَّصر؛ إذا لم تُبْذَلْ في سبيلها الأرواحُ ، ولا شيء يمكِّن للدَّعوة في الأرض مثل الصَّلابة في مواجهة الأحداث ، والأزمات ، واسترخاص التَّضحيات من أجلها.

إنَّ الدَّعوات بدون قوى ، أو تضحيات ، يوشك أن تكون بمثابة فلسفات ، وأخيلةٍ ، تلفُّها الكتب ، وترويها الأساطير ، ثمَّ تُطْوَى مع الزَّمن.

إن حادثتي الرَّجيع وبئر مَعُونة ، تُبَصِّراننا بالمسؤولية الضَّخمة عن دين الله ، والدَّعوة إليه ، وضعت نُصْبَ أعيننا[(٥٧٦)] نماذج من التَّضحيات العظيمة الَّتي قدَّمها الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم ، من أجل عقيدتهم ، ودينهم ، ومرضاة ربِّهم.

إنَّ للسَّعادة ثمناً ، وإنَّ للرَّاحة ثمناً ، وإنَّ للمجد والسُّلطان ثمناً ، وثمن هذه الدَّعوة دمٌ زكيٌّ يُراق في سبيل الله ، من أجل تحقيق شرع الله ونظامه ، وتثبيت معالم دينه على وجه البسيطة[(٥٧٧)].

٢ ـ فزت وربِّ الكعبة:

صاحب الكلمة حرام بن مِلْحانَ رضي الله عنه ، فعندما اخترق الرُّمْحُ ظهرَه حتَّى خرج من صدره ، وأصبح يتلقَّى الدَّم بيديه ، ويمسح به وجهه ، ورأسه ، وقال: فزت وربِّ الكعبة. [البخاري (٤٠٩٢)].

إنَّ هذا المشهد يجعل أقسى القلوب ، وأعظمها تحجُّراً يتأثَّر ، ويستصغر نفسه أمام هؤلاء العظماء الَّذين لا تَصْفَرُّ وجوههم فزعاً من الموت ، وإنما يعلوها البِشْرُ والسُّرور ، وتغشاها السَّكينة والطُّمأْنينة[(٥٧٨)].

وهذا المنظر البديع الرَّائع الَّذي لا يتصوَّره العقل البشريُّ المجرَّد عن الإيمان جعل جَبَّار بن سلمى ، وهو الَّذي طعن حرام بن ملحان يتساءل عن قول حرام: «فزت وربِّ الكعبة» وهذا جبَّار

يحدِّثنا بنفسه ، فيقول: إنَّ ممَّا دعاني إلى الإسلام: أنِّي طعنت رجلاً منهم يومئذٍ برمح بين كتفيه ، فنظرت إلى سِنَان الرُّمح حين خرج من صدره ، فسمعته يقول: «فزت وربِّ الكعبة!» فقلت في نفسي: ما فاز ، ألست قد قتلت الرَّجل؟! حتَّى سألت بعد ذلك عن قوله ، فقالوا: للشَّهادة. فقلت: فاز لَعَمْرُ الله! فكان سبباً لإسلامه. [البيهقي في الدلائل (٣/٣٥٣)][(٥٧٩)].

وهذا الموقف الخارق للعادة يدعونا للتَّساؤل: هل يتعرض الشَّهيد لألم الموت؟

وتأتينا الإجابة الشَّافية من رسول الله (ص) الَّذي لا ينطق عن الهوى في قوله: «ما يجد الشَّهيد من مسِّ القتل إلا كما يجد أحدكم من مَسِّ القَرْصةَ» [الترمذي (١٦٦٨) ، والنسائي (٦/٣٦) ، وابن ماجه (٢٨٠٢)].

فللشهيد منزلةٌ خاصَّة عند الله ، فجزاء الثَّمن الباهظ الَّذي يدفعه ، وهو روحه رخيصةً في سبيل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، لم يبخسه الحكم العدل حقَّه ، فكافأه مكافأةً بستِّ جوائز ، كلُّ واحدةٍ منها تعدل الدُّنيا وما فيها ، فعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «للشَّهيد عند الله سِتُّ خصالٍ: يُغفَر له في أوَّل دفعةٍ من دمه ، ويَرى مقعده من الجنَّة ، ويُجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويُحَلَّى حُلَّة الإيمان ، ويزوَّج من الحور العين ، ويُشفَّع في سبعين إنساناً من أقاربه» [الترمذي (١٦٦٣) ، وابن ماجه (٢٧٩٩)][(٥٨٠)].

هذا بالإضافة إلى الوسام المميَّز المشرَّف؛ الَّذي يأتي به يوم القيامة: وجُرْحُهُ كهيئته يوم جُرِحَ: «اللَّون لون الدَّم ، والرِّيح ريح المسك» [الترمذي (١٦٥٦)].

كما أنَّ حياة الشُّهداء لا تنتهي بمجرَّد موتهم ، بل هم أحياء يرزقون ، ويتنعمون عند ربِّهم[(٥٨١)].
قال تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ *} [آل عمران: ١٦٩].

٣ ـ عدم معرفة النَّبيِّ (ص) للغيب:

إنَّ حادثتي بئر مَعُونة والرَّجيع ، وغيرهما تدلاَّن على أنَّ الرَّسول (ص) لا يعلم الغيب ، كما دلَّت على ذلك أدلَّةٌ أخرى منها قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *} [الأعراف: ١٨٨].

فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده عالم الغيب ، والرُّسل والملائكة لا يعلمون من الغيب إلا ما علَّمهم ربُّهم ـ عزَّ وجلَّ ـ[(٥٨٢)]: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا *إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا *} [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

٤ ـ الوفاء بالعهد:

وقع عمرو بن أميَّة الضَّمْريُّ رضي الله عنه أسيراً في بئر مَعُونة ، ولما علم عامرُ بن الطُّفَيل: أنَّه من مُضر أطلقه ، وجزَّ ناصيته ، وأعتقه عن رقبة زعم أنَّها كانت على أمِّه ، فلمَّا خرج عمرو قاصداً المدينة ، نزل في طريقه في ظلٍّ ، والتقى برجلين من بني عامر ـ وكان معهما عقدٌ من رسول الله ، وجوار ، لم يعلم به عمرو بن أميَّة ـ وقد سألهما حين نزلا: ممَّن أنتما؟ فقالا: من بني عامر ، فأمهلهما ، حتَّى إذا ناما ، عدا عليهما ، فقتلهما ، وهو يرى أنَّه قد أصاب بهما ثُؤْرةً[(٥٨٣)] من بني عامر ، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله (ص) ، فلمَّا قدم عمرو بن أميَّة على رسول الله ، فأخبره الخبر ، قال رسول الله (ص) : لقد قتلت قتيلين؛ لأدِينَّهما[(٥٨٤)].

وهذا موقفٌ رفيعٌ ، فقد وَدَى (ص) ذينك الرَّجلين العامريين اللَّذينِ قتلهما عمرو بن أميَّة الضَّمريُّ؛ لكونهما يحملان عقداً منه (ص) ، ولم يؤاخذهما بما فعل بعض أفراد قومهما ، وهذا يمثِّل منتهى القمَّة في الوفاء بالعهود.

قد كان بإمكان النَّبيِّ (ص) أن يعتبر عمل عمرو بن أميَّة جزءاً من الانتقام الَّذي ينبغي أن يواجه به المجرمون المعتدون ، ولكنْ ما ذنب الأبرياء حتى يؤخذوا بجريرة المعتدين مِنْ قومهم؟!

إنَّ التَّوجيهات الإسلاميَّة الرَّفيعة دفعت بالمسلمين ، ونبيِّهم (ص) إلى الرُّقيِّ الأخلاقي ، الَّذي لا نظير له في دنيا النَّاس[(٥٨٥)].

٥ ـ الصَّحابيُّ الجليل عامر بن فُهَيرة رضي الله عنه:

«لما قُتل الَّذين ببئر مَعُونة وأُسِرَ عمرُو بن أُميَّة الضَّمري ، قال له عامر بن الطُّفَيْل: من هذا ـ وأشار إلى قتيل ـ؟ فقال له عمرُو بن أميَّة: هذا عامرُ بن فُهَيرة. فقال: لقد رأيتُه بعدما قُتل رُفع إلى السَّماء ، حتَّى إنِّي لأنظرُ إلى السَّماء بينه وبين الأرض ، ثمَّ وُضعِ» [البخاري (٤٠٩٦)][(٥٨٦)].

٦ ـ حسَّان بن ثابت رضي الله عنه يحرِّض على قتل عامر بن الطُّفَيْل:

كان حسَّان رضي الله عنه من رجالات المؤسَّسة الإعلاميَّة ، فكان يشنُّ الحرب النَّفسيَّة على الأعداء ، وكان بجانبه كعبُ بن مالكٍ ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم ، فلم يتركوا حدثاً من أحداث السِّيرة إلا قالوا فيه شعراً ، وكلُّ قصيدةٍ للكافرين يردُّون عليها بقصائدَ ، وقد عَلِمنا ما أحدثه شعر حسَّان في طرد كعب بن الأشرف اليهوديِّ ، وكان (ص) يتعهَّد شعراء الدَّولة الإسلاميَّة ويشجِّعهم على خوض هذا الباب من الجهاد ، فعلى المسلمين المعاصرين قادةً ، وزعماء ، وعلماء ، وفقهاء ، وجماعات. أن يرعوا شعراءهم ، ويشجِّعوهم لخوض هذا الجهاد العظيم[(٥٨٧)].

ولما بلغ حسَّاناً خبرُ أصحاب بئر مَعُونة ، نَظَمَ أبياتاً تناقلتها الرُّكبان ، يحثُّ فيها ربيعةَ بن عامر بن مالك مُلاعبِ الأسِنَّة ، ويحرِّضه بعامر بن الطُّفيل بإخفاره ذمَّة أبيه أبي براء:

أَلا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي رَبِيْعاً ... بِمَا أَحْدَثَتْ فِي الحِدْثَانِ بَعْدِي

أَبُوْكَ أبُو الفِعَال أَبُو بَرَاءٍ ... وَخَالُكَ مَاجِدٌ حَكَمُ بنُ سَعْدِ

بَنِي أُمِّ البَنِيْنَ أَلَمْ يَرُعْكُمْ ... وَأَنْتُمْ مِنْ ذَوَائِبِ أهْلِ نَجْدِ

تَحَكُّمُ عَامِرٍ بأَبِي بَرَاءٍ ... لِيَخْفِرَهُ وَمَا خَطَأٌ كَعَمْدِ[(٥٨٨)]

فلمَّا بلغ ربيعة بن أبي براء هذا الشِّعْرُ ، وكان الشِّعر عندهم أوجع مِنْ رشق النَّبْل ، وقطْع السُّيوف للرِّقاب ، وطعن النُّحور بالرِّماح: قام ربيعةُ بأخذ ثأر أبيه ، فضرب عامرَ بنَ الطُّفيل ضَرْبةً أشواه بها ـ أي: لَمْ تصب منه مقتلاً ـ فوثب عليه قومُه ، وقالوا لعامرٍ: اقتصَّ! فقال: قد عفوت ، وإن عِشْتُ فسأرى رأيي فيما أتى إليَّ[(٥٨٩)].

وممَّا قاله حسَّان وهو يبكي قتلى بئر مَعُونة ، ويخصُّ المنذرَ بن عمرو رضي الله عنه:

عَلَى قَتْلَى مَعُوْنَةَ فَاسْتَهِلِّي ... بِدَمْعِ العَيْنِ سَحّاً غَيْرَ نَزْرِ[(٥٩٠)]

عَلَى خَيْلِ الرَّسُولِ غَدَاةَ لاَقَوا مَنَايَاهُمْ وَلاَ قَتْهُم بقَدْرِ
أَصَابَهُمُ الفَنَاءُ بِعَقْدِ قَوْمٍ تُخُوِّن عَقْدُ حَبْلهِمُ بغَدْرِ[(٥٩١)]
فيا لهفي لِمُنْذرٍ إذْ تَوَلَّى وَأَعْنَقِ فِي مَنِيَّتِه بِصَبْرِ[(٥٩٢)]

٧ ـ مصير عامر بن الطُّفيل العامريُّ:

استجاب الله لدعاء نبيِّه (ص) ، فقد دعا (ص) على عامر بن الطُّفَيْل ، فقال: «اللّهُمَّ اكفني عامراً!» [الطبراني في الكبير (٥٧٢٤) ، ومجمع الزوائد (٦/١٢٥ ـ ١٢٦)] [(٥٩٣)]، فأُصيب الطَّاغيةُ بمرضٍ عُضَال[(٥٩٤)] ، وصفه (ص) بقوله: «غدةٌ كغدَّة البعير»[(٥٩٥)] ، وسمَّاه (ص) بـ (الطَّاعون) ، وهو وصفٌ دقيقٌ للطَّاعون الدُّبلي ، الَّذي يتميَّز (بارتفاع درجة الحرارة ، وتضخم العقد الليمفاوية في منطقة الإرب ، وتحت الإبط ، وكذا تضخُّم الطِّحال)[(٥٩٦)] ، وهو ما أُصيب به عامر بن الطُّفَيل حتَّى أصبح حبيساً في بيت امرأةٍ من قومه.

لقد أُصيب عامرُ بن الطُّفَيْل ، وتلاشت أحلامُه بالتَّملُّك على أهل المدن في الجزيرة العربيَّة ، أو خلافة النَّبيّ (ص) ، وأمَّا تلك الجيوشُ الَّتي هدَّد النَّبيَّ (ص) بها ، فقد تحوَّلت إلى الام تحبسه في بيت امرأةٍ ، قد ولَّى عنه النَّاس ، ونفروا منه خشيةَ العدوى ، ففقدَ صوابَه ، وصرخ بمن بقي حوله ، فقال: «غُدَّةٌ كغُدَّة البكر في بيت امرأةٍ من بني ال فلان ، ائتوني بفرسي ، فمات على ظَهر فَرَسِه» [البخاري (٤٠٩١)][(٥٩٧)]؛ هلك ذلك الجبَّار العنيد كالمجنون ، بعد أن تطاير النَّاسُ من حوله خوفاً على أنفسهم من العدوى[(٥٩٨)].

* * *

المبحث الثَّاني

زواج النَّبي (ص) بأمِّ المساكين ، وأمِّ سلمة ، وأحداثٌ متفرِّقةٌ

أولاً: زينب بنت خُزَيمة أمُّ المساكين رضي الله عنها:

هي زينب بنت خُزَيْمة بن الحارث الهلاليَّة ، فهي من بني عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة ، وكانت تسمَّى في الجاهليَّة أمَّ المساكين؛ لإطعامها إياهم. تزوَّجها رسول الله (ص) في رمضان على رأس واحدٍ وثلاثين شهراً من الهجرة ، فمكثت عنده ثمانية أشهر ، وتُوُفِّيَتْ في حياته (ص) في اخر ربيعٍ الأوَّل على رأس تسعة وثلاثين شهراً ، ودفنت في مدينة رسول الله (ص)[(٥٩٩)] .

كانت زينب بنت خزيمة تحت عبد الله بن جحش بن رئاب ، الَّذي قُتل في معركة أُحدٍ شهيداً في سبيل الله تعالى ، فتزوَّجها (ص) إكراماً لها بعد أن فُجِعَتْ بقتل زوجها في معركة أُحدٍ ، ولم يتركها أرملةً وحيدةً ، فكأنَّه (ص) كافأها على فضائلها بعد مصاب زوجها[(٦٠٠)].

ثانياً: زواج النَّبيِّ (ص) بأمِّ سلمةَ رضي الله عنها:

هي هند بنت أبي أميَّة حُذافة بن المغيرة القرشيَّة المخزومية ، كانت زوجة ابن عمِّها أبي عبد الله بن عبد الأسد ، وزوجها هذا هو ابن عمَّة الرَّسول (ص) برَّة بنت عبد المطلب ، وهو أيضاً أخو رسول الله (ص) من الرَّضاعة ، وقد هاجرت أمُّ سلمة رضي الله عنها وزوجُها أبو سلمةَ إلى الحبشة فراراً بدينهما من المشركين ، ثمَّ رجعا إلى مكَّة وهاجرا إلى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول الله (ص) والمسلمون[(٦٠١)].

١ . حديث أمِّ سلمةَ لأبي سلمةَ رضي الله عنهما:

قالت أُمُّ سلمة لأبي سلمة: بلغني: أنه ليس امرأةٌ يموت زوجها؛ وهو من أهل الجنَّة ، ثمَّ لم تتزوَّج بعده ، إلا جمع الله بينهما في الجنَّة؛ فتعال أعاهدك ألا تزوَّج بعدي ، ولا أتزوَّج بعدك! قال: أتطيعينني؟ قالت: نعم. قال: إذا متُّ تزوَّجي ، اللّهم! ارزق أمَّ سلمة بعدي رجلاً خيراً منِّي ، لا يحزنها ، ولا يُؤذيها. فلمَّا مات؛ قلتُ: مَنْ خيرٌ من أبي سلمة؟ فما لبث وجاء رسولُ الله (ص) ، فقام على الباب فذكر الخطبة إلى ابن أخيها ، أو ابنها ، فقالت: أردُّ على رسول الله (ص) ، أو أتقدَّم عليه بعيالي ، ثمَّ جاء الغد ، فخطب[(٦٠٢)].

٢ ـ دعاءُ أمِّ سلمة لما توفِّي زوجُها:

لما تُوفي زوجُها أبو سلمة من أثر جراحاتٍ أصابته في قتاله للمشركين ، وكانت تحبُّه ، وتجلُّه ، جاءت للنَّبيِّ (ص) ، فقالت: يا رسول الله! إنَّ أبا سلمةَ قد مات! قال (ص) «قولي: اللَّهم! اغفر لي ، وله ، وأعقبني[(٦٠٣)] منه عُقْبَى حَسَنَةً». قالت: فقلت ، فأعْقَبَني اللهُ مَنْ هو خَيْرٌ لي منه محمَّداً (ص) . [أحمد (٦/٢٩١ و٣٠٦) ، ومسلم (٩١٩) ، وأبو داود (٣١١٥) ، والنسائي (٤/٤) ، وابن ماجه (١٤٤٧)].

٣ ـ حوار رسول الله (ص) لأمِّ سلمة عندما خطبها:

قال عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما: إنَّ أمَّ سلمة لما انقضت عدَّتها ، خطبها أبو بكر ، فردَّته، ثمَّ خطبها عمر ، فردَّته ، فبعث إليها رسول الله (ص) ، فقالت مرحباً: أخبِرْ رسولَ الله: أنِّي غَيْرَى[(٦٠٤)] ، وأنِّي مُصْبِيةٌ[(٦٠٥)] وليس أحدٌ من أوليائي شاهداً.

فبعث إليها: «أمَّا قولك: إنِّي مصبيةٌ فإنَّ الله سيكفيك صبيانك. وأمَّا قولُك: إنِّي غيرى ، فسأدعو الله أن يُذْهِبَ غيرتك. وأمَّا الأولياء ، فليس أحدٌ منهم إلا سيرضى بي» [أحمد (٦/٣١٣ ـ ٣١٤) ، والنسائي (٦/٨١ ـ ٨٢)][(٦٠٦)] وفي روايةٍ: إنِّي امرأة قد أدبر من سنِّي. فكانت إجابة رسول الله (ص) لها: «وأمَّا السِّنُّ؛ فأنا أكبر منك» [طبقات ابن سعد (٨/٩٠)] وهكذا أحسن إليها (ص) الجواب ، وما كان إلا محسناً[(٦٠٧)].

قالت أمُّ سلمة: يا عمر «أي ابنها»! قم فزوِّجْ رسولَ الله (ص) . [انظر الحديث قبل السابق]. قال ابن كثير في تعليقه على قول أمِّ سلمة: قم يا عمر فزوِّجِ النَّبيِّ (ص) : تعني: قد رضيت ، وأذنت ، فتوهَّم بعضُ العلماء: أنَّها تقول لابنها عمر بن أبي سلمة وقد كان ذاك صغيراً لا يلي مثلُه العقد ،

وقد جمعتُ في ذلك جزءاً مفرداً بيَّنت فيه الصَّواب في ذلك ، ولله الحمد والمنَّة ، وإنَّ الذي ولي عقدها عليه ابنُها سلمة بن أبي سلمة ، وهو أكبر ولدها[(٦٠٨)].

٤ ـ تأثيث رسول الله (ص) لبيت أمِّ سَلمةَ ، ومعاملته لها:

فلمَّا وافقت على الزَّواج؛ قال لها رسولُ الله (ص) : «أما إنِّي لا أُنقصكِ ممَّا أَعْطَيْت فلانة ؛ رحيين ، وجرَّتين ، ووسادةً من أدَمٍ حشوها ليفٌ» [انظر الحديث قبل السابق].

وكانت أمُّ سلمة قد ولدت طفلةً من زوجها أبي سلمة بعد موته، فعندما تزوَّجها (ص) ؛ جعل يَأْتيها ، فإذا جاء؛ أخذت زينبَ ، فوضعتها في حجرها لترضعها ، وكان (ص) حييّاً كريماً يستحيي؛ فيرجع ،

ففعل ذلك مراراً[(٦٠٩)] ، ففطن عمَّار بن ياسر رضي الله عنه وهو أخٌ لأم سلمة من أمِّها «سميَّة» الشَّهيدة التي قتلها أبو جهل ، فأطلق قدميه نحو بيت أخته أمِّ سلمة ، فأخذ ابنةَ أختِه ليسترضعها في بيته ، أو عند أحد النِّساء ، فجاء رسول الله (ص) فقال: «أين زناب؟» ، فقالت قريبة ابن أبي أميَّة . ووافقها عندها[(٦١٠)] .: أخذها عمَّار بن ياسر. فقال (ص) : «إني اتيكم اللَّيلة».

قالت أمُّ سلمة: فقمتُ، فوضعتُ ثِفَالي[(٦١١)]، وأخرجتُ حبَّاتٍ من شعيرٍ كانت في جَرَّتي ، وأخرجتُ شحماً ، فعصدته ، ثمَّ بات ، ثمَّ أصبح ، وقال حين أصبح: «إنَّ بك على أهلك[(٦١٢)] كرامةً ، فإن شئت؛ سبَّعت[(٦١٣)] لك ، وإن أسبعْ لكِ أسبعْ لنسائي [مسلم (١٤٦٠/٤١ و٤٣) ، وأبو داود (٢١٢٢)] ، وإن شئت ثَلَّثْتُ، ثمَّ دُرْتُ!» قالت: ثَلِّثْ[(٦١٤)]؛ فأقام النَّبيُّ (ص) ثلاثة أيام عند أمِّ سلمة ، ثمَّ قال (ص) : «للبكر سبعٌ ، وللثَّيب ثلاثٌ» [مسلم (١٤٦٠/٤٢)] ، وهذه المدَّة هي مدة إقامة المتزوِّج عند زوجته إذا كان عنده غيرها.

أقام (ص) عند أمِّ سلمة رضي الله عنها ثلاثة أيام سعيدةً ، ثمَّ رتَّب لها يوماً كبقيَّة زوجاته.

٥ . تغيير اسم بَرَّة بنت أبي سلمة:

تقول تلك الطِّفلةُ اليتيمة رضي الله عنها: إن النبي (ص) دخل على أم سلمة حين تزوجها واسمي بَرَّة ، فسمعها تدعوني بَرَّة ، فقال: «لا تزكُّوا أنفسكم؛ فإنَّ الله هو أعلم بالبَرَّة منكنَّ ،

والفاجرة ، سمِّيها زينب» ، فقالت أمُّ سلمة: فهي زينب. [مسلم (٢١٤٢/١٩) ، والبخاري في الأدب المفرد (٨٢١)].

وهذا من هدي النَّبيِّ (ص) ، فقد كان يحبُّ الأسماء الجميلة ، ولم يكن (ص) يغيِّر أسماء الأطفال فقط ، بل كان للرِّجال ، والنِّساء ، والعجائز نصيبٌ من ذلك الذَّوق النَّبويِّ الرَّفيع ، فقد ذُكِرَ عند رسول الله (ص) رجلٌ يقال له: شِهَاب ، فقال رسول الله (ص) : «بل أنت هشام» [البخاري في الأدب المفرد (٨٢٥) ، وأحمد (٦/٧٥) ، ومجمع الزوائد (٨/٥١)].

و(كان (ص) إذا أتاه الرَّجل ، وله اسم لا يحبُّه؛ حوَّله) [الطبراني في المعجم الكبير (١٧/١١٩) ، ومجمع الزوائد (٨/٥١)] ، إلى اسم أجمل ، وألطف ، وكان (ص) يفعل ذلك مع العجائز؛ فهذه عائشة رضي الله عنها تحدِّثنا؛ حيث تقول: جاءت عجوزٌ إلى النَّبيِّ (ص) وهو عندي ، فقال لها رسول الله (ص) : «من أنت؟» قالت: جَثَّامة الْمُزَنِيَّة.

فقال: «بل أنت حَسَّانة المزنيَّة! كيف أنتم؟ كيف حالُكم؟ كيف كنتم بعدنا؟» قالت: بخير ، بأبي أنت وأمّي يا رسول الله!

فقُرِّب إليه لحمٌ ، فجعل يناولها ، فقلتُ: يا رسولَ الله! لا تغمر يدك. فلمَّا خَرَجَتْ قلتْ: يا رسول الله! تُقْبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبال؟! فقال: «إنَّها كانت تأتينا زَمَن خديجة ، وإنَّ حُسْنَ العهد من الإيمان» [البيهقي في شعب الإيمان (٩١٢٢) ، والحاكم (١/١٦) ، والألباني في الصحيحة (٢١٦)].

٦ ـ الحكمة في زواج أمّ سلمة:

والحكمة في هذا الزَّواج ـ كما يقول صاحب تفسير المنار ـ: ليس لأجل التَّمتُّع المباح له؛ وإنَّما كان لفضلها؛ الذي يعرفه المتأمِّل بجودة رأيها يوم الحديبية ، ولتعزيتها ـ أي: بوفاة زوجها[(٦١٥)] ـ ولا ننسى كذلك: أنَّ أم سلمة من بني مخزوم أعزِّ بطون قريشٍ ، وهي الَّتي كانت تحمل لواء الحرب والمواجهة ضدَّ رسول الله (ص) ، ووراء هذا الزَّواج تفتيت حقد هذه القبيلة ، وتقريب قلوب أبنائها ، وتوطئةٌ ، وتحبُّبٌ إليهم ليدخلوا في الإسلام بعد أن صاروا أصهارَ رسول الله (ص)[(٦١٦)] .

وفي هذا الزَّواج فقه النَّبيِّ (ص) في البناء الدَّاخليِّ للأمَّة ، وتأدية حقِّ الشُّهداء في زوجاتهنَّ ، وحقُّ هؤلاء الزَّوجات من أن يَنْهَلْنَ من نور النُّبوَّة ما يشاء الله أن ينهلْنَ لكي يُبَلِّغْنَ عن رسول الله[(٦١٧)].

وكانت أمُّ سلمة اخرَ مَنْ مات من أمَّهات المؤمنين ، وكانت وفاتُها سنةَ إحدى وستين ، وقد رَوَتْ عن رسول الله أحاديث ، يبلغ مسندها ثلاثمئة وثمانية وثمانين حديثاً؛ واتَّفق البخاريُّ ، ومسلمٌ على ثلاثة عشرة ، وانفرد البخاريُّ بثلاثةٍ ، ومسلمٌ بثلاثة عشر[(٦١٨)]. لقد ساهمت في نشر العلم والحكمة عن رسول الله (ص) ، وبموتها انطفأ اخر مصباحٍ من مصابيح أمَّهات المؤمنين طالما شَعَّ النُّورَ ، والهُدى ، والعلم؛ فرضي الله عنها ، وأرضاها![(٦١٩)].

ثالثاً: مولد الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما:

قال الإمام القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ: وُلد الحسنُ في شعبان من السَّنة الرَّابعة ، وعلى هذا ولد الحسين قبل تمام السَّنة من ولادة الحسن ، ويؤيِّده ما ذكره الواقديُّ: أنَّ فاطمة علقَتْ بالحسين بعد مولد الحسن بخمسين ليلةً ، وجزم النَّواويُّ في التَّهذيب أنَّ الحسن وُلِد لخمسٍ خلونَ من شعبان سنة أربعٍ من الهجرة[(٦٢٠)].

يقول عليٌّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: لما ولد الحسن سمَّيْتُه حرباً ، فجاء رسولُ الله (ص) فقال: أروني ابني! ما سمَّيتموه؟ قلت: حرباً! قال (ص) : بل هو حسنٌ. [أحمد (٩٨/١ و١١٨) ، وابن حبان (٦٩٥٨) ، والبخاري في الأدب المفرد (٨٢٣) ، والطبراني في الكبير (٢٧٧٣) ، والحاكم (١٨٠/٣) ، والبزار (١٩٩٧) ، ومجمع الزوائد (٥٢/٨)].

وهكذا غيَّر (ص) ذلك الاسمَ الحادَّ باسمٍ جميلٍ ، يُدخل السُّرور ، والفرحة على القلوب.

فحمل المولودُ الجديدُ اسمه الجميلَ ، وحمله (ص) بين يديه ، وقَبَّلَه ، وهذا أبو رافع يخبرنا عن فعل رسول الله (ص) ؛ يقول: رأيتُ النَّبيَّ (ص) أذَّن في أُذُنِيَ الحسن ـ حين ولدته فاطمةُ ـ بالصَّلاة. [أحمد (٩/٦ و٣٩٢) ، وأبو داود (٥١٠٥) ، والترمذي (١٥١٤)].

وحدَّثنا أبو رافع عن عقيقة الحسن ، فقال: لما وَلَدَتْ فاطمةُ حسناً؛ قالت: ألا أعقُّ[(٦٢١)] عن ابني بدمٍ (بكبشين)؟ قال (ص) : «لا ، ولكن احلقي رأسه ، وتصدَّقي بوزن شعره من فضَّةٍ على المساكين ، والأوفاض» وكان الأوفاض ناساً من أصحاب رسول الله (ص) محتاجين في

المسجد ، أو الصُّفة. ففعلتُ ذلك. [أحمد (٣٩٠ و٣٩١)].

وأحبَّ (ص) أن يقدِّم عقيقة الحسن ، فعقَّ عنه كبشين. [النسائي (١٦٦/٧)][(٦٢٢)].

وقد قال (ص) في العقيقة: «كلُّ غلامٍ مرتَهَنٌ بعقيقته؛ يُذبح عنه يوم سابعه ، ويُحْلَقُ رأسُه ، ويُسَمَّى». [أحمد (٧/٥ و٨ و١٢ و١٧ و٢٢) ، وأبو داود (٢٨٣٧ و٢٨٣٨) ، والترمذي (١٥٢٢) ، والنسائي (١٦٦/٧) ، وابن ماجه (٣١٦٥)].

رابعاً: زيد بن ثابت رضي الله عنه يتعلم لغة اليهود سنة (٤هـ):

وفي هذه السَّنة تعلَّم زيدُ بن ثابت كتابة اليهود ، فعن خارجةَ بن زيد بن ثابتٍ عن زيد بن ثابتٍ: أنَّ رسول الله (ص) أمره أن يتعلَّم كتابَ اليهود؛ ليقرأه للنَّبيِّ (ص) إذا كتبوا إليه [البخاري (٧١٩٥)] ، فتعلَّمه في خمسة عشرَ يوماً ، وفي روايةٍ أخرى: أنَّ رسول الله (ص) لما قدم المدينة ، ذُهب بزيد إلى رسول الله (ص) ، وقالوا: يا رسولَ الله ، هذا غلامٌ من بني النَّجار ، معه ممَّا أنزل اللهُ عليك بضعَ عشرةَ سورةً ، فأعْجبَ ذلك رسولَ الله (ص) ، وقال: «يا زيد! تعلَّمْ لي كتاب يهود ، فإنِّي والله ما امن يهود على كتاب» قال زيد: فتعلَّمت له كتابَهم ، ما مرَّت خمس عشرة ليلةً حتى حذقْتُه ، وكنت أقرأ له كتبهم؛ إذا كتبوا إليه ، وأجيب عنه إذا كتب. [أحمد (١٨٦/٥) ، وأبو داود (٣٦٤٥) ، والترمذي (٢٧١٥)][(٦٢٣)].

وبهذا الخبر يتَّضح: أنَّ للتّرجمان مكانةٌ رفيعةٌ في الدَّولة؛ إذ هو الَّذي يَطَّلع على أسرار الدَّولة وما يأتيها من مراسلاتٍ ، أو ما ترسله من مُخاطباتٍ؛ إذ لا يصحُّ أن يطَّلع كلُّ إنسان على تلك الكتب الصَّادرة ، والواردة؛ لئلا تختلَّ الدَّولة ، وتُكشَفَ أسرارُها؛ ولذلك أمر النَّبيُّ (ص) زيدَ بن ثابت أن يتعلَّم لغة اليهود[(٦٢٤)].

وتَعَلُّمُ زيد بن ثابت لغة يهود في خمسة عشر يوماً يدلُّ على ذكاءٍ مُفْرِطٍ ، وقوَّةِ حافظةٍ ، وقد كان رضي الله عنه ممَّن حفظ القران كلَّه على عهد رسول الله (ص) ، ومن أشهر كُتَّاب الوحي بين يديه ، وهو الَّذي تولَّى كتابة القران وحده في الصُّحف في عهد الصِّدِّيق ، وكان أحدَ كاتبي المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه ، وأمْرُ رسولِ الله (ص) زيداً بتعلُّم لغة اليهود ، وكتابتهم يدلُّ على أنَّ الإسلام يحبِّب إلى المسلم أن يتعلم لغة غيره وكتابتهم ، ويتعرَّف على علومهم ، ومعارفهم؛ ولا سيَّما إذا دعت لذلك ضرورةٌ[(٦٢٥)].

* * *

المبحث الثَّالث

إجلاء يهود بني النَّضير[(٦٢٦)]

أصابَ يهودَ المدينة الخوفُ ، والرُّعبُ طيلةَ الفترة الَّتي تفصلُ بين مقتل كعب بن الأشرف ، وبين معركة أُحدٍ؛ الَّتي جرت في شوال عام (٣ هـ)؛ ولكن الهزيمة الَّتي حَلَّتْ بالمسلمين في تلك المعركة أحيت في نفوس المشركين والمنافقين الأمل مِنْ جديدٍ بتحقيق مطامعهم ، وأغراضهم ، وأزالت من قلوب اليهود الهَلَعَ[(٦٢٧)] على المصير ، وممَّا ساهم في تبديد هذا الهلع عندهم مقتلُ أصحاب الرَّجيع ، وبئر مَعُونة ، وبذلك لم يَدُمْ خوفُ اليهود طويلاً ، وعادوا إلى أساليب الدَّسِّ ، والمكر ، والخداع ، وشرعوا في حشد حصونهم بالسِّلاح ، والعتاد للانقضاض على المسلمين ، ودولتهم ، ثمَّ صمَّموا على قتل النَّبيِّ (ص) ، والغدر به[(٦٢٨)].

أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها:

أ ـ تاريخ الغزوة:

يرى المحقِّقون من المؤرِّخين: أنَّ غزوة بني النَّضير ، كانت بعد أُحدٍ في ربيع الأوَّل من السَّنة الرَّابعة من الهجرة ، وقد ردَّ ابنُ القيِّم على من زعم: أنَّ غزوة بني النَّضير كانت بعد بدرٍ بستة أشهرٍ [البخاري تعليقاً (٧/٤١٨)] بقوله: «وزعم محمَّد بن شهاب الزُّهريُّ: أن غزوة بني النَّضير كانت بعد بدرٍ بستة أشهرٍ ، وهذا وَهْمٌ منه ، أو غلطٌ عليه ، بل الَّذي لا شكَّ فيه: أنَّها بعد أُحدٍ ، والَّذي كانت بعد بدر بستة أشهرٍ هي غزوة بني قينقاع ، وقريظة بعد الخندق ، وخيبر بعد الحديبية»[(٦٢٩)].

وقال ابن العربيِّ: والصَّحيح أنَّها بعد أُحد[(٦٣٠)]، وإلى هذا الرَّأي ذهب ابن كثيرٍ[(٦٣١)].

ب ـ أسباب الغزوة:

هناك مجموعةٌ من الأسباب حملت النَّبيَّ (ص) على غزو بني النَّضير ، وإجلائهم؛ من أهمها:

١ ـ نَقضُ بني النَّضير عهودَهم؛ الَّتي تحتِّم عليهم ألا يؤووا عدوّاً للمسلمين ولم يكتفوا بهذا النَّقض؛ بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضَّعف في المدينة.

وقد حصل ذلك في غزوة السَّويق[(٦٣٢)]؛ حيث نذر أبو سفيان بن حرب حين رجع إلى مكَّة ـ بعد غزوة بدرٍ ـ نذراً؛ ألا يمسَّ رأسَه ماءٌ من جنابة حتَّى يغزوَ المدينة ، فلمَّا خرج في مئتي راكبٍ قاصداً المدينة؛ قام سيد بني النَّضير سلاَّم بن مِشْكَم بالوقوف معه ، وضيافته ، وأبطن له خبر النَّاسِ ، ولم تكن مخابرات المدينة غافلةً عن ذلك[(٦٣٣)].

قال موسى بن عقبة ـ صاحب المغازي ـ: «كانت بنو النَّضير قد دسُّوا إلى قريشٍ ، وحضُّوهم على قتال رسول الله (ص) ، ودلُّوهم على العورة»[(٦٣٤)].

٢ ـ محاولة اغتيال النَّبيِّ (ص):

خرج النَّبيُّ (ص) في نفر من أصحابه عن طريق قُباء إلى ديار بني النَّضير ، يستعينهم في دية القتيلين العامريَّين اللَّذين ذهبا ضحيةَ جهل عمرو بن أميَّة الضَّمري بجوار رسول الله (ص) لهما ، وذلك تنفيذاً للعهد الذي كان بين النَّبيِّ (ص) وبين بني النَّضير حول أداء الدِّيات ، وإقراراً لما كان يقوم بين بني النَّضير وبين بني عامر من عقودٍ ، وأحلاف.

استقبل بنو النَّضير النَّبيَّ (ص) بكثيرٍ من البشاشة ، والكياسة ، ثمَّ خلا بعضهم إلى بعضٍ يتشاورون في قتله ، والغدر به ، ويبدو أنَّهم اتَّفقوا على إلقاء صخرةٍ عليه (ص) من فوق جدارٍ كان يجلس بالقرب منه ، ولكنَّ الرسول (ص) ـ الَّذي كان برعاية الله وحفظه ـ أدرك مقاصد بني النَّضير؛ إذ جاءه الخبر من

السَّماء بما عزموا عليه مِنْ شَرٍّ ، فنهض ، وانطلق بسرعةٍ إلى المدينة ، ثمَّ تبعه أصحابه بعد قليلٍ[(٦٣٥)].

لم تكن مؤامرةُ بني النَّضير؛ الَّتي أفشلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ تستهدف شخص النَّبيِّ (ص) فحسب؛ بل كانت تستهدف كذلك دولة المدينة ، والدَّعوة الإسلاميَّة برُمَّتها ، لذا صمَّم

محمَّد (ص) على محاربة بني النَّضير؛ الَّذين نقضوا العهد ، والمواثيق معه ، وأمر أصحابه بالتَّهيُّؤ لقتالهم ، والسَّير إليهم[(٦٣٦)].

هذه الأسباب وغيرها أدَّت إلى غزوة بني النَّضير ، وقد ذكَّر القران الكريم المؤمنين بهذه النِّعمة الجليلة ، وكيف نجى اللهُ نبيَّه (ص) من مكر يهود بني النَّضير قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *} [المائدة: ١١].

وقد أورد المفسِّرون في سبب نزول هذه الاية الكريمة رواياتٍ؛ منها:

أخرج الطَّبريُّ عن أبي زيادٍ قال: جاء رسولُ الله (ص) بني النَّضير ليستعينهم في عقل[(٦٣٧)] أصحابه ، ومعه أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، فقال: أعينوني في عقل أصابني ، فقالوا: نعم يا أبا القاسم! قد ان لك أن تأتينا ، وتسألنا حاجةً ، اجلس حتَّى نطعمك ، ونعطيك الَّذي تسألنا ، فجلس رسول الله (ص) ، وأصحابه ينتظرون ، وجاء رأسُ القوم ، وهو الَّذي قال لرسول الله (ص) ما قال ، فقال لأصحابه: لا ترون أقرب منه الان ، اطرحوا عليه حجارةً ، فاقتلوه ، ولا ترون شراً أبداً.

فجاؤوا إلى رحى لهم عظيمةٍ؛ ليطرحوها عليه ، فأمسك الله عنها أيديهم حتى جاء جبريل عليه السلام فأقامه مِنْ ثَمَّ ، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: فأخبر الله نبيَّه {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *} ما أرادوا به. [ابن جرير في تفسيره (٦/١٤٤ ـ ١٤٥)].

وذكر محمَّد بن إسحاق ومجاهد، وعكرمة، وغير واحدٍ[(٦٣٨)]: أنَّها نزلت في شأن بني النَّضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله (ص) الرَّحى، لما جاءهم يستعينهم في دية العامريَّين ، ووكَّلوا عمرو بن جِحاش بذلك: إن جلس النَّبيُّ (ص) تحت الجدار، واجتمعوا عنده؛ أن يلقي الرَّحى مِنْ فوقه، فأطلع الله النَّبيَّ (ص) على ما تماروا عليه، فرجع إلى المدينة، وتبعه أصحابه ، فأنزل الله في ذلك هذه الاية[(٦٣٩)].

وقد رجَّح ابن جرير أن تكون الاية قد نزلت بسبب ما أضمره بنو النَّضير من كيدٍ ، وسوءٍ للنَّبيّ (ص) ، وأصحابه ، فقال: «وأولى الأقوال بالصِّحَّة في تأويل ذلك قول مَنْ قال: عنى اللهُ
بالنِّعمة الَّتي ذكر في هذه الاية نعمته على المؤمنين به ورسوله الَّتي أنعم بها عليهم في استنقاذه نبيَّهم (ص) ممَّا كانت يهود بني النَّضير همَّت به مِنْ قتله ، وقتل مَنْ معه يوم سار إليهم في الدِّيَة الَّتي تحمَّلها عن قتيلي عمرو بن أميَّة. وإنَّما قلنا: أولى بالصِّحَّة في تأويل ذلك؛ لأنَّ الله عقَّب ذلك برمي اليهود بسوء صنائعها ، وقبيح فِعَالها ، وخيانتها ربَّها ، وأنبياءها»[(٦٤٠)].
وقد وافق الدُّكتور محمد ال عابد ترجيح الطَّبريّ ، وقال: لا مانع أن تكون الاية الكريمة نزلت بعد تلك الحوادث مجتمعةً ، فقد تعدَّدت الحوادث ، والمنزل واحدٌ كما قال العلماء[(٦٤١)].
ومعنى الاية الكريمة: أي: اذكروا نعمة الله عليكم ، الَّتي من أكبر مظاهرها كفُّه عنكم أيدي اليهود ؛ الَّذين همُّوا أن يمدُّوا أيديهم بالسُّوء إلى نبيِّكم ، وشارَفُوا أن ينفِّذوا مؤامرتهم الخبيثة ، ولكنَّ الله أحبط مكرَهم ، ونجَّى نبيَّكم (ص) من شرورهم.
ثمَّ أمر ـ سبحانه ـ بتقواه والتوكُّل عليه ، فقال تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *}
أي: اتقوا الله ـ أيُّها المؤمنون ـ في رعاية حقوق نعمته ، ولا تُخلُّوا بشكرها ، فقد أراكم قدرته ، وتوكَّلوا عليه وحدَه ، فقد أراكم عنايته بكم ، وعلى الله وحدَه فليتوكَّل المؤمنون[(٦٤٢)].
ثانياً: إنذار بني النَّضير بالجلاء وحصارهم:
أ ـ إنذار بني النَّضير:
سجَّلت معظمُ كتب السِّيرة النَّبويَّة ، خبرَ إنذار النَّبيّ (ص) لبني النَّضير بالجلاء خلال عشرة أيام ، وقد أرسل (ص) محمَّدَ بن مسلمة رضي الله عنه إليهم ، وقال له: اذهبْ إلى يهود بني النَّضير ، وقل لهم: إنَّ رسولَ الله (ص) أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي؛ لقد نقضتُم العهد الَّذي جعلت لكم ممَّا هممتم به من الغدْر ، وقد أجَّلتُكم عشراً ، فمن رُئي بعدُ منكم ضربتُ عنقَه[(٦٤٣)]. ولم يجدوا جواباً يردُّون به سوى أن قالوا لمحمَّد بن مسلمة: يا محمد! ما كنَّا نظن أن يجيئنا بهذا رجلٌ من الأوس! فقال محمَّد: تغيَّرت القلوب ، ومحا الإسلامُ العهود. فقالوا: نتحمَّل؛ فمكثوا أياماً يُعِدُّون العدَّة للرَّحيل[(٦٤٤)].
وفي تلك المدَّة أرسل إليهم عبد الله بن أُبيِّ بن سلول مَنْ يقول لهم: اثبتُوا ، وتَمَنَّعُوا؛ فإنَّا

لن نُسْلِمَكم ، وإن قُوتلتم؛ قاتلنا معكم ، وإن أُخرجتم خرجنا معكم[(٦٤٥)] ، ولا تخرجوا فإنَّ معي من العرب ، وممَّن انضوى إلى قومي ألفين ، فأقيموا ، فهم يدخلون معكم حصونكم ، ويموتون عن اخرهم قبل أن يَصِلُوا إليكم[(٦٤٦)].

فعادت لليهود بعضُ ثقتهم ، وتشجَّعَ كبيرُهم (حُيي بن أخطب) وأرسل إلى النَّبيِّ (ص) جُدَي بن أخطب يقول له: إنَّا لن نرِيمَ ـ أي: لن نبرح ـ دارنا ، فاصنعْ ما بدا لك! فكبر رسولُ الله (ص) ، وكبَّر المسلمون معه ، وقال: حاربت يهود[(٦٤٧)].

ب ـ ضرب الحصار وإجلاؤهم:

وانقضت الأيام العشرة ، ولم يخرجوا من ديارهم ، فتحرَّكت جيوشُ المسلمين صوبهم ، وضربت عليهم الحصارَ لمدَّة خمس عشْرَة ليلةً.

وأمر (ص) بحرق نخيلهم، وقضى بذلك على أسباب تعلُّقهم بأموالهم، وزروعهم، وضعفت حماستُهم للقتال ، وجَزِعوا ، وتصايحوا: يا محمد! قد كنت تنهى عن الفساد ، وتعيبه على مَنْ يفعله؛ فما بالُ قطع النَّخيل ، وتخريبها؟!

وألقى اللهُ في قلوبهم الرُّعْبَ ، وأدرك بنو النَّضير ألاَّ مفرَّ من جلائهم ، ودبَّ اليأس في قلوبهم ، وخاصَّةً بعد أن أخلف ابن أُبَيٍّ وعده بنصرهم ، وعجِز إخوانهم أن يسوقوا إليهم خيراً ، أو يدفعوا عنهم شراً؛ فأرسلوا إلى النَّبيِّ (ص) يلتمسون منه أن يؤمِّنهم حتَّى يخرجوا من ديارهم ، فوافقهم النَّبيِّ (ص) على ذلك ، وقال لهم: «اخرجوا منها ، ولكم دماؤكم ، وما حملت الإبل إلا الحَلَقة ـ وهي الدُّروع ، والسِّلاح ـ»؛ فرضوا بذلك[(٦٤٨)].

ونقض اليهود سُقُفَ بيوتهم ، وعَمُدَها ، وجدرانها لكي لا ينتفع منها المسلمون.

وحملوا معهم كمياتٍ كبيرةً من الذَّهب ، والفضَّة ، حتَّى إن سلاَّم بن أبي الحُقَيْق وحده حمل جلدَ ثورٍ مملوءً ذهباً ، وفضَّةً ، وكان يقول: هذا الَّذي أعددناه لرفع الأرض ، وخفضها ، وإن كنَّا تركنا نخلاً ففي خيبر النَّخل[(٦٤٩)].

وحملوا أمتعتهم على ستمئة بعيرٍ ، وخرجوا ومعهم الدُّفوف ، والمزامير ، والقيان يعزفن من خلفهم حتَّى لا يشمت بهم المسلمون ، فقصد بعضهم خيبر ، وسار اخرون إلى أذرعات الشَّام[(٦٥٠)].

وقد تولَّى عمليَّة إخراجهم من المدينة محمَّد بن مسلمة بأمرٍ من رسول الله (ص)[(٦٥١)] .

وكان من أشرافهم الَّذين ساروا إلى خيبر: سَلاَّم بن أبي الحُقَيْق ، وحيي بن أخطب ، وكنانة بن الرَّبيع بن أبي الحُقَيْق ، فلمَّا نزلوها دان لهم أهلُها[(٦٥٢)].

ثالثاً: الدُّروس ، والعِبَرُ في هذه الغزوة:

تحدَّث القران الكريم عن غزوة بني النَّضير في سورةٍ كاملة ، هي سورة الحشر ، وقد سَمَّى حَبْرُ الأمَّة عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما سورة الحشر بسورة بني النَّضير ، ففي البخاريِّ عن سعيد بن جُبَيْر ، قال: قلتُ لابن عباسٍ رضي الله عنهما: سورة الحشر ، قال: قلْ سورة بني النَّضِير. [البخاري (٤٠٢٩)].

وقد بينت هذه السُّورة ملابسات هذه الغزوة ، وفصَّلت القول فيها ، وبيَّنت أحكام الفيء ، ومن هم المستحقون له ، وأوضحت موقف المنافقين من اليهود ، كما كشفت عن حقائق نفسيَّات اليهود ، وضربت الأمثال لعلاقة المنافقين باليهود ، وفي أثناء الحديث عن الغزوة وَجَّه سبحانه خطابه إلى المؤمنين ، وأمرهم بتقواه ، وحذَّرهم من معصيته ، ثمَّ تحدث سبحانه عن القران الكريم ، وعلوِّ منزلته ، وبعض صفات الله الجليلة الَّتي تليق به سبحانه ، وهكذا كان المجتمع المسلم يتربَّى بالأحداث على التَّوحيد وتعظيم منهج الله ، والاستعداد ليوم القيامة ، وبالتأمُّل في السُّورة يمكننا استخراج بعض الدُّروس ، والعبر؛ من أهمها:

١ ـ الثناء على الله وتمجيده:

ابتدأت السُّورة بالثَّناء على الله ، وأن الكون كلَّه بجميع ما فيه من مخلوقاتٍ؛ من إنسانٍ ، وحيوانٍ ، ونباتٍ ، وجمادٍ ، ينزِّه الله ، ويمجِّده ، ويشهد بوحدانيته ، وقدرته ، وجلاله ، وناطقٌ بعظمته ، وسلطانه[(٦٥٣)]. قال تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} [الحشر: ١].

كان استفتاح هذه السُّورة بالإخبار أنَّ جميع ما في السَّموات ، والأرض ، يسبِّح بحمد ربه ،

وينزِّهه عمَّا لا يليق بجلاله ، ويعبده ، ويخضع لعظمته؛ لأنَّه العزيز ، الَّذي قهر كلَّ شيءٍ ، فلا يمتنع عليه شيءٌ ، ولا يستعصي عليه عسيرٌ.

الحكيم في خلقه ، وأمره ، فلا يخلق شيئاً عبثاً ، ولا يُشرّع ما لا مصلحة فيه ، ولا يفعل إلا ما هو مُقتضى حكمته؛ ومن ذلك نصره لرسوله (ص) على الَّذين كفروا من أهل الكتاب ، من بني النَّضير ، حين غدروا برسوله (ص) ، فأخرجهم مِنْ ديارهم ، وأوطانهم الَّتي ألفوها ، وأحبُّوها[(٦٥٤)].

٢ ـ الرُّعب جنديٌّ من جنود الله:

قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ *وَلَوْلاَ أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ *ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *} [الحشر: ٢ ـ ٤].

إنَّ المتأمِّل في هذه الايات الكريمة يتبيَّن له: أنَّ الله هو الَّذي أخرج يهود بني النَّضير من ديارهم إلى الشَّام حيث أول الحشر ، في حين أنَّ كلَّ الأسباب المادِّيَّة معهم؛ حتى إنَّهم اعتقدوا: أنَّه لا أحدَ يستطيع أن يخرجهم من حصونهم لمتانتها ، وقوَّتها.

لكنَّ الله خالق الأسباب ، والمسبَّبات ، جاءهم من حيث لم يحتسبوا ، جاءهم من قلوبهم الَّتي لم يتوقَّعوا: أنَّهم يهزمون بها ، فقذف فيها الرُّعب ، فإذا بهم يهدمون بيوتهم بأيديهم ، وأيدي المؤمنين ، وهذا الأسلوب القرانيُّ الفريد يربِّي الأمَّة بالأحداث ، والوقائع ، وهو يختلف تماماً عن طريقة أهل السِّير ، ويمتاز بأنَّه يكشف الحقائق ، ويوضِّح الخفايا ، ويربط الأحداث بفاعلها الحقيقيِّ ، وهو ربُّ العالمين ، ومن ذلك أنَّها بيَّنت: أنَّ الذي أخرج بني النَّضير هو الله جلَّ جلاله: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}

واستمرت الاية الكريمة تبيِّن: أنَّ يهود بني النَّضير حسبوا كلَّ شيءٍ ، وأحاطوا بجميع الأسباب الأرضيَّة؛ لكن جاءتهم الهزيمة من مكانٍ اطمأنوا إليه ، وهو أنفسهم ، فإذا الرُّعب يأتي من داخلهم ، فإذا بهم ينهارون في أسرع لحظةٍ ، لذلك يجب على كل إنسانٍ عاقلٍ أن يعتبر بهذه الغزوة ، وأن يعرف: أنَّ الله هو المتصرِّف في الأمور ، وأنَّه لا تقف أمام قدرته العظيمة الأسباب ، ولا المسبَّبات ، فهو القادر على كلِّ شيءٍ؛ فعلى الناس أن يؤمنوا به تعالى ،

ويصلحوا أمرهم ، فإذا اتَّبعوا أمر الله ، أصلح الله لهم كلَّ شيءٍ ، وأخرج أعداءهم من حيث لم يحتسبوا.

إنَّ هذه الغزوة درسٌ للأمَّة في جميع عصورها ، تذكِّرهم أنَّ طريق النَّصر قريبٌ ، وهو الرُّجوع إلى الله والاعتماد عليه ، والتَّسليم لشريعته ، وتقديره حقَّ قدره ، فإذا عرف ذلك المؤمنون ، نصرهم الله ، ولو كان عدوُّهم قويّاً ، وكثيراً؛ فإن الله لا يعجزه شيء ، وأقرب شاهدٍ واقعيٍّ لذلك هو إجلاء بني النَّضير ، وهي عبرةٌ ، فليُعتبر بها ، والسَّعيدُ مَنِ اعتبر بغيره!

ثمَّ أوضح سبحانه: أنَّه لو لم يعاقبهم بالجلاء؛ لعذَّبهم في الدُّنيا بالقتل ، أما في الاخرة ، فلهم عذابُ النَّار[(٦٥٥)].

٣ ـ تخريب ممتلكات الأعداء:

لما نزل رسول الله (ص) بجيشه ، وحاصر بني النَّضير تحصَّنوا منه في الحصون ، فأمر رسول الله (ص) بقطع النَّخل ، والتَّحريق فيها ، فنادوه يا محمد! قد كنتَ تنهى عن الفساد ، وتعيبه على مَنْ صنعه، فما بال قطع النَّخل ، وتحريقها؟[(٦٥٦)] ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ *} [الحشر: ٥][(٦٥٧)][(٦٥٨)].

وقد توسَّع الشَّيخ محمَّد أبو زهرة في شرح هذه الاية ، فقال ما ملخَّصه بعد أن ساق اراءَ الفقهاء في ذلك:

والذي ننتهي إليه بالنِّسبة لما يكون في الحرب مِنْ هدمٍ ، وتحريقٍ ، وتخريبٍ: أنه يُستفاد من مصادر الشَّريعة ، وأعمال النَّبيِّ (ص) في حروبه:

١ ـ أنَّ الأصل هو عدم قطع الشَّجر ، وعدم تخريب البناء؛ لأنَّ الهدف من الحرب ليس إيذاءَ الرَّعية ، ولكن دفع أذى الرَّاعي الظالم ، وبذلك وردت الاثار.

٢ ـ أنَّه إذا تبيَّن: أنَّ قطع الشَّجر ، وهدم البناء توجبه ضرورةٌ حربيَّة لا مناص منها؛ كأن يستتر العدوُّ به ، ويتَّخذه وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين؛ فإنَّه لا مناصَ من قطع الأشجار ، وهدم البناء؛ على أنَّه ضرورةٌ من ضرورات القتال ، كما فعل النَّبيُّ (ص) هنا ، وفي حصن ثَقِيف.

٣ ـ أنَّ كلام الفقهاء الَّذين أجازوا الهدم ، والقلع يجب أن يُخرَّج على أساس هذه الضَّرورات ، لا على أساس إيذاء العدوِّ ، والإفساد المجرَّد ، فالعدوُّ ليس الشَّعب ، إنَّما العدوُّ هم الَّذين يحملون السِّلاح؛ ليقاتلوا[(٦٥٩)].

٤ ـ تطوير السِّياسة الماليَّة للدَّولة الإسلاميَّة:

بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ حكم الأموال الَّتي أخذها المسلمون من بني النَّضير بعد أن تمَّ إجلاؤهم ، فقال تعالى: {وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [الحشر: ٦].

وبيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ: أن الأموال الَّتي عادت إلى المسلمين من بني النَّضير ، قد تفضَّل بها عليهم بدون قتالٍ شديدٍ ، وذلك لأنَّ المسلمين مَشَوْا إلى أعدائهم ، ولم يركبوا خيلاً ، ولا إبلاً ، وافتتحها

(ص) صلحاً ، وأجلاهم ، وأخذ أموالهم ، ووضعها حيث أمره الله؛ فقد «كانت أموال بني النَّضير ممَّا أفاء الله على رسوله ممَّا لم يُوجف عليه المسلمون بخيلٍ ، ولا ركابٍ ، فكانت للنَّبيِّ (ص) خاصَّةً ، فكان ينفق على أهله نفقةَ سنةٍ ، وما بقي يجعله في الكُرَاعِ والسِّلاح عُدَّةً في سبيلِ الله» [البخاري (٤٠٣٣) ، ومسلم (١٧٥٧)][(٦٦٠)].

ثمَّ بيَّن المولى ـ عزَّ وجل ـ أحكام الفيء في قرى الكفار عامَّة ، فقال الله تعالى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} [الحشر: ٧].

وكان فيء بني النَّضير خالصاً لرسول الله (ص) ، ولهذا تصرَّف فيه ـ أي: الفيء ـ كما يشاء، فردَّه على المسلمين في وجوه البرِّ، والمصالح الَّتي ذكرها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذه الايات.

ولما غنم (ص) أموال بني النَّضير؛ دعا ثابت بن قيس ، فقال: «ادعُ لي قومك» ، قال ثابت: الخزرج؟ فقال (ص) : «الأنصارُ كلُّها» فدعا له الأوس ، والخزرج ، فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهلُه ، ثمَّ ذكر الأنصار ، وما صنعوا بالمهاجرين ، وإنزالهم إيَّاهم في منازلهم ، وأموالهم ، وأثرتهم على أنفسهم ، ثمَّ قال: «إن أحببتُم قسمتُ بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليَّ من بني النَّضير ـ وكان المهاجرون على ما هم عليه من السُّكنى في منازلكم ، وأموالكم ـ وإن أحببتم أعطيتُهم ، وخرجوا من دوركم». [الحاكم في الإكليل كما في فتح الباري (٧/٤٢٢ ـ ٤٢٣)].

فقال سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ: يا رسولَ الله! بل تقسم بين المهاجرين ، ويكونون في دورنا ، كما كانوا ، وقالت الأنصار: رضينا وسلَّمنا يا رسول الله!

وقسم ما أفاء الله ، وأعطى المهاجرين ولم يعطِ أحداً من الأنصار شيئاً ، غير أبي دُجَانة ، وسَهْل بن حُنَيفُ لحاجتهما [ابن هشام (٣/٢٠١/٢٠٢)][(٦٦١)] ، ومع أنَّه (ص) يعلم: أنَّ الفيء كان خاصَّاً له ، إلا أنَّه جمع الأنصار ، وسألهم عن قسمة الأموال لتطييب نفوسهم ، وهذا من الهدي النَّبويِّ الكريم في سياسة الأمور.

وكانت الغايةُ من هذا التَّوزيع ، تخفيفَ العبء عن الأنصار ، وهكذا انتقل المهاجرون إلى دُورِ بني النَّضير ، وأُعيدت دُورُ الأنصار إلى أصحابها ، واستغنى بعض المهاجرين ممَّا يمكن أن يقال فيه: إنَّ الأزمة قد بدأت بالانفراج[(٦٦٢)].

إنَّ قسمة أموال بني النَّضير ، أوجد تطوُّراً كبيراً في السِّياسة الماليَّة للدَّولة الإسلاميَّة؛ فقد كانت الغنائم الحربيَّة قبل هذه الغزوة ، تقسم بين المحاربين بعد أن تأخذ الدَّولةُ الإسلاميَّةُ خُمْسَها؛ لتصرف في

مصارف معينةٍ حدَّدها القران الكريم[(٦٦٣)] ، وبعد غزوة بني النَّضير ، أصبحت هناك سياسةٌ ماليَّةٌ جديدةٌ فيما يتعلَّق بالغنائم ، وخلاصتها: أنَّ الغنائم الحربيَّة أصبحت ـ حسب السِّياسة الجديدة ـ على نوعين:

١ ـ غنائم استولى عليها المجاهدون بحدِّ سيوفهم ، وهذه الغنائم تقسم بين المجاهدين بعد أن تأخذ الدَّولة خُمْسَها؛ لتصرفه في مصارفه الخاصَّة.

٢ ـ غنائم يوقعها الله بأيدي المجاهدين دون قتالٍ؛ وهذا النَّوع يختصُّ رئيس الدَّولة الإسلاميَّة ، بالتَّصرُّف فيه حسب ما يرى المصلحة في ذلك ، يعالج به الأوضاع الاقتصاديَّة في البلاد؛ فينقذ الفقراء من فقرهم ، أو يشتري به سلاحاً ، أو يبني به مدينةً ، أو يصلح به طرقاً... إلخ ، وهذا يعني: أنَّه قد أصبح لرئيس الدَّولة الإسلاميَّة ميزانيَّة خاصَّةً يتصرَّف فيها تصرُّفاً سريعاً حسب مقتضيات المصلحة[(٦٦٤)].

وقد ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ في الايتين الَّلتين أوضحتا سياسته ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ في تقسيم فيء بني النَّضير إذا اختصَّ به أناساً دون اخرين؛ العلَّةَ في ذلك في قوله تعالى: {كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ} [الحشر: ٧] أي: لكي لا يكونَ تداولُ المالِ محصوراً فيما بين طبقة الأغنياء

منكم فقط ، والتَّعليلُ لهذه الغاية يؤذِن بأنَّ سياسة الشَّريعة الإسلاميَّة في شؤون المال قائمةٌ في جملتها على تحقيق هذا المبدأ ، وأنَّ كلَّ ما تفيض به كتب الشَّريعة الإسلاميَّة من الأحكام المتعلِّقة بمختلف شؤون الاقتصاد والمال يُبغى من ورائه إقامة مجتمعٍ عادلٍ تتقارب فيه طبقاتُ النَّاس ، وفئاتهم ، ويُقضى فيه على أسباب الثَّغرات الَّتي قد تظهر فيما بينها ، والَّتي قد تؤثِّر على سير العدالة وتطبيقها.

ولو طبقت أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة وأنظمتها الخاصَّة بشؤون المال من إحياء لشريعة الزَّكاة ، ومنع للرِّبا ، وقضاءٍ على مختلف مظاهر الاحتكارات؛ لعاش النَّاسُ كلُّهم في بُحْبُوحَةٍ[(٦٦٥)] من العيش ، قد يتفاوتون في الرِّزق ، ولكنَّهم جميعاً مكتفون ، وليس فيهم كَلٌّ[(٦٦٦)] على اخر ـ وإن كانوا جميعاً يتعاونون ـ[(٦٦٧)] وبعد بيان العلَّة في توزيع أموال الفيء، عَقَّبَ سبحانه بأمر المسلمين بأن يأخذوا ما أتى به الرَّسول (ص) ، وأن ينتهوا عمَّا نهاهم عنه ، وأنَّ هذا من لوازم الإيمان ، وأمرهم بالتَّقوى ، فإنَّ عقابه شديدٌ ، وأليمٌ للعُصاة ، قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *} [الحشر: ٧].

أي: ما أمركم به الرَّسول (ص) فافعلوه ، وما نهاكم عنه فاجتنبوه؛ فإنَّه إنَّما يأمركم بكلِّ خيرٍ ، وصلاحٍ ، وينهى عن كلِّ شرٍّ وفسادٍ.

وقوله: أي: خافوا ربَّكم بامتثال {وَاتَّقُوا اللَّهَ} ، واجتناب نواهيه.
وقوله: {إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *}: أي: فإنَّ عقابه أليم ، وعذابه شديدٌ لمن عصاه ، وخالف ما أمره به ، قال المفسِّرون: والاية وإن نزلت في أموال الفيء ، إلا أنَّها عامَّةٌ في كلِّ ما أمر به النَّبيُّ (ص) ، أو نهى عنه من واجبٍ أو مندوبٍ ، أو مستحبٍّ ، أو محرَّمٍ ، فيدخل فيها الفيءُ ، وغيره[(٦٦٨)] ، وقد جاءت اياتٌ كثيرةٌ تربِّي الأمَّةَ على وجوب الانقياد لحكم الله تعالى، ولحكم رسوله (ص) وذلك من كلِّ الأمور، قال تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا *} [النساء: ٦٥].
وقال (ص) : «ما نهيتُكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتُكم به فافعلوا منهم ما استطعتُم؛ فإنَّما أهْلَكَ الَّذين من قبلكم كثرةُ مسائلِهم ، واختلافُهم على أنبيائهم» [أحمد (٢/٢٤٧) ، ومسلم (١٣٣٧/١٣٠ و١٣١) ، والترمذي (٢٦٧٩) ، والنسائي (٥/١١٠ ـ ١١١) ، وابن ماجه (١ و٢)].

٥ ـ فَضْلُ المهاجرين والأنصار ، والتَّابعين لهم بإحسان:

فَضْلُ المهاجرين:

بيَّنت الاياتُ الكريمةُ في سورة الحشر ، فضلَ المهاجرين على غيرهم ، فهم لهم الدَّرجة الأولى ، فقد اشتملت الايات على أوصافهم الجميلة ، وشهد الله لهم بالصِّدق ، قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *} [الحشر: ٨].

فَضْلُ الأنصار:

وَضَّحَت الاياتُ فضلَ الأنصار ، وقد وصفهم الله بهذه الصفات ، قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر: ٩].

فَضْلُ التَّابعين لهم بإحسان:

وهم المتتبِّعون لاثارهم الحسنة ، وأوصافهم الجميلة ، الدَّاعون في السِّرِّ ، والعلانية لإخوانهم الَّذين سبقوهم بالإيمان[(٦٦٩)].
قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [الحشر: ١٠].

وهكذا تحدَّثت السُّورة الكريمة عن صورٍ مشرقةٍ للمهاجرين ، والأنصار ، والتَّابعين لهم بإحسان.

٦ ـ موقف المنافقين في المدينة:

بيَّنتِ الايات الكريمة حالَ المنافقين، ووضَّحتْ موقفَهم، وتحالفهم مع إخوانهم من اليهود ، وكشفت أيضاً موقفهم من المسلمين ، وموقف اليهود ونفسيَّاتهم[(٦٧٠)].

قال تعالى: {أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ * لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ *كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ *فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ *} [الحشر: ١١ ـ ١٧].

يخبرنا المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ عن المنافقين ؛ كعبد الله بن أُبيّ وأضرابه ، حين بعثوا إلى يهود بني النَّضير يَعِدُونَهم بمناصرتهم ، وقوله: {لِإِخْوَانِهِمُ} أي: الَّذين بينهم وبينهم أُخوَّة الكفر ، وهم يهود بني النَّضير ، وجعلَهم إخواناً لهم؛ لكون الكفر قد جمعهم ، وإن اختلف نوع كفرهم ، فهم إخوانٌ في الكفر. {لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ} أي: والله! لئن أخرجتم من دياركم {لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ} من ديارنا في صحبتكم { وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ} أي: في شأنكم ، ومن أجلكم ، {أَحَدًا} ممَّن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم ، وإن طال الزَّمان ، ثمَّ لما وعدوهم بالخروج معهم وعدوهم بالنُّصرة لهم ، فقالوا: {وَإِنْ قُوتِلْتُمْ } أي: وإن قاتلكم المسلمون { لَنَنْصُرَنَّكُمْ} أي: على المسلمين؛ الَّذين ، يقاتلونكم ثمَّ كذَّبهم الله تعالى ، فقال: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *} فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنَّصر لهم

ولما أجمل ـ سبحانه وتعالى ـ كَذِبَ المنافقين فيما وعدوا به بني النضير؛ فصَّل ما كذبوا فيه[(٦٧١)] ، وزاد في تأكيد الرَّدِّ عليهم ، فقال تعالى: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ} أي: لئن أَخْرَجَ المسلمون اليهودَ؛ فإنَّ المنافقين لن يخرجوا معهم.

وقوله تعالى: {وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ} أي: ولئن قاتل المسلمون اليهود؛ فإن المنافقين لن ينصروهم.

وقوله تعالى: {وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ *}. أي: ولئن نصر المنافقون اليهود ـ على سبيل الفرض ـ ، فإنَّ نصرهم لن يضرَّ المسلمين شيئاً؛ بل إنَّ الفريقين سيولُّون الأدبار أمام المسلمين ، ثمَّ لا ينصر الله بني النَّضير.

ثمَّ قرر القرانُ الكريم حقيقةً قائمةً في نفوس اليهود ، والمنافقين ، قال تعالى: {لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ *} أي: لأنتم يا معشر المسلمين! أشدُّ خوفاً ، وخشيةً في صدور اليهود ، والمنافقين من الله تعالى ، فهم يخافونكم أكثر من خوفهم من الله تعالى ، وهذه الحال منهم {بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ *} أي: لا يعلمون الله ، وعظمته؛ حتَّى يخشوه حقَّ خشيته[(٦٧٢)].

ثمَّ أكَّد ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الحقيقة بصفاتٍ أخرى فيهم ، فقال تعالى: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ}فقد كشف ـ سبحانه وتعالى ـ عن حقائق نفسيَّة اليهود ، فهم جبناء ، لا يستطيعون أن يواجهوا المسلمين في مواطنَ مكشوفةٍ؛ بل لا يقاتلون إلا من وراء قراهم المحصَّنة بالخنادق ، وجدرانهم ، وحوائطهم الَّتي يتستَّرون مِنْ خلفها.

ثمَّ كشف القران عن بعض أسباب ضعفهم ، وخورهم ، فقال تعالى: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ *}

فهؤلاء اليهود في الظَّاهر تراهم مجتمعين صفّاً واحداً ضدَّ المسلمين ، لكنَّ الاية تبين: أنَّهم عكس ذلك في الحقيقة ، فهم {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} أي: عداوتهم بعضهم لبعضٍ شديدةٌ {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا} أي: تظنُّهم مجتمعين على أمر ، ورأيٍ ولكنَّهم في الحقيقة {وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى} أي:متفرقة

وقوله سبحانه {بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ *} أي: بسبب أنَّهم قومٌ لا يعقلون الحقَّ ، ولا يدورون معه ، وإنَّما يدورون في ركاب الباطل[(٦٧٣)].

وفي الاية تجسيرٌ للمؤمنين ، وتشجيعٌ لقلوبهم على قتال اليهود؛ لأنَّهم عرفوا من ربِّ العالمين ، بأنَّ اليهود جبناء ، ثمَّ بيَّن سبحانه أنَّ ما نزل ببني النَّضير من بلاءٍ بسبب غدرهم ، قد نزل ما يشبهه بإخوانهم من بني قينقاع ، فذاقوا جزاءَ خيانتهم ، وغرورهم. قال تعالى: {كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *}

ثمَّ ضرب الله مثلاً اخر للمنافقين ، الَّذين أَغْرَوْا بني النَّضير بالمقاومة ثمَّ خذلوهم عند المحنة ، فقال تعالى: يعني: مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالَّذين وعدوهم النَّصر من {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ

فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ *فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ *} ، وقول المنافقين لهم: {وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ}

ثمَّ لما حقَّت الحقائق ، ووقع عليهم الحصار ، والقتال ، تخلَّوا عنهم ، وأسلموهم للتَّهلكة ، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سَوَّل للإنسان ـ والعياذ بالله ـ الكفر ، فإذا دخل فيما سوَّله له تبرَّأ منه ، وتنصَّل ، وقال: {إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ *}

وقوله: أي: فكان عاقبة الامر {فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ *} ، وهو الشَّيطان ، والفاعل له ، وهو المستجيب للشَّيطان: أنَّهما في النار خالدين

فيها أبد الابدين { وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ *} أي: جزاء كلِّ ظالم[(٦٧٤)].

٧ ـ وعظُ المؤمنين ، وتذكيرهم باليوم الاخر ، وبيانُ الفرق الشَّاسع بين أصحاب الجنَّة ، وأصحاب النار:

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ *} [الحشر: ١٨ ـ ٢٠].

وهذه الاياتُ الكريمةُ أصلٌ في محاسبة العبد نفسه ، وأنَّه ينبغي له أن يتفقَّدها.

ومع الانتصارات العظيمة الَّتي حقَّقها المسلمون بالقضاء على يهود بني النَّضير ، والتَّوسُّع الاقتصاديُّ الَّذي حدث للصَّحابة ، مع توسُّع موارد الدَّولة بدخول مصدر الفيء يأتي القران الكريم في هذه الحادثة؛ ليؤكِّد على معاني العقيدة ، وأصولها ، والتَّذكير باليوم الاخر ، والاستعداد له ، فيأمر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أفراد المجتمع المسلم بما يوجبه الإيمان ، ويقتضيه من لزوم التَّقوى سرّاً وعلانيةً ، ومراعاة ما أمرهم الله به من أوامره ، وحدوده ، وينظروا ما لهم ، وما عليهم ، وماذا قدموا من الأعمال ، وهل تنفعهم ، أو تضرُّهم يوم القيامة؟

وطلب منهم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يجعلوا الآخرة نُصْبَ أعينهم ، وقبلةَ قلوبهم ، وأن يهتمُّوا بشأنها ، ويجتهدوا في كثرة الأعمال الَّتي توصلهم إلى رضا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأن يتغلَّبوا على القواطع ، ويزيلوا العوائق الَّتي توقفهم عن السَّير نحو مرضاة الله ـ سبحانه وتعالى ـ[(٦٧٤)].

وجاء التعبير القرانيُّ بقوله يريد يوم {لِغَدٍ} ، فقرَّب الله تعالى القيامة حتَّى جعلها غداً ، وذلك لأنَّها اتيةٌ لا محالة ، وكلُّ اتٍ قريبٌ[(٦٧٥)].

وأعلمهم ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّه خبير بما يعملون ، ولا تخفى عليه أعمالُهم ، ولا تضيع لديه ، ولا يهملها؛ لكي يَجِدُّوا ، ويجتهدوا[(٦٧٦)].

وحذَّرهم من أن يكونوا كالَّذين غفلوا عن ذكر الله ، فأنساهم الله العمل لمصالح نفوسهم ، فصاروا من الفاسقين عن أمره الخارجين عن حدود دينه.

ثمَّ نفى ـ سبحانه وتعالى ـ المساواة بين أصحاب الجنَّة وأصحاب النَّار ، وبيَّن: أنَّ أصحاب

الجنَّة هم الفائزون بالنَّعيم الخالد ، النَّاجون من عذاب الله ، أمَّا أصحاب النَّار؛ فهم الخاسرون[(٦٧٧)].

وهذا التَّفصيل ، والتَّذكير ، والوعظ ، وتقريب الاخرة من الأذهان ، والقلوب موجبٌ لأهل الإيمان إلى المبادرة والمشاركة في الخيرات.

٨ ـ عظمة القران الكريم ، وعلوُّ منزلته ، وبعض صفات الله الجليلة الَّتي تليق به ـ سبحانه وتعالى ـ:

١ ـ قال تعالى: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ *} [الحشر: ٢١].

ومعنى الاية: لو جعلنا في الجبل عقلاً ، كما جعلنا فيكم أيُّها الناس! ثمَّ أنزلنا عليه القران ، لخشع هذا الجبل ، وخضع ، وتشقَّق من خشية الله ، وهذا تمثيل لعلوِّ شأن القران ، وقوَّة تأثير ما فيه من المواعظ ، والزَّواجر ، وفيه توبيخٌ للإنسان على قسوة قلبه ، وقلَّة تخشُّعه حين قراءة القران ، وتدبُّر ما فيه من القوارع الَّتي تذلُّ لها الجبال الرَّاسيات[(٦٧٨)] ، ثمَّ بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ أنَّه يضرب للنَّاس الأمثال ، ويوضِّح لعباده الحلال ، والحرام؛ لأجل أن يتفكَّروا في اياته ، ويتدبَّروها؛ لأن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم ، ويبيِّن له طريق الخير ، والشَّرِّ ، ويحثُّه على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشِّيم ، ويزجره عن مساوأى الأخلاق؛ فلا أنفع للعبد من التفكُّر في القران ، والتدبُّر لمعانيه[(٦٧٩)].

٢ ـ وفي نهاية سورة الحشر تحدَّثت الايات الكريمة عن بعض أسماء الله الحسنى ، وأوصافه العلا. قال تعالى:

{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ *هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ *هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِىءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

وهكذا خُتِمتِ السُّورة الكريمة بما يليق بجلاله من صفاتٍ جليلةٍ ، لكي يتربَّى المجتمع المسلم على تحقيق العبودية لله ، ويتعرَّف إليه من خلال أسمائه الحسنى ، وصفاته العلا ، وذلك لكماله العظيم ، وإحسانه الشَّامل ، وتدبيره العامِّ ، وكلُّ إله غيره فإنَّه باطلٌ ، لا يستحق

من العبادة مثقال ذرَّةٍ ، لأنَّه فقيرٌ ، عاجزٌ ، ناقصٌ ، لا يملك لنفسه ، ولا لغيره شيئاً.

ثمَّ وصف نفسه بعموم العلم الشَّامل ، لما غاب عن الخلق ، وما يشاهدونه ، وبعموم رحمته؛ الَّتي وسعت كلَّ شيءٍ ، ووصلت إلى كلِّ حيٍّ ، ثمَّ كرَّر ذكر عموم ألوهيته ، وانفراده بها ، وأنَّه المالك لجميع الممالك ، فالعالم العلويُّ ، والسُّفليُّ ، وأهله؛ الجميع مماليك للهِ ، فقراء مُدَبَّرُون.

{الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ} أي: المقدَّس السَّالم من كلِّ ، ونقص ، المعظَّم ، المِمَجَّد؛ لأنَّ القدُّوس يدلُّ على التَّنزيه من كلِّ نقصٍ ، والتَّعظيم لله في أوصافه ، وجلاله.

{الْمُؤْمِنُ} أي: المصدِّق ، وأنبيائه بما جاؤوا به بالآيات البينات ، والبراهين القاطعات ، والحجج الواضحات.

{الْعَزِيزُ} الَّذي يغالَب ، ولا يمانَع ، بل قد قهر كلَّ شيءٍ ، وخضع له كلُّ شيءٍ.

{الْجَبَّارُ} الَّذي قهر جميع ، وأذعن له سائر الخلق؛ الَّذي يجبر الكسير ، ويغني الفقير.

{الْمُتَكَبِّرُ} الَّذي له الكبرياء ، المتنزِّه عن جميع العيوب ، والظُّلم ، والجور.

{سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ *}وهذا تنزيهٌ عامٌّ عن كل وصفه به مَنْ أشرك به ، وعانده.

{هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ} لجميع المخلوقات.

{الْبَارِئُ} للمبروءات.

{الْمُصَوِّرُ} للمصوَّرات.

وهذه الأسماء متعلقةٌ بالخلق ، والتَّدبير ، والتَّقدير ، وأنَّ ذلك كلَّه قد انفرد الله به ، لم يشاركه فيه مشاركٌ.

{لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} أي: له الأسماء الكثيرة جدّاً، الَّتي يحصيها، ولا يعلمها أحدٌ إلا هو ، ومع ذلك فكلُّها حُسنى؛ أي: صفات كمالٍ ، بل تدلُّ على أكمل الصِّفات ، وأعظمها ، لا نقص في شيءٍ منها بوجهٍ من الوجوه.

ومن حسنها: أنَّ الله يحبُّها ، ويحب مَنْ يحبُّها ، ويحبُّ من عباده أن يدعوه ، ويسألوه بها.

ومن كماله ، وأنَّ له الأسماء الحسنى ، والصِّفات العليا: أنَّ جميع من في السَّموات؛ والأرض مفتقرون إليه على الدَّوام ، يسبِّحون بحمده ، ويسألونه حوائجهم ، فيعطيهم من فضله ، وكرمه ، ما تقتضيه رحمتُه ، وحكمته.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} الَّذي يريد شيئاً إلا ويكون ، ولا يكوِّن شيئاً إلا لحكمةٍ ومصلحةٍ[(٦٨٠)].
إنَّ معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلا ، تتضمَّن أنواع التَّوحيد الثلاثة: توحيد الرُّبوبيَّة ، وتوحيد الإلهيَّة ، وتوحيد الأسماء والصِّفات ، ولذلك تربَّى الصَّحابة على معرفتها ، والعمل بها ، فأنواع التَّوحيد هي رُوح الإيمان ، ورَوْحُه ، وأصله ، وغايته ، فكلَّما ازداد العبد معرفةً بأسماء الله ، وصفاته؛ ازداد إيمانه ، وقوي يقينه ، فهذا العلم رسخ في قلوب الصَّحابة ، فأوجب لهم خشية الله ، ومعرفته حقَّ المعرفة ، فعملوا بموجبها[(٦٨١)].
٩ ـ تحريم الخمر:
حرِّمت الخمر ليالي حصار بني النَّضير[(٦٨٢)] في ربيع الأوَّل ، من السَّنة الرَّابعة من الهجرة[(٦٨٣)] ، وقد خضع تحريم الخمر لِسُنَّة التَّدَرُّج ، وكان ذلك التَّحريم على مراحل معروفةٍ في تاريخ التَّشريع الإسلاميِّ ، حتَّى نزلت الايات الحاسمة في النَّهي عنها من سورة المائدة ، وفي ختامها: {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ *} [المائدة: ٩١] قال المؤمنون في قوَّةٍ ، وتصميمٍ: قد انتهينا يا رب![(٦٨٤)].
وفي قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ *} [البقرة: ٢١٩].
يقول سيِّد قطب ـ رحمه الله ـ: «وهذا النَّصُّ الَّذي بين أيدينا كان أوَّلَ خُطوةٍ من خطوات التَّحريم ، فالأشياء ، والأعمال قد لا تكون شرّاً خالصاً ، فالخير يلتبس بالشَّرِّ ، والشَّرُّ يلتبس بالخير في هذه الأرض ، ولكنَّ مدار الحلِّ والحُرْمة هو غلبة الخير أو غلبة الشَّرِّ ، فإذا كان الإثم في الخمر والميسر أكبر من النَّفع ، فتلك علَّة تحريمٍ ، ومنعٍ وإن لم يصرَّح هنا بالتَّحريم ، والمنع.
هنا يبدو لنا طرفٌ من منهج التَّربية الإسلاميَّة القرانيَّة الرَّبانيَّة الحكيمة ، وهو المنهج الَّذي يمكن استقراؤه في الكثير من شرائعه ، وفرائضه ، وتوجيهاته؛ ونحن نشير إلى قاعدةٍ من قواعد هذا المنهج بمناسبة الحديث عن الخمر ، والميسر ، عندما يتعلَّق الأمر ، أو النَّهي بقاعدةٍ من
قواعد التَّصوُّر الإيمانيِّ ـ أي: بمسألةٍ اعتقاديَّةٍ ـ فإنَّ الإسلام يقضي فيها قضاءً حاسماً منذ اللَّحظة الأولى.

ولكن عندما يتعلَّق الأمر ، أو النَّهي بعبادةٍ ، وتقليدٍ ، أو بوضعٍ اجتماعيٍّ مُعَقَّد ، فإنَّ الإسلام يتريَّث به ، ويأخذ المسألة باليسر ، والتدرُّج ، ويهيِّأى الظُّروف الواقعة الَّتي تُيَسِّرُ التَّنفيذ والطَّاعة ، فعندما كانت المسألة مسألة التَّوحيد ، أو الشِّرك؛ أمضى أمره منذ اللَّحظة الأولى في ضربةٍ حازمةٍ جازمةٍ ، لا تردُّد فيها ، ولا تَلَفُّت ، ولا مجاملة فيها ، ولا مساومة ، ولا لقاء في منتصف الطَّريق؛ لأنَّ المسألة هنا مسألةٌ أساسيَّةٌ للتَّصوُّر ، لا يصلح بدونها إيمانٌ ، ولا يقام إسلامٌ.

فأمَّا الخمر ، والميسر؛ فقد كان الأمر أمر عادةٍ ، وألفة ، والعادة تحتاج إلى علاجٍ ، فبدأ بتحريك الوجدان الدِّيني المنطقيِّ التَّشريعيِّ في نفوس المسلمين بأنَّ الإثم في الخمر ، والميسر أكبرُ من النَّفع ، وفي هذا إيحاءٌ بأنَّ تركهما هو الأولى ، ثمَّ جاءت الخطوة الثَّانية باية سورة النِّساء: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} [النساء: ٤٣].

والصَّلاة في خمسة أوقات ، معظمها متقاربٌ ، لا يكفي ما بينها للسُّكر ، والإفاقة! وفي هذا تضييقٌ لفرص المزاولة العمليَّة لعادة الشُّرب ، وكسرٌ لعادة الإدمان الَّتي تتعلَّق بمواعيد التَّعاطي؛ إذ المعروف: أنَّ المدمن يشعر بالحاجة إلى ما أدمن عليه[(٦٨٥)] من مسكرٍ ، أو مُخَدِّرٍ في الموعد؛ الَّذي اعتاد تناوله ، فإذا تجاوز هذا الوقت وتكرَّر هذا التَّجاوز فترةَ حدِّ العادة؛ أمكن التغلُّب عليها ، حتَّى إذا تمَّت هاتان الخطوتان؛ جاء النَّهي الجازم الأخير لتحريم الخمر ، والميسر {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسَرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ *وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ *} [المائدة: ٩١ ـ ٩٢][(٦٨٦)].

١٠ ـ لا يحيق المكر السَّيأى إلا بأهله:

كان مكر اليهود ، وتامرهم على حياة الرَّسول (ص) والدَّولة الإسلاميَّة ، في غاية الخسَّة ، والوَضاعة ، وكانوا يريدون من مكرهم ، وغدرهم عِزَّةً ، ورفعةً ، ومجداً ، وغلبةً ، لكنَّ الله سَخِرَ منهم ، ونَجَّى رسولَه (ص) والمسلمين مِنْ مكرهم ، وأذلَّهم ، وأخزاهم ، فزال مجدُهم ، وكسر غلبتهم ، وخرَّب بيوتهم ، ورحَّلهم عن ديارهم ، ولم يكلِّف ذلك المسلمين اصطداماً مسلَّحاً ، ولا قتالاً ضارياً ، ولكنَّ الله قذف في قلوبهم الرُّعب، والفزع ، فطلبوا النَّجاة

بأرواحهم في ذلَّةٍ ، وخزيٍ ، مُخَلِّفين وراءهم ثروةً، وملكاً حازه المسلمون غنيمةً باردةً، وقد قال تعالى في شأنهم: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأِوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا

وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ *} [الحشر: ٢].

هذه عاقبة المكر السَّيأى ، والغدر المشِين ، وانظر بعد ذلك كيف أشار القران الكريم إلى مواطنِ العبرة في هذه الموقعة ، وإلى هذا التَّهديد الَّذي أعلنه لكلِّ مَنْ يسلك سبل المكر المزري ، والحقد المستبدِّ[(٦٨٧)] ، وقال: {فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ *} [الحشر: ٢].

ويظهر لي من الاية الكريمة الاعتبار من وجوهٍ:

١ ـ أنَّ الَّذي يقفُ في وجه الحقِّ ، ويصدُّ النَّاسَ عنه ، ويطارد دعاة الحقِّ منهزمٌ لا محالة ، قال تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ *} [آل عمران: ١٢].

٢ ـ الصِّراع بين الحقِّ ، والباطل لا يتوقَّف ، وباق حتَّى يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها ، وستكون للباطل جولاتٌ ، وللحقِّ جولاتٌ؛ ولكنَّ العاقبة لأهل الحقِّ في نهاية المطاف.

٣ ـ الاعتبار يكون بتجنُّب ما ارتكبه اليهود من خيانةٍ وغدرٍ ، حتَّى لا يحدُثَ نفسُ المصير الَّذي حدث لهم من الهزيمة ، والذُّلِّ والهوان[(٦٨٨)].

١١ ـ لا إكراه في الدِّين:

كان في بني النَّضير أناسٌ من أبناء الأنصار قد تهوَّدُوا بسبب تربيتهم بين ظهراني اليهود ، فأراد أهلوهم المسلمون منعهم من الرَّحيل معهم فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *} [البقرة: ٢٥٦].

روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما ، قال: كانت المرأة تكون مِقْلاتَ[(٦٨٩)] ، فتجعل على نفسها: إن عاش لها ولدٌ أن تُهَوِّدَهُ ، فلمَّا أُجليت بنو النَّضير ، كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا: لا ندع أبناءنا ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: ٢٥٦]. [أبو داود (٢٦٨٢) ، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٩٨٢ و١٠٩٨٣)].

* * *

المبحث الرَّابع

غزوة ذات الرِّقاع

أولاً: تاريخها ، وأسبابها ، ولماذا سُمِّيت بذات الرِّقاع[(٦٩٠)]:

اختلفَ أهلُ المغازي والسِّيَر في تاريخ هذه الغزوة ، وقد ذهب البُخاريُّ [البخاري تعليقاً (٧/٥٣٠)] إلى أنَّها كانت بعد خيبر ، وذهب ابن إسحاق[(٦٩١)] إلى أنَّها بعد غزوة بني النَّضير ، وقيل: بعد الخندق سنة أربع ، وعند الواقديِّ[(٦٩٢)] ، وابن سعدٍ[(٦٩٣)] أنَّها كانت في المحرم سنة خمسٍ ، ورجَّح ابن عمر ما ذهب إليه البخاريُّ[(٦٩٤)]؛ لأنَّ أبا موسى الأشعريَّ شهدها وقد قدم من الحبشة بعد فتح خيبر مباشرةً ، وشهدها أبو هريرة ، وقد أسلم حين فتح خيبر ، وصلَّى فيها رسولُ اللهِ (ص) صلاةَ الخوف ، ولم تكن شُرِعت في الخندق؛ بل شرعت في عسفان أيَّام الحديبية ، والحديبية سنةَ ستٍّ.

أمَّا الدُّكتور البوطي[(٦٩٥)]؛ فقد جزم؛ أنَّها قبل الخندق ، واحتجَّ في ذلك بما ثبت في الصَّحيح من أنَّ جابراً رضي الله عنه استأذن الرَّسولَ (ص) في غزوة الخندق ، وأخبر امرأتَهُ بما رأى من جوعِ رسول الله (ص) ، وفيه قصَّة الطَّعام الَّذي دعا إليه النَّبيِّ (ص) ، ومجيء كلِّ الجيش ، ومعجزة الرَّسول (ص) في تكثير طعام جابرٍ ، وفيه قول الرَّسول (ص) لزوجة جابر: «كلي هذا ، وأهدي؛ فإنَّ النَّاس أصابتهم مجاعةٌ» [البخاري (٤١٠١)].

وما ثبت في الصَّحيحين [البخاري (٢٠٩٧) ، ومسلم (٧١٥/٧٣) ، وأحمد (٣/٣٧٥ ـ ٣٧٦)] أيضاً من أنَّ الرَّسول (ص) سأل جابراً في غزوة ذات الرِّقاع إن كان قد تزوَّج بعدُ ، فأجاب بنعم ، ممَّا يدلُّ على أنَّ الرَّسول (ص) لم يكن علم شيئاً عن زواجه ، وأخذ البوطي في ردِّ أدلَّة ابن حجر في كونها بعد خيبر ، فقال: أمَّا ما استدل به الحافظُ ابن حجر من أنَّه (ص) لم يصلِّ صلاةَ الخوف في الأحزاب ، وصلاَّها قضاءً ، فيجاب عنه بأنَّه ربَّما كان سبب تأخير الرَّسول (ص) لها إذ ذاك استمرارَ الرَّمي بين المشركين والمسلمين بحيث لم يدع مجالاً للانصراف إلى الصَّلاة ، وربَّما كان العدوُّ في جهة القبلة ، أو ربَّما أخرها لبيان مشروعيَّة قضاء الفائتة كيفما كانت.

كما يجاب عن استدلاله بحديث أبي موسى الأشعريِّ بما ذكره كثيرٌ من علماء السِّيَر ، والمغازي من أنَّ أبا موسى إنَّما قصد بها غزوةً أخرى سُمِّيت هي أيضاً بذات الرِّقَاع ، بدليل أنَّه قال عنها: خرجنا مع رسول الله (ص) في غزاةٍ ونحن في ستة نفرٍ بيننا بعيرٌ نَعْتَقِبُهُ [البخاري (٤١٢٨) ، ومسلم

(١٨١٦)][(٦٩٦)] ... إلخ ، وغزوة ذات الرِّقاع الَّتي نتحدَّث عنها كان العدد أكثر من ذلك[(٦٩٧)].

ومال الدُّكتور الحكمي[(٦٩٨)] ، والدُّكتور العمري[(٦٩٩)] ، إلى ما ذهب إليه البخاريُّ وابن حجر ، ومال الدُّكتور مهدي رزق الله أحمد إلى ما ذهب إليه البوطيُّ[(٧٠٠)] ، وقال بأنَّ حجةَ الدُّكتور البوطي بزواج جابر قبل الخندق لا تُدْفَع ، وهي في الصَّحيحين؛ إضافةً إلى أنَّ البخاريَّ قد ذكر رأيه مُعَلَّقاً ، وحجَّته فقط مجيء أبي موسى بعد خيبر ، وهي حجَّةٌ دفعها البوطيُّ بترجيح تعدُّد الغزوة[(٧٠١)] ، وقد ذكر البوطيُّ: أنَّ تاريخ الغزوة كان في السَّنة الرَّابعة للهجرة بعد مرور شهرٍ ونصفٍ تقريباً على إجلاء بني النَّضير ، وقال بأن هذا الرَّأي ذهب إليه أكثر علماء السِّيَر ، والمغازي[(٧٠٢)] وإليه ذهبتُ.

وأمَّا سبب الغزوة: ما ظهر من الغدر لدى كثيرٍ من قبائل نجدٍ بالمسلمين ، ذلك الغدر الَّذي تجلَّى في مقتل أولئك الدُّعاة السبعين الَّذين خرجوا يدعون إلى الله تعالى، فخرج (ص) قاصداً قبائل مُحَارِب ، وبني ثَعْلبة[(٧٠٣)] ، وقد ذكر الدُّكتور محمَّد أبو فارس: أنَّ قادماً قدم المدينةَ ، فأخبر المسلمين: أن بني مُحَارِب ، وبني ثَعْلبة من غَطَفَان قد جمعوا الجموع لحرب رسول الله (ص) ، فما كان منه (ص) إلا أن سار إليهم في عُقْر دارهم ، على رأس أربعمئة مقاتلٍ ، وقيل: سبعمئة

مقاتلٍ ، ولما وصل رسول الله (ص) إلى ديارهم؛ خافوا ، وهربوا إلى رؤوس الجبال ، تاركين نساءهم ، وأطفالَهم ، وأموالَهم ، وحضرت الصَّلاةُ ، فخاف المسلمون أن يُغيروا عليهم ، فصلَّى رسولُ الله (ص) صلاة الخوف ، وعاد رسول الله (ص) إلى المدينة[(٧٠٤)].

وقد حقَّقت هذه الحملةُ العسكريَّةُ أغراضَها ، وتمكَّنت من تشتيت الحشد الَّذي قامت به غَطَفَان لغزو المدينة ، فأرهب (ص) تلك القبائل ، وألقى عليها درساً بأنَّ المسلمين ليسوا قادرين فقط على سَحْق مَنْ تحدِّثه نفسُه بالاقتراب من المدينة؛ بل قادرون على نقل المعركة إلى أرض العدوِّ نفسه ، وضربه في عُقْر داره[(٧٠٥)].

وسُمِّيت بذات الرِّقاع؛ لأنَّهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخِرَقَ ، والرِّقاع اتِّقاءَ الحرِّ ، وقيل: لأنَّهم رقَّعوا راياتهم ، وقيل: لشجرة كانت اسمها ذات الرِّقاع[(٧٠٦)] ، وقيل: لأنَّ المسلمين نزلوا في أرضٍ كان فيها بقعٌ بيض ، وسودٌ مختلفةٌ ، فسمِّيت لذلك[(٧٠٧)] ، والصَّحيح: لأنَّهم كانوا يربطون على أرجلهم مِنَ الخرق؛ فقد روى الشَّيخان بسنديهما عن أبي موسى الأشعريِّ ، قال: خرجنا مع النَّبيِّ

(ص) في غزاةٍ ونحن في ستَّة نفرٍ ، بيننا بعيرٌ نَعْتَقِبُهُ ، فَنَقِبَت[(٧٠٨)] أقدامُنا ، ونَقِبَت قدماي ، وسَقَطَتْ أظفاري ، وكنَّا نلُفُّ على أرجلنا الخِرَق ، فسُمِّيت غزوةَ ذات الرِّقاع لما كنا نُعَصِّبُ بالخِرَق على أرجلنا. [البخاري (٤١٢٨) ، ومسلم (١٨١٦)].

ثانياً: صلاة الخوف ، وحراسة الثُّغور:

١ ـ صلاة الخوف:

أنزل اللهُ تعالى على نبيِّه (ص) صلاةَ الخوف في هذه الغزوة ، وبيَّن القرانُ الكريمُ صفةَ الصَّلاة ساعةَ مواجهة العدو ، قال تعالى: {وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِيناً *} [النساء: ١٠٢].

فقد صلَّى المسلمون صلاة الخوف ، وصفةُ هذه الصَّلاة: أنَّ طائفةً صَفَّتْ معه ، وطائفة وِجَاهَ العدوِّ ، فصلَّى بالَّذين معه ركعةً ، ثمَّ ثَبَتَ قائماً ، وأتمُّوا لأنفسهم ، ثمَّ انصرفوا فَصَفُّوا

وِجَاهَ العدوِّ ، وجاءت الطائفةُ الأخرى فصلَّى بهم الرَّكعة؛ الَّتي بَقِيَتْ في صلاته ، ثمَّ ثَبتَ جالساً ، وأتمُّوا لأنفسهم ، ثمَّ سَلَّمَ بهم. [البخاري (٤١٢٩) ، ومسلم (٨٤٢)][(٧٠٩)].

وفي روايةٍ: «فصلَّى بطائفةٍ ركعتين ، ثمَّ تأخَّروا ، وصلَّى بالطائفة الأخرى ركعتين ، فكانت لرسول الله (ص) أربع ركعاتٍ ، وللقوم ركعتانِ» [البخاري (٤١٣٦) تعليقاً، ومسلم (٨٤٣/٣١١) ، وأحمد (٣/٣٦٤)] قال الدُّكتور البوطيُّ: ووجه التَّوفيق بين الحديثين: أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام صلَّى بأصحابه صلاة الخوف أكثر من مرَّة ، فصلاَّها مرَّةً على النَّحو الأوَّل ، وصلاَّها مرَّةً أخرى على النَّحو التالي.

وكانت هذه الصَّلاة بمنطقة نخلٍ الَّتي تبعد عن المدينة بيومين[(٧١٠)] ، ودلَّ تشريع صلاة الخوف على أهمِّية الصَّلاة ، فحتى في قلب المعركة لا يمكن التَّساهل فيها ، ولا يمكن التَّنازل عنها ، مهما كانت الظروف ، وبذلك تندمج الصَّلاة والعبادة بالجهاد وَفْقَ المنهاج النَّبويِّ في تربية الأمَّة؛ الَّذي استُمِدَّ من كتاب الله تعالى ، فلا يوجد أيُّ انفصالٍ ، أو انفصامٍ بين العبادة ، والجهاد[(٧١١)].

٢ ـ حراسة الثُّغُور:

عندما رجع الجيشُ الإسلاميُّ من غزوة ذات الرِّقَاع؛ سَبَوْا امرأةً من المشركين ، فنذر زوجُها ألاَّ يرجع حتَّى يُهْرِيق دماً في أصحاب محمَّد (ص) ، فجاء ليلاً وقد جعل الرَّسولُ (ص) رجلين على الحراسة أثناء نومهم ، وهما عبَّاد بن بِشْر ، وعَمَّار بن ياسر ، فضرب عَبَّاداً بسهم وهو قائمٌ يُصلِّي ، فنزعه ، ولم يقطعْ صلاتَه ، حتَّى رشقه بثلاث سهام ، فلم ينصرفْ منها حتَّى سلَّم ، فأيقظ صاحبَه ، فقال: سبحان الله! هلاَّ نبَّهتني ، فقال: كنتُ في سورة أقرؤها ، فلم أُحِبَّ أن أقطعها حتَّى أُنْفِذَها ، فلمَّا تابع عليَّ الرَّميَ ركعتُ ، فاذنتك ، وايم الله! لولا أن أضيّع ثغراً أمرني رسول الله (ص) بحفظه ، لَقَطَعُ نفسي قبل أن أقطعها ، أو أنفذَها. [أحمد (٣/٣٤٣ . ٣٤٤ و٣٥٩) ، وأبو داود (١٩٨) ، وابن خزيمة (٣٦)][(٧١٢)] ، ومن هذه الحادثة يمكننا أن نستخلص دروساً ، وعبراً؛ منها:

أ . اهتمام النَّبيِّ (ص) بأمن الجنود: ويظهر ذلك في اختياره رجلين من خِيَار الصَّحابة لحراسة الجيش ليلاً.

ب . تقسيم الحراسة: ونلاحظ أنَّ الرَّجلين الَّذين أنيطت بهما حراسة الجيش قد اقتسما الليلَ نصفين ، نصفاً للرَّاحة ونصفاً للحراسة؛ إذ لابدَّ من راحة جسم الجنديِّ بعض الوقت.

ج . التَّعلُّق بالقران الكريم ، وحبُّ تلاوته: فقد كان حبُّه للتِّلاوة قد أنساه الامَ السِّهام؛ الَّتي كانت تنغرس في جسمه ، وتثجُّ[(٧١٣)] الدَّم منه بغزارةٍ[(٧١٤)].

د . الشعور بمسؤوليَّة الحراسة: فلم يقطع عبَّاد صلاته لألمٍ يشعر به ، وإنَّما قطعها استشعاراً بمسؤوليَّة الحراسة الَّتي كُلِّفَ بها ، وهذا درسٌ بليغ في مفهوم العبادة ، والجهاد[(٧١٥)].

هـ مكان الحراسة استراتيجيٌّ: اختار النَّبيُّ (ص) فَمَ الشِّعْبِ مكان إقامة الحرس، وكان هذا الاختيار في غاية التَّوفيق؛ لأنَّه المكان الذي يُتَوَقَّع العدوُّ منه لمهاجمة المعسكر.

و . قرب مهجع الحرس من الحارس: ولذلك استطاع الحارس أن يوقظ أخاه النائم ، ولو كان المهجع بعيداً عن الحارس لما تمكَّن من إيقاظ أخيه ، وبالتَّالي يحدث ما لا تُحْمَدُ عقباه[(٧١٦)].

ثالثاً: شجاعة الرَّسول (ص) ، ومعاملته لجابر بن عبد الله رضي الله عنه:

١ . شجاعة الرَّسول (ص):

عندما قَفَل[(٧١٧)] رسولُ الله (ص) من غزوة ذات الرِّقاع أدركته القائلةُ في وادٍ كثير العِضَاهِ[(٧١٨)] ، فنزل رسولُ الله (ص) ، وتفرَّق النَّاسُ يستظلُّون الشَّجرَ ، ونزل رسول الله (ص) تحت شجرةٍ علَّق بها سيفه ، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «فنمنا نومةً ، فإذا رسول الله (ص) يدعونا ، فجئناه ،

فإذا عنده أعرابيٌّ جالسٌ ، فقال رسولُ الله (ص) : إنَّ هذا اخترط سيفي ، وأنا نائم ، فاستيقظت ، وهو في يده صَلْتاً[(٧١٩)] ، فقال لي: من يمنعك منِّي؟ فقلت له: الله! فها هو ذا جالسٌ ، لم يعاقبْه رسولُ الله ، واسم الأعرابي: غَوْرَثُ بن الحارث» [رواه البخاري (٢٩١٠ و٢٩١٣ و٤١٣٥ و٤١٣٦) ، ومسلم (٨٤٣) ، وأحمد (٣/٣١١)].

وقد عاهد غَوْرثُ رسول الله (ص) ألاَّ يقاتلَه ، ولا يكون مع قومٍ يقاتلونه ، فخلَّى (ص) سبيله ، فجاء إلى أصحابه ، فقال: «جئتكم من عند خير النَّاس»[(٧٢٠)].

وفي هذه القصَّة دليل على نبوَّة محمَّد (ص) ، وفَرْط شجاعته ، وقوَّة يقينه ، وصبره على الأذى ، وحِلْمه على الجُهَّال ، وفيها جواز تفرُّق العسكر في النُّزول ، ونومهم؛ إذا لم يكن هناك ما يخافون منه[(٧٢١)].

إنَّ هذه القصَّة ثابتةٌ ، وصحيحةٌ ، وهي تكشف عن مدى رعاية الباري ـ جلَّ جلاله ـ وحفظه لنبيِّه (ص) ، ثمَّ هي تزيدك يقيناً بالخوارق الَّتي أخضعها الله ـ جلَّ جلاله ـ له (ص) ، ممَّا يزيدك تبصراً ، ويقيناً بشخصيته النَّبويَّة ، فقد كان من السَّهل الطَّبيعيِّ بالنِّسبة لذلك المشرك ، وقد أخذ السَّيف ورفعه فوق النَّبيِّ (ص) ، وهو أعزلُ غارقٌ في النَّوم أن يهويَ به عليه ، فيقتله ، وإنَّك لتلمس من ذلك المشرك هذا الاعتزاز بنفسه ، والزَّهو بالفرصة الذَّهبيَّة الَّتي أمكنته من رسول الله (ص) في قوله: مَنْ يمنعك منِّي؟ فما الَّذي طرأ بعد ذلك حتَّى عاقه عن القتل[(٧٢٢)]؟!

ليس لهذا تفسيرٌ إلا العناية الإلهية ، والإعجاز الإلهي الَّذي يتخطَّى العادات والسُّنن ، ويتجاوز قوى النَّاس لنصرة نبيِّه ، والذَّود عن دعوته[(٧٢٣)] ، فقد كانت العناية الإلهيَّة كافيةً لأن تملأ قلب هذا المشرك بالرُّعب ، وأن تقذف في ساعديه تياراً من الرَّجفة ، فيسقط من يده السَّيف ، ثم يجلس متأدِّباً مُطْرِقاً بين يدي رسول الله (ص) ، وما حدث مصداقٌ لقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ *} [المائدة: ٦٧] ، فليست العصمة المقصودة في الاية؛ ألا يتعرَّض الرَّسولُ (ص) لأذىً، أو محنةٍ من قومه؛ إذ تلك هي سنَّة الله في عباده كما قد علمت، وإنَّما المراد من العصمة ألاَّ تصل إليه أيُّ يدٍ تحاول اغتياله ، وقتله، لتُغتال فيه الدَّعوة الإسلاميَّة التي بُعِثَ لتبليغها[(٧٢٤)].

٢ ـ معاملته (ص) لجابر بن عبد الله رضي الله عنه:

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: خرجتُ مع رسول الله (ص) إلى غزوة ذات الرِّقاع من نخلٍ ، على جملٍ لي ضعيفٍ فلمَّا قَفَلَ رسول الله (ص) ؛ قال: جعلت الرِّفاق تمضي ، وجعلتُ أتخلَّف ، حتَّى أدركني رسولُ الله (ص) ، فقال: «ما لك يا جابر؟!» قال: قلت: يا رسولَ الله! أبطأ بي جملي هذا ، قال: «أَنِخْهُ» فأنختُه ، وأناخ رسولُ الله (ص) ، ثمَّ قال: «أعطني هذه العصا مِنْ يدك ، أو: اقطع لي عصاً من شجرةٍ» قال: ففعلت ، قال: فأخذها رسولُ الله فنَخَسَه بها

نخساتٍ ، ثمَّ قال: «اركبْ» ، فركبتُ ، فخرج ـ والَّذي بعثه بالحقِّ ـ يُوَاهق ناقتَه مُوَاهقةً؛ (أي: يسابقها ، ويعارضها في المشي لسرعته).

قال: وتحدَّثت مع رسول الله (ص) ، فقال لي: «أتبيعني جملك هذا يا جابر؟!».

قال: قلت: يا رسولَ الله! بل أهبه لك ، قال: «لا ، ولكن بِعْنِيه» ، قال: قلت: فَسُمْنِيه يا رسول الله! قال: «قد أخذته بدرهم» ، قال: قلت: لا ، إذاً تغبنني يا رسولُ الله! قال: «فبدرهمين» ، قال: قلت: لا ، قال: فلم يزلْ يرفعُ لي رسولُ الله (ص) في ثمنه ، حتَّى بلغَ الأُوقِيَّة ، قال: فقلت: أفقد رضيتَ يا رسولَ الله! قال: «نعم» ، قلت: فهو لك ، قال: «قد أخذته».

قال: ثمَّ قال: «يا جابر! هل تزوَّجت بعد؟» قال: قلت: نعم يا رسول الله! قال: «أثيِّباً، أم بكراً؟» قال: قلت: لا، بل ثَيِّباً ، قال: «أفلا جارية تُلاعبُها وتلاعبُك؟!».

قال: قلت: يا رسولَ الله ! إنَّ أبي أُصِيب يومٍ أُحدٍ ، وترك بناتٍ له سَبْعاً ، فنكحت امرأةً جامعةً، تجمع رؤوسهنَّ، وتقوم عليهنَّ، قال: «أصبت ـ إن شاء الله ـ ، أما إنَّا لو قد جئنا صِرَاراً[(٧٢٥)] أَمَرْنا بجَزُور فنُحِرَت ، وأقمنا عليها يومنا ذاك ، وسمعت بنا ، فَنَفَضَتْ نمارقها[(٧٢٦)]» قال: قلت: والله يا رسولَ الله! ما لنا من نَمَارق ، قال: «إنَّها ستكون ، فإذا قدمت؛ فاعملْ عملاً كيِّساً»[(٧٢٧)].

قال: فلما جئنا صِرَاراً ، أمر رسولُ الله (ص) بجَزُور ، فنُحِرت ، وأقمنا عليها ذلك اليوم ، فلمَّا أمسى رسولُ الله (ص) ، دخل ، ودخلنا ، قال: فحدَّثتُ المرأةَ الحديثَ ، وما قال لي رسول الله (ص) ، قالت: فدونك ، فسمعاً ، وطاعةً ، قال: فلمَّا أصبحتُ؛ أخذتُ برأس الجمل ، فأقبلتُ به ، حتَّى أنختُه على باب رسول الله (ص) ، قال: ثمَّ جلستُ في المسجد قريباً منه ، قال: وخرج رسولُ الله (ص) ، فرأى الجملَ ، فقال: «ما هذا؟» قالوا: يا رسولَ الله! هذا جملٌ جاء به جابرٌ ، قال: «فأين جابر؟».

قال: فدُعيتُ له ، قال: فقال: «يا بن أخي ، خذ برأس جملك؛ فهو لك» ودعا بلالاً ، فقال له: «اذهب بجابرٍ ، فأعطه أُوقيَّةً» قال: فذهبتُ معه ، فأعطاني أوقيَّةً ، وزادني شيئاً يسيراً ، قال: فوالله ما

زال يَنْمِي عندي ، ويُرى مكانُه مِنْ بيتنا. [البخاري (٢٠٩٧) ، ومسلم (١٥٩٩ م/١١٠) ، وأحمد (٣٧٥/٣ . ٣٧٦)].

في هذه القصَّة صورةٌ جميلةٌ ، ورفيعةٌ لخلق رسول الله (ص) مع أصحابه؛ من حيث لطف الحديث ، والتَّواضع الرَّفيع ، ورقَّة الحديث ، وفكاهة المحاورة ، ومحبَّةٍ شديدةٍ لأصحابه ، والوقوف على أحوالهم ، والمواساة في مشكلاتهم الاجتماعيَّة مادِّيَّاً ، ومعنويّاً ، فقد شعر الرَّسول (ص) : أنَّ سبب تأخر جابرٍ عن الركب هو ضعف جمله؛ الَّذي لا يملك غيره لبؤس حاله ، حيث إنَّ والده مات شهيداً في أُحدٍ ، وترك له مجموعةً من البنات ، والأولاد ليرعاهم ، وهو مُقِلٌّ في الرِّزق ، فأراد الرَّسول (ص) أن ينتهز هذه الفرصة ليواسِيَه ، ويقدِّم له ما يستطيع من مالٍ مباركٍ[(٧٢٨)].

أيُّ لطف هذا! وأيَّة مواساةٍ هذه! وأيَّة طمأنةٍ ، وإحسان صحبةٍ! في أوبة من غزوة ، بلا تكلُّف ، ولاتهيُّؤ ، ولا استعدادٍ سابقٍ: أبرأ جمله ، وقوَّاه له ، بلمسةٍ خارقةٍ ، ومعجزةٍ ظاهرةٍ ، ثمَّ وهبه إيَّاه بعد أن نقده ثمنه ، ثمَّ احتفى به ، فأمر فنحر القوم الجزور لتستعدَّ عروسه لاستقباله ، ثمَّ طمأنه عن نعيمٍ منظور ، وغنىً مذخورٍ في جيب الأيام.

تلك من نماذج الأخلاق النَّبويَّة؛ الَّتي تحلَّى بها رسولُ الله (ص) ، والَّتي حلاَّه بها ربُّه؛ الَّذي بعثه ، ليتمَّ به مكارم الأخلاق ، وبهذا الأسلوب الهادأى الرَّائع ، الرَّفيق الرَّقيق ، يتعلَّم الرَّبَّانيُّون حسن الصُّحبة ، وصدق الأخوة ، وبرَّ الخلَّة ، والمصاحبة[(٧٢٩)].

* * *

المبحث الخامس

أولاً: غزوة بدر الموعد:

تنفيذاً للموعد الَّذي كان أبو سفيان قد اقترحه في أعقاب معركة أحدٍ ، والتزام الرَّسول (ص) بذلك ، فقد خرج النَّبيُّ (ص) من المدينة على رأس جيشٍ من أصحابه قوامه ألف وخمسمئة مقاتلٍ ، بينهم عشرةٌ من الخيَّالة ، وذلك في ذي القعدة سنة (٤ هـ) وحمل لواء الجيش عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه فوصلوا بدراً ، فأقاموا فيها ثمانية أيَّامٍ في انتظار وصول قوَّات المشركين من قريشٍ بقيادة أبي سفيان حسب الموعد بين الطَّرفين ، غير أنَّ أحداً من المشركين لم يصل إلى بدرٍ ، وكان أبو سفيان قد جمَّع قوات قريش ، وحلفاءها؛ الَّتي تألَّفت من ألفي مقاتل معهم خمسون فرساً ، فلمَّا وصلوا إلى مرِّ الظَّهران؛ نزلوا على مياه مَجَنَّة على بُعْد أربعين ميلاً من مكَّة ، ثمَّ عاد بهم أبو سفيان إلى مكَّة[(٧٣٠)] بعد أن خطب فيهم ، وقال: يا معشر قريش! إنَّه لا يصلحكم إلا عامٌ خصيبٌ ترعون فيه الشَّجر ، وتشربون فيه اللَّبن ، وإنَّ عامكم هذا عامٌ جدبٌ ، وإنِّي راجعٌ ، فارجعوا[(٧٣١)].

وأقبل مَخْشِيُّ بن عمرو الضَّمريُّ ، وهو الذي وادع رسول الله (ص) على بني ضمرة في غزوة ودَّان ، فالتقى برسول الله (ص) في بدرٍ ، وقال: يا محمد! أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: «نعم ، يا أخا بني ضمرة! وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ، ثمَّ جالدناك حتَّى يحكم الله بيننا وبينك». قال: لا والله يا محمد! ما لنا بذلك منك مِنْ حاجةٍ. [ابن هشام (٣/٢٢٠)].

ففي هذا اللِّقاء أكَّد رسول الله (ص) على معنىً كبيرٍ في إظهار قوَّة المسلمين ، وأنَّ العقد الَّذي كان بين الفريقين يستمرُّ بعامل قوَّة المسلمين ، لا بعامل ضعفهم؛ وبناءً على طلب الطَّرف الثَّاني ، وفي هذا ما فيه من القوَّة للمسلمين ، وإلقاء الرُّعب في قلوب أعدائهم[(٧٣٢)] ، لقد كانت

تحرُّكاتُ الجيش الإسلاميِّ من المدينة حتَّى بدرٍ مناورةً رائعةً ناجحةً ، أثبت بها وجوده ، وأعطى الدَّليل القاطع لأعداء الإسلام داخل المدينة ، وخارجها: أنَّه أصبح أقوى قوَّةٍ مرهوبةٍ في الجزيرة العربيَّة كلِّها ، ولا أدلَّ على ذلك من أنَّ جيش مكَّة ـ وهو من أعظم الجيوش في الجزيرة من حيث كثرة العدد ، وقوَّة التَّنظيم وجودة التَّسلُّح ـ قد هاب الجيش الإسلاميَّ ، ونكل عن حربه بعد أن خرج للقائه بموجب ميعادٍ سابقٍ حدَّده في (أُحُد) قائد عام جيش مكَّة[(٧٣٣)].

إنَّ الحملة الإعلاميَّة الَّتي قام بها المشركون لإثبات انتصارهم في أحدٍ ، وتفوُّقهم الحربيِّ قد انتكست على رؤوسهم ، وأصبحوا مثار السُّخرية عند العرب ، وثبت للنَّاس: أنَّ ارتباك المسلمين للمفاجأة في أحدٍ

وسقوط القتلى منهم لا يعني انهزامهم ، ولا ضعفهم العسكريَّ[(٧٣٤)] ، فقد ساهمت هذه الغزوة في المحافظة على السُّمعة العسكريَّة للمسلمين[(٧٣٥)] ، وكسبوا انتصاراً معنويّاً عظيماً على أعدائهم بدون قتال ، وشاركوا في الموسم التِّجاري ببدرٍ ، وربحوا في تجارتهم ربحاً طيباً[(٧٣٦)].
لقد كان لإخلاف قريش الموعد أثرٌ في تقوية مكانة المسلمين وإعادة هيبتهم[(٧٣٧)].
ثانياً: دومة الجندل:
كانت غزوة دومة الجندل من ضمن حركة تثبيت أركان الدَّولة الإسلاميَّة ، فبعد غزوة بدر الموعد ، تحرَّكت القوات الإسلاميَّة بقيادة رسول الله (ص) نحو قضاعة؛ الَّتي كانت تنزل شمال قبائل أسد ، وغطفان ، وفي حدود الغساسنة الموالين للدَّولة الرُّوميَّة (بيزنطة) ، ولها إشراف على سوق (دومة الجندل) الشَّهير (على بعد (٤٥٠) كيلو متراً شمال المدينة) كانت هذه القبيلة أوَّل مَنْ احتكَّ بها المسلمون ، فغزاها رسول الله (ص) تلك الغزوة المعروفة بغزوة دومة الجندل (ربيع الأول ٥ هـ/ أغسطس ٦٢٦ م)[(٧٣٨)] ، فقد وصلت الأنباء إلى المدينة بتجمُّع بعض القبائل عند دومة الجندل للإغارة على القوافل الَّتي تمرُّ بهم ، والتَّعرُّض لمن في القافلة بالأذى ، والظُّلم ، كما وردت الأنباء بأنَّهم يفكِّرون في القرب من المدينة ، لعَجْمِ عودها[(٧٣٩)].
إنَّ دومة الجندل تُعَدُّ بلداً نائياً بالنِّسبة للمدينة المنوَّرة ، لأنَّها تقع على الحدود بين الحجاز ،
والشَّام ، وفي منتصف الطَّريق بين البحر الأحمر ، والخليج العربيّ ، وهي على مسيرة ست عشرة ليلةً من المدينة ، ولو أنَّ المسلمين أغفلوا أمرها ، وسكتوا عن وجود هذا التَّجمُّع فيها ما لامهم أحدٌ ، ولا ضرَّهم هذا التجمُّع في شيءٍ على المدى القريب ، ولكنَّ النَّظرة السِّياسيَّة البعيدة ، والعقليَّة العسكريَّة الفذَّة أوجبت على المسلمين أن يتحرَّكوا لفضِّ هذا التَّجمُّع[(٧٤٠)] والقضاء عليه قبل أن يستفحل شأنُه للأسباب الاتية وكذلك بغية تحقيق بعض الأهداف:
١ ـ لأنَّ السُّكوت عن هذا التجمُّع ، وما شاكله يؤدِّي بلا شكٍّ إلى تطوُّره واستفحاله ، ثمَّ يؤدي بعد ذلك إلى إضعاف قوَّة المسلمين ، وإسقاط هيبتهم ، وهو الأمر الَّذي يجاهدون من أجل استرداده.
٢ ـ وجود مثل هذا التَّجمُّع في الطَّريق إلى الشَّام قد يؤثِّر على الوضع الاقتصاديِّ للمسلمين ، فلو أنَّ المسلمين سكتوا عن هذا التَّجمُّع؛ لتعرَّضت قوافلُهم ، أو قوافل القبائل الَّتي تحتمي بهم للسَّلب ، والنَّهب ، ممَّا يُضعف الاقتصاد ، ويؤدِّي إلى حالةٍ من التذمُّر ، والاضطراب.

٣ ـ وهناك أمرٌ أهمُّ من الأمرين السَّابقين ، وهو فرض نفوذ المسلمين على هذه المنطقة كلِّها، وإشعارُ سكَّانها بأنَّهم في حمايتهم ، وتحت مسؤوليَّتهم ، لذلك فهم يؤمِّنون لهم الطُّرق ، ويحمون لهم تجارتهم ، ويحاربون كلَّ إرهابٍ من شأنه أن يزعجهم ، أو يُعرِّضهم للخطر[(٧٤١)].

٤ ـ حرمان قريش من أيِّ حليفٍ تجاريٍّ قد يمدُّها بما تحتاج إليه من التِّجارة ، وصرف أنظارهم عن هذه المنطقة التِّجارية المهمَّة ؛ لأنَّ ظهور الدَّولة الإسلاميَّة بهذه القوة يؤثِّر على نفسية قريشٍ (العدوِّ الأوَّل للدَّولة الإسلاميَّة) ويجعلها تخشى المسلمين على تجارتها[(٧٤٢)].

٥ ـ الحرص على إزالة الرَّهبة النَّفسيَّة الموجودة عند العرب؛ الَّذين ما كانوا يحلمون بمواجهة الرُّوم ، والتَّأكيد عمليّاً للمسلمين بأنَّ رسالتهم عالميَّةٌ[(٧٤٣)] وليست مقصورةً على العرب. ورأى بعض المؤرِّخين كالذَّهبيِّ ، والواقديِّ ، ومحمَّد أحمد باشميل ، وغيرهم: أنَّ من أهداف تلك الغزوة إرهابُ الرُّوم؛ الَّذين تقع المنطقة الَّتي وصل إليها بجيشه على حدودهم وعلى مسافة خمس ليالٍ من عاصمة مُلكهم الثَّانية دمشق[(٧٤٤)].

لهذا ندب رسول الله (ص) المسلمين للخروج، وخرج في ألفٍ من أصحابه، وكان يسير الليل ، ويكمن النهار حتَّى يُخفي مسيره[(٧٤٥)]، ولا تشيع أخبارُه، وتُنقل أسراره، وتتعقَّبه عيون الأعداء[(٧٤٦)].

واتَّخذ له دليلاً من بني عذرة يسمَّى مذكوراً ، وسار حتَّى دنا من القوم ، عندئذٍ تفرَّقوا ، ولم يلقَ رسولُ الله (ص) منهم أحداً ، فقد ولَّوا مدبرين ، وتركوا أنعامهم ، وماشيتهم ، غنيمةً باردةً للمسلمين ، وأسر المسلمون رجلاً منهم ، وأحضروه إلى الرَّسول (ص) ، فسأله عنهم ، فقال: هربوا لما سمعوا بأنَّك أخذت أنعامهم ، فعرض عليه رسول الله (ص) الإسلام ، فأسلم ، وأقام بساحتهم أياماً ، وبعث البعوث ، وبثَّ السرايا ، وفرَّق الجيوش ، فلم يصب منهم أحداً ، وعاد المسلمون إلى المدينة، وفي أثناء عودتهم وادع الرَّسول عيينة بن حصنٍ الفَزاريَّ، واستأذن عيينةُ رسول الله (ص) في أن ترعى إبلُه ، وغنمُه في أرضٍ قريبة من المدينة على ستةٍ وثلاثين ميلاً منها.

إنَّ وصول جيوش المسلمين إلى دومة الجندل ، وهي على هذه المسافة البعيدة من المدينة ، وموادعة عيينة بن حصن للمسلمين ، واستئذانه في أن يرعى بإبله ، وغنمه في أرضٍ بينها وبين المدينة ستَّةٌ وثلاثون ميلاً ـ أي: ما يقرب من خمسة وستين كيلو متراً ـ لدليل قاطعٌ على ما وصلت إليه قوَّة المسلمين ، وعلى شعورهم بالمسؤولية الكاملة تجاه تأمين الحياة للنَّاس في هذه المنطقة ، وأنَّ هذه المناطق النَّائية

كانت ضمن الدَّولة الإسلاميَّة ، وأنَّ الدَّولة أصبحت منيعةً ، ليس في مقدور أحدٍ أن يعتدي عليها ، ولو كان ذلك في استطاعة أحدٍ؛ لكان هو عيينة بن حصن الَّذي كان يغضب لغضبه عشرة الاف فتىً[(٧٤٧)].

كانت غزوة دومة الجندل بعيدةً عن المدينة من جهة الشَّام؛ إذ بينها وبين دمشق ما لا يزيد عن خمس ليالٍ ، وقد كانت بمثابة إعلان عن دعوة الإسلام بين سكَّان البوادي الشَّمالية ، وأطراف الشَّام الجنوبيَّة ، وأحسُّوا بقوَّة الإسلام ، وسطوته ، كما كانت لقيصر ، وجنده كما أنَّ سير الجيش الإسلاميِّ هذه المسافات الطَّويلة قد كان فيه تدريبٌ له على السَّير إلى الجهات النائية ، وفي أرضٍ لم يعهدوها من قبلُ ، ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلاميَّة للفتوحات العظيمة في بلاد اسية ، وإفريقية فيما بعد[(٧٤٨)].

كانت خطَّة الرَّسول (ص) في هذه الغزوة ترمي إلى أهدافٍ عديدةٍ ، فهي غزوةٌ ، وحربٌ استطلاعيَّةٌ تمسح الجزيرة العربيَّة ، وتتعرَّف مراكز القوى فيها ، وهي حربٌ إعلاميَّةٌ تأتي على أعقاب بدرٍ الموعد ، وتستثمر انتصاراتها ، وهي حربٌ عسكريَّةٌ تريد أن تصدَّ هجوماً محتملاً على المسلمين؛ حيث انضوى إليها قومٌ من العرب كثيرٌ يريدون أن يدنوا من المدينة ، وهي
حربٌ سياسيَّة تريد أن تُجْهِض من تحرُّكات القبائل المحتمل أن تتحرَّك بعد أنباء غزوة أحد لتقصد المدينة ، وتستبيحها[(٧٤٩)].

كانت هذه الغزوة دورةً تربويَّةً رائعةً ، وقاسيةً ، وشاملةً يقودها رسول الله (ص) وبين يديه ألفٌ من أصحابه، فيتلقَّون فيها كلَّ لحظةٍ دروساً في الطَّاعة، والانضباط ، ودروساً في التَّدريب الجسميِّ، والعسكريِّ، والتَّحمُّل لمشاقِّ الحياة، وصعوباتها ، وأحكاماً ، وفقهاً في الحلال ، والحرام ، وعمليات صهرٍ وتذويبٍ لقواعد الجيش الإسلاميِّ في بوتقةٍ واحدةٍ خارج إطار العشيرة ، وخارج كيان القبيلة ، حيث أخذت تَفِدُ إلى المدينة عناصر كثيرةٌ من أبناء القبائل المجاورة ، والتَّخلِّي عن الأطر القبليَّة ، وعصاباتها للانصهار في بوتقة الأمَّة الواحدة الَّتي تجعل الولاء لله ورسوله.

وفوق هذا كلِّه تتيح الفرصة لجيل بدرٍ الرَّائد أن يقوم بمهمة التَّربية للوافدين الجدُد ، وتعليمهم وتثقيفهم ، كما تتيح الفرصة لكشف ضعاف النُّفوس ، ومن له صلةٌ بمعسكر النِّفاق من خلال مراقبة تصرُّفاته ، وسلوكه. إنَّها ليست ساعاتٍ محدودةً أو أياماً معدودةً؛ بل هي دورةٌ قرابة شهرٍ ، لا يمكن إلا أن تبرز

فيها كلُّ الطَّبائع ، وكلُّ النَّوازع ، فيتلقَّاها عليه الصَّلاة والسَّلام ليصوغها على ضوء الإسلام ، ويعلِّم الجيل الرَّائد فنَّ القيادة ، وعظمة السِّياسة.

كانت معركةً صامتةً ، وتربيةً هادئةً ، وكان الجيش مع قائده يقطع ما ينوف عن ألف ميل في هذه الصَّحراء يتربَّى ، ويتثقَّف ، ويتدرَّب ، ويُمتحن ، ويقوَّم ليكون هذا استعداداً لمعارك قادمةٍ[(٧٥٠)] ، وفي غيابه في غزوة دومة الجندل عيَّن (ص) سباع بن عرفطةَ الغفاريَّ والياً على المدينة في تجربةٍ جديدةٍ، فهو ليس أوسيّاً، ولا خزرجيّاً ، ولا قرشيّاً ، بل من غفار الَّتي كانت تعتبر من سرَّاق الحجيج عند العرب ، فلابدَّ لهذا الجيل أن يتربَّى على الطَّاعة ، والانضباط للأمير أيّاً كان شأن هذا الأمير.

وهذا يدلُّ على عظمة المنهج النَّبويِّ في تربية الأمَّة ، والارتقاء بها ، وعلى عظمة قيادة النَّبيِّ (ص) ، وفراسته في أتباعه ، وثقته فيهم ، ومعرفته لمواهبهم ، فهو (ص) على معرفةٍ بكفاءة سباع بن عرفطة الغفاريِّ ، وعبقريته ، وقدرته على الإدارة الحازمة ، فكان (ص) يربِّي أصحابه وهو غائب عن المدينة لكي يهيمن منهج ربِّ العالمين على المسلمين ، ويصنع منها أمةً واحدةً ، تسمع ، وتطيع لكتاب ربِّها وسنَّة نبيِّها (ص)[(٧٥١)] .

* * *

المبحث السَّادسِ

غزوة بني المِصْطَلِق[(٧٥٢)]

أوَّلاً: مَنْ هم بنو المصطلق؟ ومتى وقعت الغزوة؟ وما أسبابها؟

١ ـ بنو المصطلق:

هم بطنٌ[(٧٥٣)] من خزاعة ، والمصطلق[(٧٥٤)] جدُّهم ، وهو جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر ماء السَّماء[(٧٥٥)].

واختلفوا في خُزاعة[(٧٥٦)] ، فمنهم من قال: إنَّها قبيلةٌ عدنانيَّةٌ ، ومنهم من ذهب إلى أنَّها قبيلةٌ قحطانيَّة يمنيَّةٌ ، والرَّاجح ما ذهب إليه أكثر العلماء من أنَّها قبيلةٌ قحطانيَّةٌ يمنيَّةٌ[(٧٥٧)].

٢ ـ تاريخ الغزوة:

اختلف العلماء في ذلك ، وانحصرت أقوالهم فيها في ثلاثة أقوالٍ ، فَمِنْ قائلٍ: إنَّها سنة ستٍّ ، قال بذلك ابن إسحاق إمام المغازي ، وتبعه على ذلك خليفةُ بن خيَّاط، وابن جرير الطَّبريُّ ، وابن حزمٍ ، وابن عبد البَرِّ ، وابن العربيّ ، وابن الأثير ، وابن خلدون ، فقد صرَّح كلٌّ منهم بأنَّ غزوة بني المصطلق كانت فيشعبان من السَّنة السَّادسة للهجرة[(٧٥٨)].

وهناكَ مَنْ قال بأنَّها في شعبان من العام الرَّابع للهجرة ، وذهب إلى هذا القول المسعوديُّ ، وابن العربيِّ المالكيُّ ، وغيرهم.

وذهبت طائفةٌ إلى أنَّها كانت في شعبان من السنة الخامسة، ومن هؤلاء العلماء كلٌّ من:

موسى بن عقبة، وابن سعد، وابن قتيبة، والبلاذري، والذَّهبيُّ، وابن القيِّم ، وابن حجر العسقلانيُّ ، وابن كثيرٍ رحمهم الله! ومن المحْدَثِينَ: الخضري بك ، والغزاليُّ ، والبوطيُّ ، وأبو شهبة ، والشَّيخ السَّاعاتيُّ ، ومحمَّد أبو زهرة ، وسيِّد قطب ، وحسن مشَّاط ، ومحمَّد علي الصَّابوني ، ومحمَّد بكر ال عابد ، ومهدي رزق الله أحمد[(٧٥٩)] ، ويبدو لي أنَّ هذا الرأي أقربُ للصَّواب ، لأسبابٍ؛ منها:

أ ـ أنَّ هذا القول هو ما ذهب إليه جمهور أصحاب السِّير والمغازي ، كما أنَّ عدداً كبيراً ممَّن كتب في السِّيرة من المعاصرين سار عليه.

ب ـ أنَّ في شعبان سنة أربعٍ من الهجرة كانت غزوة بدرٍ الموعد فيتعيَّن أن غزوة بني المصطلق كانت في غيرها.

ج ـ أنَّ هذا القول يؤيِّده وجود سعد بن معاذ رضي الله عنه في الغزوة ، فقد جاء ذكره في حديث الإفك الَّذي كان في أعقاب غزوة بني المصطلق ، والَّذي أخرجه الإمام البخاريُّ: «فقام سعد بن معاذ الأنصاريُّ ، فقال: يا رسول الله! أنا أعذرك منه؛ إن كان من الأوس؛ ضربْتُ عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج ، أمرتنا ، ففعلنا أمرك.... الحديث» [البخاري (٤٧٥٠) ، ومسلم (٢٧٧٠)].

وقد كانت وفاة سعد بن معاذ في أعقاب غزوة بني قريظة ، وغزوة بني قريظة كانت في ذي القعدة من السَّنة الخامسة على القول الرَّاجح ، فيتعيَّن أن تكون غزوة بني المصطلق قبلها[(٧٦٠)].

٣ ـ أسباب هذه الغزوة:

من أهمِّ الأسباب لهذه الغزوة:

أ ـ تأييد هذه القبيلة لقريشٍ ، واشتراكها معها في معركة أُحُدٍ ضدَّ المسلمين ، ضمن كتلة الأحابيش الَّتي اشتركت في المعركة تأييداً لقريش.

ب ـ سيطرة هذه القبيلة على الخطِّ الرَّئيسيِّ المؤدِّي إلى مكَّة ، فكانت حاجزاً منيعاً من نفوذ المسلمين إلى مكَّة[(٧٦١)].

ج ـ أنَّ الرَّسول (ص) بلغه أنَّ بني المصطلق يجمعون له ، وكان قائدُهم الحارث بن أبي ضرار ينظِّم جموعهم ، فلمَّا سمع بهم خرج إليهم ، حتَّى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع
من ناحية قُدَيْد إلى السَّاحل فهزمهم شرَّ هزيمة[(٧٦٢)].

٤ ـ أحداث غزوة بني المصطلق:

عندما شعر رسول الله (ص) بحركة بني المصطلق المريبة؛ أرسل بريدة بن الحصيب الأسلميَّ ، للتأكُّد من نيَّتهم ، وأظهر لهم بريدة: أنَّه جاء لعونهم ، فتأكَّد من قصدهم ، فأخبر الرَّسول (ص) بذلك.

وفي يوم الإثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السَّنة الخامسة للهجرة خرج الرَّسول (ص) من المدينة في سبعمئة مقاتلٍ[(٧٦٣)] ، وثلاثين فارساً[(٧٦٤)] متوجِّهاً إلى بني المصطلق ، ولما كان بنو المصطلق ممَّن بلغتهم دعوة الإسلام ، واشتركوا مع الكفَّار في غزوة أُحُدٍ ، وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين ، فقد روى البخاريُّ [(٢٥٤١)] ، ومسلمٌ [(١٧٣٠)]: أنَّ رسول الله (ص) أغار عليهم ، وهم غارُّون ـ أي: غافلون ـ وأنعامهم تُسْقَى على الماء ، فقتل مقاتلهم ، وسبى ذراريهم ، وأصاب يومئذٍ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار[(٧٦٥)].

ثانياً: زواج رسول الله (ص) من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها:

قسَّم رسول الله (ص) سبايا بني المصطلق ، وكان من بين الأسرى جويرية بنت الحارث ، وكانت بركةً على قومها ، ولنعرف قصَّتها من السَّيدة عائشة رضي الله عنها ، حيث قالت: لما قسم رسول الله (ص) سبايا بني المصطلق؛ وقعت جويرية بنت الحارث في سهمٍ لثابت بن قيس بن شمَّاس ، أو لابن عمٍّ له ، فكاتبته على نفسها ، وكانت امرأة حُلوةً مُلاَّحة[(٧٦٦)] ، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله (ص) لتستعينه في كتابتها ، قالت: فوالله! ما هو أن رأيتها على باب حجرتي ، فكرهتها ، وعرفت أنَّه سيرى منها ما رأيت ، فدخَلَتْ عليه ، فقالت: يا رسول الله! أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيِّد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك ، فوقعت في السَّهم لثابت بن قيس بن شمَّاس ، أو لابن عمٍّ له ، فكاتبته على نفسي ، فجئتك أستعينك على كتابتي.

قال: «فهل لك في خيرٍ من ذلك؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟!
قال: «أقضي عنك كتابك ، وأتزوَّجُك». قالت: نعم يا رسول الله! قد فعلت.

قالت: وخرج الخبر إلى النَّاس: أنَّ رسول الله (ص) قد تزوَّج جويرية بنت الحارث.
فقال النَّاس: أصهار رسول الله (ص) فأرسلوا ما بأيديهم.
قالت: فلقد أُعْتِقَ بزواجه إيَّاها مئةُ أهل بيت من بني المصطلق ، فما أعلم امرأةً أعظم بركةً على قومها منها. [أحمد (٦/٢٧٧) ، وأبو داود (٣٩٣١) ، وابن حبان (٤٠٥٤ و٤٠٥٥) ، وابن هشام (٣/٣٠٧ ـ ٣٠٨)][(٧٦٧)].
وجاء الحارث بن أبي ضرار ـ بعد الوقعة ـ بفداء ابنته إلى المدينة ، فدعاه النَّبيُّ (ص) إلى الإسلام فأسلم[(٧٦٨)].
تُعَدُّ غزوة بني المصطلق من الغزوات الفريدة المباركة؛ الَّتي أسلمت عقبها قبيلةٌ بأسرها ، وكان الحدث الَّذي أسلمت القبيلة من أجله هو أنَّ الصحابة حرَّروا ، وردُّوا الأسرى الَّذين أصابوهم إلى ذويهم بعد أن تملَّكوهم باليمين في قسم الغنائم ، واستكثروا على أنفسهم أن يتملَّكوا أصهار نبيِّهم (ص) ، وحيال هذا العتق الجماعيِّ ، وإزاء هذه الأريحيَّة الفذَّة؛ دخلت القبيلة كلُّها في دين الله.
إنَّ مردَّ هذا الحدث التَّاريخيِّ ، وسببه البعيد هو حبُّ الصَّحابة للنَّبيِّ (ص) ، وتكريمُهم إيَّاه ، وإكبارُهم شخصه العظيم ، وكذلك يؤتي الحبُّ النَّبويُّ هذه الثِّمار الطَّيبة ، ويصنع هذه المآثر الفريدة في التَّاريخ.
لقد كان زواج رسول الله (ص) من جويرية بنت الحارث له أبعاده ، وتحقَّقت تلك الأبعاد بإسلام قومها ، فقد كان الزَّواج منها من أهدافه الطَّمع في إسلام قومها ، وبذلك يكثر سواد المسلمين ، ويعزُّ الإسلام ، وهذه مصلحةٌ إسلاميَّةٌ بعيدة ، يسَّر الله هذا الزَّواج ، وباركه ، وحقَّق الأمل البعيد المنشود من ورائه ، فأسلمت القبيلة كلُّها بإسلام جويرية ، وإسلام أبيها الحارث ، فقد عاد هذا الزَّواج على المسلمين بالبركة والقوَّة ، والدَّعم المادِّيِّ والأدبيِّ معاً للإسلام ، والمسلمين[(٧٦٩)].
أصبحت جويرية بنت الحارث زوجةً لسيِّد المرسلين ، وأمّاً للمؤمنين ، فكانت رضي الله عنها عالمةً بما تسمع ، وعاملةً بما تعلم ، فقيهةً ، عابدةً ، تقيَّةً ، ورعةً ، نقيَّة الفؤاد ، مضيئة العقل ، مشرقة الرُّوح ، تحبُّ الله ورسولَه ، وتحبُّ الخير للمسلمين.
وكانت رضي الله عنها تروي من حديث رسول الله (ص) ، ناقلة لحقائق الدِّين من خزائنها عند

من تنزَّلت عليه (ص) ، يرويه عنها سدنة العلم من علماء الصَّحابة رضي الله عنهم؛ لينشروه في المجتمع المسلم علماً ، وعملاً ، وفي المجتمع الإسلاميِّ عامَّةً دعوةً وهدايةً[(٧٧٠)] ، فقد حدَّث عنها: ابنُ عبَّاس ، وعبيدُ بن السبَّاق ، وكريبُ مولى ابن عباسٍ ، ومجاهدٌ ، وأبو أيوب يحيى بن مالكٍ الأزديُّ ، وبلغ مسندها في كتاب بقي بن مخلد سبعة أحاديث[(٧٧١)] ، منها أربعةٌ في الكتب السِّتَّة ، عند البخاريِّ حديثٌ ، وعند مسلمٍ حديثان ، وقد تضمَّنت مرويَّاتها أحاديث في الصَّوم؛ في عدم تخصيص يوم الجمعة بالصَّوم ، وحديث في الدَّعوات في ثواب التَّسبيح ، وفي الزَّكاة في إباحة الهديَّة للنَّبيِّ (ص) وإن كان المهدي ملكها بطريق الصَّدقة ، كما روت في العتق ، وبسبعة أحاديث شريفةٍ خلَّدت أمُّ المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها اسمها في عالم الرِّواية؛ لتضيف إلى شرف صحبتها للنَّبيِّ (ص) ، وأمومتها للمسلمين؛ تبليغَها الأمَّة سننَ المصطفى (ص) ما تيسَّر لها ذلك[(٧٧٢)].

وكانت أمُّ المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها من الذَّاكرين الله كثيراً ، والذَّاكرات ، القانتات ، الصَّابرات في مجال مناجاة الله تعالى ، وتحميده ، وتقديسه ، وتسبيحه[(٧٧٣)] ، فهذه أمُّ المؤمنين جويرية تحدِّثنا عن ذلك ، فتقول: إنَّ النَّبيَّ (ص) خرج من عندها بُكْرَةً حين صلَّى الصُّبح ، وهي في مسجدها[(٧٧٤)] ثمَّ رجع بعد أن أضحى؛ وهي جالسةٌ. فقال: ما زلت على الحال الَّتي فارقتُك عليها؟ قالت: نعم. قال النَّبيُّ (ص) : «لقد قلت بعدك أربع كلماتٍ ، ثلاث مراتٍ لو وُزِنت بما قلت منذ اليوم؛ لوزنتهنَّ ، سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وَزِنَةَ عرشه ، ومداد كلماته» [أحمد (١/٢٥٨) ، ومسلم (٢٧٢٦) ، وأبو داود (١٥٠٣) ، والنسائي في السنن الكبرى (٩٩١٢ و١٢٧٧)].

وقد تُوفِّيت رضي الله عنها سنة خمسين ، وقيل: ستٍّ وخمسين[(٧٧٥)].

ثالثاً: محاولة المنافقين في هذه الغزوة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار:

خرج في غزوة بني المصطلق عددٌ كبير من المنافقين مع المسلمين ، وكان يغلب عليهم التَّخلُّف في الغزوات السَّابقة ، لكنَّهم لما رأوا اطراد النَّصر للمسلمين؛ خرجوا طمعاً في الغنيمة[(٧٧٦)].

وعند ماء الْمُرَيْسِيع كشف المنافقون عن الحِقْدِ الَّذي يضمرونه للإسلام والمسلمين ، فكلَّما كسب الإسلام نصراً جديداً؛ ازدادوا غيظاً على غيظهم ، وقلوبُهم تتطلَّع إلى اليوم الَّذي يُهزم فيه المسلمون ، لتشفى من الغلِّ ، فلمَّا انتصر المسلمون في المريسيع سعى المنافقون إلى إثارة العصبيَّة بين المهاجرين ، والأنصار ، فلمَّا أخفقت المحاولة سعوا إلى إيذاء الرَّسول (ص) في نفسه ، وأهل بيته ، فشنوا حرباً

نفسيَّة مريرةً من خلال حادثة الإفك الَّتي اختلقوها ، ولنترك الصَّحابيَّ زيد بنَ أرقم ، وهو شاهد عيان ، ومشاركٌ في الحادث الأوَّل يحكي خبر ذلك[(٧٧٧)] ، قال: كنت في غزاةٍ[(٧٧٨)] فسمعتُ عبد الله بن أُبَيٍّ يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا من حوله ، ولئن رجعنا من عنده ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ، فذكرت ذلك لعمِّي[(٧٧٩)] ، فذكره للنَّبيِّ (ص) فدعاني فحدثته ، فأرسل رسولُ الله (ص) إلى عبد الله بن أبيٍّ ، وأصحابه ، فحلفوا ما قالوا ، فكذَّبني رسول الله (ص) ، وصدَّقه ، فأصابني هَمٌّ لم يصبني مثلُه قطُّ ، فجلست في البيت ، فقال لي عمِّي: ما أردت إلى أن كذَّبك رسولُ الله (ص) ومقَتَك؟ فأنزل الله تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ *} [المنافقين: ١].

فبعث إليَّ رسول الله (ص) فقرأ، فقال: «إنَّ الله قد صدَّقك يا زيد!» [البخاري (٤٩٠٠)، ومسلم (٢٧٧٢)][(٧٨٠)].

ويحكي شاهد عيان اخر هو جابر بن عبد الله الأنصاريُّ ما حدث عند ماء المريسيع ، وأدَّى إلى كلام المنافقين لإثارة العصبية ، وتمزيق وحدة المسلمين ، قال: «كنَّا في غزاةٍ فكسع[(٧٨١)] رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاريُّ: يا للأنصار! وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين؟ فسمع ذلك رسول الله (ص) ، فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: يا رسول الله! كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال: «دعوها فإنها منتنة» ، فسمع بذلك عبد الله بن أبيٍّ ، فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ، فبلغ النَّبيَّ (ص) ، فقام عمر فقال: يا رسول الله! دعني أضربْ عنق هذا المنافق ، فقال النَّبيُّ : «دعه ، لا يتحدَّث الناسُ: أنَّ محمداً يقتل أصحابه». [البخاري (٣٥١٨) ، ومسلم (٢٥٨٤/٦٣)][(٧٨٢)].

وفي روايةٍ قال عمر بن الخطَّاب: مُرْ به عبَّاد بن بشر؛ فليقتله ، فقال له رسول الله (ص) : «فكيف يا عمر! إذا تحدَّث النَّاس: أنَّ محمداً يقتل أصحابه؟! لا. ولكن أذِّن بالرَّحيل» ، وذلك في ساعةٍ لم يكن رسول الله (ص) يرتحل فيها ، فارتحل النَّاس. [الطبري في تفسيره (٢٨/١١٥ ـ ١١٦) ، وابن هشام (٣/٣٠٣)].

وقد مشى عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول إلى رسول الله (ص) حين بلغه: أنَّ زيد بن أرقم قد بَلَّغه ما سمعه منه ، فحلف بالله ما قلت ما قال: ولا تكلَّمت به! فقال من حضر رسول الله (ص) من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله! عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه.

فلمَّا سار رسول الله (ص) ، لقيه أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ ، فحيَّاه بتحيَّة النُّبوَّة ، وسلَّم عليه ، ثم قال: يا نبي الله! لقد رحتَ في ساعةٍ منكرةٍ ، ما كنت تروح في مثلها ، فقال له رسول الله (ص) : «أوبلغك ما قال صاحبُكم؟».

قال: وأيُّ صاحبٍ يا رسول الله؟

قال: «عبد الله بن أبيٍّ».

قال: وما قال؟

قال: «زعم إن رجع إلى المدينة؛ ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ».

قال: فأنت يا رسول الله! تخرجه منها ؛ إن شئت ، هو الذَّليل ، وأنت العزيز.

ثم قال: يا رسول الله ! ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإنَّ قومه لينظمون له الخرز؛ ليتوِّجوه ، فإنَّه يرى: أنك استلبت مُلْكَهُ.

ثمَّ مشى رسولُ الله (ص) بالنَّاس يومهم ذلك حتَّى أمسى ، وليلتهم حتَّى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتَّى اذتهم الشَّمس ، ثمَّ نزل بالنَّاس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض ، فوقعوا نياماً.

وإنَّما فعل ذلك رسول الله (ص) ليشغل النَّاس عن الحديث الَّذي كان بالأمس ، من حديث عبد الله بن أبيٍّ ، ونزلت السُّورة الَّتي ذُكِرَ فيها المنافقون في ابن أبيٍّ ، ومن كان على مثل أمره ، فلمَّا نزلت؛ أخذ رسول الله (ص) بأذن زيد بن أرقم ، ثمَّ قال: «هذا الَّذي أوفى لله بأذُنه». [الطبري في تفسيره (١١٦/٢٨) ، وابن هشام (٣٠٥/٣)][(٧٨٣)].

إنَّ هذه الحادثة من السِّيرة النَّبويَّة العطرة مليئةٌ بالدُّروس ، والعبر.

فَمِنْ أهمِّ تلك الدُّروس:

١ ـ الحفاظ على السُّمعة السِّياسيَّة ووحدة الصَّفِّ الدَّاخلية:

وهذا الدَّرس يظهر في قوله (ص) : «فكيف يا عمر! إذا تحدث النَّاس: أنَّ محمداً يقتل أصحابه؟!» [سبق تخريجه][(٧٨٤)].

إنَّها المحافظة التَّامَّة على السُّمعة السِّياسيَّة ، والفرق كبير جدّاً بين أن يتحدَّث النَّاس عن حبِّ أصحاب محمَّدٍ محمَّداً ، ويؤكِّدون على ذلك بلسان قائدهم الأكبر أبي سفيان: ما رأيت أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحاب محمَّد محمَّداً[(٧٨٥)] ، وبين أن يتحدَّث النَّاس أنَّ محمَّداً يقتل أصحابه ، ولاشكَّ: أنَّ وراء

ذلك محاولاتٍ ضخمةً ستتمُّ في محاولة الدُّخول إلى الصَّفِّ الدَّاخليِّ في المدينة من العدوِّ ، بينما هم يائسون الان مِنْ قدرتهم على شيءٍ أمام ذلك الحبِّ ، وتلك التَّضحيات[(٧٨٦)].

ولم يقف النَّبيُّ (ص) موقفاً سلبيّاً حيال تلك المؤامرة ، الَّتي تزعَّمها ابنُ سلولٍ لتصديع الصَّفِّ المسلم ، وإحياء نعرات الجاهليَّة في وسطه؛ بل اتَّخذ إزاءها الخطواتِ الإيجابيَّة التَّالية:

أ ـ سار رسول الله (ص) بالنَّاس يومهم ذلك حتَّى أمسى ، وليلتهم حتَّى أصبح ، وصدْرَ يومهم الثَّاني حتَّى اذتهم الشَّمس ، ثمَّ نزل بالنَّاس فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض ، فوقعوا نياماً[(٧٨٧)].

وبهذا التَّصرُّف البالغ الغاية في السِّياسة الرَّشيدة قضى على الفتنة قضاءً مبرماً ، ولم يدع مجالاً للحديث فيما قال ابنُ أُبيٍّ.

ب ـ لم يواجه النَّبيُّ (ص) ابن سلولٍ ، ومؤامراته المدبَّرة بالقوَّة ، واستعمال السِّلاح ، حرصاً على وحدة الصَّفِّ المسلم؛ وذلك لأنَّ لابن أُبَيٍّ أتباعاً ، وشيعةً مسلمين مغرورين ، ولو فتك به؛ لأرعدت له أنوفٌ ، وغضب له رجالٌ متحمِّسون له ، وقد يدفعهم تحمُّسهم له إلى تقطيع الوحدة المسلمة ، وليس في ذلك أيُّ مصلحةٍ للمسلمين ، ولا للإسلام ، وإنَّها لسياسةٌ شرعيَّةٌ حكيمةٌ رشيدةٌ في معالجة المواقف العصيبة في حزمٍ ، وقوَّة أعصابٍ ، وبُعْد نظرٍ[(٧٨٨)] ، وهذه البراعة في الحكمة ، والسِّياسة ، وتدبير الأمور متفرعةٌ عن كونه (ص) نبيّاً ورسولاً إلى
النَّاس[(٧٨٩)]؛ لكي تقتدي به الأمَّة في تصرُّفاته العظيمة.

وقد كان لتسامح الرَّسول (ص) مع رأس المنافقين أبعدُ الاثار فيما بعد ، فقد كان ابن أُبيٍّ بن سلول كلَّما أحدث حدثاً كان قومه هم الَّذين يُعاتبونه ، ويأخذونه ، ويعنِّفونه ، ويعرضون قتله على النَّبيِّ (ص) ، والرَّسول (ص) يأبى ، ويصفح ، فأراد رسول الله (ص) أن يكشف لسيف الحقِّ عن اثار سياسته الحكيمة ، فقال: «كيف ترى يا عمر؟! أما والله لو قتلته يوم قلتَ لي؛ لأرعدت له أنوفٌ ، لو أمرتها اليوم؛ لقتلته!!» فقال عمر: قد ـ والله ـ علمتُ لأَمْرُ رَسُولِ الله (ص) أعظمُ بركةً مِنْ أمري. [الطبري في تفسيره (١١٦/٢٨ ـ ١١٧)][(٧٩٠)] ، وابن هشام (٣٠٥/٣)].

٢ ـ (بل نترفَّق به ، ونُحسن صحبته ما بقي معنا):

كان لابن أبيٍّ بن سلول ولدٌ مؤمنٌ مخلصٌ ، يسمَّى عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ بن سلول ، فلمَّا علم بالأحداث ، ونزول السُّورة ، أتى رسول الله فقال له: يا رسول الله ! بلغني: أنَّك تريد قتل أبي بن سلول فيما بلغك عنه ، فإن كنتَ فاعلاً؛ فمرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمتِ الخزرج ، ما

كان بها من رجلٍ أبرُّ بوالده منِّي ، وإنِّي لأخشى أن تأمر به غيري ، فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين النَّاس ، فأقتلُه ، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافرٍ ، فأدخلُ النَّار ، فقال رسولُ الله (ص) : «بل نترفَّق به ، ونحسن صحبتَه ما بقي معنا». [الطبري في تفسيره (١١٦/٢٨) ، وابن هشام (٣٠٥/٣) ، والبزار (٢٧٠٨) ، والطبراني في الأوسط (٢٣١) ، ومجمع الزوائد (٣١٨/٩)].

ولما وصل المسلمون مشارف المدينة ، تصدَّى عبد الله لأبيه عبد الله بن أبيٍّ ، وقال له: قف ، فوالله لا تدخلها حتَّى يأذن رسول الله (ص) في ذلك ، فلمَّا جاء رسولُ الله (ص) ؛ استأذنه في ذلك ، فأذن له[(٧٩١)].

٣ ـ مثلٌ أعلى في الإيمان:

جسَّده عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول في موقفه من والده ، وتقديمه وإخلاصه لله ، ولرسوله ، وتقديم محبَّتهما ، ومراضيهما على محبَّة ، ومراضي الأبوَّة[(٧٩٢)] ، لقد ضرب الابن أروع مثلٍ في الإيمان ، والتَّضحية بعاطفة الأبوَّة ، فقابله (ص) صاحب القلب الكبير ، والخلق العظيم بمثلٍ رفيعٍ في العفو والرَّحمة ، وحسن الصُّحبة «بل نترفَّق به ، ونحسن صحبته ما بقي

معنا» يا لروعة العفو! ويا لجلال العظمة النَّبويَّة[(٧٩٣)]! فقد تلطَّف النَّبيُّ (ص) بهذا الصَّحابيِّ الجليل وهدَّأ من رَوْعِهِ ، وأذهب هواجِسَه[(٧٩٤)].

٤ ـ محاربة العصبيَّة الجاهليَّة:

إنَّ العصبيَّة الممقوتة والَّتي نَصِفُها بالجاهليَّة غير مقصورةٍ على العصبيَّة القبليَّة؛ أي: الاشتراك في النَّسب الواحد ، نسب القبيلة الَّتي ينتمون إليها ، وإنَّما الاشتراك في معنىً ، أو وصفٍ معيَّنٍ يجعل المشركين فيه يتعاونون ، ويتناصرون فيما بينهم بالحقِّ ، وبالباطل ، ويكون ولاؤهم فيما بينهم على أساس هذا المعنى ، أو الوصف المشترك ، فعندما كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، قال الأنصاريُّ: يا للأنصار! وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين! فسمع ذلك النَّبيُّ (ص) فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: رجلٌ من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار. فقال النَّبيُّ (ص) : «دعوها؛ فإنَّها منتنة» [سبق تخريجه][(٧٩٥)].

ووجه الدَّلالة بهذا الخبر: أنَّ النَّبيَّ (ص) أنكر هذه المناداة؛ لما تشعره من معنى العصبية ، مع أنَّ المنادي استعمل اسماً استعمله القران ، وهو (المهاجرين) و(الأنصار)؛ فالمهاجريُّ استنصر بالمهاجرين مع أنَّه هو الَّذي كسع ، فكأنَّه بندائه هذا يريد عونهم ، لاشتراكه وإيَّاهم في معنىً واحدٍ ، وهو (المهاجرة) ،

وكذلك الأنصاريُّ استنصر بالأنصار؛ لأنَّه منهم ، ويشترك وإيَّاهم في وصفٍ واحدٍ ومعنىً واحدٍ وهو مدلول كلمة (الأنصار)؛ وكان حقَّ الاثنين ـ إذا كان لابدَّ من الاستنصار بالغير ـ أن يكون الاستنصار بالمسلمين جميعاً ، وعلى هذا فالمطلوب من الدُّعاة التَّأكيد على نبذ العصبيَّة بجميع أنواعها ، سواءٌ كانت عصبيةً تقوم على أساس الاشتراك بالقبيلة الواحدة ، أو على أيِّ أساسٍ اخر ، من بلدٍ ، أو مذهبٍ ، أو حزبٍ ، أو عِرْقٍ ، أو لونٍ ، أو دمٍ ، أو جنسٍ ، وأن يكون الولاء ، والتَّناصر على أساس الاشتراك بالأخوَّة الإسلاميَّة الَّتي أقامها ، وأثبتها الله تعالى بين المسلمين بقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} ، وأن يكون التَّناصر فيما بينهم تناصراً على الحقِ لا على الباطل ، بمعنى أن ينصروا المحقَّ ، وأن يكونوا معه لا مع المعتدي[(٧٩٦)].

لقد أوضح الرَّسول (ص) : أنَّ العصبيات هي من دعاوى الجاهليَّة وقال: «انصر أخاك ظالماً ، أو مظلوماً» فقال رجلٌ لرسول الله (ص) : أنصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إن كان ظالماً؟ كيف أنصره؟ قال: «تحجزه ـ أو تمنعه ـ من الظُّلم ، فإنَّ ذلك نصره» ، [البخاري (٦٩٥٢) ، والترمذي (٢٢٥٥) ، وأحمد (٣/٢٠١)] ، فجعل التناصر في طلب الحقِّ، والإنصاف ، وأبطل المفهوم الجاهليَّ: «انصر أخاك ظالماً ، أو مظلوماً»[(٧٩٧)].

إنَّ مهمَّة الدُّعاة ، وطلابِ العلم ، والعلماء ، والفقهاء هي التَّخلُّص من العصبيَّة ، ودعوة المسلمين إلى نبذها ، كما أمر بذلك رسول الله (ص) ، وهي مهمَّةٌ صعبةٌ ، ولكنَّها ليست مستحيلةً ، ولأهمِّيتها الكبيرة علينا أن نبذل ما في وسعنا؛ لقلعها من النُّفوس[(٧٩٨)].

رابعاً: توجيه القران الكريم للمجتمع الإسلاميِ في أعقاب غزوة بني المصطلق:

نزلت سورة (المنافقون) في أعقاب غزوة بني المصطلق ، حيث كان المسلمون راجعين إلى المدينة ، وذلك بدليل رواية الإمام التِّرمذيِّ: «فلمَّا أصبحنا؛ قرأ رسول الله (ص) سورة المنافقون» [الترمذي (٣٣١٣)].

فقد تحدَّثت السُّورة بإسهابٍ عن المنافقين ، وأشارت إلى بعض الحوادث ، والأقوال ، الَّتي وقعت منهم ، ورُويت عنهم ، وفضحت أكاذيبهم ، إلا أنَّها في الختام حذَّرت المؤمنين من الانشغال بزينة الدُّنيا ، ومتاعها ، وحثَّت على الإنفاق ، ويمكن لدارس هذه السُّورة أن يلاحظ عدَّة محاور مهمَّةٍ ، منها:

١ ـ تحدثت السُّورة الكريمة في البدء عن أخلاق المنافقين ، وفضحت كذبهم في أقوالهم ، ووصفت حالهم[(٧٩٩)] ، فابتدأت هذه السُّورة بإيراد صفات المنافقين الَّتي من أهمِّها الكذبُ في ادِّعاء الإيمان

، وحلفُ الأيمان الكاذبة ، وجبنُهم ، وضعفُهم ، وتامرُهم ، على النَّبيِّ (ص) وعلى المؤمنين ، وصدُّهم النَّاس عن دين الله[(٨٠٠)].

قال الله ـ عز وجل ـ: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ *اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ *وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ *} [المنافقون: ١ ـ ٤].

٢ ـ ثمَّ بينت الايات عنادهم ، وتصميمهم على الباطل ، وعصيانهم لمن يدعوهم إلى الحقّ ، وبيَّنت مقالاتِهم الشَّنيعة بالتَّفصيل ، خاصَّةً ما قالوه في غزوة بني المصطلق من أنَّهم

سيطردون الرَّسول (ص) والمؤمنين من المدينة، وأنَّ العزَّة لهم إلى غير ذلك من الأقوال الفظيعة[(٨٠١)].

قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ *سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ *يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ *} [المنافقون: ٥ ـ ٨].

٣ ـ ثمَّ خُتمت السُّورة بتحذير الَّذين امنوا من الانشغال بزينة الدُّنيا ، وعدم التَّشبُّه بالمنافقين ، وحثَّتهم على الصَّدقة ـ الَّتي هي برهانٌ على الإيمان باليوم الاخر ـ قبل فوات الأوان[(٨٠٢)] ، فقد كانت الايات تحثُّ المجتمع المسلم على الاشتغال بطاعة الله تعالى ، وقراءة القران ، وإدامة الذِّكر ، وأداء الصَّلوات ، والقيام بجميع الفرائض ، وحذَّرتهم من أن ينشغلوا بالأموال ، والاهتمام بشؤون الأولاد عن أداء حقوق الله ، كما فعل المنافقون ؛ إذ قالوا بسبب الشُّحّ بأموالهم: لا تنفقوا على من عند رسول الله (ص) ، ومن يشتغل بالمال ، والولد عن طاعة ربِّه فأولئك هم الخاسرون[(٨٠٣)].

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ *وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ *وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *} [المنافقون: ٩ ـ ١١].

كانت خاتمة السُّورة الكريمة تحذيراً للمؤمنين من الانشغال بزينة الدُّنيا التي هي من أخلاق المنافقين[(٨٠٤)].

وهكذا كان المجتمع المدنيُّ يتربَّى بالأحداث ، والقران الكريم يقوم بتوجيهه ، وتعليمه ، ورسول الله (ص) يقوم بالإشراف على ذلك.

خامساً: محاولة المنافقين الطَّعن في عِرْض النَّبيِّ (ص) بالافتراء على عائشة رضي الله عنها بما يعرف بحديث الإفك:

حاك المنافقون في هذه الغزوة حادثة الإفك ، بعد أن فشل كيدُهم في المحاولة الأولى لإثارة

النَّعرة الجاهليَّة ، فقد ألمتْ بالبيت النَّبويِّ هذه النازلة الشَّديدة ، والمحنة العظيمة الَّتي كان القصد منها النَّيل من النَّبيِّ (ص) ومن أهل بيته الأطهار.

هذا وقد أجمع أهل المغازي والسِّير[(٨٠٥)] على أنَّ حادثة الإفك كانَت في أعقاب غزوة بني المصطلق ، وتابعهم في ذلك المفسِّرون[(٨٠٦)] ، والمحدِّثون[(٨٠٧)].

وقد أخرج البخاريُّ ، ومسلمٌ حديث الإفك في صحيحيهما. [البخاري (٤١٤١) ، ومسلم (٢٧٧٠)] ، وهذا سياق القصَّة من صحيح البخاريِّ:

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله (ص) إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه؛ فأيتهنَّ خرج سهمها ، خرج بها رسول الله (ص) معه ، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوةٍ غزاها[(٨٠٨)] فخرج سهمي ، فخرجت مع رسول الله (ص) بعدما نزل الحجاب فأنا أُحْمَلُ في هَوْدَجِي[(٨٠٩)] وأنزل فيه.

فسرنا حتَّى إذا فرغ رسول الله (ص) من غزوته تلك ، وقفل ، ودنونا من المدينة قافلين ، اذن ليلةً بالرَّحيل ، فقمت حين اذنوا بالرَّحيل ، فمشيت حتَّى جاوزتُ الجيشَ ، فلمَّا قضيت شأني ، أقبلت إلى رحلي ، فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفَارٍ[(٨١٠)] قد انقطع ، فالتمست عِقْدي، وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرَّهط[(٨١١)] الَّذين كانوا يُرحِّلوني ، فاحتملوا هَوْدَجي ، فَرَحَّلُوه على بعيري الَّذي كنت أركب عليه ، وهم يحسبون أنِّي فيه ، وكان النِّساء ، إذ ذاك خفافاً لم يثقلهنَّ اللَّحم إنَّما نأكل العُلقة[(٨١٢)] من الطَّعام ، فلم يستنكر القوم خفَّة الهودج حين رفعوه، وكنت جاريةً حديثة السِّنِّ ، فبعثوا الجمل فساروا ، ووجدت عِقْدي بعدما استمرَّ الجيش ، فجئت منازلهم ، وليس بها داعٍ، ولا مجيب فتيمَّمت منزلي الَّذي كنت فيه، وظننت: أنَّهم سيفقدوني ، فيرجعون إليَّ ، فبينما أنا جالسةٌ في منزلي غلبتني عيني فنمت ،

وكان صفوان بن المعطَّل السُّلمي[(٨١٣)] ثم الذَّكوانيّ من وراء الجيش ، فادَّلج[(٨١٤)] ، فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائمٍ، فأتاني، فعرفني

حين راني، وكان يراني قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه[(٨١٥)] حين عرفني فخمَّرتُ[(٨١٦)] وجهي بجلبابي ، وواللهِ ما كلَّمني كلمةً ، ولا سمعت منه كلمةً غير استرجاعه ، وهوى حتَّى أناخ راحلته ، فوطأى على يديها ، فركبتها ، فانطلق يقود بي الرَّاحلة حتَّى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين[(٨١٧)] ، في نحر الظَّهيرة[(٨١٨)] وهم نزول قالت: فهلك مَنْ هلك ، وكان الَّذي تولى كِبْرَ الإفك عبد الله بن أبيّ بن سلول.

١ ـ انتشار الدِّعاية بالمدينة:

وقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمت شهراً والنَّاس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيءٍ من ذلك ، وهو يريبني[(٨١٩)] في وجعي أني لا أعرف من رسول الله (ص) اللُّطف الَّذي كنت أرى منه حين أشتكي ، إنَّما يدخل عليَّ رسول الله (ص) فيسلِّم ، ثمَّ يقول: «كيف تِيكُمْ»[(٨٢٠)] ثمَّ ينصرف ، فذلك الَّذي يريبني ، ولا أشعر بالشَّرِّ ، حتَّى خرجتُ بعدما نَقِهْتُ ، فَخَرَجَتْ معي أمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المناصِع[(٨٢١)] وهو متبرَّزنا ، وكنَّا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليلٍ ، وذلك قبل أن نتَّخذ الكُنُف[(٨٢٢)] قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأوَل في التَّبَرُّز قِبَل الغائط ، فكنَّا نتأذَّى بالكُنُفِ أن نتَّخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا ، وأمُّ مِسْطَح ، وهي ابنة أبي رُهم بن عبد منافٍ ، وأمُّها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصِّدِّيق ، وابنُها مسْطَحُ بنأُثاثة[(٨٢٣)] ، فأقبلت أنا ، وأم مِسْطَحٍ قِبَل بيتي حين فرغنا مِنْ شأننا ، فعثرت أم مِسْطَح في مِرْطها[(٨٢٤)] فقالت: تَعِسَ مِسْطَح ، فقلت لها: بئس ما قلت! أتسبِّين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أي هَنَتَاه[(٨٢٥)]! أولم تسمعي ما قال؟! قلت: وما قال؟ فأخبرتني بخبر أهل الإفك ، فازدَدْت مرضاً على مرضي ، قالت: فلمَّا رجعت إلى بيتي ، ودخل عليَّ رسولُ الله (ص) ـ تعني: فسلَّم ـ ثمَّ قال: «كيف تِيكُم؟» فقلت له: أتأذن لي أن اتي أبويَّ؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر مِنْ قِبَلِهما ، قالت: فأذن لي رسول الله (ص) ،

فجئت أبويَّ ، فقلت لأمِّي: يا أمتاه! ما يتحدَّث النَّاس؟ قالت: يا بنيَّة! هوِّني عليك ، فوالله! لقلَّما كانت امرأة قطُّ وضيئةٌ[(٨٢٦)] عند رجلٍ يحبُّها ، ولها ضرائر إلاَّ أكثرن عليها[(٨٢٧)].

قالت: فقلت: سبحان الله! لقد تحدث النَّاس بهذا؟!

فبكيت تلك اللَّيلة حتَّى أصبحت لا يرقأ لي دمعٌ[(٨٢٨)] ، ولا أكتحل بنومٍ حتَّى أصبحت أبكي.

٢ ـ استشارة رسول الله (ص) بعض أصحابه عند تأخُّر نزول الوحي:

ودعا رسول الله (ص) عليَّ بن أبي طالبٍ ، وأسامة بن زيدٍ رضي الله عنهما حين استلبث[(٨٢٩)] الوحي ، يستأمرهما في فراق أهله ، قالت: فأمَّا أسامة؛ فأشار على رسول الله بالَّذي يعلم من براءة أهله ، وبالَّذي يعلم لهم من الودِّ ، فقال: يا رسول الله! أهلُك ، وما نعلم إلا خيراً ، وأمَّا عليُّ بن أبي طالب ، فقال: يا رسول الله! لم يضيِّق الله عليك ، والنِّساء سواها كثيرٌ ، وإن تسأل الجارية؛ تصدقك.

قالت: فدعا رسول الله (ص) بريرة ، فقال: «أي بريرة! هل رأيت من شيءٍ يريبك؟» قالت بريرة: لا والَّذي بعثك بالحقِّ إنْ رأيت عليها أمراً أغمصُه[(٨٣٠)] عليها أكثر من أنَّها جاريةٌ حديثة السِّنِّ ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتي الدَّاجن[(٨٣١)] فتأكله ، فقام رسول الله (ص) فاستعذر[(٨٣٢)] يومئذٍ من عبد الله بن أبيِّ بن سلول ، قالت: فقال رسول الله (ص) وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين! من يَعْذِرني من رجلٍ قد بلغني أذاه في أهل بيتي ، فوالله! ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً[(٨٣٣)] ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي». فقام سعد بن معاذٍ الأنصاريُّ ، فقال: يا رسول الله! أنا أعذرك منه إن كان من الأوس؛ ضربتُ عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج؛ أمرتنا ففعلنا أمرك.

٣ ـ اثار فتنة الإفك:

قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيِّد الخزرج ـ وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحميَّة[(٨٣٤)] ـ فقال لسعد: كذبت لَعَمْرُ الله! لا تقتُله ، ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل ، فقام أسيد بن حضير ، وهو ابن عمِّ سعدٍ ، فقال لسعد بن عبادة: لنقتلنَّه فإنَّك منافقٌ تجادل عن المنافقين ، فثار الحيَّان[(٨٣٥)]: الأوسُ ، والخزرج؛ حتَّى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله (ص) قائمٌ على المنبر ، فلم يزل رسول الله (ص) يُخَفِّضُهم حتَّى سكتوا ، وسكت.

قالت: فمكثت يومي لا يرقأ لي دمعٌ ، ولا أكتحل بنومٍ ، قالت: وأصبح أبواي عندي ، وقد بكيت ليلتين ، ويوماً ، لا أكتحل بنومٍ ، ولا يرقأ لي دمعٌ يظنَّان أنَّ البكاء فالق كبدي، قالت: فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي ، فاستأذنتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكي معي ، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله (ص) فسلَّم ، ثمَّ جلس ، قالت: ولم يجلس عندي منذ ما قيل قبلها.

٤ ـ مفاتحة الرَّسول (ص) لعائشة ، وجوابها له:

وقد لبث الوحي شهراً[(٨٣٦)] لا يوحى إليه في شأني بشيءٍ ، قالت: فتشهَّد رسول الله (ص) حين جلس ، ثمَّ قال: «أمَّا بعد: يا عائشة! فإنَّه قد بلغني عنك كذا وكذا[(٨٣٧)] ، فإن كنت بريئةً فسيبرِّئك الله ، وإن كنت ألممتِ بذنبٍ؛ فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإنَّ العبد إذا اعترف بذنبه ، ثمَّ تاب إلى الله ، تاب الله عليه» فلمَّا قضى رسول الله (ص) مقالته؛ قلص دمعي[(٨٣٨)]؛ حتَّى ما أحسُّ منه قطرةً ، فقلت لأبي: أجب رسول الله (ص) عنِّي فيما قال ، قال: والله! ما أدري ما أقول لرسول الله (ص) ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله (ص) ، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله (ص) .

قالت: فقلت وأنا جاريةٌ حديثة السِّنِّ لا أقرأ كثيراً من القران: إنِّي والله! لقد علمتُ ، لقد سمعتم هذا الحديث حتَّى استقرَّ في أنفسكم ، وصدَّقتم به ، فلئن قلت لكم: إني بريئة ، والله يعلم أنِّي بريئةٌ؛ لا تصدِّقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ ، والله يعلم أنِّي منه بريئةٌ لتصدقُنِّي ، والله! ما أجد لي ، ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف[(٨٣٩)] ، قال: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ *} [يوسف: ١٨] قالت: ثمَّ تحولت ، فاضطجعت على فراشي ، قالت: وأنا حينئذ أعلم أنِّي بريئةٌ ، وأنَّ الله مبرِّئي ببراءتي ، ولكن والله ما كنت أظنُّ أنَّ الله منزلٌ في شأني

وحياً يُتلى ، وَلَشَأْنِي في نفسي كان أحقر من أن يتكلَّم الله فيَّ بأمرٍ يُتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله (ص) في النَّوم رؤيا يبرِّئني الله بها.

٥ ـ نزول الوحي ببراءة عائشة:

قالت: فوالله! ما رام[(٨٤٠)] رسول الله (ص) ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتَّى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاءِ[(٨٤١)] حتَّى إنَّه ليتحدَّر منه العرق مثل الجمان[(٨٤٢)] ، وهو يومٌ شاتٍ من ثقل القول الَّذي ينزل عليه.

قالت: فلمَّا سُرِّي[(٨٤٣)] عن رسول الله (ص) ، وهو يضحك ، فكانت أوَّل كلمةٍ تكلَّم بها: يا عائشة! أمَّا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقد برَّأك ، فقالت أمِّي: قومي إليه ، قالت: والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ..

وأنزل الله: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ *لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ *لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ *وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ

عَذَابٌ عَظِيمٌ *إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ *وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ *يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ *وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [النور: ١١ ـ ٢٠].

٦ ـ موقف أبي بكر الصِّدِّيق ممَّن تكلَّم في عائشة رضي الله عنها:

فلمَّا أنزل الله هذا في براءتي ، قال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه ـ وكان ينفق على مسطح بن أُثاثة لقرابته منه ، وفقره ـ: والله! لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال ، فأنزل الله: {وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *} [النور: ٢٢ ـ ٢٣].

قال أبو بكر: بلى والله! إنِّي أحبُّ أن يغفر الله لي ، فأَرْجَعَ إلى مسطح النَّفقة الَّتي كان ينفق عليه ، وقال: والله! لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله (ص) يسأل زينب بنت جحش[(٨٤٤)] عن أمري ، فقال: «يا زينب! ماذا علمت ، أو رأيت؟» فقالت: يا رسول الله! أحمي[(٨٤٥)] سمعي ، وبصري ، وما علمت إلا خيراً ، قالت: وهي الَّتي كانت تساميني[(٨٤٦)] من أزواج رسول الله (ص) ، فعصمها الله[(٨٤٧)] بالورع[(٨٤٨)] ، وطفقت[(٨٤٩)] أختها حمنة[(٨٥٠)] تحارب لها ، فهلكت ممَّن هلك من أصحاب الإفك. [سبق تخريجه].

كانت قصَّة الإفك حلقةً من سلسلة فنون الإيذاء ، والمحن الَّتي لقيها رسول الله (ص) من أعداء الدِّين ، وكان من لطف الله تعالى بنبيِّه وبالمؤمنين أن كشف الله زيفها ، وبطلانها ، وقد سجَّل التَّاريخ برواياتٍ صحيحةٍ مواقف المؤمنين من هذه الفرية، لاسيما موقف أبي أيوبٍ، وأم أيوبٍ، وهي مواقف يتأسَّى بها المؤمنون عندما تعرض لهم في حياتهم مثل هذه الفِرْية ، فقد انقطع الوحي، وبقيت الدُّروس، لتكون عبرةً، وعظةً للأجيال إلى أن يرث الله الأرض ، ومن عليها[(٨٥١)].

سادساً: أهمُّ الاداب والأحكام الَّتي تؤخذ من ايات الإفك:

أخذ العلماء من الايات الَّتي نزلت في حادثة الإفك أحكاماً ، واداباً ، من أهمِّها ما يأتي:

١ ـ تبرئة السَّيدة عائشة رضي الله عنها من الإفك بقرانٍ يُتْلَى إلى اخر الزّمان ، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ *}

٢ ـ أنَّ حكمة الله ـ تعالى ـ اقتضت أن يبزغ الخير من ثنايا الشَّرِّ ، فقد كان ابتلاء أسرة أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه بحديث الإفك خيراً لهم ، حيث كُتِب لهم الأجر العظيم على صبرهم ، وقوَّة إيمانهم ، قال تعالى: {لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}

٣ ـ الحرص على سمعة المؤمنين ، وعلى حسن الظَّنِّ فيما بينهم ، قال تعالى: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ *}

٤ ـ تكذيب القائلين بالإفك ، قال تعالى: {لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ *}

٥ ـ بيان فضل الله على المؤمنين ، ورأفته بهم: {وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ}

٦ ـ وجوب التَّثبُّت من الأقوال قبل نشرها ، والتَّأكُّد من صحَّتها ، قال تعالى: {وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ *}

٧ ـ النَّهي عن اقتراف مثل هذا الذَّنب العظيم ، أو العودة إليه ، قال تعالى: {يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *}

٨ ـ النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين ، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ *}

٩ ـ بيان فضل الله ـ سبحانه ـ على عباده المؤمنين ، ورأفته بهم ، وكرَّر ذلك تأكيداً له ، قال تعالى: {وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *}

١٠ ـ النَّهي عن تتبُّع خطوات الشَّيطان الَّتي تؤدِّي للهلاك قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *}

١١ ـ الحثُّ على النَّفقة على الأقارب وإن أساؤوا[(٨٥٢)] قال تعالى: {وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *}

١٢ ـ غيرة الله ـ تعالى ـ على عباده المؤمنين الصَّادقين ، ودفاعه عنهم ، وتهديده لمن يرميهم بالفحشاء باللَّعن في الدُّنيا، والاخرة، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}

قال صاحب الكشَّاف عند تفسيره لهذه الايات:

ولو فلَّيت القران كلَّه ، وفتَّشت عمَّا أوعد به العُصاة؛ لم ترَ الله تعالى قد غلَّظ في شيءٍ تغليظَه في إفك عائشة رضوانُ الله عليها ، ولا أنزل من الايات القوارع ، المشحونة بالوعيد الشَّديد ،

والعتاب البليغ ، والزَّجر العنيف ، واستعظام ما ارتُكِبَ من ذلك ، واستفظاع ما أقدم عليه ، ما أنزل فيه على طرقٍ مختلفةٍ ، وأساليب مفتنةٍ ، كلُّ واحد منها كافٍ في بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الايات الثَّلاث لكفى بها؛ حيث جعل القَذَفَة ملعونين في الدَّارين جميعاً ، وتوعَّدهم بالعذاب العظيم في الاخرة ، وبأنَّ ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا ، وبهتوا ، وأنَّه يوفِّيهم جزاءهم الحقَّ الواجب الَّذي هم أهلُه[(٨٥٣)].

١٣ ـ بيان سنَّةٍ من سنن الله الجارية في الكون ، وهي أنَّ الطَّيبين يجعلهم الله من نصيب الطَّيبات ، والطَّيبات يجعلهنَّ من نصيب الطَّيبين. قال تعالى: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّأُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *}

١٤ ـ والنَّاس عندما رُمِيَت الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق بالإفك كانوا على أربعة أقسام[(٨٥٤)]:

قال فضيلة الشَّيخ عبد القادر شيبة الحمد ـ عند تعليقه على حديثٍ يتعلَّق بقصَّة الإفك ـ: إنَّ النَّاس عندما رُمِيَتِ الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق بالإفك كانوا أربعة أقسام:

قسمٌ ـ وهو أكثر النَّاس ـ حموا أسماعهم ، وألسنتهم ، فسكتوا ، ولم ينطقوا إلا بخيرٍ ولم يصدِّقوا ، ولم يكذِّبوا. وقسمٌ سارع إلى التَّكذيب ، وهم: أبو أيوبٍ الأنصاريُّ ، وأم أيوبٍ رضي الله عنهما ، فقد وصفوه عند سماعه بأنَّه إفك ، وبرَّؤوا عائشة ممَّا نسب إليها في الحال.

أمَّا القسم الثالث؛ فكانوا جملةً من المسلمين ، لم يصدِّقوا ، ولم يكذِّبوا ، ولم ينفوا ، ولكنَّهم يتحدَّثون بما يقول أهل الإفك ، وهم يحسبون: أنَّ الكلام بذلك أمرٌ هيِّنٌ لا يُعرِّضهم لعقوبة الله؛ لأن ناقل الكفر ليس بكافرٍ ، وحاكي الإفك ليس بقاذفٍ ، ومن هؤلاء: حمنة بنت جحش ، وحسَّان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة.

أمَّا القسم الرَّابع فهم الذين جاؤوا بالإفك ، وعلى رأس هؤلاء عدوُّ الله عبد الله ابن أُبَيّ بن سلول ، رأسُ المنافقين ، لعنه الله ، وهو الَّذي تولَّى كبره.

وقد أشار الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى فضل القسم الثاني من هذه الأقسام ، وأنَّه كان ينبغي لجميع المسلمين أن يقفوا هذا الموقف ، فقال: {لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ *}

أمَّا القسم الثَّالث؛ فقد أشار الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى أنَّه ما كان ينبغي لهم أن يتحدَّثوا بمثل هذا الحديث ، حيث يقول: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ *وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ *}

وقد أثبت الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأهل هذا القسم فضائلهم الَّتي عملوها ، حيث أثبت لمسطح هجرته ، وإيمانه عندما حلف أبو بكر: أنه لن ينفق على مسطح ولن يتصدَّق عليه ، وهو من ذوي قرابته ، فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: {وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *}

أمَّا القسم الرَّابع وهو جماعة عبد الله بن أُبَيّ الَّذين جاؤوا بالإفك واخترعوا هذا الكذب؛ فقد أشار الله إلى موتهم على الكفر ، وأنَّه لن يقبل منهم توبةً ، وأنَّه أنزل عليهم لعنته في الدُّنيا ، والاخرة[(٨٥٥)]؛ حيث قال: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ *}

سابعاً: فوائد ، وأحكامٌ ، ودروسٌ من حادثة الإفك ، وغزوة بني المصطلق:

١ ـ بشريَّة الرَّسول (ص):

جاءت محنة الإفك منطويةً على حكمةٍ إلهيَّةٍ استهدفت إبراز شخصيَّة النَّبيّ (ص) ، وإظهارها صافيةً مميَّزةً عن كلِّ ما قد يلتبس بها ، فلو كان الوحي أمراً ذاتيّاً غير منفصلٍ عن شخصيَّة الرَّسول (ص) ؛ لما عاش الرَّسول (ص) تلك المحنة بكلِّ أبعادها شهراً كاملاً، ولكن الحقيقة الَّتي تجلَّت للنَّاس بهذه المحنة أن ظهرت بشرية الرَّسول (ص) ونبوَّته ، فعندما حسم الوحي اللَّغط الَّذي دار حول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ عادت المياه إلى مجاريها بينها وبين الرَّسول (ص) ، وفرح الجميع بهذه النَّتيجة بعد تلك المعاناة القاسية ، فدلَّ ذلك على حقيقة الوحي ، وأنَّ الأمر لو لم يكن من عند الله تعالى؛ لبقيت

رواسب المحنة في نفس رسول الله (ص) بصفةٍ خاصَّةٍ ، ولانعكس ذلك على تصرُّفاته مع زوجته عائشة رضي الله عنها ، وهكذا شاء الله أن تكون هذه المحنة دليلاً كبيراً على نبوَّة محمَّدٍ (ص)[(٨٥٦)] .

٢ ـ حدُّ القذف ، وأهمِّيته في المحافظة على أعراض المسلمين:

كان المجتمع الإسلاميُّ يتربَّى من خلال الأحداث ، فعندما وقعت حادثة الإفك أراد المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يشرّع بعض الأحكام الَّتي تسهم في المحافظة على أعراض المؤمنين ، ولذلك نزلت سورة النُّور ، الَّتي تحدَّثت عن حكم الزَّاني والزَّانية ، وعن قبح فاحشة الزِّنى ، وعمَّا يجب على الحاكم أن يفعله إذا ما رمى أحد الزَّوجين صاحبه ، وعن العقوبة الَّتي أوجبها الله على الَّذين يرمون المحصنات ، ثمَّ لم يأتوا بأربعة شهداء ، إلى غير ذلك من الأحكام[(٨٥٧)].

إنَّ الإسلام حرم الزِّنى ، وأوجب العقوبة على فاعله ، وقد حرَّم أيضاً كل الأسباب المسبِّبة له ، وكلَّ الطُّرق الموصلة إليه؛ ومنها إشاعة الفاحشة ، والقذف بها؛ لتنزيه المجتمع من أن تسري فيه ألفاظ الفاحشة ، والحديث عنها؛ لأنَّ كثرة الحديث عن فاحشة الزِّنى وسهولة قولها في كلِّ وقتٍ يهون أمرها لدى سامعيها ، ويجرِّأى ضعفاء النُّفوس على ارتكابها ، لهذا حرَّمت الشَّريعة الإسلاميَّة القذف بالزِّنى ، وأوجبت على من قذف عفيفاً ، أو عفيفةً ، طاهراً ، أو طاهرةً ، بريئاً ، أو بريئةً من الزِّنى ، حدَّ القذف ، وهو الجلد ثمانون جلدةً ، وعدم قبول شهادته إلا بعد توبته توبةً صادقةً نصوحاً[(٨٥٨)].

هذا وقد أقام رسول الله (ص) حدَّ القذف على مِسْطحٍ ، وحسَّانَ ، وحمنةَ ، وروى محمَّد بن إسحاق ، وغيره: أنَّ النَّبيَّ (ص) جلد في الإفك رجلين ، وامرأة: مسطحاً ، وحسَّاناً ، وحمنة. وذكره التِّرمذيُّ. [الترمذي (٣١٨١) ، ولم يُصرِّح بذكر الأسماء ، وقد صرَّح بها أبو داود (٤٤٧٥)].

قال القرطبيُّ[(٨٥٩)]: والمشهور من الأخبار ، والمعروف عند العلماء: أن الَّذي حُدَّ حسانُ ، ومسطحٌ ، وحمنةُ ، ولم يُسْمَع بحدٍّ لعبد الله بن أُبَيّ[(٨٦٠)] ، وقد وردت اثارٌ ضعيفةٌ تدل على أنَّ عبد الله بن أُبَيّ أقيم عليه الحدُّ ، ولكنَّها كلَّها ضعيفةٌ لا تقوم بها حجَّة[(٨٦١)].

وقد ذكر ابن القيِّم وجه الحكمة في عدم حدِّ عبد الله بن أُبيٍّ ، فقال:

أ ـ قيل: لأنَّ الحدود تخفيفٌ عن أهلها ، وكفارةٌ ، والخبيث ليس أهلاً لذلك ، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الاخرة ، ويكفيه عن الحدِّ.

ب ـ وقيل: كان يستوشي الحديث ، ويجمعه ، ويحكيه ، ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه.

جـ وقيل: الحدُّ لا يثبت إلا ببيِّنةٍ ، أو إقرارٍ ، وهو لم يقرَّ بالقذف ، ولا شهد به عليه أحدٌ ، فإنَّه كان يذكره بين أصحابه ، ولم يشهدوا عليه ، ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

د ـ وقيل: بل ترك حدَّه لمصلحةٍ هي أعظم من إقامته عليه ، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه ، وتكلُّمه بما يوجب قتله مراراً ، وهي تأليف قومه ، وعدم تنفيرهم من الإسلام.

ثمَّ قال ـ في ختام كلامه ـ: ولعلَّه ترك لهذه الوجوه كلِّها[(٨٦٢)].

٣ ـ اعتذار حسان رضي الله عنه للسيدة عائشة رضي الله عنها:

قد بيَّنت الرِّوايات: أنَّ من خاض في الإفك قد تاب ـ ما عدا ابن أبيٍّ ـ وقد اعتذر حسَّان رضي الله عنه عمَّا كان منه ، وقال يمدح عائشة رضي الله عنها بما هي أهلٌ له[(٨٦٣)]:

رَأَيتُكِ وَلْيَغْفِرْ لَكِ اللهُ حُرَّةً	مِنَ المحْصَنَاتِ غَيْرَ ذَاتِ غَوَائِلِ
حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيْبَةٍ	وَتُصْبِحَ غَرْثَى مِنْ لُحُوْمِ الغَوَافِلِ
وَإِنّ الَّذي قَدْ قِيْلَ لَيْسَ بِلائِقٍ	بِكِ الدَّهْرَ بَلْ قَوْلُ امْرِأٍى مُتَناحِلِ
فَإِنْ كُنْتُ أَهْجُوكُمْ كَمَا بلَّغُوكُمُ	فَلاَ رَفَعَتْ سَوْطِي إِليَّ أَنَامِلِي
فَكَيْفَ وَوُدِّي مَا حَيِيْتُ وَنُصْرَتِي	لآلِ رَسُوْلِ اللهِ زَيْنُ المحَافِلِ
وَإِنَّ لَهُمْ عِزّاً يَرَى النَّاسُ دُوْنَهُ	قِصَاراً ، وَطَالَ العِزُّ كلَّ التَّطاوُلِ[(٨٦٤)]

٤ ـ من الأحكام المستنبطة في غزوة بني المصطلق:

جواز الإغارة على مَنْ بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذارٍ. ومنها: صحَّة جعل العتق صداقاً، كما فعل (ص) مع جويرية بنت الحارث في هذه الغزوة. ومنها: مشروعية القرعة بين النِّساء عند إرادة السَّفر ببعضهن. ومنها: جواز استرقاق العرب، كما حدث في الغزوة، وهو قول جمهور العلماء[(٨٦٥)].

وقد أجمع العلماء قاطبةً على أنَّ من سبَّ عائشة رضي الله عنها بعد براءتها براءةً قطعيَّة بنصِّ القران ، ورماها بما اتُّهمت به؛ فإنه كافرٌ ؛ لأنه معاندٌ للقران[(٨٦٦)] ، ومن الأحكام الَّتي عرفت في هذه الغزوة حكم العزل عن النِّساء ، حيث سأل الصَّحابة الرَّسول (ص) عنه ، فأذن به ، وقال: «ما عليكم ألا تفعلوا ، ما من نسمةٍ كائنةٍ إلى يوم القيامة إلا وهي كائنةٌ» [البخاري (٥٢١٠) ، ومسلم (١٤٣٨/١٢٥) ، وأحمد (٦٨/٣ و٧٢)][(٨٦٧)]. فذهب الجمهور إلى جواز العزل عن الزَّوجة الحرَّة بإذنها[(٨٦٨)] ، ونزلت اية التَّيمُّم في هذه الغزوة؛ تنويهاً بشأن الصَّلاة ، وتنبيهاً على عظيم شأنها ،

وأنَّه لا يحول دون أدائها فقدُ الماء ، وهو وسيلةُ الطَّهارة الَّتي هي أعظم شروطها ، كما لا يحول الخوف ، وفقدُ الأمن من إقامتها[(٨٦٩)] .

* * *

الفصل الحادي عشر

غزوة الأحزاب (٥ هـ)

المبحث الأوَّل

تاريخ الغزوة ، وأسبابها ، وأحداثها

أولاً: تاريخ الغزوة ، وأسبابها:

١ ـ تاريخ الغزوة:

ذهب جمهور أهل السِّير والمغازي إلى أن غزوة الأحزاب كانت في شهر شوَّال من السَّنة الخامسة[(٨٧٠)] ، وقال الواقديُّ[(٨٧١)]: إنَّها وقعت في يوم الثلاثاء الثَّامن من ذي القعدة في العام الخامس الهجريِّ ، وقال ابن سعدٍ[(٨٧٢)]: إنَّ الله استجاب لدعاء الرَّسول (ص) ، فهزم الأحزاب يوم الأربعاء من شهر ذي القعدة سنة خمسٍ من مهاجره (ص) . ونقل عن الزُّهريِّ ، ومالك بن أنس ، وموسى بن عقبة: أنَّها وقعت سنة أربعٍ هجريَّة[(٨٧٣)] .

ويرى العلماء: أنَّ القائلين بأنَّها وقعت سنة أربع كانوا يعدُّون التاريخ من المحرم الَّذي وقع بعد الهجرة ، ويلغون الأشهر الّتي قبل ذلك إلى ربيع الأوَّل وهو مخالف لما عليه الجمهور من جعل التَّاريخ من المحرَّم سنة الهجرة[(٨٧٤)] ، وجزم ابن حزمٍ[(٨٧٥)]: أنَّها وقعت سنة أربعٍ لقول ابن عمر: أنَّ الرسول (ص) ردَّه يوم أحدٍ ـ وهي في السَّنة الثَّالثة باتِّفاق ـ وهو ابن أربع عشرة سنة

[البخاري (٤٠٩٧) ، ومسلم (١٨٦٨)][(٨٧٦)] ولكنَّ البيهقيَّ [دلائل النبوة (٢/٢٩٦)] وابن حجر[(٨٧٧)] ، وغيرهما فسَّروا ذلك بأنَّ ابن عمر كان يوم أحدٍ في بداية الرَّابعة عشرة ، ويوم الخندق في نهاية الخامسة عشرة وهو الموافق لقول الجمهور[(٨٧٨)].

وإلى ما ذهب إليه الجمهور ـ وهو الرَّاجح لديَّ ـ مال ابن القيِّم ، حيث قال: وكانت سنة خمسٍ من الهجرة في شوال على أصحِّ القولين؛ إذ لا خلاف: أنَّ أُحداً كانت في شوَّال سنة ثلاثٍ ، وواعد المشركون رسول الله (ص) في العام المقبل ، وهو سنة أربعٍ ، ثمَّ أخلفوه من أجل جدب تلك السَّنة ، فرجعوا ، فلمَّا كانت سنة خمس جاؤوا لحربه[(٨٧٩)].

٢ ـ أسبابها:

إنَّ يهود بني النَّضير بعد أن خرجوا من المدينة إلى خيبر خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين ، فما إن استقرُّوا بخيبر؛ حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين ، فاتَّفقت كلمتُهم على التَّوجُّه إلى القبائل العربيَّة المختلفة لتحريضها على حرب المسلمين ، وكوَّنوا لهذا الغرض الخبيث وفداً يتكوَّن من سلام ابن أبي الحقيق ، وحيي بن أخطب ، وكنانة بن الرَّبيع بن أبي الحقيق ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وأبي عمَّار[(٨٨٠)].

وقد نجح الوفد نجاحاً كبيراً في مهمَّته ، حيث وافقت قريش الَّتي شعرت بمرارة الحصار الاقتصاديِّ المضروب عليها من قِبَل المسلمين ، ووافقت غطفان طمعاً في خيرات المدينة ، وفي السَّلب ، والنَّهب ، وتابعتهم قبائل أخرى.

وقد قال وفد اليهود لمشركي مكَّة: إنَّ دينكم خيرٌ من دين محمَّدٍ ، وأنتم أولى بالحقِّ منه[(٨٨١)]. وعن ذلك يقول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً *أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا *} [النساء: ٥١ ـ ٥٢].

وحول هذه المقالة أشار الأستاذ ولفنسون إلى الخطأ الكبير الَّذي وقع فيه هؤلاء اليهود بتفضيلهم دين قريشٍ الوثنيَّ على دين الإسلام الَّذي يدعو إلى عبادة الإله الواحد ، فقال: «والَّذي يؤلم كلَّ مؤمن بإلهٍ واحدٍ من اليهود ، والمسلمين على السَّواء ، إنَّما هو تلك المحادثة الَّتي

جرت بين نفرٍ من اليهود ، وبين قريشٍ الوثنيِّين ، حيث فضَّل هؤلاء النَّفر من اليهود أديان قريشٍ على دين صاحب الرِّسالة الإسلاميَّة»[(٨٨٢)].

ولا ريب أن قريشاً قد سُرَّت بما سمعت من مدحٍ لدينها ، فازدادت حماساً ، وأصبحت أكثر تصميماً على حرب المسلمين ، ثمَّ أعلنت موافقتها على هذه الدَّعوة ، والاشتراك في الحملة الَّتي ستهاجم المدينة ، وضربت لها موعداً[(٨٨٣)].

وقد أبرم الوفد اليهوديُّ مع زعماء أعراب غطفان اتفاقيَّة الاتحاد العربيِّ الوثنيِّ اليهوديِّ العسكريِّ ضدَّ المسلمين ، وكان أهم بنود هذا الاتفاق هو:

أ ـ أن تكون قوَّة غطفان في جيش الاتِّحاد هذا ستَّةَ الاف مقاتلٍ.

ب ـ أن يدفع اليهود لقبائل غطفان «مقابل ذلك» كلَّ تمر خيبر لسنةٍ واحدةٍ[(٨٨٤)].

لقد استطاع وفد اليهود أن يرجع من رحلته إلى المدينة ومعه عشرةُ الاف مقاتلٍ؛ أربعة الاف من قريشٍ ، وأحلافها ، وستَّةُ الافٍ من غطفان ، وأحلافها ، وقد نزلت تلك الأعداد الهائلة بالقرب من المدينة.

ثانياً: متابعة المسلمين للأحزاب:

كان جهاز أمن الدَّولة الإسلاميَّة على حذرٍ تام من أعدائه؛ لذا فقد كان يتتبَّع أخبار الأحزاب ، ويرصد تحرُّكاتهم ، ويتابع حركة الوفد اليهوديِّ منذ خرج من خيبر في اتِّجاه مكَّة ، وكان على علمٍ تامٍّ بكلِّ ما يجري بين الوفد اليهوديِّ ، وبين قريش أوَّلاً ، ثمَّ غطفان ثانياً ، وبمجرَّد حصول المدينة على هذه المعلومات عن العدوِّ شرع الرَّسول (ص) في اتخاذ الإجراءات الدِّفاعية اللاَّزمة ، ودعا إلى اجتماعٍ عاجلٍ ، حضره كبار قادة جيش المسلمين من المهاجرين ، والأنصار ، بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير النَّاجم عن مساعي اليهود الخبيثة[(٨٨٥)] ، فأدلى سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه برأيه الَّذي يتضمَّن حفر خندقٍ كبيرٍ لصدِّ عدوان الأحزاب ، فأُعْجِبَ النَّبيُّ (ص) بذلك ، قال الواقديُّ رحمه الله: فقال سلمان: يا رسول الله! إنَّا إذا كنا بأرض فارس ، وتخوَّفنا الخيل ، خندقنا علينا ، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين[(٨٨٦)].

وعندما استقرَّ الرَّأي ـ بعد المشاورة ـ على حفر الخندق ، ذهب النَّبيُّ (ص) هو وبعض أصحابه لتحديد مكانه ، واختار للمسلمين مكاناً تتوافر فيه الحماية للجيش ، فقد ذكر الواقديُّ: أنَّ رسول الله (ص) ركب فرساً له ، ومعه نفرٌ من أصحابه من المهاجرين ، والأنصار ، فارتاد موضعاً ينزله ، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سَلْعاً خلف ظهره ، ويخندق من المذاد إلى ذباب[(٨٨٧)] إلى راتج[(٨٨٨)] ، وقد استفاد (ص) من مناعة جبل سَلْع[(٨٨٩)] في حماية ظهور الصَّحابة.

كان اختيار تلك المواقع موفَّقاً؛ لأنَّ شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدوِّ ، والَّذي يستطيع منه دخول المدينة ، وتهديدها ، أمَّا الجوانب الأخرى فهي حصينةٌ منيعةٌ ، تقف عقبةً أمام أيِّ هجوم يقوم به الأعداء ، فكانت الدُّور من ناحية الجنوب متلاصقةً عاليةً كالسُّور المنيع ، وكانت حرَّة واقم[(٨٩٠)] من جهة الشَّرق ، وحرة الوبرة من جهة الغرب ، تقومان كحصنٍ طبيعيٍّ ، وكانت اطام بني قريظة في الجنوب الشَّرقي كفيلةً بتأمين ظهر المسلمين ، وكان بين الرَّسول (ص) وبني قريظة عهدٌ ألاَّ يمالئوا عليه أحداً ، ولا يناصروا عدوّاً ضدَّه[(٨٩١)].

ويستفاد من بحث الرَّسول (ص) عن مكانٍ ملائمٍ لنزول الجند أهمِّيةُ الموقع الذي ينزل فيه الجند ، وأنَّه ينبغي أن يتوافر فيه شرطٌ أساسيٌّ ، وهو الحماية التامَّة للجند؛ لأنَّ ذلك له أثرٌ واضحٌ على سير المعركة ، ونتائجها[(٨٩٢)].

لقد كانت خطَّة الرَّسول (ص) في الخندق متطورةً ، ومتقدِّمةً ، حيث شرع بالأخذ بالأساليب الجديدة في القتال ، ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب في حروبهم؛ بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريباً عنهم ، وبهذا يكون الرَّسول (ص) هو أوَّل من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين ، فقد كان هذا الخندق مفاجأةً مُذهلةً لأعداء الإسلام ، وأبطل خطَّتهم الَّتي رسموها ، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقانٍ رفيعٍ لسرّية الخطَّة ، وسرعة إنجازها ، وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثرٌ في إضعاف معنويات الأحزاب ، وتشتيت قواتهم.

ثالثاً: اهتمام النبي (ص) بالجبهة الدَّاخلية:

١ ـ لما علم النَّبيُّ (ص) بقدوم جيش الأحزاب ، وأراد الخروج إلى الخندق أمر بوضع ذراري المسلمين ، ونسائهم ، وصبيانهم في حصن بني حارثة؛ حتَّى يكونوا في مأمنٍ من خطر الأعداء ، وقد فعل ذلك (ص) ؛ لأنَّ حماية الذَّراري ، والنِّساء ، والصِّبيان لها أثرٌ فعَّالٌ على معنويات المقاتلين؛ لأنَّ الجندي إذا اطمأنَّ على زوجه ، وأبنائه يكون مرتاح الضَّمير ، هادأى الأعصاب ، فلا يشغل تفكيره أمرٌ من أمور الحياة ، يُسخِّر كل إمكاناته ، وقدراته العقليَّة ، والجسديَّة للإبداع في القتال ، أمَّا إذا كان الأمر بعكس ذلك؛ فإنَّ أمر الجندي يضطرب، ومعنوياتُه تضعُف ويستولي عليه القلق ، ممَّا يكون له أثر في تراجعه عن القتال وبذلك تنزل الكارثة بالجميع[(٨٩٣)].

٢ ـ ومن الأمور الَّتي أسهمت في قوية، وتماسك الجبهة الدَّاخلية مشاركةُ النبي (ص) جنده أعباء العمل، فقد شارك الرَّسول (ص) الصَّحابة في العمل المضني ، فأخذ يعمل بيده الشَّريفة في حفر الخندق ، فعن

ابن إسحاق ، قال: سمعت البراء يحدِّث قال: لما كان يوم الأحزاب ، وخندق رسول الله (ص) ؛ رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتَّى وارى عني التُّرابُ جِلدَة بطنِه ، وكان كثير الشَّعر. [البخاري (٤١٠٦) ، ومسلم (١٨٠٣)].

فعمل رسول الله (ص) مع الصَّحابة بهمَّةٍ عاليةٍ لا تعرف الكلل ، فأعطى القدرة الحسنة لأصحابه حتَّى بذلوا ما في وسعهم لإنجاز حفر ذلك الخندق.

٣ ـ وكان (ص) يشارك الصَّحابة رضي الله عنهم في الامهم ، وامالهم ، بل كان يستأثر بالمصاعب الجمَّة دونهم ، ففي غزوة الأحزاب نجد: أنَّه (ص) كان يعاني ألم الجوع كغيره ، بل أشدَّ ، حيث وصل به الأمر إلى أن يربط حجراً على بطنه الشَّريف من شدَّة الجوع[(٨٩٤)] ، ثمَّ إنَّه (ص) شاركهم في اماالهم ، فحين وجد ما يسدُّ رمقه بعد هذا الجوع الَّذي استمر ثلاثاً ، لم يستأثر بذلك دونهم ، وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله عند الحديث عن وليمة جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

٤ ـ رفع معنويات الجنود وإدخال السُّرور عليهم: اقترن حفر الخندق بصعوباتٍ جمَّة ، فقد كان الجو بارداً ، والرِّيح شديدةً ، والحالة المعيشية صعبةً ، بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الَّذي يتوقَّعونه في كلِّ لحظةٍ ، ويضاف إلى ذلك العمل المضني حيث كان الصَّحابة يحفرون بأيديهم وينقلون التراب على ظهورهم ، ولاشكَّ في أن هذا الظرف ـ بطبيعة الحال ـ يحتاج إلى قدرٍ كبير من الحزم ، والجدِّ ، ولكنَّ النَّبيَّ (ص) لم ينسَ في هذا الظَّرف: أنَّ هؤلاء الجند إنَّما هم بشرٌ كغيرهم ، لهم نفوسٌ بحاجةٍ إلى الرَّاحة من عناء العمل ، كما أنَّها بحاجةٍ إلى مَنْ يدخل السُّرور عليها؛ حتَّى تَنسى تلك الالام الَّتي تعانيها فوق معاناة العمل الرَّئيسي ، ولهذا نجد: أنَّ النَّبيِّ (ص) كان يرتجز بكلمات ابن رواحة ، وهو ينقل التُّراب:

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ ما اهْتَدَيْنا ... ولا تَصَدَّقْنَا ولا صَلَّيْنَا

فأَنْزِلَنْ سَكِيْنَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا

إنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... وإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

ثُمَّ يَمدُّ صوته باخرِها. [البخاري (٤١٠٦)].

وعن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ أصحاب محمَّدٍ (ص) كانوا يقولون يوم الخندق:

نَحْنُ الَّذِيْنَ بَايَعُوا مُحَمَّداً ... عَلَى الإِسْلامِ مَا بَقِيْنَا أَبَداً

أو قال على الجهاد ، والنَّبيُّ (ص) يقول:

اللَّهُمَّ إِنَّ الْخَيْرَ خَيْرُ الاخِرَه ... فاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ والمهَاجِره

[البخاري (٢٨٣٤) ، ومسلم (١٨٠٥/١٣٠)].

لقد كان لهذا التَّبسُّط ، والمرح في ذلك الوقت أثرُه في التَّخفيف عن الصَّحابة ممَّا يعانونه نتيجةً للظُّروف الصَّعبة ، الَّتي يعيشونها ، وكما كان له أثرهُ في بعث الهِمَّة ، والنَّشاط ، بإنجاز العمل الَّذي كُلِّفوا بإتمامه ، قبل وصول عدوِّهم[(٨٩٥)].

٥ . تقدير ظروف الجند ، والإذن بالانصراف عند الحاجة: كان الصَّحابة رضي الله عنهم على قدرٍ كبير من الأدب مع النَّبيِّ (ص) ، فكانوا يستأذنونه في الانصراف إذا عرضت لهم ضرورةٌ ، فيذهبون لقضاء حوائجهم ، ثمَّ يرجعون إلى ما كانوا فيه من العمل ، رغبةً في الخير ، واحتساباً له ، فأنزل الله فيهم: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [النور: ٦٢].

ومعنى الاية الكريمة: إذا استأذنك يا محمَّد! الَّذين لا يذهبون عنك إلا بإذنك في هذه المواطن لقضاء بعض حاجاتهم؛ الَّتي تعرض لهم فائذن لمن شئت منهم في الانصراف عنك لقضائها ، واستغفر لهم[(٨٩٦)] ، فكان النَّبيُّ (ص) بالخيار ، إن شاء؛ أذن له؛ إذا رأى ذلك ضرورة للمستأذن ، ولم ير فيه مضرَّة على الجماعة ، فكان يأذن ، أو يمنع حسب ما تقتضيه المصلحة ، ويقتضيه مقام الحال[(٨٩٧)].

٦ . تقسيم الصَّحابة إلى دورياتٍ للحراسة: قسم النَّبيُّ (ص) أصحابه إلى مجموعاتٍ للحراسة ، ومقاومة كلِّ مَنْ يريد أن يخترق الخندق ، وقام المسلمون بواجبهم في حراسة

الخندق ، وحراسة نبيِّهم (ص) ، واستطاعوا أن يصدُّوا كلَّ هجومٍ حاول المشركون شنَّه ، وكانوا على أهبة الاستعداد جنوداً ، وقيادةً ، حتَّى إنَّهم استمرُّوا ذات يوم من السَّحَر إلى جوف اللَّيل في اليوم الثَّاني ، ويفوت المسلمين الصَّلواتُ الأربع ، ويقضونها لعجزهم عن التوقُّف لحظةً واحدةً في أثناء الاشتباك المباشر للقتال ، واستطاع عليٌّ بن أبي طالب مع مجموعة من الصَّحابة أن يصدُّوا محاولة عكرمة بن أبي جهلٍ ، بل تصدَّى عليٌّ لبطل قريش عمرو بن عبد ودٍّ ، وقتله[(٨٩٨)] ، وكانت هناك مجموعةٌ من الأنصار تقوم بحراسة النَّبيِّ (ص) في كلِّ ليلةٍ على رأسهم عبَّاد بن بشرٍ رضي الله عنه ، فالنَّبيُّ (ص) هو القائد الأعلى وهو المشرف المباشر على إدارة المعركة، فهو الَّذي يرسم الخطط ، ويراقب تنفيذها ، فهو الَّذي:

أ ـ أمر بحفر الخندق ، بعد أن تمَّت المشاورة في ذلك ، فاختار مكاناً مناسباً لذلك ، وهي السُّهول الواقعة شمال المدينة؛ إذ كانت هي الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء.

ب ـ قسَّم أعمال حفر الخندق بين الصَّحابة ، كلَّ أربعين ذراعاً لعشرة من الصَّحابة ، ووكَّل بكلِّ جانبٍ جماعةً يحفرون فيه.

ج ـ سيطر على العمل ، فلا يستطيع أحدٌ ترك عمله إلا بإذنٍ منه (ص) .

د ـ قسم (ص) واجبات احتلال المواضع بنفسه بحيث تستمرُّ الحراسة على كلِّ شبرٍ من الخندق ليلاً ، ونهاراً ، ثمَّ إنَّه (ص) كان يقوم بمهمَّة الإشراف العامِّ على الجند بتشجيعهم ، ورفع معنوياتهم.

هـ استطاع (ص) ـ لما يتمتَّع به من حنكةٍ ، وبراعةٍ سياسيَّةٍ مستمدَّةٍ من شخصيته النَّبويَّة ـ أن يمسك بزمام الأمور وينقذ المؤمنين من الموقف الحرج الَّذي حدث لهم عندما وصلت الأحزاب إلى المدينة ، وأصبح الخطر يهدِّد المدينة ، وما حولها[(٨٩٩)] ، فقد توحَّدت قيادة المسلمين تحت زعامته (ص) ، فكان ذلك من أسباب كسب المعركة ، والفوز بها.

* * *

المبحث الثاني

اشتداد المحنة بالمسلمين

مع أنَّ المسلمين أخذوا بالاحتياطات كافَّةً في تأمين جبهتهم الدَّاخليَّة ، ومحاولة الدِّفاع عن الإسلام ، والمدينة من جيش الأحزاب الزَّاحف ، إلا أنَّ سنَّة الله الماضية لا نصر إلا بعد شدَّة ، ولا منحة إلا بعد محنة ، وكلَّما اقترب النَّصر زاد البلاء ، والامتحان ، وقد ازدادت محنة المسلمين في الخندق عندما:

أولاً: نَقْضُ اليهود من بني قريظة العهدَ ، ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف:

كان المسلمون يخشون غدر يهود بني قريظة الَّذين يسكنون في جنوب المدينة ، فيقع المسلمون حينئذٍ بين نارين ، اليهود خلف خطوطهم ، والأحزاب بأعدادهم الهائلة من أمامهم ، ونجح اليهوديُّ زعيم بني النَّضير في استدراج كعب بن أسد زعيم بني قريظة لينضمَّ مع الأحزاب لمحاربة المسلمين.

وسرت الشَّائعات بين المسلمين بأنَّ قريظة قد نقضت عهدها معهم ، وكان الرَّسول (ص) يخشى أن تنقض بنو قريظة العهد الذي بينهم وبينه؛ لأنَّ اليهود قوم لا عهد لهم ، ولا ذمَّة ، ولذلك انتدب النَّبيُّ (ص) الزبير بن العوَّام «رجل المهمَّات الصَّعبة» ليأتيه من أخبارهم ، فذهب الزُّبير ، فنظر ثمَّ رجع ، فقال: يا رسول الله! رأيتهم يصلحون حصونهم ، ويُدرِّبون[(٩٠٠)] طرقهم ، وقد جمعوا ماشيتهم[(٩٠١)].

وبعد أن كثرت القرائن الدَّالة على نقض بني قريظة للعهد؛ أرسل رسول الله (ص) سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وعبد الله بن رواحة ، وخَوَّات بن جبير رضي الله عنهم ، وقال لهم: انطلقوا حتَّى تنظروا: أحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم ، أم لا؟ فإن كان حقّاً؛ فالحنوا لي لحناً[(٩٠٢)] أعرفه ، ولا تَفُتُّوا في أَعْضَاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم؛ فاجهروا به
للنَّاس. [ابن هشام (٢٣٢/٣) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤٢٩/٣)][(٩٠٣)].

فخرجوا حتَّى أتوهم ، فوجدوهم قد نقضوا العهد ، فرجعوا ، فسلَّموا على النَّبيِّ (ص) ، وقالوا: عضَلٌ والقارَّة[(٩٠٤)] ، فعرف النَّبيُّ (ص) مرادهم[(٩٠٥)].

واستقبل النَّبيُّ (ص) غدر بني قريظة بالثَّبات ، والحزم ، واستخدم كلَّ الوسائل الَّتي مِنْ شأنها أن تقوِّي روح المؤمنين، وتصدع جبهات المعتدين ، فأرسل النَّبيُّ (ص) في الوقت نفسه «سلمة بن أسلم» في مئتي رجلٍ ، وزيد بن حارثة في ثلاثمئة رجل ، يحرسون المدينة ، ويظهرون التكبير ليرهبوا بني قريظة ، وفي هذه الأثناء استعدَّت بنو قريظة للمشاركة مع الأحزاب ، فأرسلت إلى جيوشها عشرين بعيراً كانت محمَّلةً تمراً ، وشعيراً ، وتيناً؛ لتمدَّهم بها ، وتقوِّيهم على البقاء ، إلا أنَّها أصبحت غنيمةً للمسلمين الَّذين استطاعوا مصادرتها، وأتوا بها إلى النَّبيِّ (ص)[(٩٠٦)] .

ثانياً: تشديد الحصار على المسلمين ، وانسحاب المنافقين ونشرهم الأراجيف:

زادت جيوش الأحزاب في تشديد الحصار على المسلمين بعد انضمام بني قريظة إليها ، واشتدَّ الكرب على المسلمين ، وتأزَّم الموقف ، وقد تحدَّث القران الكريم عن حالة الحرج ، والتَّدهور ، الَّتي أصابت المسلمين ، ووصف ما وصل إليه المسلمون من جزعٍ ، وخوفٍ ، وفزعٍ في تلك المحنة الرَّهيبة أصدقَ

وصفٍ ، حيث قال تعالى: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا *هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا *} [الأحزاب: ١٠ ، ١١].

وكان ظنُّ المسلمين بالله قويّاً ، وقد سجَّله القران الكريم بقوله تعالى: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيمًا *} [الأحزاب: ٢٢].

وأمَّا المنافقون؛ فقد انسحبوا من الجيش ، وزاد خوفهم حتَّى قال مُعَتِّب بن قُشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمَّد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى ، وقيصر ، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ، وطلب البعض الاخر الإذن لهم بالرُّجوع إلى بيوتهم بحجَّة أنَّها عورة ، فقد كان موقفهم يتَّسم بالجبن ، والإرجاف وتخذيل المؤمنين ، وقد وردت رواياتٌ ضعيفةٌ تحكي

أقوالهم في السُّخرية ، والإرجاف ، والتَّخذيل[(٩٠٧)].

ولكن القران الكريم يتكفَّل بتصوير ذلك أدقَّ تصوير[(٩٠٨)] ، والايات هي: {وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا *وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا *وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً *قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً *قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا *قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً *أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا *يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً *} [الأحزاب: ١٣ ـ ٢٠].

إنَّ الايات السَّابقة أشارت إلى النِّفاق ، وما تولَّد عنه من القلق في النُّفوس ، والجبن في القلوب ، وانعدام الثِّقة بالله عند تعاظم الخطوب ، والجرأة على الله تعالى بدل اللُّجوء إليه عند الامتحان ، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد؛ بل يتبعه العمل المخَذِّل المرْجِف ، فهم يستأذنون الرَّسول (ص) للانصراف عن ميدان العمل ، والقتال بحججٍ واهيةٍ زاعمين: أن بيوتهم مكشوفةٌ للأعداء ، وإنَّما يقصدون الفرار من

الموت لضعف معتقدهم ، وللخوف المسيطر عليهم ، بل ويحثُّون الاخرين على ترك موقعهم ، والرُّجوع إلى بيوتهم ، ولم يراعوا عقد الإيمان ، وعهود الإسلام[(٩٠٩)].

وتزايدت محاولات المشركين لاقتحام الخندق ، وأصبحت خيل المشركين تطوف بأعدادٍ كبيرةٍ كلَّ ليلةٍ حول الخندق حتَّى الصَّباح ، وحاول خالد بن الوليد مع مجموعةٍ من فرسان قريش أن يقتحم الخندق على المسلمين في ناحيةٍ ضيّقةٍ منه ، ويأخذهم على حين غِرَّةٍ ، لكنَّ أُسَيْدَ بن حضير في مئتين من الصَّحابة يراقبون تحرُّكاتهم ، وقد حصلت مناوشاتٌ استشهد فيها الطُّفَيْل بن النُّعمان ، والَّذي قتله وحشيٌّ ـ قاتل حمزة يوم أحدٍ ـ رماه بحربةٍ عبر الخندق ، فأصابت منه مقتلاً[(٩١٠)] ، واستطاع حبَّان بن العَرِقَة ، من المشركين أن يرمي سهماً أصاب سعد بن

معاذ رضي الله عنه في أكحله[(٩١١)] ، وقال: خذها وأنا ابن العرقة.

وقد قال سعد بن معاذ عندما أصيب: اللَّهُمَّ! إن كنت أبقيت من حرب قريشٍ شيئاً؛ فأبقني لها ، فإنَّه لا قومَ أحبُّ إليَّ من أن أجاهد من قومٍ اذوا رسولك ، وكذَّبوه ، وأخرجوه.

اللَّهُمَّ! وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم؛ فاجعلها شهادةً ، ولا تميتني حتَّى تقرَّ عيني من بني قريظة. [أحمد (٦/١٤١ ـ ١٤٢) ، وابن حبان (٧٠٢٨)].

وقد استجاب الله دعوة هذا العبد الصَّالح وهو الَّذي سيحكم فيهم ، ثمَّ وجَّه المشركون كتيبة غليظةً نحو مقرِّ رسول الله (ص) فقاتلهم المسلمون يوماً إلى اللَّيل ، فلمَّا حانت صلاة العصر؛ دنت الكتيبة ، فلم يقدر النَّبيُّ (ص) ، ولا أحدٌ من أصحابه الَّذين كانوا معه أن يصلُّوا ، وشُغِلَ بهمُ النَّبيُّ (ص) ، فلم يصلِّ العصر ، ولم تنصرف الكتيبة إلا مع اللَّيل ، فقال رسول الله (ص) : «ملأ الله عليهم بيوتهم ، وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصَّلاة الوسطى؛ حتَّى غابت الشمس» [البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧)].

ثالثاً: محاولة النَّبيِّ (ص) تخفيف حدَّة الحصار بعقد صلحٍ مع غطفان ، وبثِّ الإشاعات في صفوف الأعداء:

١ ـ سياسة النَّبيِّ (ص) في المفاوضات مع غطفان: ظهرت حنكته (ص) وحسن سياسته حين اختار قبيلة غطفان بالذَّات لمصالحتها على مالٍ يدفعه إليها على أن تترك محاربته ، وترجع إلى بلادها ، فهو يعلم (ص) : أنَّ غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أيَّ هدفٍ سياسيٍّ يريدون تحقيقه أو باعثٍ عقائديٍّ يقاتلون تحت رايته ، وإنَّما كان هدفهم الأوَّل والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها ، ولهذا لم يحاول

الرَّسول (ص) الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحيي بن أخطب ، وكنانة بن الرَّبيع) أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب؛ لأنَّ هدف أولئك الرَّئيسي لم يكن المال ، وإنَّما كان هدفهم هدفاً سياسيّاً ، وعقائديّاً يتوقَّف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلاميِّ من الأساس ، لذا فقد كان اتصاله «فقط» بقادة غطفان ، الَّذين «فعلاً» لم يتردَّدوا في قبول العرض الَّذي عرضه عليهم النَّبيُّ (ص)[(٩١٢)] ، فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف) لطلب النَّبيِّ (ص) ، وحضرا مع بعض أعوانهما إلى مقرِّ قيادة النَّبيِّ (ص) ، واجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحدٌ ، وشرع رسول الله (ص) في مفاوضتهم ، وكانت تدور حول عرضٍ تقدَّم به رسول الله (ص) يدعو فيه إلى عقد صلحٍ

منفردٍ بينه ، وبين غطفان ، وأهمُّ البنود الَّتي جاءت في هذه الاتفاقيَّة المقترحة:

أ ـ عقد صلحٍ منفردٍ بين المسلمين وغطفان الموجودين ضمن جيوش الأحزاب.

ب ـ توادع غطفان المسلمين ، وتتوقف عن القيام بأيِّ عملٍ حربيٍّ ضدَّهم (وخاصَّة في هذه الفترة).

ج ـ تفكُّ غطفان الحصار عن المدينة ، وتنسحب بجيوشها عائدةً إلى بلادها.

د ـ يدفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلِّها من مختلف الأنواع ، ويظهر: أنَّ ذلك لسنةٍ واحدةٍ[(٩١٣)] ، فقد ذكر الواقديُّ: أنَّ رسول الله (ص) قال لقائدي غطفان: أرأيت إن جعلت لكم ثلث ثمر المدينة ترجعان بمن معكم، وتخذِّلان بين الأعراب؟ قالا: تعطينا نصف ثمر المدينة ، فأبى رسول الله (ص) أن يزيدهما على الثُّلث، فرضيا بذلك، وجاءا في عشرة من قومهما حين تقارب الأمر[(٩١٤)].

ويعني قبول قائدي غطفان ما عرضه عليهما رسول الله (ص) من الوجهة العسكريَّة وضوح الهدف الَّذي خرجت غطفان من أجله ، وهو الوقود الذي يشعل نفوس هؤلاء ، ويحرِّكها في جبهة القتال ، ولاشكَّ في أنَّ اختفاء هذا الدَّافع يعني: أنَّ المحارب فقد ثلثي قدرته على القتال ، وبذلك تضعف عنده الرُّوح المعنوية الَّتي تدفعه إلى الاستبسال في مواجهة خصمه ، وبذلك استطاع (ص) أن يُفتِّت ، ويضعف من قوَّة جبهة الأحزاب[(٩١٥)].

وقد أبرز (ص) في هذه المفاوضات جانباً من جوانب منهج النُّبوة في التَّحرك لفكِّ الأزمات عند استحكامها ، وتأزُّمها؛ لتكون لأجيال المجتمع المسلم درساً تربويّاً من دروس التَّربية المنهجيَّة عند اشتداد البلاء[(٩١٦)] ، وقبل عقد الصُّلح مع غطفان شاور رسولُ الله (ص) الصحابة في هذا الأمر ، فكان

رأيُهم عدم إعطاء غطفان شيئاً من ثمار المدينة ، وقال السَّعدان: سعدُ بن معاذ ، وسعدُ بن عبادة: يا رسول الله! أمراً تحبُّه ، فنصنعُه ، أم شيئاً أمرك الله به لابدَّ لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعُه لنا؟ فقال: «بل شيءٌ أصنعه لكم ، والله! ما أصنع ذلك إلا لأنِّي رأيت العرب رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ ، وكالبوكم . أي: اشتدوا عليكم . من كلِّ جانبٍ ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما» ، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله! قد كنَّا وهؤلاء على الشِّرك بالله ، وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ، ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً واحدةً إلا قِرىً .

أي: الطَّعام الَّذي يُصنع للضَّيف . أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزَّنا بك ، وبه ، نعطيهم أموالنا؟! ما لنا بهذا من حاجةٍ، والله لا نعطيهم إلا السَّيف، حتَّى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال النَّبيُّ (ص) : «أنت وذاك». فتناول سعد بن معاذ الصَّحيفة ، فمحا ما فيها من الكتاب ، ثمَّ قال: ليَجْهدوا علينا. [ابن هشام (٣/٢٣٤)][(٩١٧)].

كان رد زعيمي الأنصار: سعدُ بن معاذ ، وسعدُ بن عبادة في غاية الاستسلام لله تعالى ، والأدب مع النَّبي (ص) وطاعته ، فقد جعلوا أمر المفاوضة مع غطفان ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون هذا الأمر من عند الله تعالى ، فلا مجال لإبداء الرَّأي بل لابدَّ من التَّسليم ، والرِّضا.

والثَّاني: أن يكون شيئاً يحبُّه رسول الله (ص) ، باعتباره رأيه الخاصّ، فرأيه مقدَّمٌ، وله الطَّاعة في ذلك.

الثَّالث: أن يكون شيئاً عمله الرَّسول (ص) لمصلحة المسلمين من باب الإرفاق بهم ، فهذا هو الَّذي يكون مجالاً للرَّأي.

ولما تبيَّن للسَّعدين من جواب الرَّسول (ص) : أنَّه أراد القسم الثَّالث: أجاب سعدُ بن معاذ بجوابٍ قويٍّ ، كبت به زعيمي غطفان ، حيث بيَّن أنَّ الأنصار لم يذلُّوا لأولئك المعتدين في الجاهليَّة؛ فكيف وقد أعزَّهم الله تعالى بالإسلام؟! وقد أُعجب النَّبيُّ (ص) بجواب سعدٍ ، وتبيَّن له منه ارتفاع معنويَّة الأنصار ، واحتفاظهم بالرُّوح المعنويَّة العالية ، فألغى بذلك ما بدأ من الصُّلح مع غطفان[(٩١٨)].

وفي قوله (ص) : «إنِّي قد علمت: أنَّ العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ» [الطبراني في الكبير (٥٤٠٩) ، وابن هشام (٣/٢٣٤) ، ومجمع الزوائد (٦/١٣١)][(٩١٩)].

دليلٌ على أنَّ رسول الله (ص) كان يستهدف من عمله ألا يجتمع الأعداء عليه صفّاً واحداً ، وهذا يرشد المسلمين إلى عدَّة أمورٍ ، منها:

* أن يحاول المسلمون التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.

* أن يكون الهدف الاستراتيجيُّ للقيادة المسلمة تحييد مَنْ تستطيع تحييده ، ولا تنسى القيادة الفتوى ، والشُّورى ، والمصلحة الانيَّة ، والمستقبليَّة للإسلام[(٩٢٠)].

وفي استشارة رسول الله (ص) للصَّحابة يتبيَّن لنا أسلوبه في القيادة ، وحرصه على فرض الشُّورى في كلِّ أمرٍ عسكريٍّ يتَّصل بالجماعة ، فالأمر شورى ، ولا ينفرد به فردٌ حتَّى ولو كان هذا الفرد رسول الله (ص) ما دام الأمر في دائرة الاجتهاد ، ولم ينزل به وحيٌ[(٩٢١)].

إن قبول الرسول (ص) رأي الصحابة في رفض هذا الصلح يدل على أن القائد الناجح هو الذي يربط بينه وبين جنده رباط الثقة؛ حيث يعرف قدرهم ويدركون قدره، ويحترم رأيهم ويحترمون رأيه ، ومصالحة النبي (ص) مع قائدي غطفان تعد من باب السياسة الشرعية التي تراعى فيها المصالح والمفاسد حسب ما تراه القيادة الرشيدة للأمة[(٩٢٢)].

إن موقف الصحابة من هذا الصلح يحمل في طياته ثلاثة معانٍ:

أ ـ أنه يؤكد شجاعة المسلمين الأدبية في إبداء الرأي ، والمشورة في أي أمر يخص الجماعة ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

ب ـ أنه يكشف عن جوهر المسلمين وعن حقيقة اتصالهم بالله ورسوله (ص) وبالإسلام.

ج ـ أنه يبين ما تمتلأى به الروح المعنوية لدى المسلمين من قدرة على مواجهة المواقف الحرجة بالصبر والرغبة القوية في قهر العدو ، مهما كثر عدده وعتاده أو تعدد حلفاؤه[(٩٢٣)].

٢ ـ اهتمام الرسول (ص) ببث الإشاعات في صفوف الأعداء:

استخدم النَّبي (ص) سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن ، فلقد كان يعلم (ص) أن هناك تصدعاً خفيفاً بين صفوف الأحزاب ، فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله في جانبه ، فقد سبق أن أطمع غطفان ففكك عزمها ، والان ساق المولى ـ عز وجل ـ نُعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله (ص) ليعلن إسلامه ويقول له: يا رسول الله ، إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت. فقال له رسول الله (ص) : إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة. [ابن هشام (٣/٢٤٠) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٤٤٥ ـ ٤٤٦)][(٩٢٤)].

فقام نُعيم بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله (ص) ، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار ، وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمناً لعودتها إلى صلحهم ، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في أنها

لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية؛ فالحرب خدعة[(٩٢٥)].

وقد نجحت دعاية نُعيم بن مسعود أيما نجاح ، فغرست روح التشكيك ، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب ، مما أدى إلى كسر شوكتهم ، وتثبيط عزمهم ، وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

أ ـ أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف ، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نُصح.

ب ـ أنه ذكّر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير ، وبصَّرهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حروبهم للرسول (ص) ، فكان هذا الأساس سبباً في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

ج ـ أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له ، وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته ، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته.

وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم في غزوة الأحزاب[(٩٢٦)].

* * *

المبحث الثَّالث

مجيء نصر الله والوصف القراني لغزوة الأحزاب

أولاً: شدَّة تضرُّع الرَّسول (ص) ونزول النَّصر:

كان رسول الله (ص) كثير التَّضرُّع والدُّعاء ، والاستعانة بالله ، وخصوصاً في مغازيه ، وعندما اشتدَّ الكرب على المسلمين أكثر ممَّا سبق حتَّى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديداً ، فما كان من المسلمين إلا أن توجَّهوا إلى الرَّسول (ص) وقالوا: يا رسول الله! هل من شيءٍ نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر ، فقال: «نعم ، اللَّهمَّ!! استر عوراتنا وامن روعاتنا» [أحمد (٣/٣) ، والبزار (٣١١٩) ، ومجمع الزوائد (١٠/١٣٦)].

وجاء في الصَّحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى ، قال: دعا رسول الله (ص) على الأحزاب ، فقال: «اللَّهمَّ! منزلَ الكتاب ، سريعَ الحساب ، هازم الأحزاب ، اللَّهمَّ! اهزمهم ، وزلزلهم». [البخاري (٢٩٣٣) ، ومسلم (١٧٤٢ /٢٠ و٢١)].

فاستجاب الله ـ سبحانه ـ دعاء نبيِّه (ص) فأقبلت بشائر الفرج ، فقد صرفهم الله بحوله وقوَّته ، وزلزل أبدانهم ، وقلوبهم ، وشتِّت جمعهم بالخلاف ، ثمَّ أرسل عليهم الرِّيح الباردة الشَّديدة ، وألقى الرُّعب في قلوبهم ، وأنزل جنوداً من عنده سبحانه.

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا *} [الأحزاب: ٩].

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ: وكانت هذه الرِّيح معجزةً للنَّبيِّ (ص) ؛ لأنَّ النَّبيَّ (ص) ، والمسلمين كانوا قريباً منها ، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق ، وكانوا في عافيةٍ منها ، ولا خبر عندهم بها... ، بعث الله عليهم الملائكة ، فقلعت الأوتاد ، وقطعت أطناب الفساطيط[(٩٢٧)] ، وأطفأت النِّيران ، وأكفأت القدور ، وجالت الخيول بعضُها في بعضٍ ، وأرسل الله عليهم الرُّعب ، وكثر تكبير الملائكة في جوانب المعسكر؛ حتَّى كان سيِّد كلِّ خباءٍ يقول:

يا بني فلان! هلمَّ إليَّ ، فإذا اجتمعوا؛ قال لهم: النَّجاءَ ، النَّجاءَ! لما بعث الله عليهم الرُّعب[(٩٢٨)].

وحرَص الرَّسول (ص) أن يؤكِّد لصحبه ، ثمَّ للمسلمين في الأرض: أنَّ هذه الأحزاب الَّتي تجاوزت عشرة الاف مقاتلٍ لم تُهزم بالقتال من المسلمين ـ رغم تضحياتهم ـ ولم تهزم بعبقرية المواجهة ، إنَّما هُزمت

بالله وحده {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا *} [الأحزاب: ٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله (ص) كان يقول: «لا إله إلا الله وحدَه ، أعزَّ جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيءَ بعدَه». [البخاري (٤١١٤) ، ومسلم (٢٧٢٤)].

ودعاء رسول الله (ص) ربَّه ، واعتماده عليه وحدَه ، لا يتناقض أبداً مع التماس الأسباب البشريَّة للنَّصر ، فقد تعامل (ص) في هذه الغزوة مع سنَّة الأخذ بالأسباب ، فبذل جهده لتفريق الأحزاب، وفك الحصَار، وغير ذلك من الأمور الَّتي ذكرناها[(٩٢٩)].

إنَّ رسول الله (ص) يعلِّمنا سنَّة الأخذ بالأسباب ، وضرورة الالتجاء إلى الله ، وإخلاص العبوديَّة له؛ لأنَّه لا تجدي وسائل القوَّة كلُّها إذا لم تتوفر وسيلةُ التَّضرع إلى الله ، والإكثار من الإقبال عليه بالدُّعاء ، والاستغاثة ، فقد كان الدُّعاء والتَّضرُّع إلى الله من الأعمال المتكرِّرة الدَّائمة الَّتي فزع إليها رسولُ الله (ص) في حياته كلِّها[(٩٣٠)].

ثانياً: تحرِّي انصراف الأحزاب:

كان رسول الله (ص) يتابع أمر الأحزاب ، ويحبُّ أن يتحرَّى عمَّا حدث عن قربٍ فقال: «ألا رجل يأتينا بخبر القوم ، جعله الله معي يوم القيامة؟» [مسلم (١٧٨٨] ، فاستعمل (ص) أسلوب التَّرغيب ، وكرَّره ثلاث مرَّاتٍ ، وعندما لم يُجْدِ هذا الأسلوب لجأ إلى أسلوب الجزم ، والحزم في الأمر ، فعيَّن واحداً بنفسه ، فقال: «قم يا حذيفة! فائتنا بخبر القوم ، ولا تَذْعَرْهُم عليَّ» [مسلم (١٧٨٨)].

وفي هذا معنىً تربويٌّ وهو أنَّ القيادة النَّاجحة هي الَّتي توجِّه جنودها إلى أهدافها عن طريق التَّرغيب ، والتَّشجيع ، ولا تلجأ إلى الأمر ، والحزم إلا عند الضَّرورة.

قال حذيفة رضي الله عنه: فمضيت كأنَّما أمشي في حَمَّامٍ ، فإذا أبو سفيان يَصْلِي ظهرَه بالنَّار ـ أي: يدفئه ، ويدنيه منها ـ فوضعت سهماً في كبد القوس ، وأردت أن أرميه ، ثم ذكرت قول

رسول الله (ص) : «لا تَذْعَرْهُمْ عليَّ» ، ولو رميتُه لأصبته ، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمَّام ، فأتيت رسول الله (ص) ، وأصابني البرد حين رجعت وقررت فأخبرت رسول الله (ص) ، وألبسني فضل عَبَاءَةٍ كانت عليه يُصَلِّي فيها ، فلم أَزَلْ نائماً حتَّى أصبحت ، فلمَّا أصبحت ، قال رسول الله (ص) : «قم يا نومان!». [مسلم (١٧٨٨)].

ويؤخذ من قصَّة حذيفة دروسٌ ، وعبرٌ منها:

١ ـ معرفة رسول الله (ص) بمعادن الرِّجال؛ حيث اختار حذيفة؛ ليقوم بمهمَّة التَّجسس على الأحزاب ، وأنَّ معدن حذيفة معدنٌ ثمينٌ ، فهو شجاعٌ ، ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من كان ذا شجاعةٍ نادرة ، وهو بالإضافة إلى ذلك لبقٌ ذكيٌّ خفيف الحركة ، سريع التخلُّص من المازق الحرجة.

٢ ـ الانضباط العسكريُّ الَّذي كان يتحلَّى به حذيفة؛ فلقد مرَّت به فُرصةٌ سانحةٌ يستطيع أن يقتل فيها قائد الأحزاب ، وهَمَّ بذلك ، ولكنَّه ذكر أمر الرَّسول (ص) ألا يَذْعَرَهُمْ ، وأنَّ مهمَّته الإتيان بخبرهم ، فنزع سهمه من قوسه[(٩٣١)].

٣ ـ كرامات الأولياء: إنَّ ما حدث لحذيفة بن اليمان عندما سار لمعرفة خبر الأحزاب في جوٍّ باردٍ ماطرٍ شديد الرِّيح وإذا به لا يشعر بهذا الجوِّ البارد ، ويمشي وكأنما يمشي في حمَّامٍ ، وتلازمه هذه الحالة مُدة بقائه بين الأحزاب وحتَّى عودته إلى معسكر المسلمين ، لاشك هذه كرامةٌ يمنُّ الله بها على عباده المؤمنين[(٩٣٢)].

٤ ـ لطف النَّبيِّ (ص) مع حذيفة عند رجوعه ، فقد كان (ص) يترفَّق بأصحابه ، ولم تمنعه صلاة اللَّيل ، وحلاوة المناجاة من التلطُّف بحذيفة الَّذي جاء بأحسن الأنباء ، وأصدق الأخبار ، وأهمِّها ، فشمله بكسائه الَّذي يصلِّي فيه؛ ليدفئه ، وتركه ملفوفاً به حتَّى أتمَّ صلاته ، بل حتَّى بعد أن أفضى إليه بالمهمَّة ، فلمَّا وجبت المكتوبة؛ أيقظه بلطفٍ ، وخفَّةٍ ، ودُعابةٍ ، قائلاً: «قم يا نومان!» دُعابة تقطر حلاوةً ، وتفيض بالحنان ، وتسيل رقَّةً ، إنَّها صورةٌ نموذجيَّةٌ للرَّأفة ، والرَّحمة ، اللَّتين تحلَّى بهما فؤاد الرَّسول (ص) ، وتطبيقٌ فريدٌ رفيعٌ لهما في أصحابه الكرام[(٩٣٣)] وصدق الله العظيم في قوله: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ١٢٨].

٥ ـ وتستوقفنا سرعة البديهة لدى الصَّحابيِّ الكريم ، وقد دخل في القوم ، كما في رواية الزُّرقاني ، وقال أبو سفيان: ليأخذ كلُّ رجلٍ منكم بيد جليسه ، قال حذيفة: فضربت بيدي على
يد الَّذي على يميني ، فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان ، ثمَّ ضربت بيدي على يد الَّذي عن شمالي ، فقلت: مَنْ أنت؟ قال: عمرو بن العاص....[(٩٣٤)].

وهكذا بَدَرَهُم بالمسألة حتَّى لا يتيح لهم فرصةً ليسألوه ، وبهذا تخلَّص من هذا المأزِق الحرج الَّذي ربما أودى بحياته[(٩٣٥)].

ثالثاً: الوصف القراني لغزوة الأحزاب ، ونتائجها:

تحدَّث القران الكريم عن غزوة الأحزاب ، وردَّ الأمر كلَّه لله سبحانه ، وقد سجَّل القران الكريم غزوتي الأحزاب ، وبني قريظة ، والقران كعهدنا به يُسَجِّل الخالدات الَّتي تسع الزَّمان ، والمكان ، فالمسلمون معرَّضون دائماً لأن يُغزوا في عقر دارهم ، في عواصم بلدانهم ، ومعرَّضون لأن يتكالب عليهم الأعداء جميعاً ، فإذا كان القران قد سجل حادثتي الأحزاب ، وبني قريظة ، فذلك من سمة التَّكرار على مدى العصور[(٩٣٦)]؛ لكي يستفيد المسلمون من الدُّروس والعبر من الحوادث السَّابقة الَّتي ذكرت في القران الكريم على وجه الخصوص ، والَّذي يتدبَّر حديث القران عن غزوة الأحزاب يراه قد اهتم ببيان أمورٍ ، من أهمِّها ما يلي:

١ . تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم ، كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا *} [الأحزاب: ٩].

٢ . التَّصوير البديع لما أصاب المسلمين من همٍّ بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا *} [الأحزاب: ١٠].

٣ . الكشف عن نوايا المنافقين السَّيئة ، وأخلاقهم الذَّميمة ، وجبنهم الخالع ، ومعاذيرهم الباطلة ، ونقضهم للعهود ، قال تعالى: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا *} [الأحزاب: ١٢].

٤ . حضُّ المؤمنين في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ على التأسِّي برسول الله (ص) ، في أقواله ، وأفعاله ، وجهاده ، وكلِّ أحواله ، استجابةً لقوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا *} [الأحزاب: ٢١].

٥ . مدح المؤمنين على مواقفهم النَّبيلة ، وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمانٍ صادقٍ ، ووفاء بعهد الله تعالى ، قال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً *} [الأحزاب: ٢٣].

٦ . بيان سنَّةٍ من سنن الله الَّتي لا تتخلَّف ، وهي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم ، قال تعالى: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا *} [الأحزاب: ٢٥].

٧ ـ امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين؛ حيث نصرهم على بني قريظة وهم في حصونهم المنيعة بدون قتالٍ يُذْكَر ، حيث ألقى ـ سبحانه ـ الرُّعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ، ورسوله (ص)[(٩٣٧)] ، قال تعالى: {وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا *وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا *} [الأحزاب: ٢٦ ـ ٢٧].

لقد كانت غزوة الأحزاب من الغزوات المهمَّة الَّتي خاضها المسلمون ضدَّ أعدائهم وحقَّقوا فيها نتائج مهمَّةً منها:

* انتصار المسلمين ، وانهزام أعدائهم ، وتفرُّقهم ، ورجوعهم مدحورين بغيظهم ، قد خابت أمانيهم ، واما لهم.

* تغيُّر الموقف لصالح المسلمين؛ فانقلبوا من موقف الدِّفاع إلى الهجوم ، وقد أشار إلى ذلك النَّبيُّ (ص) حيث قال: «الان نغزوهم ، ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم». [البخاري (٤١١٠) ، وأحمد (٤/٢٦٢ ، و٦/٣٩٤)].

* كشفت هذه الغزوة يهود بني قريظة ، وحقدهم على المسلمين ، وتربُّص الدَّوائر بهم ، فقد نقضوا عهدهم مع النَّبيِّ (ص) في أحلك الظُّروف ، وأصعبها.

* كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين ، وحقيقة المنافقين ، وحقيقة يهود بني قريظة ، فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصاً للمسلمين ، وإظهاراً لحقيقة المنافقين ، واليهود.

* كانت غزوة بني قريظة نتيجةً من نتائج غزوة الأحزاب؛ حيث تمَّ فيها محاسبة يهود بني قريظة الَّذين نقضوا العهد مع النَّبيِّ (ص) في أحلك الظُّروف ، وأقساها[(٩٣٨)].

رابعاً: التَّخلُّص من بني قريظة:

بعد عودة النَّبيِّ (ص) من الخندق ، ووضعِه السِّلاح أمر الله تعالى نبيَّه (ص) بقتال بني قريظة ، فأمر الحبيب (ص) أصحابه بالتوجُّه إليهم ، وقد أعلمهم بأنَّ الله تعالى قد أرسل جبريل؛ ليزلزل
حصونهم ، ويقذف في قلوبهم الرُّعب ، وأوصاهم بأن «لا يصلِّيَنَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة» [البخاري (٤١١٩) ، ومسلم (١٧٧٠)].

وضرب المسلمون الحصار على بني قريظة خمساً وعشرين ليلةً[(٩٣٩)] ، ولما اشتدَّ الحصار ، وعظم البلاء على بني قريظة ، أرادوا الاستسلام ، والنُّزول على أن يحكِّم الرَّسول (ص) فيهم سعد بن معاذ

رضي الله عنه ، ونزلوا على حكمه ، ورأوا: أنَّه سيرأف بهم بسبب الحلف بينهم وبين قومه الأوس ، فجيء بسعدٍ محمولاً؛ لأنَّه كان قد أصابه سهمٌ في ذراعه يوم الخندق ، فقضى أن تُقتل المقاتِلة ، وأن تُسبى النِّساء والذُّرِّيَّة ، وأن تُقسم أموالهم ، فأقرَّه رسول الله (ص) وقال: «قضيت بحكم الله» [البخاري (٣٠٤٣ و٤١٢٢) ، ومسلم (٦٤/١٧٦٨)].

ونفَّذ حكم الإعدام في أربعمئةٍ في سوق المدينة ، حيث حفرت أخاديد ، وقتلوا فيها بشكل مجموعاتٍ ، وقد نجت مجموعةٌ قليلةٌ جدّاً بسبب وفائها للعهد ، ودخولها في الإسلام ، وقسمت أموالُهم ، وذراريهم على المسلمين.

وهذا جزاءٌ عادلٌ نزل بمن أراد الغدر ، وتبرَّأ من حلفه للمسلمين ، وكان جزاؤهم من جنس عملهم حين عرَّضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل ، وأموالهم للنَّهب ، ونساءهم ، وذراريهم للسَّبي ، فكان أن عوقبوا بذلك جزاءً وفاقاً[(٩٤٠)].

ولم تقتل من نساء بني قريظة إلا واحدةٌ ، ونترك السَّيدة عائشة رضي الله عنها تحدِّثنا عنها قالت السَّيدة عائشة: لم يُقتل مِنْ نسائهم إلا امرأةٌ واحدةٌ قالت: والله! إنَّها لعندي ، تتحدث معي ، تضحك ظهراً ، وبطناً[(٩٤١)]؛ ورسولُ الله (ص) يقتل رجالها بالسُّوق؛ إذ هتف هاتفٌ باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله! قالت: قلت لها: ويلك! ما لك؟ قالت: أقتل. قلت: ولم؟ قالت: لحدثٍ أحدثتُه[(٩٤٢)]. قالت: فانطلق بها ، فضُربت عنقها ، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: والله! ما أنسى عجبي من طيب نفسها ، وكثرة ضحكها ، وقد عَرَفَتْ: أنَّها تُقتل. [أحمد (٦/٢٧٧) ، وأبو داود (٢٦٧١)][(٩٤٣)].

بالقضاء على بني قريظة خلت المدينة تماماً من الوجود اليهوديِّ ، وصارت خالصةً للمسلمين ، وخلت الجبهة الدَّاخلية من عنصرٍ خطرٍ ، لديه القدرة على المؤامرة ، والكيد ،

والمكر ، واضمحل حلم قريش؛ لأنَّها كانت تعوِّل ، وتؤمِّل في يهود بأن يكون لهم موقف ضدَّ المسلمين ، وابتعد خطر اليهود الَّذي كان يمدُّ المنافقين بأسباب التَّحريض والقوَّة[(٩٤٤)].

إنَّ حماية الجبهة الدَّاخليَّة للدَّولة الإسلاميَّة من العابثين منهجٌ نبويٌّ كريمٌ ، رسمه الحبيب المصطفى (ص) للأمَّة المسلمة.

* * *

المبحث الرَّابع

فوائد ، ودروسٌ ، وعبرٌ

أولاً: المعجزات الحسِّيَّة لرسول الله (ص):

ظهرت خلال مرحلة حفر الخندق معجزاتٌ حسِّيَّة للنَّبيِّ (ص) ، منها تكثير الطَّعام؛ الَّذي أعدَّه جابر بن عبد الله، فعن جابرٍ رضي الله عنه قال: إنَّا يوم الخندق مُحفر[(٩٤٥)] ، فعرضَتْ كُدْيَةٌ شديدةٌ ، فجاؤوا النَّبيَّ (ص) ، فقالوا: هذه كديةٌ عرضت في الخندق ، فقال: «أنا نازلٌ» ثمَّ قام ، وبطنه معصوبٌ بحجرٍ ، ولبثنا ثلاثة أيَّامٍ لا نذوق ذواقاً ، فأخذ النَّبيُّ (ص) المِعْوَل ، فضرب في الكُدْيَةِ ، فعادت كثيباً أهيل[(٩٤٦)] أو أهيم[(٩٤٧)].

قال جابر: فقلت: يا رسول الله! ائذن لي إلى البيت ، فقلت لامرأتي: رأيت بالنَّبيِّ (ص) شيئاً ما كان في ذلك صبرٌ؛ فعندك شيءٌ؟ فقالت: عندي شعير ، وعَناقٌ[(٩٤٨)] فذبحتُ العَناق ، وطحنتُ الشَّعير ، حتى جعلنا اللَّحم بالبُرمة[(٩٤٩)] ، ثمَّ جئت النَّبيَّ (ص) والعجين قد انكسر ، والبرمة بين الأثافِيِّ[(٩٥٠)] ، قد كادت أن تنضجَ ، فقلت: طُعَيِّمٌ لي ، فقم أنت يا رسول الله! ورجل ، أو رجلان ، قال: «كم هو؟» فذكرت له ، فقال: «كثيرٌ طيِّب» قال: «قل لها: لا تنزع البُرمة ، ولا الخبز من التنُّور حتَّى اتي».

فقال: قوموا ، فقام المهاجرون ، والأنصار ، فلمَّا دخل على امرأته ، قال: ويحك! جاء النَّبيُّ (ص) بالمهاجرين ، والأنصار ، ومن معهم ، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم ، قال: «ادخلوا ، ولا تضاغطوا»[(٩٥١)] ، فجعل يَكْسِر الخبز ، ويجعل عليه اللَّحم ، ويخمِّر البُرمة

والتَّنُّور إذا أخذ منه ، ويقرِّب إلى أصحابه ، ثم ينزع ، فلم يزل يَكْسِر الخبز ، ويغرف حتَّى شبعوا ، وبقي بقيَّةٌ ، قال: «كلي هذا ، وأهدي؛ فإنَّ النَّاس أصابتهم مجاعةٌ». [البخاري (٤١٠١) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٤٢٣)].

وهذه ابنة بشير بن سعد تقول: دعتني أمِّي عمرة بنت رواحة ، فأعطتني حفنةً من تمرٍ في ثوبي ، ثمَّ قالت: أيْ بُنَيَّة! اذهبي إلى أبيك ، وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما ، قالت: فأخذتُها ، فانطلقت بها فمررت برسول الله (ص) وأنا ألتمس أبي ، وخالي ، فقال: «تعالَيْ يا بنية! ما هذا معك؟» فقلت: يا رسول الله! هذا تمرٌ بعثتني به أمِّي إلى أبي بشير بن سعدٍ ، وخالي عبد الله بن رواحة يتغذَّيانه. قال: «هاتيه!» قالت: فصببته في كفَّيْ رسول الله (ص) فما ملأتهما ، ثمَّ أمر بثوبٍ ، فبُسط له ، ثمَّ دعا بالتَّمر عليه ، فتبدَّد فوق الثوب ، ثمَّ قال لإنسان عنده: «اصرخ في أهل الخندق: أن هلمَّ إلى الغداء ، فاجتمع أهل الخندق عليه ، فجعلوا يأكلون منه ، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنَّه ليسقط من أطراف الثَّوب. [ابن هشام (٣/٢٢٨ ـ ٢٢٩) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٤٢٧)].

ففي هذين الخبرين معجزاتٌ حسِّيَّة ظاهرة للرسول (ص) ، كما يظهر دور المرأة المسلمة في مشاركة المسلمين في جهادهم ، فعندما اشتغل المسلمون بحفر الخندق تركوا أعمالهم ، وبعدت عنهم أرزاقهم ، وقلَّ عنهم القوت ، وأصاب النَّاس جوعٌ ، وحرمانٌ ، حتَّى كان رسول الله (ص) والمسلمون معه يشدُّون على بطونهم الحجارة من شدَّة الجوع ، فكانت المرأة المسلمة تعين المسلمين بإعداد ما قدرت عليه من الطَّعام[(٩٥٢)].

ومن دلائل النُّبوة في أثناء حفر الخندق ، إخباره (ص) عمَّار بن ياسر ، وهو يحفر معهم الخندق ، بأنَّه ستقتله الفئة الباغية [البخاري (٤٤٧) ، ومسلم (٢٩١٥)]؛ فقتل في صفِّين وكان في جيش عليٍّ[(٩٥٣)].

وعندما اعترضت صخرةٌ الصَّحابة وهم يحفرون ، ضربها الرَّسول (ص) ثلاث ضربات ، فتفتَّتت ، قال إثر الضربة الأولى: «الله أكبر! أُعطيت مفاتيح الشَّام ، والله! إنِّي لأبصر قصورها الحمراء السَّاعة». ثمَّ ضربها الثانية ، فقال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح فارس ، والله! إنِّي لأبصر قصر المدائن أبيض» ثمَّ ضرب الثَّالثة ، وقال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح اليمن ، والله! إنِّي لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه السَّاعة». [أحمد (٤/٣٠٣) ، وأبو يعلى (١٦٨٥) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٤٢١) ، ومجمع الزوائد (٦/١٣٠)][(٩٥٤)].

وقد تحقَّقت هذه البشارة الَّتي أخبرت عن اتِّساع الفتوحات الإسلاميَّة ، والإخبار عنها في وقتٍ كان المسلمون فيه محصورين في المدينة ، يواجهون المشاقَّ ، والخوف ، والجوع ، والبرد القارس[(٩٥٥)].

ثانياً: بين التَّصوُّر ، والواقع:

قال رجلٌ من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله! أرأيتم رسول الله ، وصحبتموه؟ قال: نعم يا بن أخي! قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنَّا نجهد، قال: فقال: والله! لو أدركناه، ما تركناه يمشي على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا. فقال حذيفة: يابن أخي! والله لقد رأيتُنا مع رسول الله (ص) ، بالخندق[(٩٥٦)]... ثمَّ ذكر حديث تكليفه بمهمَّة الذَّهاب إلى معسكر المشركين. [سبق تخريجه].

هذا تابعيٌ يلتقي بالصَّحابيِّ حذيفة ، ويتخيَّل: أنَّه لو وجد مع رسول الله (ص) ؛ لاستطاع أن يفعل ما لم يفعله الصَّحابة الكرام ، والخيال شيءٌ ، والواقع شيءٌ اخر ، والصَّحابة رضي الله عنهم بشرٌ ، لهم طاقات البشر ، وقدراتهم ، وقد قدَّموا كلَّ ما يستطيعون ، فلم يبخلوا بالأنفس ، فضلاً عن المال والجهد ، وقد وضع (ص) الأمور في نصابها بقوله: «خير القرون قرني» [البخاري (٦٤٢٩) ، ومسلم (٢٥٣٣)] فبيَّن: أن عملهم لا يعدله عملٌ.

إنَّ الذين جاؤوا من بعدُ ، فوجدوا سلطان الإسلام ممتدّاً ، وعاشوا في ظلِّ الأمن ، والرَّخاء ، والعدل ، بعيدين عن الفتنة والابتلاء ، هم بحاجةٍ إلى نقلةٍ بعيدةٍ يستشعرون من خلالها أجواء الماضي بكلِّ ما فيه من جهالاتٍ ، وضلالاتٍ ، وكفرٍ... وبعد ذلك يمكنهم تقدير الجهد المبذول من الصَّحابة حتَّى قام الإسلام في الأرض[(٩٥٧)].

ثالثاً: سلمان منا أهل البيت[(٩٥٨)]:

قال المهاجرون يوم الخندق: سلمان منَّا ، وقالت الأنصار: سلمان منَّا ، فقال رسول الله (ص) : «سلمان منَّا أهل البيت» [الحاكم (٣/٥٩٨) ، والطبراني في المعجم الكبير (٦/٢٦١) ، وابن هشام (٣/٢٣٥) ومجمع الزوائد (٦/١٣٠)] ، وهذا الوسام النَّبويُّ الخالد لسلمان يشعر بأنَّ سلمان من المهاجرين؛ لأنَّ أهل البيت من المهاجرين[(٩٥٩)].

رابعاً: الصَّلاة الوسطى:

قال (ص) : «ملأ الله عليهم بيوتهم ، وقبورهم ناراً ، كما شغلونا عن الصَّلاة الوسطى حتَّى غابت الشَّمس» [سبق تخريجه].

وقد استدلَّ طائفةٌ من العلماء بهذا الحديث على كون الصَّلاة الوسطى هي صلاة العصر ، كما هو منصوصٌ عليه ، وألزم القاضي الماورديُّ مذهب الشَّافعي بهذا لصحَّة الحديث ، وقد استدلَّ طائفةٌ من العلماء بهذا الصَّنيع على جواز تأخير الصَّلاة لعذر القتال ، كما هو مذهب مكحولٍ ، والأوزاعيِّ[(٩٦٠)].

قال الدُّكتور البوطي: لقد فاتت النَّبيَّ (ص) صلاةُ العصر ، كما رأيت في هذه الموقعة؛ لشدَّة انشغاله ، حتَّى صلاَّها قضاءً بعدما غربت الشَّمس ، وفي رواياتٍ أخرى غير الصَّحيحين: أنَّ الذي فاته أكثرُ من صلاةٍ واحدةٍ ، صلاَّها تباعاً بعدما خرج وقتُها ، وفرغ لأدائها ، وهذا يدلُّ على مشروعية قضاء الفائتة ، ولا ينقض هذه الدَّلالة ما ذهب إليه البعض من أنَّ تأخير الصَّلاة لمثل ذلك الانشغال كان جائزاً إذ ذاك ، ثمَّ نُسخ حينما شُرعت صلاة الخوف للمسلمين رجالاً ، وركباناً عند التحام القتال بينهم وبين المشركين؛ إذ النَّسخ على فرض صحَّته ليس وارداً على مشروعية القضاء ، وإنَّما هو وارد على صحَّة تأخير الصَّلاة بسبب الانشغال ، أي: أنَّ نسخ صحَّة التأخير ليس نسخاً لما كان قد ثبت من مشروعية القضاء أيضاً ، بل هي مسكوتٌ عنها ، فتبقى على مشروعيَّتها السَّابقة[(٩٦١)].

خامساً: الحلال والحرام:

عَرَضَتْ قريشٌ فداءً مقابل جثَّة عمرو بن عبد ودٍّ ، فقال (ص) : «ادفعوا إليهم جيفته فإنَّه خبيث الجيفة ، خبيث الدِّية ، فلم يقبل منهم شيئاً». [أحمد (١/٢٤٨) ، وابن هشام (٣/٢٦٥)].

حدث هذا والمسلمون في ضنكٍ من العيش ، ومع ذلك فالحلال حلالٌ والحرام حرامٌ ، إنَّها مقاييس الإسلام في الحلال والحرام ، فأين هذا من النَّاس المحسوبين على المسلمين الَّذين يحاولون إيجاد المبرِّرات لأكل الرِّبا ، وما شابهه؟![(٩٦٢)].

سادساً: شجاعة صفيَّة عمَّة الرَّسول (ص):

كان (ص) قد وضع النِّساء ، والأطفال في حصن فارعٍ ، وهو حصنٌ قويٌّ؛ حمايةً لهم ، لأنَّ المسلمين في شغلٍ عن حمايتهم لمواجهتهم جيوش الأحزاب ، فعندما نقض يهود بني قريظة

عهدهم مع رسول الله (ص) أرسلت يهوديّاً ليستطلع وضع الحصن الَّذي فيه نساء المسلمين ، وأطفالهم ، فأبصرته صفيَّة بنت عبد المطلب عمَّة رسول الله (ص) ، فأخذت عموداً ، ونزلت من الحصن ، فضربته بالعمود ، فقتلته ، فكان هذا الفعل من صفيَّة رادعاً لليهود من التَّحرُّش بهذا الحصن الَّذي ليس فيه إلا النِّساء ، والأطفال ، حيث ظنَّت يهود بني قريظة: أنَّه محميٌّ من قبل الجيش الإسلاميِّ ، أو أنَّ

فيه على الأقلِّ مَنْ يدافع عنه من الرِّجال[(٩٦٣)] ، ففي هذا الخبر دليلٌ للمرأة في الدِّفاع عن نفسها؛ إن لم تجد مَنْ يدافع عنها[(٩٦٤)].

سابعاً: عدم صحَّة ما يروى عن جبن حسَّان رضي الله عنه:

وفي قصَّة صفيَّة عمَّة رسول الله (ص) وقتْلِها لليهوديِّ جاءت روايةٌ سندها ضعيفٌ[(٩٦٥)]؛ أنَّ صفية رضي الله عنها قالت لحسان بن ثابتٍ: إنَّ هذا اليهودي يُطِيف بالحصن ، كما ترى ، ولا امنه أن يدلَّ على عورتنا مَنْ وراءنا من يهود ، وقد شُغِل عنَّا رسولُ الله (ص) وأصحابه ، فانزِلْ إليه ، فاقتُلْه. فقال: يغفر الله لكِ يا بنت عبد المطلب! والله! لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا؟ قالت صفيَّة رضي الله عنها: فلمَّا قال ذلك ، احتجزت عموداً ثمَّ نزلت من الحصن إليه ، فضربتُه بالعمود حتَّى قتلتُه ، ثم رجعت الحصن ، فقالت: يا حسان! انزل فاستلِبْه ، فإنَّه لم يمنعني أن أستلبه إلا أنَّه رجلٌ ، فقال: ما لي بسلبه من حاجةٍ يا بنت عبد المطلب! [ابن هشام (٣/٢٣٩) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٤٤٢ . ٤٤٣)][(٩٦٦)].

وهذا الخبر لا يصح لأمور منها:

١ . من حيث الإسناد ، فالخبر ليس مسنداً ، وهو ساقطٌ لا يصحُّ ، ولا يجوز أن يروى ، فيساء إلى صحابيٍّ من صحابة رسول الله (ص) ، كان ينافح عن الدَّعوة ، وعن رسول الله (ص) عُمُرَهُ كلَّه.

٢ . لو كان حسّان بن ثابت رضي الله عنه معروفاً بالجبن؛ الَّذي ذكر عنه؛ لهجاه أعداؤه ، ومبغضوه بهذه الخصلة الذَّميمة ، لاسيَّما الَّذين كان يهاجيهم ، فلم يسلم من هجائه أحدٌ من زعماء الجاهليَّة ، والرَّسول (ص) كان يؤيِّده ، ويدعو له ، ويشجِّعه على هجاء زعماء المشركين[(٩٦٧)].

ثامناً: أول مستشفى إسلامي حربي:

أنشأ المسلمون أوَّل مستشفى إسلاميٍّ حربيٍّ في غزوة الأحزاب ، فقد ضرب الرَّسول صلوات الله وسلامُه عليه خيمةً في مسجده الشَّريف في المدينة ، عندما دارت رحى غزوة الأحزاب ، فأمر (ص) أن تكون رُفَيْدة الأسلميَّة الأنصاريَّة رئيسة ذلك المستشفى النَّبويِّ الحربيِّ ، وبذلك أصبحت أوَّل ممرِّضةٍ عسكريَّةٍ في الإسلام[(٩٦٨)] ، وجاء في السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام: وكان (ص) قد جعل سعد بن معاذ في خيمةٍ لامرأةٍ من أسلم ، يقال لها: رُفيدة ، في مسجده ، كانت تداوي الجرحى ، وتحتسب بنفسها على خدمة مَنْ به ضيعةٌ من المسلمين ، وكان (ص) قد قال لقومه حين أصابه السَّهم

بالخندق: «اجعلوه في خيمة رفيدة حتَّى أعوده من قريب...» [ابن هشام (٣/٢٥٠) ، والطبري في تفسيره (٢١/١٥٢)].

ويفهم من النَّص السَّابق أنَّ مَنْ أصيب من المسلمين ، إن كان له أهلٌ؛ اعتنى به أهلُه ، وإن لم يكن له أهلٌ؛ جيء به إلى المسجد؛ حيث ضُربت خيمةٌ فيه لمن كانت به ضيعةٌ من المسلمين ، وسعدُ بن معاذ الأوسيُّ ليس به ضيعةٌ ، ولكن لما أراد الرَّسول (ص) الاطمئنان عليه باستمرارٍ ، جعله في تلك الخيمة الَّتي أعدَّت لمن به ضيعةٌ ، وليس له أهل؛ ذلك: أنَّ هؤلاء هم في رعاية رسول الله (ص) ، وإلا فلِمَ ضُربت الخيمة في المسجد ، وكان بالإمكان ضربها في أيِّ مكانٍ اخر!

إنَّ سعد بن معاذُ يكرَّم لماثره ، وما بذله في سبيل الله تعالى ، فيكون هذا التَّكريم أن يجعل في خيمةٍ أعدَّت لمن به ضيعةٌ ، وهكذا حينما يرتفع السَّادة يجعلون مع المغمورين الَّذين أخلصوا أعمالهم لله تعالى ، فاستحقُّوا أن يكونوا في رعاية رسول الله (ص)[(٩٦٩)] ، وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ أصبح دستوراً للمسلمين على مدى الزَّمن.

تاسعاً: المسلم يقع في الإثم ، ولكنَّه يسارع إلى التَّوبة:

أرسل بنو قريظة إلى أبي لبابة بن عبد المنذر ـ وكانوا حلفاءه ـ فاستشاروه في النُّزول على حكم رسول الله (ص) ، فأشار إلى حلقه ـ يعني الذَّبح ـ ثمَّ ندم فتوجَّه إلى مسجد النَّبيِّ (ص) ، فارتبط به حتَّى تاب الله عليه ، وقد ظلَّ مرتبطاً بالجذع في المسجد ستَّ ليالٍ تأتيه امرأتُه في وقت كلِّ صلاةٍ فتحلُّه للصَّلاة ، ثمَّ يعود ، فيرتبط في الجِذْع[(٩٧٠)].

وقد قال أبو لبابة: لا أبرح مكاني هذا حتَّى يتوب الله عليَّ ممَّا صنعتُ. قالت أمُّ سلمة:

فسمعت رسول الله (ص) من السَّحر وهو يضحك ، فقلت: ممَّ تضحك يا رسول الله؟! أَضْحَكَ اللهُ سِنَّك ، قال: «تِيبَ على أبي لبابة» قالت: قلت: أفلا أبشِّره يا رسول الله؟! قال: بلى؛ إن شئتِ ، فقامت على باب حجرتها ـ وذلك قبل أن يضرب عليهنَّ الحجاب ـ فقالت: يا أبا لبابة؟ أبشر فقد تاب الله عليك!

قالت: فثار النَّاس؛ ليطلقوه ، فقال: لا والله! حتى يكون رسول الله (ص) هو الَّذي يُطلقني بيده. فلمَّا مرَّ عليه رسول الله (ص) خارجاً إلى صلاة الصُّبح؛ أطلقه[(٩٧١)] عنه [ابن هشام (٣/٢٤٧ ـ ٢٤٨) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/١٦ ـ ١٧)] ، وذلك في الاعتراف بالذَّنب ، والتَّوبة النَّصوح ، وإنَّ موطن العبرة في هذا الموقف يكمن في تصرُّف أبي لبابة بعدما وقعت منه هذه الزَّلَّة الَّتي أفشى بها سرّاً

حربيّاً خطيراً ، فأبو لبابة لم يحاول التَّكتُّم على ما بدر منه ، والظُّهور أمام رسول الله (ص) والمسلمين بمظهر الرَّجل الذي أدى مهمَّته بنجاحٍ ، وأنَّه لم يحصل منه شيءٌ من المخالفات ، وكان بإمكانه أن يخفي هذا الأمر ، حيث لم يطَّلع عليه أحد من المسلمين ، وأن يستكتم اليهود أمره ، ولكنَّه تذكَّر رقابة الله عليه ، وعلمه بما يُسِرُّ ، ويُعلن ، وتذكَّر حقَّ رسول الله (ص) العظيم عليه ، وهو الَّذي ائتمنه على ذلك السِّرِّ ، ففزع لهذه الزَّلَّة فزعاً عظيماً(١) ، وأقرَّ بذنبه ، واعترف به ، وبادر إلى العقوبة الذَّاتيَّة التلقائيَّة ، دون انتظار التَّحقيق ، وتوقيع العقوبة الواجبة: إنَّها صورةٌ تطبيقيَّةٌ لقوله تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا *} [النساء: ١٧].

إنَّها صورةٌ فريدةٌ لتوقيع العقوبة من الإنسان نفسِه على نفسِه... ولا يفعل ذلك إلا أهل الإيمان ، وما ذلك إلا مِنْ اثار الإيمان العميق الرَّاسخ ، الَّذي لا يرضى لصاحبه أن يخالطه إثمٌ ، أو فسوقٌ.

وقد فرح الصَّحابة ، وفرح النَّبيُّ (ص) نفسه بتوبة الله على أبي لبابة ، وتسابقوا إلى تهنئته ، حتَّى كانت أمُّ سلمة زوج النَّبيِّ (ص) هي الَّتي بادرت بالتهنئة بعد الإذن ، فبشَّرته بقبول الله توبته[(٩٧٢)].

وقد أنزل الله تعالى في أبي لبابة قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ *} [الأنفال: ٢٧].

ونزل في توبته قوله تعالى: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ١٠٢][(٩٧٣)].

عاشراً: من فضائل سعد بن معاذٍ رضي الله عنه:

ظهرت لسعد بن معاذ رضي الله عنه في هذه الغزوة فضائل كثيرةٌ ، تدلُّ على فضله ، ومنزلته عند الله ورسوله (ص) ؛ منها:

ـ استجابة الله تعالى لدعائه عندما قال: (اللَّهمَّ إنَّك تعلم: أنَّه ليس أحدٌ أحبَّ إليَّ أن أجاهدهم فيك من قومٍ كذَّبوا رسولك (ص) ، وأخرجوه ، اللَّهم! فإن بقي من حرب قريش شيءٌ؛ فأبقني له حتَّى أجاهدهم فيك) وقد استُجيب دعاؤه فتحجَّر جرحُه ، وتماثل للشِّفاء[(٩٧٤)] حتَّى كانت غزوة بني قريظة ، وجعل رسولُ الله (ص) الحكم فيهم إليه ، فحكم فيهم بالحقِّ ، ولم تأخذه في الله لومةُ لائم ، وهذا دليلٌ على تجرُّد قلبه للهِ تعالى[(٩٧٥)].

ومن إكرام رسول الله (ص) له قوله للأنصار عندما جاء سعدٌ للحكم في بني قريظة: «قوموا إلى سيدكم». [البخاري (٣٠٤٣ و٤١٢٢) ، ومسلم (٦٤/١٧٦٨)][(٩٧٦)].

وهذا تكريمٌ لسعدٍ ، وتقديرٌ لشجاعته ، حيث سمَّاه سيِّداً ، وأمر بالقيام له[(٩٧٧)].

وعندما نفَّذ حكم الله في يهود بني قريظة؛ رفع سعدٌ يده يدعو الله ثانيةً ، يقول: اللَّهمَّ! فإنِّي أظنُّ أنَّك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ـ يعني قريشاً والمشركين ـ فإنْ كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجر جرحي ، واجعل موتتي فيها [سبق تخريجه][(٩٧٨)] ، وقد استُجيب دعاؤه ، فانفجر جرحُه تلك اللَّيلة ، ومات رحمه الله[(٩٧٩)]!

ومن خلال دعائه الأوَّل ، والثَّاني نلحظ هذا الدُّعاء العجيب ، دعاء العظماء ، الَّذين يعرفون: أنَّ رسالتهم في الحياة ليست الاستشهاد فقط؛ بل متابعة الجهاد إلى اللَّحظة الأخيرة ، فهو المسؤول عن نصرة الإسلام في قومه ، وأمَّته[(٩٨٠)].

ونرى من سيرته: أنَّه لو أقسم على الله؛ لأبرَّه ، فهو وجيهٌ في السَّموات ، والأرض ، فقد شاءت إرادة المولى ـ تعالى ـ أن يعيد الأمر في بني قريظة كلَّه إليه ، وأن يطلب بنو قريظة أن يكون الحُكْمُ فيهم لسعدِ بن معاذٍ رضي الله عنه.

إنَّه لا يحرص كثيراً على الحياة ، بعد انتهاء الجهاد ، وانتهاء المسؤوليَّة ، وتأدية الأمانة المنوطة به في قيادة قومه لحرب الأحمر والأسود من النَّاس ، فإذا انتهت الحرب ، ووُضِعت بين المسلمين ، وقريش ، وشفى غيظ قلبه في الحكم في بني قريظة ، وبدأ قطف الثِّمار للإسلام ، فلا ثمرة أشهى عنده من الشَّهادة (فافجر جرحي ، واجعل موتتي فيه)[(٩٨١)].

وقد تحقَّقت اماله ، فقد أصدر حكمه في بني قريظة ، وشهد مصرع حلفاء الأمس أعداء اليوم ، وهاهو جرحُه ينفجر[(٩٨٢)].

وعندما انفجر جرحه نقله قومُه ، فاحتملوه إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم ، وجاء رسول الله (ص) فقال: «انطلقوا» ، فخرج وخرج معه الصَّحابة ، وأسرع حتى تقطَّعت شسوع نعالهم ، وسقطت أرديتهم ، فشكا إليه أصحابه ذلك ، فقال النَّبيُّ (ص) : «إنِّي أخاف أن تسبقنا الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة» ، فانتهى إلى البيت ، وهو يُغسل ، وأمُّه تبكيه ، وتقول:

وَيْلُ أمِّ سَعْدٍ سَعْدا   حَزَامَةً وَجَدّا

فقال: كلُّ نائحةٍ تكذب إلا أمَّ سعدٍ» ، ثمَّ خرج به قال: يقول له القوم: ما حملنا يا رسول الله! ميتاً أخف علينا منه! قال: «وما يمنعه أن يخفَّ ، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا ، ولم يهبطوا قطُّ قبل يومهم قد حملوه معكم». [ابن هشام (٢٦٤/٣)، والألباني في الصحيحة (١١٥٨)][(٩٨٣)].

وقد جاء في النَّسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما عددُ الملائكة الَّذين شاركوا في تشييع جنازة سعد ، فقد قال (ص) : «هذا العبد الصَّالح الَّذي تحرَّك له العرش ، وفُتحت له أبواب السَّماء ، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة ، لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك ، لقد ضُمَّ ضمَّة ، ثمَّ أفرج عنه» [النسائي (١٠١/٤)][(٩٨٤)] يعني: سعداً.

وها هو رسول الله (ص) يودِّع سعداً كما رَوَى عبد الله بن شدَّاد: دخل رسول الله (ص) وهو يكيد نفسه ، فقال: «جزاك الله خيراً من سيِّد قومٍ ، فقد أنجزت ما وعدته ، ولينجزك الله ما وعدك. [ابن أبي شيبة (٣٢٢/٥) و(١٤٥/١٢)][(٩٨٥)].

لقد أثنى النَّبيُّ (ص) على هذا العبد الصَّالح بعد موته كثيراً أمام الصَّحابة؛ ليتعرَّف النَّاس على أعماله الصَّالحة ، فيتأسَّوا به[(٩٨٦)] ، فقد قال (ص) : «اهتزَّ عرشُ الرَّحمن لموت سعد بن معاذ» [البخاري (٣٨٠٣) ، ومسلم (١٢٣/٢٤٦٦ و١٢٤)].

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أُهْدِيَتْ لرسول الله (ص) حلَّةُ حريرٍ ، فجعل أصحابه يلمسونه ، ويعجبون من لينها ، فقال: «أتعجبون من لين هذا؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنَّة خيرٌ منها ، وألين». [البخاري (٣٨٠٢) ، ومسلم (١٢٦/٢٤٦٨)].

ومع كلِّ هذه المآثر، والمحاسن، والأعمال الجليلة الَّتي قدَّمها لخدمة دين الله ، فقد تعرَّض لضمَّة القبر: لما انتهوا إلى قبر سعدٍ رضي الله عنه نزل فيه أربعةٌ: الحارث بن أوس ، وأُسَيْد بن الحضير ، وأبو نائلة سلكان ، وسلمة بن سلامة بن وقش ، ورسول الله (ص) واقفٌ ، فلمَّا وضع في قبره تغيَّر وجه رسول الله (ص) ، وسبَّح ثلاثاً ، فسبَّح المسلمون؛ حتَّى ارتجَّ البقيع ، ثمَّ كبَّر ثلاثاً ، وكبَّر المسلمون ، فسئل عن ذلك فقال: «تضايق على صاحبكم القبر ، وضمَّ ضمَّةً لو نجا منها أحدٌ؛ لنجا هو ، ثمَّ فرَّج الله عنه». [سبق تخريجه][(٩٨٧)].

إنَّ هذا الصَّحابيَّ الجليل قد استُشْهِدَ وهو في ريعان شبابه ، فقد كان في السَّابعة والثلاثين من عمره يوم وافته منيته ، وهذا يعني أنَّه قاد قومه إلى الإسلام ، وهو في الثلاثين من عمره... فقد كانت هذه

السِّيادة في العشرينات من عمره ، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين ، وإنَّما تتفجَّر الطَّاقات الكامنة ، والمواهب بعد سنِّ الأربعين ، الَّتي هي غاية الأَشُدِّ.

قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ *} [الأحقاف: ١٥].

فأيُّ طرازٍ هذا الَّذي حفل تاريخه بهذه الماثر ، واستبشر أهل السَّمواتِ بقدومه ، واهتزَّ عرش الرَّحمن فرحاً لوفاته من دون خلق الله أجمعين![(٩٨٨)] كان سعد بن معاذ رجلاً أبيض ، طوالاً ، جميلاً ، حسن الوجه ، أعين ، حسن اللِّحية[(٩٨٩)] رحمة الله عليه ، ورضي عنه ، وأعلى ذكره في المصلحين.

حادي عشر: مقتل حيي بن أخطب ، وكعب بن أسد:

١ ـ مقتل حيي بن أخطب النَّضْرِيِّ:

روى عبد الرزَّاق في مصنَّفه بالسَّند إلى سعيد بن المسيِّب.... فذكر بعض خبر الأحزاب ، وقريظة... إلى أن قال: فلمَّا فضَّ الله جموع الأحزاب؛ انطلق ـ يعني: حيي ـ حتَّى إذا كان بالرَّوحاء ذكر العهد ، والميثاق الَّذي أعطاهم ، فرجع حتى دخل معهم ، فلمَّا أقبلت بنو قريظة أتي به مكتوفاً بعدُ ، فقال حُيَيٌّ للنَّبيِّ (ص) : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكنَّه من يَخْذِلِ اللهُ يُخْذَل ، فأمر به النَّبيُّ (ص) ، فَضُرِبَتْ عنقُه. [عبد الرزاق في المصنف (٩٧٣٧) ، وابن هشام (٣/٢٥٢) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/٢٣)][(٩٩٠)].

ثمَّ إنَّه أقبل على النَّاس قبل تنفيذ حكم الإعدام ، وقال لهم: أيُّها النَّاس! إنَّه لابأس بأمر الله ، كتابٌ وقَدَرٌ ، وملحمةٌ كتبها الله على بني إسرائيل ، ثمَّ جلس ، فضربت عنقُه[(٩٩١)].

وفي مقتل حييِّ بن أخطب دروسٌ ، وعبرٌ؛ منها:

أ ـ لا يحيق المكر السَّيّأى إلا بأهله:

فقد ألَّب القبائل العربيَّة ، واليهوديَّة على محاربة الإسلام ، ونبيِّه (ص) ، وأقنع بني قريظة بضرورة نقض العهد مع الرَّسول (ص) وطعنه من الخلف ، فجعل اللهُ كيدَه في نحره ، وكبته ، وفي النِّهاية قادته محاولاتُه إلى حتفه.

إنَّ الله لا يُهمِل الظَّالمين ، ولكن يُمهِلُهم ويَستدرِجُهم ، حتَّى إذا أخذهم؛ أخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر ، فكان أخذه أليماً شديداً ، قال (ص) : «إنَّ الله ليملي للظَّالِمِ حتَّى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ» [البخاري

(٤٦٨٦)][(٩٩٢)] ثمَّ تلا قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ *} [هود: ١٠٢].

ب ـ التَّجلُّد في مواطن الشِّدَّة:

لقد تجلَّد حييٌّ وتقدَّم لتضرب عنقه؛ حتَّى لا يشمت فيه شامتٌ ، وهو يعرف: أنَّه على باطلٍ ، ظالمٌ لنفسه ، قد أوردها موارد الهلاك ، ومع هذا يموت على ذلك ، والعزَّة بالإثم تأخذه إلى جهنَّم وبئس المصير؛ لأنَّه يعبد هواه ، ولم يعبد ربَّه ، قال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ *} [الجاثية: ٢٣].

ج ـ مَنْ يَخْذُلِ اللهَ يُخذَل:

إنَّ الله تعالى إذا خذل أحداً؛ فليس له نصيرٌ يمنعه ، أو يدفع عنه ، قال سبحانه: {إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران: ١٦٠].

كما أنَّ عداوة حُيَيٍّ للرَّسول (ص) باعثها الحسد والحقد ، ولذلك عبر حُيَّيٌّ صراحةً: أنَّ الله لم يكن معه يوماً من الأيام ، بل كان حُيَيٌّ في شقِّ الشَّيطان عدوّاً لأولياء الرَّحمن ، يشاقق الله ، فالله خاذلُه ، ومُسْلِمُه لكلِّ ما يؤذيه ، ويُتعبه ، ولا توجد قوَّةٌ في الأرض ، ولا في السَّماء تنصره ، وتحول بينه وبين الهزيمة؛ لأنَّ إرادة الله هي النَّافذة ، وقدَره هو الكائن ، لا رادَّ لقضائه ، لا يعجزه شيءٌ في الأرض ، ولا في السَّماء[(٩٩٣)]؛ قال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [الأنعام: ١٧].

٢ ـ مقتل كعب بن أسد القرظيّ:

وجيء برئيس بني قريظة ، كعب بن أسد ، وقبل أن يَضْرِب رسول الله (ص) عنقه جرى بينه وبين كعبٍ الحوار التَّالي:

قال رسول الله (ص) : «كعبُ بن أسدٍ؟».

قال كعبُ بن أسدٍ: نعم يا أبا القاسم!

قال رسول الله (ص) : «ما انتفعتم بنصح ابن خراشٍ لكم ، وكان مصدِّقاً بي ، أما أمركم باتِّباعي ، وإنْ رأيتمُوني تقرئوني منه السَّلام؟».

قال كعب: بلى ، والتَّوراةِ يا أبا القاسم! ولولا أن تعيِّرني يهود بالجزع من السَّيف لاتَّبعتُك ، ولكنِّي على دين يهود.

فأمر رسول الله (ص) بضرب عنقه ، فضربت[(٩٩٤)].

وممَّا ترويه كتب السِّيرة النَّبويَّة عن يهود بني قريظة: أنَّهم كانوا يرسلون طائفةً تلو طائفةٍ؛ لتضرب أعناقهم ، وقد سألوا زعيمهم كعب بن أسد ، فقالوا: يا كعب! ما تراه يُصنع بنا؟ قال: أفي كلِّ موطنٍ لا تعقلون؟ ألا ترون الدَّاعي لا يَنْزِع ، وأنَّه مَنْ ذهب به منكم لا يَرْجِع؟ هو والله! القتل. [ابن هشام (٢٥٢/٣) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٢٣/٤)][(٩٩٥)].

ونلحظ في خبر مقتل كعب بن أسدٍ: أنَّه كان متعصِّباً ليهوديته ، وهو يعلم بُطلانها ، وأنَّه على علمٍ بصدق رسالة رسولنا (ص) ، ولكنَّه لم يؤمن ، ولم يدخل الإسلام خوفاً من أن تعيِّره يهود

بأنَّه جزع من السَّيف ، فعدم إيمانه ، وبقاؤه على الكفر كان نتيجة ريائه ، وحبِّه للثناء ، وخوفه من ذمِّه ، وتعييره ، وهذا دليلٌ على السَّفه ، والحُمْقِ ، وخذلان الله لهذا اليهوديِّ المخادِع[(٩٩٦)].

ثاني عشر: شفاعة ثابت بن قيس في الزَّبير بن باطا ، وسلمى بنت قيس في رفاعة بن سَمَوْءل:

١ ـ شفاعة ثابت بن قيس في الزَّبير بن باطا:

أقبل ثابت بن قيس بن شمَّاس إلى رسول الله (ص) ، فقال: هب لي الزَّبير اليهوديَّ أَجْزِهِ فقد كانت له عندي يدٌ يوم بعاثٍ ، فأعطاه إيَّاه ، فأقبل ثابتٌ حتَّى أتاه فقال: يا أبا عبد الرحمن! هل تعرفني؟ فقال: نعم ، وهل يُنْكِرُ الرَّجل أخاه؟! قال ثابت: أردت أن أجْزِيَكَ اليوم بيدٍ لك عندي يوم بُعاث ، قال: فافعل؛ فإنَّ الكريم يجزي الكريم ، قال: قد فعلت ، قد سألت رسول الله (ص) ، فوهبك لي ، فأطلق عنك إساره ، فقال الزَّبير: ليس لي قائدٌ ، وقد أخذتم امرأتي ، وابني ، فرجع ثابتٌ إلى رسول الله (ص) فاستوهبه امرأتَه ، وبنيه ، فوهبهم له ، فرجع ثابتٌ إلى الزَّبير ، فقال: ردَّ إليك رسول الله (ص) امرأتك وبنيك ، فقال الزَّبير: حائط لي فيه أعذق ، وليس لي ولا لأهلي عيش إلا به ، فرجع ثابت إلى رسول الله (ص) ، فوهبه له ، فرجع ثابت إلى الزَّبير ، فقال: قد ردَّ إليك رسول الله (ص) أهلك ، ومالك ، فأسلِم؛ تسلَمْ ، قال: ما فعل الجليسان[(٩٩٧)]؟ وذكر رجال قومه ، قال ثابتٌ: قد قُتِلوا ، وفُرِغَ منهم ، ولعلَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يكون أبقاك لخير ، قال الزَّبير: أسألك بالله يا ثابت! وبيدي التي عندك يوم بُعاثٍ إلا ألحقتني بهم ، فليس في العيش خيرٌ بعدهم ، فذكر ثابت ذلك لرسول الله (ص) فأمر بالزَّبير ، فقُتِل. [ابن هشام (٢٥٣/٣ ـ ٢٥٤) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٢٣/٤ ـ ٢٤)][(٩٩٨)].

٢ ـ شفاعة سلمى بنت قيس في رفاعة بن سَمَوْءَلٍ القرظيِّ:
كانت سلمى بنت قيس ، وكنيتها أمُّ المنذر أخت سليط بن قيس ، وكانت إحدى خالات رسول الله (ص) ، قد صلَّت معه القبلتين ، وبايعتْه بيعة النِّساء ، سألته رفاعة بن سَمَوْءَل القرظيَّ ، وكان رجلاً قد بلغ ، فلاذ بها ، وكان يعرفهم قبل ذلك ، فقالت: يا نبيَّ الله! بأبي أنت وأمِّي! هب لي رفاعة ، فإنَّه قد زعم أنَّه سيصلِّي ، ويأكل لحم الجمل ، فوهبه لها ، فاسْتَحْيَتْهُ. [ابن هشام (٣/٢٥٥)][(٩٩٩)].

وفي هذا الخبر دليلٌ على أنَّ الإسلام يكرم المرأة ، ويعتبر شفاعتها! هذه هي معاملة المرأة في هذا الدِّين ، إنَّه يكرمها ، ويساعدُها ، ويشجِّعها على فعل الخير[(١٠٠٠)].
ثالث عشر: من أدب الخلاف:
في اختلاف الصَّحابة في فهم كلام رسول الله (ص) : «أَلاَ لاَ يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة» [سبق تخريجه](١) فبعضهم فهم منه المراد الاستعجال ، فصَّلى العصر لما دخل وقتُه ، وبعضهم أخذ بالظَّاهر ، فلم يصلِّ إلا في بني قريظة؛ ولم يعنِّف النَّبيُّ (ص) أحداً منهم ، أو عاتبه ، ففي ذلك دلالةٌ مهمَّةٌ على أصلٍ من الأصول الشَّرعية الكبرى ، وهو تقدير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع ، واعتبار كلٍّ من المتخالفين ، معذوراً ، ومثاباً ، كما أنَّ فيه تقريراً لمبدأ الاجتهاد في استنباط الأحكام الشَّرعيَّة ، وفيه ما يدلُّ على أنَّ استئصال الخلاف في مسائل الفروع الَّتي تنبع من دلالاتٍ ظنِّيَّةٍ أمرٌ لا يمكن أن يُتصوَّر أو يتم[(١٠٠١)].
إنَّ السَّعي في محاولة القضاء على الخلاف في مسائل الفروع معاندةٌ للحكمة الرَّبَّانيَّة ، والتدبير الإلهي في تشريعه ، عدا أنَّه ضربٌ من العبث الباطل؛ إذ كيف تضمن انتزاع الخلاف في مسألة ما دام دليلها ظنِّيّاً محتملاً؟ ولو أمكن ذلك أن يتمَّ في عصرنا ، لكان أولى العصور به عصر رسول الله (ص) ، ولكان أولى النَّاس بألا يختلفوا هم أصحابُه ، فما بالهم اختلفوا مع ذلك كما رأيت[(١٠٠٢)] في الحديث السابق من الفقه أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث نبوي أو اية من كتاب الله ، كما لا يعاب من استنبط من النص معنى يخصصه ، وفيه أيضاً أن المختلفين في الفروع من المجتهدين ، لا إثم على المخطأى؛ فقد قال (ص) : «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجرٌ» [البخاري (٧٣٥٢) ، ومسلم (١٧١٦)].
وحاصل ما وقع: أنَّ بعض الصَّحابة حملوا النَّهي على حقيقته ، ولم يبالوا بخروج الوقت ـ وقت الصَّلاة ـ توجيهاً لهذا النَّهي الخاصِّ على النَّهي العامِّ عن تأخير الصَّلاة عن وقتها[(١٠٠٣)].

وقد علَّق الحافظ ابن حجر على هذه القصَّة ، فقال: ثمَّ الاستدلال بهذه القصَّة على أنَّ كلَّ مجتهدٍ مصيبٌ على الإطلاق ليس بواضحٍ ، وإنَّما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه ، واجتهد ، فيستفاد منه عدم تأثيمه ، وحاصل ما وقع في القصَّة: أنَّ بعض الصَّحابة حملوا النَّصَّ على حقيقته ، ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحاً للنَّهي الثَّاني على النَّهي الأوَّل ، وهو ترك تأخير

الصَّلاة عن وقتها ، واستدلُّوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق ، والبعض الاخر حملوا النَّهي على غير الحقيقة ، وأنَّه كنايةٌ على الحثِّ ، والاستعجال ، والإسراع إلى بني قريظة ، وقد استدلَّ به الجمهور على عدم تأثيمِ من اجتهد ، لأنَّه (ص) لم يعنِّف أحداً من الطَّائفتين ، فلو كان هناك إثمٌ؛ لعنَّف مَنْ أَثِمَ[(١٠٠٤)].

رابع عشر: توزيع غنائم بني قريظة ، وإسلام ريحانة بنت عمرو:

١ ـ توزيع غنائم بني قريظة: جمع صحابة رسول الله (ص) الغنائم الَّتي خلَّفها بنو قريظة ، فكانت كما يلي: من السُّيوف ألفاً وخمسمئة سيفٍ ، ومن الرِّماح ألفي رمحٍ ، ومن الدُّروع ثلاثمئة درعٍ ، ومن التُّروس ألفاً وخمسمئة ترساً ، وجحفةً ، كما تركوا عدداً كبيراً من الشِّياه ، والإبل ، وأثاثاً كثيراً ، وانيةً كثيرةً ، ووجد المسلمون دناناً من الخمر ، فوزعت الغنائم ، وهي الأموال المنقولة ، كالسِّلاح ، والأثاث ، وغيرها بين المحاربين من أنصارٍ ، ومهاجرين ممَّن شهدوا الغزوة ، فأعطى أربعة أخماس الغنائم لهم؛ إذ جعل للفَرَسِ سهمين ، وللرَّاجل سهماً ، فالفارس يأخذ ثلاثة أسهم له ولفرسه ، وغير الفارس يأخذ سهماً واحداً له ، والخمس المتبقِّي هو سهم الله ورسولِه (ص) المقرَّر في كتابه تعالى[(١٠٠٥)].

وأما ما وجده رسول الله (ص) والمسلمون من الخمر عند بني قريظة؛ فقد أراقوه ، ولم يأخذوا منه شيئاً ، ولم ينتفعوا به كذلك ، وقد أسهم رسول الله (ص) لسويد بن خلاَّد الَّذي قتلته المرأة اليهودية بالرَّحى ، وأعطى سهمه لورثته[(١٠٠٦)] ، ولصحابيٍّ اخر مات في أثناء حصار بني قريظة[(١٠٠٧)] ، كما استجاب رسول الله (ص) للنِّساء اللَّواتي حضرن، ولم يسهم لهنَّ، منهنَّ: صفية بنت عبد المطلب، وأمُّ عمارة ، وأمُّ سليط، وأمُّ العلاء ، والسُّميراء بنت قيس ، وأمُّ سعد بن معاذ(٣). وأمَّا الأموال غير المنقولة كالأراضي ، والدِّيار؛ فقد أعطاها رسول الله (ص) للمهاجرين دون الأنصار ، وأمر المهاجرين أن يردُّوا إلى الأنصار ما أخذوه منهم من نخيلٍ وأرض ، وكانت على سبيل العارية، ينتفعون بثمارها[(١٠٠٨)]، قال تعالى عن تلك الأراضي والدِّيار: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا *} [الأحزاب: ٢٧].

قال الأستاذ محمَّد دَرْوَزَةَ: أمَّا عبارة فقد قال المفسرون: إنَّها أرض {وَأَرْضًا لَمْ تَطَأُوهَا} ، وإنَّ الجملة بشرى سابقة لفتحها ، غير أنَّ الذي تلهم روح الاية ومضمونها على ما يتبادر

لنا: أنَّها أرض لبني قريظة بعيدةٌ عن مساكنهم ، الت إلى المسلمين دون حربٍ ، أو حصارٍ ، ونتيجةً للمصير الذي صار إليه أصحابُها[(١٠٠٩)].

هذا وقد أرسل رسول الله (ص) سعد بن عبادة رضي الله عنه بالخمس من الذُّرِّيَّة ، والنِّساء إلى الشَّام فباعها ، واشترى بالثَّمن سلاحاً ، وخيلاً ليستعين به المسلمون في معاركهم مع الأعداء من يهود ومشركين ، وكذلك بعث إلى نجدٍ سعد بن زيد ، فباع سبياً ، واشترى سلاحاً[(١٠١٠)].

٢ ـ إسلام ريحانة رضي الله عنها:

وكان من بين السَّبي ريحانةُ بنت عمرو بن خناقة إحدى نساء بني عمرو من بني قريظة ، قد أراد الرَّسول (ص) أن يتزوَّجها بعد أن تسلم ، فتردَّدت ، وبقيت وقتاً على دينها ، ثمَّ شرح الله صدرها للإسلام ، فأسلمت ، فبعثها إلى بيت أمِّ منذر بنت قيس حتَّى حاضت ثمَّ طهرت ، فجاءها ، وخيَّرها: أيعتقها ، ويتزوجها ، أو تكون في ملكه (ص) ؟ فاختارت أن تكون في ملكه رضي الله عنها[(١٠١١)].

خامس عشر: الإعلام الإسلاميُّ في غزوة الأحزاب:

قام شعراء الصَّحابة بدورهم الجهاديّ ، فقالوا قصائد رائعةً ، وضَّحُوا بها موقف المسلمين في غزوة الأحزاب ، نقتطف أبياتاً منها كنماذج لهذه القصائد ، فَمِنْ ذلك قول كعب بن مالكٍ أخي بني سلمة:

وَسَائِلَةٍ تُسَائِلُ مَا لَقِيْنَا وَلَوْ شَهِدَتْ رأَتْنَا صَابِرِيْنَا

صَبَرْنَا لاَ نَرى للهِ عِدْلاً عَلَى مَا نَابَنَا مُتَوَكِّلِينَا

وكان لَنَا النَّبِيُّ وَزِيْرَ صِدْقٍ بِهِ نَعْلُو البَرِيَّةَ أَجْمَعِيْنَا

نُقَاتِلُ مَعْشَرَاً ظَلَمُوا وَعَقُّوا وَكَانُوا بالعَدَاوَةِ مُرْصِدِيْنَا[(١٠١٢)]

نُعَالِجُهُمْ إِذَا نَهَضُوا إِلَيْنَا بِضَرْبٍ يُعْجِلُ المتَسَرِّعِيْنَا

تَرَانَا فِي فَضَافِضَ سَابِغَاتٍ كغُدْرَانِ المِلا مُتَسَرْبِلِيْنَا[(١٠١٣)]

إلى أن قال:

لِنَنْصُرَ أَحْمَداً واللهَ حتَّى نَكُوْنَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِيْنَا

ويَعْلَم أَهْلُ مَكَّةَ حِيْنَ سَارُوا وأَحْزَابٌ أَتَوا مُتَحَزِّبِيْنَا

بأنَّ الله لَيْسَ لَهُ شَرِيْكٌ وأَنَّ اللهَ مَوْلَى المؤْمِنِيْنَا

فإمَّا تَقْتُلوا سَعْداً سَفَاهاً فإنَّ الله خَيْرُ القَادِرِيْنَا
سَيُدْخِلُه جِناناً طَيِّبَاتٍ تَكُوْنُ مُقَامَةً للصَّالحِيْنا
كَمَا قَدْ رَدَّكم فَلاًّ شَرِيْداً بِغَيْظِكُمُ خَزَايَا خَائِبِيْنَا
خَزَايا لَمْ تنالُوا ثَمَّ خَيْراً وَكِدْتُمْ أَنْ تَكُونُوا دَامِرِيْنَا
بِرِيْحٍ عَاصِفٍ هَبَّت عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ تَحْتَهَا مُتكمِّهِيْنَا[(١٠١٤)]

وقال كعبُ بن مالكٍ رضي الله عنه في قصيدةٍ طويلةٍ يردُّ فيها على عبد الله بن الزِّبَعْرَى:

ومَوَاعِظَ مِنْ رَبِّنا نُهْدَىَ بها بِلِسَانِ أَزْهَرَ طَيِّبِ الأَثْوَابِ
عُرِضَتْ عَلَيْنَا فاشْتَهَيْنَا ذِكْرَها مِنْ بَعْدِ ما عُرِضَتْ عَلَى الأَحْزَابِ
حِكَماً يَرَاهَا المجْرِمُون بِزَعْمِهِمْ حَرَجاً[(١٠١٥)] وَيَفْهَمُهَا ذَوُو الألبابِ
جاءتْ سَخِيْنَةُ كَيْ تُغَالِبَ رَبَّهَا فَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلاَّبِ

قال ابن هشام: حدَّثني مَنْ أثق به ، قال: حدثني عبد الملك بن يحيى بن عبَّاد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، قال: لما قال كعب بن مالكٍ رضي الله عنه:

جَاءَتْ سَخِيْنَةُ كَيْ تُغَالِبَ رَبَّهَا فَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلاَّبِ

قال له رسول الله (ص) : «لقد شكرك الله يا كعب! على قولك هذا». [ابن هشام (٣/٢٧٣)].

* * *

الفصل الثَّاني عشر

ما بين غزوة الأحزاب ، والحديبية

مِنْ أحداثٍ مهمَّة

المبحث الأوَّل

زواج النَّبي (ص) بزينب بنت جحش رضي الله عنها

ومع استمرار حركة السَّرايا ، وبناء الدَّولة ، وبسط هيبتها في الجزيرة العربيَّة ، كانت حركة البناء التَّشريعيِّ ، والاجتماعيِ للأمَّة الإسلاميَّة تتكامل ، فنظام التَّبنِّي يُهدَم، والحجاب يُفرض ، وأدب الولائم يقرَّر ، وضرورة الالتزام بطاعة الله ورسوله يُؤكَّد على وجوبها ، وتُحارَب الأعراف الَّتي تعارض شرع الله تعالى ، ففي زواج رسول الله (ص) بالسَّيدة زينب بنت جحش حكمٌ ، ودروسٌ ، وعبرٌ بقيت خالدةً على مرِّ العصور ، وكرِّ الدُّهور ، وتوالي الأزمان ، وهذه قصَّة أمِّ المؤمنين زينب بنت جحشٍ رضي الله عنها:

أولاً: اسمها ، ونسبها:

هي زينت بنت جحش بن رئاب بن يعمر الأسديَّة ، أخت عبد الله بن جحش ، وحمنة بنت جحش رضي الله عنهم.

أمُّها: أميمةُ بنت عبد المطَّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيٍّ عمَّة رسول الله (ص) ، وأخت حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه[(١٠١٦)].

يقال: كان اسمها: برَّة ، فسمَّاها النَّبيُّ (ص) زينب ، وكانت تكنى أمَّ الحكم[(١٠١٧)].

وكانت زينب رضي الله عنها من المهاجرات الأول ، ورعةً صوَّامة قوَّامة ، كثيرة الخير والصَّدقة، فعن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله (ص) : «أسرعكنَّ لحاقاً بي أطولكنَّ يداً». قالت: فكنَّ يتطاولن أيتهنَّ أطول يداً ، قالت: فكانت أطولنا يداً زينب لأنَّها

كانت تعمل بيدها ، وتصدَّق». [البخاري (١٤٢٠) ومسلم (٢٤٥٢)].

وقد مدحتها السَّيدة عائشة رضي الله عنها كثيراً ، وقالت في حقِّها: لم أر امرأةً قطُّ خيراً في الدِّين من زينب ، وأتقى للهِ ، وأصدق حديثاً ، وأوصل للرَّحم ، وأعظم صدقةً ، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الَّذي تَصَدَّقُ به ، وتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى ، ما عدا سَوْرَةً من حِدَّةٍ كانت فيها تُسْرِعُ منها الفيئةَ[(١٠١٨)]. [مسلم (٢٤٤٢) ، والنسائي (٧/٦٤ ـ ٦٦)].

ثانياً: زواجها من زيد بن حارثة رضي الله عنه:

أراد الرَّسول (ص) أن يحطِّم تلك الفوارق الطَّبقيَّة الموروثة في الأمَّة المسلمة من عادات الجاهليَّة؛ ليكون النَّاس سواسيةً كأسنان المشط ، لا فضل لأحدٍ على أحد إلا بالتَّقوى ، وكان الموالي ـ وهم الذين جرى عليهم الرِّقُّ ، ثمَّ تحرَّروا ـ طبقةً أدنى من طبقة السَّادة ، ومن الموالي كان زيد بن حارثة مولى رسول الله (ص) الَّذي أعتقه ، ثمَّ تبناه ، فرأى رسول الله (ص) أن يزوِّج زيداً من شريفةٍ من بني أسد ، وهي ابنة

عمَّته زينب بنت جحش رضي الله عنها؛ ليبطل تلك الفوارق الطبقيَّة بنفسه في أسرته ، وكانت هذه الفوارق من العمق ، والعنف بحيث لا يحطِّمها إلا فعلٌ واقعيٌّ من رسول الله (ص) ؛ لتتَّخذ منه الأمَّةُ المسلمة أسوةً ، وقدوةً ، وتسير البشرية على هداه في هذا الطَّريق ، وأيضاً لعلَّ من الحكمة في هذا الزَّواج: أنَّه كان مقدمةً لتشريعٍ اخر ، لا يقلُّ أهمِّيَّةً في حفظ توازن المجتمع ، وحماية الأسرة عن الأوَّل ، وإن لم تظهر هذه الحكمة في بداية الأمر(١).

انطلق رسول الله (ص) ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه ، فدخل على زينب بنت جحش الأسديَّة رضي الله عنها ، فخطبها ، فقالت: لست بناكحته ، فقال رسول الله (ص) : «بلى! فانكحيه» ، قالت: يا رسول الله ! أؤامر في نفسي؟ فبينما هما يتحادثان أنزل الله تعالى هذه الاية: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً *} [الأحزاب: ٣٦].

فقالت: يا رسول الله! قد رضيتَه لي زوجاً؟ قال: «نعم» قالت: لا أعصي رسول الله (ص) ، وقد زوَّجتُه نفسي. [الطبري في تفسيره (٢٢/١١) ، والدر المنثور (٥/٦٠٩)].

وكان زيد بن حارثة إذ ذاك لا يزال يُدعى زيد بن محمَّد ، فتزوَّجها زيد ، وأصدقها في هذا الزَّواج عشرة دنانير ، وستين درهماً ، وخماراً ، وملحفةً ، ودرعاً ، وخمسين مدّاً من طعامٍ ، وعشرة أمدادٍ من تمرٍ[(١٠١٩)].

ثالثاً: طلاق زيد لزينب رضي الله عنها:

شاءت حكمة الله تعالى ألا يتوافق زيدٌ ، وزينب في زواجهما ، وأصبحت حياة الزَّوجين لا تطاق ، وصمَّم زيدٌ على فراق زوجه زينب ، وكان قبل ذلك يشتكي لرسول الله (ص) من عدم استطاعته البقاء مع زينب ، ورسول الله (ص) يأمره بإمساك زوجه مع تقوى الله في شأنها ، حتَّى أذن الله بالطَّلاق ، فطلَّقها زيدٌ ، وانفصمت العلاقة بينهما بعد أن قضى زيد وطره ، وبعد أن مكث معها ما يقرب من سنةٍ ، قال ابن كثير: فمكثت عنده قريباً من سنةٍ ، أو فوقها ، ثمَّ وقع بينهما (يعني: الخلاف) فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله (ص) ، فجعل رسول الله (ص) يقول له: «أمسك عليك زوجك ، واتَّق الله». [أحمد (٣/١٥٠) ، والترمذي (٣٢١٢)].

لم يبقَ لزيد رغبةٌ في إبقاء العلاقة الزَّوجيَّة معها؛ لأنَّه كان كريم النَّفس ، لا يريد أن يبني سعادته ، وراحته على شقاء الاخرين ، وتعاستهم ، والإضرار بهم ، ولهذا صمَّم على الفراق ، وعدم الإضرار بها؛ لأنَّها

كانت تعيش في قلقٍ ، واضطرابٍ ، وانتهى زواج زيد بن حارثة رضي الله عنه بزينب بنت جحش على هذا الوضع دون أيّ تدخُّلٍ خارجيّ بينهما ، ووقع ذلك الطَّلاق بمحض اختياره ، وإرادته ، وقد كان رسول الله (ص) ينهاه عن ذلك ، ويأمره بتقوى الله ، وإمساك زوجته[(١٠٢٠)] ، قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا السبب: «ذكر ابن أبي حاتم ، وابن جريرٍ اثاراً عن بعض السَّلف رضي الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحَّتها ، فلا نوردها»[(١٠٢١)].

رابعاً: الحكمة من زواج رسول الله (ص) من زينب رضي الله عنها:

كانت عادة التَّبنّي متغلغلةً في نفوس النَّاس ، ومشاعرهم ، وليس من السَّهل التغلُّب عليها ، وإلغاء الاثار المترتِّبة عليها ، كانت هذه العادة في صدر الإسلام في مكَّة ، وفي أوَّل الهجرة إلى المدينة ، ثمَّ شاء الله تعالى ، فنزلت الايات في نفي أن يكون الأدعياء أبناء لمن ادَّعاهم في الحقيقة ، وإنَّما ذلك حسب دعوى المدَّعي فقط ، وذلك لا يغيِّر من الواقع شيئاً ، فقال تعالى: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ *} [الأحزاب: ٤].

ثمَّ أمر . تبارك وتعالى . بردِّ نسبهم إلى ابائهم في الحقيقة ، فهذا من العدل ، والقسط ، والبرِّ ، فقال تعالى: {ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *} [الأحزاب: ٥].

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إنَّ زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله (ص) ما كنَّا ندعوه إلا زيد بن محمَّد ، حتَّى نزل القران: . {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ} (٤٧٨٢)].

ولم يجعل الله تعالى عدم معرفتهم لابائهم الحقيقيين مبرراً لإبقاء تبنّيهم لهم ، بل حرم التَّبني في هذه الحالة ، وأخبر أنَّهم حينئذٍ إخوانهم ، ومواليهم ، فقال تعالى: {ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *} [الأحزاب: ٥].

أي: فإن لم تعرفوا اباءهم، فليس بينكم وبينهم إلا الأخوَّة في الدِّين، والموالاة، وذلك عوضاً عمَّا فاتهم من النَّسب، فيقال: فلانٌ مولى فلان ، أو مولى بني فلان[(١٠٢٢)].

وهذه الأخوَّة في الدِّين ، والموالاة لها أهمِّيَّة كبرى ، فهي ثابتةٌ حتَّى للذين عُرِف اباؤهم ، ولهذا قال رسول الله (ص) لزيد بن حارثة رضي الله عنه: «أنت أخونا ومولانا» [أحمد (٩٨/١ و١١٥) عن علي ،

والبخاري (٢٦٩٩) عن البراء] ، أي: أخونا في الإسلام ، والولاية ، كما قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *} [الحجرات: ١٠].

وجاءت نصوصٌ أخرى تعالج هذا الأمر من جهةٍ أخرى ، وهي جهة الابن ، فجاء تحريم الانتساب إلى غير الأب الحقيقيِّ . والمنتسب يعلم ذلك . تحريماً قاطعاً ، لا شبهة فيه[(١٠٢٣)] قال (ص) : «مَنِ ادَّعى إلى غير أبيه ، أو انتمى إلى غير مواليه؛ فعليه لعنة الله ، والملائكة ، والنَّاس أجمعين ، لا يقبل الله تعالى منه صَرْفاً ولا عَدْلاً[(١٠٢٤)]». [البخاري (١٨٧٠) ، ومسلم (١٣٧٠)].

وقد جعل الشَّارع لنشوء النَّسب سبباً واضحاً هو الاتِّصال بالمرأة عن طريق الزَّواج، أو ملك اليمين ، وأبطل ما كان يجري عليه أهل الجاهليَّة من إلحاق الأولاد عن طريق العُهْرِ والزِّنى ، قال (ص) : «الولد للفراش ، وللعاهر الحجر» [البخاري (٦٨١٨) ، ومسلم (١٤٥٨)] ، ومعناه: أنَّ من يجيء من الأولاد ثمرة لفراشٍ صحيحٍ قائمٍ على عقد الزَّواج ، أو ملك اليمين يلتحق نسبه بأبيه ، وأنَّ العُهْرَ والزِّنى لا يصلح أن يكون سبباً للنَّسب، وإنَّما يكون سبباً لشيءٍ اخر هو الرَّجم، والحجارة[(١٠٢٥)].

ثمَّ إنَّ الله . سبحانه وتعالى . بعد أن منع ، وحرَّم دعوة الابن بنسبته إلى من تبنَّاه ، وأمر

بدعوته منسوباً إلى أبيه الحقيقيِّ إن عرف ، أو إلى الأخوة في الدِّين والموالاة ، بعد ذلك بيَّن حكم من أخطأ ، أو تعمَّد مخالفة هذا التَّشريع الإلهي ، قال الله تعالى: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *} [الأحزاب: ٥].

فقد نفى الله . سبحانه وتعالى . الجُناح (الإثم) عمَّن أخطأ في نسبة الابن إلى غير أبيه في الحقيقة ، وذلك بعد الاجتهاد ، واستفراغ الوسع ، أو نسي ، فنسب الابن إلى غير أبيه يجريان لسانه بذلك ، وأثبت الحرج ، والإثم لمن تعمَّد الباطل ، وهو دعوة الرَّجل لغير أبيه بعد علمه بتحريم ذلك[(١٠٢٦)].

كانت عادة التَّبنِّي مستحكمةً في نفوس النَّاس ، وقد أخذت أبعادها مع مرور الزَّمن ، فكان زواج النَّبيِّ (ص) بالسَّيدة زينب إلغاءً عمليّاً ، وليس إلغاء ذهنيّاً فحسب[(١٠٢٧)].

إنَّ الحكمة في زواج رسول الله (ص) من السَّيدة زينب حكمةٌ واضحةٌ وظاهرةٌ ، وقد بيَّنها الله تعالى بقوله . عزَّ وجلَّ .: {لِكَي لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا} [الأحزاب: ٣٧].

وقد ذكر المبطلون من الكفار ، وفروخُهم ، ومقلِّدوهم بما يَنعِقون به ، ويردُّده الجهَّال متعلِّقين برواياتٍ مكذوبةٍ ، خلاصتُها كما يفترون: أنَّ النبي (ص) قد هوي زينب بنت جحش ، بعد أن تزوَّجت بزيد بن حارثة ، فلمَّا علم زيدٌ بذلك؛ أراد طلاقها ليتزوَّجها النَّبيُّ (ص)[(١٠٢٨)] ، فهذا قولٌ باطلٌ.

وقد نسف الإمام ابن العربيِّ هذا القول من جذوره ، فقال: فأمَّا قولكم: إنَّ النَّبيَّ (ص) راها - أي: رأى زينب بنت جحشٍ - فوقعت في قلبه ؛ فباطلٌ ، فإنَّه (ص) كان معها في كلِّ وقتٍ ، وموضعٍ ، ولم يكن حينئذٍ حجابٌ ، فكيف تنشأ معه ، وينشأ معها ، ويلحظها في كلِّ ساعةٍ ، ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوجٌ؟! حاشا لذلك القلب المطهَّر من هذه العلاقة الفاسدة ، وقد قال تعالى: {وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى *} [طه: ١٣١] والنِّساء أفتن الزَّهرات ، فيخالف هذا في المطلَّقات ، فكيف في المنكوحات؟

ثمَّ إنَّ قوله تعالى: يعني: من نكاحك {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ} ، وهو الذي أبداه لا سواه ، أقول: فلو كان الَّذي أخفاه رسول اللهِ (ص) هو حبُّه لها؛ لأبداه الله تعالى ،

وأظهره ، فتيقَّنَّا: أنَّ الَّذي أخفاه رسول الله (ص) من أمر زينب هو نكاحُه إيَّاها ، وليس ما تخيَّله المبطلون من حبِّه لها[(١٠٢٩)].

إن الشرع أراد تأكيد إبطال نظام التَّبنِّي ، وإبطال كلِّ نتائجه ، وتعميق هذا الإبطال في النُّفوس ، وتأكيده بالتَّطبيق العمليِّ ، والقدوة ، والتأسِّي بمن يُقتدى به في تطبيق هذه الأحكام الجديدة النَّاسخة ، وهذا ما فعله رسولُ الله (ص) بزواجه بزينب بأمرٍ من الله تعالى العزيز الحكيم[(١٠٣٠)].

خامساً: قصَّة زواج رسول الله (ص) من زينب ، وما فيها من دروسٍ ، وعبر:

لمَّا انقضت عدَّة زينب؛ قال رسول الله (ص) لزيد: اذهب فاذكرها عليَّ ، فانطلق زيد؛ حتَّى أتاها ، وهي تخمِّر عجينها ، قال: فلما رأيتُها عَظُمَتْ في صَدري ، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها: أنَّ رسول الله (ص) ذكرها ، فولَّيْتُها ظهري ، ونكصْتُ على عَقِبي ، فقلت: يا زينب أبشري!! أرسل رسول الله (ص) يذكرك ، قالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أُوَامَر ربِّي ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القران ، وجاء رسولُ الله (ص) ، فدخل عليها بغير إذنٍ. [أحمد (٣/١٩٥) ، ومسلم (١٤٢٨/ ٨٧م) ، والنسائي (٦/٧٩)] ، وأصدقها أربعمئة درهم ، وكان زواجه (ص) بزينب في السَّنة الخامسة على المشهور ، وقال الحافظ البيهقيُّ: تزوَّجها بعد بني قريظة[(١٠٣١)].

وأولم الرَّسول (ص) في عرس زينب وليمةً كبيرةً ، فأولم بشاةٍ ، وقد دُعِي إلى الوليمة كلُّ من لقيه أنس رضي الله عنه بناءً على أمر الرَّسول (ص) ، فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: ما رأيت رسول الله (ص) أولم على امرأةٍ من نسائه ما أولم على زينب ، أَوْلَمَ بشاةٍ. [البخاري (٥١٦٨) ، ومسلم (١٤٢٨/ ٩٠)].

وهكذا تزوَّج رسولُ الله (ص) ـ بأمر رَبِّه ـ زينب بنت جحش رضي الله عنها ، بعد طلاق زيدٍ لها ، وانقضاء عدَّتها ، وفي زواجه (ص) بزينب ، وما نزل فيه من القران وما واكبه من أحداث ـ عظاتٌ ، وعبرٌ[(١٠٣٢)] ، وقفنا عند بعضها ، ويجدر بنا أن نتأمل في بعض الدُّروس ، والعبر الَّتي لم نقف عليها ، منها:

١ ـ كان خاطب زينب للنَّبيِّ (ص) هو زوجها الأوَّل زيد بن حارثة رضي الله عنه ، ولعلَّ اختيار رسول الله (ص) لزيدٍ مقصودٌ لذاته؛ ليقطع بذلك ألسنة المتقوِّلين ، وما قد يزعمونه من أنَّ طلاقها

وقع بغير اختيارٍ منه ، وأنَّه قد بقي في نفسه من الرَّغبة فيها شيءٌ ، وفي هذا يقول ابن حجر: «هذا من أبلغ ما وقع في ذلك ، وهو أن يكون الَّذي كان زوجَها هو الخاطبُ؛ لئلا يظنَّ أحدٌ: أنَّ ذلك وقع قهراً بغير رضاه ، وفيه أيضاً اختبار ما كان عنده منها: هل بقي منه شيءٌ ، أم لا؟»[(١٠٣٣)].

وفي هذا من الحكمة أيضاً: أن ما يقع بين الزَّوجين من نفرةٍ ، وخلافٍ ، ثمَّ طلاقٍ لا يجوز أن يكون مانعاً من نصح أحد الزَّوجين للاخر ، وأن يراعي فيه حقوق الأخوَّة الإيمانيَّة ، فهذا زيد برغم ما وقع بينه وبين زينب ، ورغم: أنَّ هذا كان بسببها ، فإنَّه ذهب يخطبُها لرسول الله (ص) ، بل ويقول لها: يا زينب! أبشري!.

٢ ـ في الاية الَّتي نزلت بشأن هذا الزَّواج عتابٌ للنَّبيِّ (ص) من ربِّه؛ إذ كان حين يأتيه زيدٌ يشكو زينب ، ومعاملتها له ، ورغبته في طلاقها يقول (ص) : «أمسك عليك زوجك واتَّق الله» [سبق تخريجه] ، أي: اتَّق الله ، وَدَعْ طلاقها ، أو: اتق الله فيما تذكره من سوء عشرتها؛ ورسول الله (ص) يخفي في نفسه ما أبلغه الله به: أن زيداً سيطلِّقها ، وأنَّها ستكون زوجةً له ، ويخشى متى وقع هذا من كلام النَّاس في قولهم: تزوَّج مطلقة مَنْ تبنَّاه ، وهو زيد بن حارثة!

روى أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو ، فجعل رسول الله (ص) يقول: «اتَّق الله ، وأمسك عليك زوجك»: قال أنس: لو كان رسول الله (ص) كاتماً شيئاً من الوحي؛ لكتم هذه الاية. [البخاري (٧٤٢٠)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لو كان محمَّدٌ (ص) كاتماً شيئاً ممَّا أُنزل عليه؛ لكتم هذه الاية: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} [الأحزاب: ٣٧]. [أحمد (٢٤١/٦) ، ومسلم (١٧٧/٢٨٨) ، والترمذي (٣٢٠٨)].

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السَّعديُّ في تفسيره للاية: : «أي: أنعم الله عليه {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ} ، وأنعمت عليه بالعتق ، والإرشاد، والتَّعليم ، حين جاءك مشاوراً في فراقها ، فقلت له ـ ناصحاً له ، ومخبراً بمصلحته ، مقدماً لها على رغبتك ـ: أمسك عليك زوجك ، ولا تفارقها ، واصبر على ما جاءك منها ، واتَّق الله في أمورك عامَّة ، وفي أمر زوجك خاصَّة؛ فإن التَّقوى تحثُّ على الصَّبر ، وتأمر به. الَّذي أخفاه: أنه لو طلقها زيد؛ {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ} (ص) »[(١٠٣٤)].

قال سيِّد قطب: الَّذي أخفاه النَّبيُّ (ص) في نفسه وهو يعلم أنَّ الله مبديه ، وهو ما أعلمه الله: أنَّه سيفعله ، ولم يكن أمراً صريحاً من الله ، وإلا ما تردَّد فيه ، ولا أخَّره ، ولا حاول تأجيله ، ولجهر به في حينه مهما كانت العواقب؛ الَّتي يتوقَّعها من إعلانه ، ولكنَّه (ص) كان أمام ما أعلمه الله ، يتوجَّس في الوقت ذاته من مواجهته ، ومواجهة النَّاس به ، حتَّى أذن الله بكونه ، فطلَّق زيدٌ زوجه في النِّهاية ، وهو لا يفكر ، لا هو ، ولا زينب فيما سيكون بعد؛ لأنَّ العرف السَّائد كان يعدُّ زينب مطلقة ابنٍ لمحمَّد ، لا تحلُّ له[(١٠٣٥)].

٣ ـ في قوله تعالى: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَي لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً *} [الأحزاب: ٣٧] ، منقبةٌ عظيمةٌ لزيد بن حارثة رضي الله عنه ، فقد انفرد بهذا؛ إذ لم يُسَمِّ القران أحداً من الصَّحابة غيره ، قال السُّهيلي: «كان يقال: زيد بن محمَّد حتَّى نزل: {ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ} ، فقال: أنا زيد بن حارثة ، وحرم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمَّد ، فلما نُزع عنه هذا الشَّرف ، وهذا الفخر ، وعلم الله وحشته من ذلك شرَّفه بخصيصةٍ لم يكن يَخُصُّ بها أحداً من أصحاب النَّبيِّ (ص) ، وهي: أنَّه سمَّاه في القران ، فقال تعالى: يعني: من {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا} ، ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذِّكر الحكيم؛ حتَّى صار اسمه قرانا يُتلى في المحاريب ، نوَّه به غاية التَّنويه ، فكان في هذا تأنيسٌ له ،

وعوضٌ من الفخر بأبوَّة محمَّد (ص) له ، ألا ترى إلى قول أبيِّ بن كعب حين قال له النَّبيُّ (ص) : «إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا» [البخاري (٣٨٠٩) ، ومسلم (٧٩٩)] فبكى ، وقال: أوذكرتُ هنالك؟.

وكان بكاؤه من الفرح حين أُخبر: أنَّ الله تعالى ذكره ، فكيف بمن صار اسمه قراناً يُتلى مخلَّداً لا يبيد ، يتلوه أهل الدُّنيا؛ إذا قرؤوا القران ، وأهل الجنَّة أبداً ، لا يزال على ألسنة المؤمنين ، كما لم يزل مذكوراً على الخصوص عند ربِّ العالمين؛ إذ القران كلام الله القويم ، وهو باقٍ لا يبيد ، فاسم زيد هذا في الصُّحف المكرَّمة ، المرفوعة المطهَّرة ، تذكره في التِّلاوة السَّفرةُ الكرامُ البررة ، وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبيٍّ من الأنبياء ، ولزيد بن حارثة تعويضاً من الله تعالى له بسبب ما نُزِع منه[(١٠٣٦)].

٤ . زواج النَّبيِّ (ص) بزينب بنت جحش رضي الله عنها كان بأمر ربِّه ، وهو الَّذي زوَّجه إيَّاها ، قال تعالى: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَي لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً *} [الأحزاب: ٣٧].

وفي هذا شرفٌ عظيمٌ ، ومنقبةٌ جليلةٌ لزينب رضي الله عنها ، كانت تفاخر بها . وحقَّ لها ذلك . فعن أنسٍ رضي الله عنه ، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النَّبيِّ (ص) تقول: زوَّجَكُنَّ أهاليكنَّ ، وزوَّجني الله من فوق سبع سموات ، وفي روايةٍ أخرى: كانت تفخر على نساء النَّبيِّ (ص) ، وكانت تقول: إن الله أنكحني في السَّماء. [البخاري (٧٤٢٠ و٧٤٢١)].

ولعلَّ هذه المنقبة ، وهذا الشَّرف لزينب رضي الله عنها كان جزاءً لها حين أذعنت ، وخضعت لأمر رسول الله (ص) حين أمرها بالزَّواج من مولاه زيد بن حارثة ، وكانت لذلك كارهةً ، ثمَّ لما علمت: أنَّ رسول الله (ص) يأمرها بذلك قبلت الزَّواج منه[(١٠٣٧)].

٥ . في وليمته (ص) على زينب علامةٌ من علامات نبوَّته ، ودلالةٌ من دلائلها ، وهي تكثير الطَّعام بدعوته ، وفي هذه الوليمة أيضاً كان نزول اية حجاب نساء النَّبيِّ (ص) ، وما شرع من اداب الضِّيافة[(١٠٣٨)].

فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: تزوَّج رسول الله (ص) ، فدخل بأهله ، قال: فصنعت أمِّي أمُّ سليم حيساً ، فجعلته في تَوْرٍ[(١٠٣٩)] ، فقالت: يا أنس! اذهب بهذا إلى رسول الله (ص) ، فقل: بعثت بهذا إليك أمِّي ، وهي تقرئك السَّلام ، وتقول: إنَّ هذا لك منا قليلٌ يا رسول الله! قال: فذهبتُ

بها إلى رسول الله (ص) ، فقلت: إنَّ أمِّي تقرئك السَّلام ، وتقول: إنَّ هذا لك منا قليلٌ يا رسول الله! فقال: ضعه ، ثمَّ قال: اذهب ، فادْعُ لي فلاناً ، وفلاناً ، ومن لقيت ، وسمَّى رجالاً ، قال: فدعوت من سمَّى ، ومن لقيت ، قال: قلت لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمئة.
وقال لي رسول الله (ص) : «يا أنس! هات التَّوْر ، قال: فدخلوا حتَّى امتلأت الصُّفَّة ، والحُجرة ، فقال رسول الله (ص) : ليتحلَّق عشرةٌ عشرةٌ ، وليأكل كلُّ إنسان ممَّا يليه ، قال: فأكلوا حتَّى شبعوا ، قال: فخرجتْ طائفةٌ ، ودخلت طائفةٌ ، حتَّى أكلوا كلُّهم ، فقال لي: يا أنس! ارفع ، قال: فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت ، قال: وجلس طوائف منهم يتحدَّثون في بيت رسول الله (ص) ، ورسول الله (ص) جالسٌ ، وزوجته مولِّيةٌ وجهها إلى الحائط ، فَثَقُلُوا على رسول الله (ص) ، فخرج رسول الله (ص) على نسائه ، ثمَّ رجع ، فلمَّا رأوا رسول الله (ص) قد رجع؛ ظنُّوا أنَّهم قد ثَقُلُوا عليه. [البخاري (٥١٦٣) ، ومسلم (١٤٢٨/٩٤ و٩٥) ، والنسائي (٦/١٣٦)] قال: فابتدروا الباب ، فخرجوا كلُّهم ، وجاء رسول الله (ص) حتَّى أرخى السِّتر ، ودخل ، وأنا جالس في الحُجرة ، فلم يلبث إلا يسيراً حتَّى خرج عليَّ ، وأنزلت هذه
الاية ، فخرج رسول الله (ص) وقرأها على النَّاس: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا *} [الأحزاب: ٥٣].
قال الجعد[(١٠٤٠)]: قال أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: أنا أَحْدَثُ النَّاسِ عهداً بهذه الايات ، وحُجِبْنَ نساءُ النَّبيِّ (ص) . [مسلم (١٤٢٨/٩٤) ، والترمذي (٣٢١٨)].
وقد حَجَبَ رسول الله (ص) نساءه لنزول اية الحجاب التي قال المولى ـ عز وجل ـ فيها: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا *إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا *} [الأحزاب: ٥٣ ـ ٥٤].

وقد كان نزول اية الحجاب من موافقات عمر رضي الله عنه ، روى البخاريُّ في صحيحه عن أنسٍ ، قال: قال عمر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله! يدخل عليك البرُّ ، والفاجر ، فلو أمرت أمهاتِ المؤمنين بالحجاب! فأنزل الله اية الحجاب. [البخاري (٤٧٩٠)].

وبنزول هذه الاية كان تشريع الحجاب في الإسلام بالنِّسبة لأزواج النَّبيِّ (ص) ، والمراد عدم إبداء شيءٍ من أجسامهنَّ للأجانب عنهنَّ ، وعدم محادثتهنَّ ، أو طلب شيءٍ منهن إلا من وراء حجاب ، أي: سِتْرٍ يكون بينهنَّ ، وبين غيرهنَّ ، ولما نزلت قال الاباء ، والأبناء ، والأقارب لرسول الله (ص) : ونحن أيضاً نكلمهنَّ من وراء حجاب؟

فأنزل الله تعالى قوله: {لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَائِهِنَّ وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا *} [الأحزاب: ٥٥].

ونزل أيضاً في شأن نساء النَّبيِّ في أدب الخطاب والإقامة في البيوت قوله تعالى: {يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا *وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا *} [الأحزاب: ٣٢ . ٣٣].

وجمهور المفسِّرين على أنَّ هذه الاية وإن كانت خطاباً لأزواج النَّبيِّ (ص) فحكمها لجميع نساء الأمَّة ، وإنَّما خصَّ نساء النَّبيِّ لمنزلتهنَّ ، وعظم فضلهنَّ ، ومكانتهنَّ من النَّبي (ص)[(١٠٤١)] ، وقد قال الإمام القرطبيُّ في تفسيره: «معنى هذه الاية: الأمر بلزوم البيت ، وإن كان الخطاب لنساء النَّبيِّ (ص) فقد دخل غيرهنَّ فيه بالمعنى ، هذا لو لم يرد دليلٌ يخصُّ جميع النِّساء ، كيف والشَّريعة طافحةٌ بلزوم النِّساء بيوتهنَّ ، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورةٍ على ما تقدَّم من غير موضعٍ؟!»[(١٠٤٢)].

وقد فصَّل ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه الكريم ما يتعلَّق بالنِّساء المسلمات: من غضِّ البصر ، وحفظ الفروج ، وعدم إبداء مواضع الزِّينة من عنقٍ ، وساقٍ ، وعضُدٍ ، وساعدٍ ، وشعرٍ ، ونحوها من العورة الظَّاهرة إلا للمحارم[(١٠٤٣)] ، وقد جاء ذلك في سورة النُّور ، وقد بينت السُّنَّة النَّبويَّة كل ما يتعلَّق بالنِّساء من احتجاب ، وتصوُّنٍ ، وتعفُّفٍ ، وعدم السُّفور ، والخلاعة ، والابتذال بما لا مزيد عليه(٢).

هذه بعض الدُّروس ، والعبر استُخرجت من قصَّة زواج رسول الله (ص) من زينب بنت جحش ، وما واكب ذلك الزَّواج من نزول اياتٍ بيِّناتٍ في أحكام الحجاب ، وما شرع من اداب الضِّيافة.

هذا وقد توفِّيت زينت بنت جحش رضي الله عنها سنة عشرين من الهجرة ، وعمرها ثلاث وخمسون سنة ، وكانت كما أخبر النَّبيُّ (ص) أوَّل نسائه لحاقاً به. [البخاري (١٤٢٠) ، ومسلم (٢٤٥٢)][(١٠٤٤)] ، وقد بلغت مرويَّاتها عن النَّبيِّ (ص) ـ وفق كتاب بقي بن مخلد ـ أحد عشر حديثاً[(١٠٤٥)] ، ولها في الكتب السِّتَّة خمسةُ أحاديث[(١٠٤٦)] ، اتُّفق لها في البخاريِّ ، ومسلمٍ على حديثين[(١٠٤٧)] ، فقد تركت ذكراً طيباً في تاريخ الأمَّة الإسلاميَّة[(١٠٤٨)].

* * *

المبحث الثاني

«الان نغزوهم ، ولا يغزوننا»

[البخاري (٤١١٠) ، وأحمد (٤/٢٦٢)].

كان (ص) يعمل حساب كلِّ القوى المجاورة ، ولا يغفل عن أيِّ قوَّة منها ، وقد صرَّح بعد غزوة الخندق بأنَّ الخطَّة القادمة هي غزو قريش؛ فقد تغيرت موازين القوى ، وأصبح المسلمون لهم القدرة على الهجوم أكثر مِنْ قبل ، فسعى (ص) لبسط سيادة الدَّولة على ما تبقَّى من قوى حول المدينة؛ لأنَّ ذلك له صِلةٌ بالإعداد لغزو قريش في مرحلةٍ لا حقةٍ ، فقد قام (ص) خلال عامٍ واحدٍ ـ العام السَّادس ـ بغزوتين ، وأرسل أربع عشرة سريَّةً ، غير ما قام به في نهاية العام الخامس الهجري ، وهذه الأعمال والتَّحرُّكات قصد منها المزيد من إنهاك قوى قريش بإحكام الحصار ، وتقليم أظفارها من خلال اقتطاع كلِّ ما يمدُّها بالقوَّة من حلفائها[(١٠٤٩)] فقد استثمر رسول الله (ص) ، وأصحابه ما حقَّقوه من نجاح في صدِّ الأحزاب ، وإفشال خططهم ، وردِّهم كيد يهود بني قريظة في نحورهم ، فباشروا نشاطاً واسع النِّطاق ضدَّ خصومهم على الجبهات كافة ، فقد ضيّقوا الخناق الاقتصاديَّ على قريشٍ من جديدٍ ، كما نفَّذوا العديد من السَّرايا لمعاقبة المشركين في الأحزاب من جهةٍ ، أو للثأر من القبائل الَّتي كانت قد غدرت

بالدُّعاة ، أو ناصبت الإسلام العداء ، وقد تمثَّل النشاط العسكريُّ الإسلاميُّ خلال هذه الفترة فيما يلي:

أولاً: سريَّة محمَّد بن مسلمة إلى بني القرطاء:

كانت العشائر النَّجديَّة من أجرأ العناصر البدويَّة الوثنيَّة على المسلمين؛ لأن النَّجديين أهل قوَّةٍ ، وبأسٍ ، وعددٍ غامرٍ ، وقد رأينا كيف أنَّ العمود الفقريَّ لقوَّات الأحزاب الضَّاربة كان من هذه القبائل النَّجديَّة؛ حيث كان رجال هذه القبائل الشَّرسة يشكِّلون الأغلبيَّة السَّاحقة من تلك القوَّة الضَّاربة ، ستة الاف مقاتل من غطفان ، وأشجع ، وأسلم ، وفزارة ، وأسد ، كانت ضمن الجيوش الَّتي قادها أبو سفيان لحرب المسلمين ، فحاصرهم أهل المدينة.

ولهذا فإنَّ أوَّل حملةٍ عسكريَّةٍ وجَّهها النَّبيُّ (ص) لتأديب خصومه بعد غزوة الأحزاب هي تلك الحملة الَّتي جرَّدها على القبائل النَّجديَّة من بني بكر بن كلاب؛ الَّذين كانوا يقطنون القرطاء بناحية ضرية[(١٠٥٠)] على مسافة سبع ليالٍ من المدينة ، ففي أوائل شهر المحرَّم عام خمس للهجرة ، وبعد الانتهاء مباشرة من القضاء على يهود بني قريظة وجَّه (ص)[(١٠٥١)] سريَّةً من ثلاثين من أصحابه عليهم محمَّد بن مسلمة لشنِّ الغارة على بني القرطاء من قبيلة بكر بن كلاب ، وذلك في العاشر من محرَّم سنة (٦ هـ)[(١٠٥٢)] ، وقد داهموهم على حين غِرَّةٍ ، فقتلوا منهم عشرةً ، وفرَّ الباقون ، وغنم المسلمون إبلَهم ، وماشيتهم ، وفي طريق عودتهم أسروا ثُمامةَ بن أَثال الحنفيَّ سيِّد بني حنيفة ، وهم لا يعرفونه ، فقدموا به المدينة ، وربطوه بساريةٍ من سواري المسجد ، فخرَج إليه النَّبيُّ (ص) ، فقال: «ماذا عندك يا ثُمامة؟!» فقال: عندي خيرٌ يا محمد! إن تقتلني ، تقتل ذا دمٍ ، وإن تُنعم؛ تُنعم على شاكرٍ ، وإن كنت تريد المال؛ فسل منه ما شئت . فتركه حتَّى كان الغد ، فقال: «ما عندك يا ثُمامة؟!» فقال: عندي ما قلت لك: إنْ تُنعم؛ تنعم على شاكرٍ.

فتركه حتَّى كان بعد الغد ، فقال: «ما عندك يا ثُمامة؟!» فقال: عندي ما قلت لك. فقال: «أطلقوا ثُمامة» فانطلق إلى نخلٍ قريبٍ من المسجد ، فاغتسل ، ثمَّ دخل المسجد ، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنَّ محمَّداً رسولُ الله ، يا محمد! والله! ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليَّ من وجهك ، فقد أصبح وجهُك أحبَّ الوجوه إليَّ ، والله! ما كان دينٌ أبغضَ إليَّ من دينك ، فأصبح دينك أحبَّ الدِّين إليَّ ، والله! ما كان بلدٌ أبغضَ إليَّ من بلدك ، فأصبح بلدُك أحبَّ البلاد إليَّ ، وإنَّ خيلك أخذتني وأنا أريد العُمرة ، فماذا ترى ؟ فبشَّره رسولُ الله (ص) ، وأمره أن يعتمر.

فلمَّا قدم مكَّة؛ قال له قائل: صَبَوْتَ؟ قال: لا والله! ولكنِّي أسلمت مع محمَّدٍ رسول الله (ص) ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبَّةُ حنطةٍ حتَّى يأذن فيها النَّبيُّ (ص) [البخاري (٤٦٢) ، ومسلم (٥٩/١٧٦٤)][(١٠٥٣)].

وقد برَّ بقسمه ممَّا دفع وجوه مكَّة إلى أن يكتبوا إلى رسول الله (ص) يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثُمامة ليخلِّيَ لهم حمل الطَّعام[(١٠٥٤)] ، فاستجاب النَّبيُّ (ص) لرجاء قومه بالرَّغم من أنه في حالة حربٍ معهم ، وكتب إلى سيِّد بني حنيفة ثُمامة: «أن خَلِّ بين قومي وبين ميرتهم». فامتثل ثُمامة أمر نبيِّه ، وسمح لبني حنيفة باستئناف إرسال المحاصيل إلى مكَّة ، فارتفع عن أهلها كابوس المجاعة[(١٠٥٥)].

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ؛ منها:

١ ـ جواز ربط الكافر في المسجد.

٢ ـ جواز المنِّ على الأسير الكافر ، وتعظيم أمر العفو عن المسيء ، لأنَّ ثُمامة أقسم: أنَّ بغضه انقلب حبّاً في ساعةٍ واحدةٍ ، لما أسداه النَّبيُّ (ص) إليه من العفو والمنِّ بغير مقابل.

٣ ـ الاغتسال عند الإسلام كما فعل ثُمامة حين أسلم.

٤ ـ الإحسان يُزيل البُغض ، ويُنبت الحُبَّ.

٥ ـ يشرع للكافر إذا أراد عمل خيرٍ ثمَّ أسلم أن يستمرَّ في عمل ذلك الخير.

٦ ـ الملاطفة لمن يُرجى إسلامه من الأسارى ، إذا كان في ذلك مصلحةٌ للإسلام ، ولاسيَّما مَنْ يتبعُه على إسلامه العددُ الكثيرُ مِنْ قومه[(١٠٥٦)].

٧ ـ الإسلام يُغيِّر سلوك المؤمن حين يضع المسلم قدراته تحت الإسلام والمسلمين ، كما فعل ثُمامة بعدم إرساله القمح لأهل مكَّة إلا بإذنٍ من الرَّسول (ص) .

٨ ـ ينبغي أن يخلع المؤمن على عتبة الإيمان وعند تركه للكفر كلَّ علاقاته السَّابقة ، ثمَّ يلتزم بأوامر ربِّ العالمين بعد إيمانه[(١٠٥٧)].

ثانياً: سَرِيَّة أبي عبيدة بن الجرَّاح إلى سيف البحر:

تعتبر سرية أبي عبيدة إلى سيف البحر استمراراً لسياسة النَّبيِّ (ص) العسكريَّة لإضعاف قريش، ومحاصرتها اقتصاديّاً على المدى الطَّويل، فقد بعث (ص) أبا عبيدة ابن الجراح في ثلاثمئة راكبٍ قِبَل السَّاحل؛ ليرصدوا عيراً لقريش ، وعندما كانوا ببعض الطَّريق فني الزَّاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش ،

فجُمع ، فكان قَدْرَ مِزْوَدِ تمرٍ ، يقوتهم منه كلَّ يوم قليلاً قليلاً ، حتَّى كان أخيراً نصيب الواحد منهم تمرةً واحدةً ، وقد أدرك الجنود صعوبة الموقف ، فتقبَّلوا هذا الإجراء بصدورٍ رَحْبَةٍ دون تذمُّرٍ ، أو ضجرٍ ، بل إنَّهم ساهموا في خطَّة قائدهم التَّقشُّفيَّة ، فصاروا يحاولون الإبقاء على التمرة أكبر وقتٍ ممكنٍ[(١٠٥٨)] ، يقول جابر رضي الله عنه أحد أفراد هذه

السَّريَّة: (كنَّا نمصُّها كما يمصُّ الصَّبيُّ ، ثمَّ نشرب عليها من الماء ، فتكفينا يومنا إلى الَّليل)[(١٠٥٩)] ، وقد سأل وهب بن كيسان جابراً رضي الله عنه: ما تغني عنكم تمرةٌ؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فَنِيَتْ. [البخاري (٤٣٦٠) ، ومسلم (١٨/١٩٣٥)].

وقد اضطر ذلك الجيش إلى أكل ورق الشَّجر ، قال جابر رضي الله عنه: وكنَّا نضرب بعصيِّنا الخَبَط[(١٠٦٠)] ، ثمَّ نبلُّه بالماء ، فنأكله[(١٠٦١)] ، «فسمِّي ذلك الجيش جيش الخَبَط»[(١٠٦٢)] ، وقد أثَّر هذا الموقف في قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما أحد جنود هذه السَّريَّة الشُّجاعة ، وهو رجلٌ من أهل بيت اشتُهر بالكرم ، فنحر للجيش ثلاث جزائر[(١٠٦٣)] ، ثمَّ نحر ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثمَّ إنَّ أبا عبيدة نهاه. [البخاري (٤٣٦١) ، ومسلم (١٩/١٩٣٥)].

فبينما هم كذلك من الجوع ، والجهد الشَّديدين ، إذ زفر البحر زفرةً أخرج الله فيها حوتاً ضخماً ، فألقاه على الشَّاطأى ، ويصف لنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مقدار ضخامة هذا الحوت العجيب ، فيقول: وانطلقنا على ساحل البحر ، فرُفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضَّخم[(١٠٦٤)] ، فأتيناه فإذا هي دابةٌ تدعى العنبر[(١٠٦٥)] ، قال: قال أبو عبيدة: ميتةٌ ، ثمَّ قال: لا ، بل نحن رسل رسول الله (ص) وفي سبيل الله ، وقد اضطررتم ، فكلُوا ، قال: فأقمنا عليه شهراً ، ونحن ثلاثمئة حتَّى سَمِنَّا ، قال: ولقد رأيتنا نغترف من وَقْب[(١٠٦٦)] عينيه بالقِلال[(١٠٦٧)] الدُّهنَ ، ونقتطع منه الفِدرَ[(١٠٦٨)] كالثَّور ، أو قدر الثَّور ، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينيه ، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها ، ثمَّ رحَّل أعظمَ بعيرٍ منا ، فمرَّ من تحتها[(١٠٦٩)] وتزوَّدنا من لحمه وشائق ، فلمَّا قدمنا المدينة أتينا رسول الله (ص)[(١٠٧٠)] ، فقال:

«ما حبسكم؟» قلنا: كنا نتبع عيرات قريش ، وذكرنا له من أمر الدَّابة[(١٠٧١)] ، فقال: «هو رزقٌ أخرجه الله لكم ، فهل معكم من لحمه شيءٌ ، فتطعمونا» قال: فأرسلنا إلى رسول الله (ص) منه ، فأكله. [البخاري (٤٣٦٢) ، ومسلم (١٧/١٤٣٥)][(١٠٧٢)].

كانت هذه السَّريَّة على الأرجح قبل صلح الحديبية ، وليس في رجب سنة ثمانٍ كما ذكر ابنُ سعدٍ[(١٠٧٣)] ، وذلك لسببين: السَّبب الأول: أنَّ الرَّسول (ص) لم يغزُ ، ولم يبعث سَرِيَّةً في الشَّهر الحرام ، والثَّاني: أنَّ رجب سنة ثمانٍ هو ضمن فترة سريان صلح الحديبية[(١٠٧٤)].

وذكر ابن سعدٍ ، والواقديُّ[(١٠٧٥)]: أنَّ النبي (ص) بعثهم إلى حيٍّ من جهينة ، وقال ابن حجر[(١٠٧٦)]: إنَّ هذا لا يغاير ظاهره مافي الصَّحيح؛ لأنَّه يمكن الجمع بين كونهم يتلقَّون عيراً لقريشٍ ، ويقصدون حيّاً من جُهينة ، ويحتمل أن يكون تلقيهم للعير ليس لمحاربتهم ، بل لحفظهم من جهينة ، ويقوِّي هذا الجمع ما عند مسلمٍ ، أنَّ البعث كان إلى أرض جُهينة [مسلم (٢١/١٩٣٥)][(١٠٧٧)].

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ؛ منها:

١ ـ حكمة أبي عبيدة رضي الله عنه حيث جمع الأزواد ، وسوَّى بين المجاهدين في التوزيع؛ ليستطيع تجاوز الأزمة بهم ، وذلك درسٌ تعلَّمه من رسول الله (ص) عمليّاً أكثر من مرَّةٍ.

٢ ـ كرمُ قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما في وقت عصيب ، ليس بيده يومها ما يخفِّف عن الناس ، ففي رواية الواقديِّ: أنَّ قيس بن سعد رضي الله عنه استدان هذه النُّوق من رجلٍ جُهَنِيٍّ ، وأنَّ أبا عبيدة رضي الله عنه نهاه قائلاً: تريد أن تخفر ذمَّتك ، ولا مال لك[(١٠٧٨)] ، فأراد أبو عبيدة الرِّفق به[(١٠٧٩)].

وقد بدأ قيس بن سعد ينحر ، وينحر حتَّى نهاه أبو عبيدة ، فقال له قيس بن سعد: يا أبا عبيدة! أترى أنَّ أبا ثابتٍ يقضي ديون النَّاس ، ويحمل الكلَّ ، ويطعم في المجاعة ،

لا يقضي عنِّي تمر القوم مجاهدين في سبيل الله[(١٠٨٠)] ، وقال ذلك قيس لأبي عبيدة لأنَّه قد اتَّفق مع رجلٍ من جهينة على أن يشتري منه نوقاً ينحرها للجيش على أن يعطيه بدل ذلك تمراً بالمدينة ، وقد وافق الجهنيُّ على تلك الصَّفقة.

عندما علم سعد بن عبادة بنهي أبي عبيدة لقيس بحجَّة: أنَّه لا مال له ، وإنَّما المال لأبيه؛ وهب ابنه أربع حوائط أدناها يُجَدُّ منه خمسون وَسْقاً[(١٠٨١)].

٣ ـ الحلال والحرام:

إنَّ المسلمين في هذه السَّرِيَّة بلغ بهم الجوع غايته ، فكانت التَّمرة الواحدةُ طعامَ الرَّجل طوال يومٍ كامل في سفرٍ، ومشقَّةٍ، ويمرُّون وهم على تلك الحال من فقد التَّمر ، وأكل الخبط على الجهنيّ ـ الَّذي اشترى منه قيس ـ أو على قومه، فما يخطر بفكرهم أن يغيروا عليهم لينتزعوا منهم طعامهم ، كما كانت الحال في الجاهليَّة؛ لأنَّهم اليوم ينطلقون بدين الله الَّذي جاء ليحفظ على النَّاس أموالهم ـ في جملة ما حفظ ـ وهم اليوم يفرِّقون بين الحلال ، والحرام الَّذي تعلَّموه من منهج ربِّ العالمين[(١٠٨٢)].

٤ ـ جواز أكل ميتة البحر:

وتدل القصَّة على جواز أكل ميتة البحر ، وأنَّها لم تدخل في قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ أَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [المائدة: ٣].

وقد قال تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ *} [المائدة: ٩٦].

وقد صحَّ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، وعبد الله بن عباسٍ ، وجماعةٍ من الصَّحابة رضي الله عنهم: (أنَّ صيد البحر ما صيد منه ، وطعامهُ ما مات فيه).

وفي السُّنن عن ابن عمر مرفوعاً ، وموقوفاً: (أُحلَّت لنا ميتتان ، ودمان: فأمَّا الميتتان؛ فالسَّمك ، والجراد ، وأمَّا الدَّمان؛ فالكبِد ، والطِّحال) [أحمد (٢/٩٧) ، وابن ماجه (٣٢١٨) ، والدارقطني (٤/٢٧١ و٢٧٢)] حديثٌ حسنٌ ، وهذا الموقوف في حكم المرفوع؛ لأنَّ قول

الصَّحابي: (أُحِلَّ لنا كذا ، وحُرِّم علينا) ينصرف إلى إحلال النَّبيِّ (ص) وتحريمه[(١٠٨٣)] ، كما أنَّ في أكل الرَّسول (ص) من لحم الحوت الَّذي تغذَّى منه المسلمون مدَّةً دليلاً على مشروعية أكل ميتة البحر[(١٠٨٤)] ، كما يستحبُّ للمفتي أن يتعاطى بعض المباحات الَّتي يشكُّ فيها المستفتي؛ إذا لم يكن فيه مشقَّةٌ على المفتي ، وكان فيه طمأنينةٌ للمستفتي ، قاله النَّوويُّ[(١٠٨٥)].

٥ ـ بعض الأحكام الَّتي ذكرها الإمام النَّوويُّ:

قال النَّوويُّ: في هذا الحديث جواز صدِّ أهل الحرب ، واغتيالهم ، والخروج لأخذ مالهم ، واغتنامه ، وأنَّ الجيوش لابدَّ لها من أميرٍ يضبطها ، وينقادون لأمره ، ونهيه ، وأنَّه ينبغي أن يكون الأمير أفضلَهم ، أو مِنْ أفضلِهم ، قالوا: ويستحبُّ للرُّفقة من النَّاس ، وإن قلُّوا أن يؤمِّروا أحدهم عليهم ، وينقادوا له ، قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: يستحب للرُّفقة من المسافرين خلط أزوادهم ، ليكون أبركَ ، وأحسنَ في العشرة وألاَّ يختص بعضهم بأكلٍ دون بعضٍ ، والله أعلم[(١٠٨٦)].

ثالثاً: سرية عبد الرَّحمن بن عوفٍ إلى دومة الجندل:

كانت هذه السَّريَّة قد وجهت إلى أبعد مدىً وصلت إليه الجيوش النَّبويَّة في الجزيرة العربيَّة ، ودومة الجندل قريبة من تخوم الشَّام ، فهي أبعد ثلاثة أضعاف عن المدينة بعدها عن دمشق ، وهي تقوم في قلب الصَّحراء العربيَّة واسطة الصِّلة بين الرُّوم في أرض الشَّام ، والعرب في الجزيرة ، وسكَّانها من قبيلة كلبٍ الكبرى ، وقد دخلوا في النَّصرانية نتيجة جوارهم ، وتأثُّرهم بجوار الرُّوم النَّصارى ، وهذه السَّرِيَّة تدخل ضمن مخطَّط النَّبيِّ (ص) في احتكاكه مع الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة.

وأمَّا أمير السَّرِيَّة فهو عبد الرَّحمن بن عوف أحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة ، ومن رجال الرَّعيل الأوَّل ، فقد كان أحد الدَّعائم الكبرى للدَّعوة الإسلاميَّة منذ دخوله فيها على يد الصِّدِّيق رضي الله عنه.

ومهمَّة هذه السَّرية ذات جانبين: مهمَّةٌ دعويَّةٌ ، ومهمَّةٌ حربيَّةٌ؛ لذلك انتدب لها عبد الرَّحمن بن عوف الَّذي تربَّى على محض الإسلام منذ أيَّامه الأولى[(١٠٨٧)].

وعن هذه السَّريَّة حدَّثنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال: دعا رسول الله (ص) عبد الرحمن بن عوف ، فقال: «تجهَّز فإنِّي باعثك في سرِيَّةٍ في يومك هذا ، أو من غدٍ إن شاء الله» ، قال ابن عمر: فسمعت ذلك ، فقلت: لأدخلنَّ ، فلأُصلِّينَّ مع النَّبيِّ الغداة ، فلأسمعنَّ وصيته لعبد الرَّحمن بن عوف.

قال: فغدوتُ ، فصلَّيت ، فإذا أبو بكرٍ ، وعمر رضي الله عنهما ، وناسٌ من المهاجرين فيهم عبد الرَّحمن بن عوف ، وإذا رسول الله (ص) قد كان أمَرَه أن يسير من اللَّيل إلى دومة الجندل ، فيدعوهم إلى الإسلام ، فقال رسول الله (ص) لعبد الرَّحمن: «ما خلَّفك عن أصحابك؟» قال ابن عمر: وقد مضى أصحابه في السَّحر ، فهم معسكرون بالجُرْف ، وكانوا سبعمئة رجلٍ ، فقال: أحببت يا رسول الله! أن يكون اخر عهدي بك ، وعليَّ ثياب سفري.

قال: وعلى عبد الرَّحمن بن عوفٍ عمامةٌ قد لفَّها على رأسه ، قال ابن عمر: فدعاه النَّبيُّ (ص) فأقعده بين يديه ، فنقض عمامته بيده ، ثمَّ عمَّمه بعمامةٍ سوداء ، فأرخى بين كتفيه منها ، ثمَّ قال: «هكذا

فاعتم يا بن عوف!» قال: وعلى ابن عوف السَّيف مُتوشِّحه ، ثمَّ قال رسول الله (ص) : «اغزُ باسم الله ، وفي سبيل الله ، فقاتل من كفر بالله ، لا تَغُلَّ ، ولا تغدر ، ولا تقتُل وليداً». قال ابن عمر رضي الله عنهما: ثمَّ بسط يده ، فقال: «يا أيها النَّاس! اتقوا خمساً قبل أن يُحلّ بكم: ما نقص مكيالُ قومٍ إلا أخذهم الله بالسِّنين ، ونقصٍ من الثَّمرات لعلَّهم يرجعون ، وما نكث قومٌ عهدهم إلا سلَّط الله عليهم عدوَّهم ، وما منع قوم الزَّكاة إلا أمسك الله عليهم قطر السَّماء ، ولولا البهائم لم يُمْطَرُوا، وما ظهرت الفاحشة في قومٍ إلا سلط الله عليهم الطَّاعون ، وما حكم قوم بغير اي القران إلا ألبسهم الله شيعاً ، وأذاق بعضهم بأس بعض»[(١٠٨٨)].

قال: فخرج عبد الرَّحمن حتى لحق أصحابه ، فسار حتى قدم دُومة الجندل ، فلمَّا حلَّ بها ، دعاهم إلى الإسلام ، فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، وقد كانوا أوَّل ما قدم لا يعطونه إلا السَّيف ، فلمَّا كان اليوم الثَّالث أسلم الأصبغ بن عمروٍ الكلبيُّ ، وكان نصرانيّاً ، وكان رأسهم ، فكتب عبد الرحمن إلى النَّبيِّ (ص) يخبره بذلك ، وبعث رجلاً من جُهينة يقال له: رافع بن مكيث ، وكتب يخبر النَّبي (ص) : أنَّه أراد أن يتزوَّج فيهم ، فكتب إليه النَّبيّ (ص) أن يتزوَّج بنت الأصبغ تماضر ، فتزوَّجها عبد الرحمن ، وبنى بها ، ثمَّ أقبل بها ، وهي أمُّ أبي سلمة بن عبد الرَّحمن بن عوف ، وذكر الواقديُّ: أنَّ هذه السَّريَّة في شعبان سنة ستٍّ. [البيهقي في دلائل النبوة (٨٥/٤)][(١٠٨٩)].

وفي هذه السَّريَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، منها:

١ . تواضع النَّبيِّ (ص) لأصحابه ، وشفقته عليهم ، حيث ألبس عبد الرَّحمن بن عوف عمامته بيده ، وهذا التَّواضع منه (ص) يرفع من معنويات الصَّحابة رضي الله عنهم ، ويدفعهم إلى بذل المزيد من الطَّاقة في سبيل خدمة هذا الدِّين؛ لأنَّ التَّلاحم والمودَّة بين القائد وجنوده من أهمِّ عوامل نجاح العمل ، وتحقيق الأهداف[(١٠٩٠)].

٢ . كان جيش عبد الرَّحمن جيش مبادأى ، وعقيدةٍ ، فتحرَّك ضارباً في هذه الصَّحراء المترامية يحمل شرع الله إلى خلقه ، وهدي رسوله إلى أمَّته ، مستوعباً لمقاصد الجهاد ، وأحكامه ، فالجهاد ليس باسم محمَّد (ص) ، فهو عبد الله ، ورسوله ، ولا مكان لزعيمٍ ، أو أمَّه ، أو قبيلةٍ ، أو رايةٍ ، أو وطنٍ ، أو جيشٍ ، أو قوميَّةٍ بجوار هذه الرَّاية الخفَّاقة في هذا الوجود؛ راية الله تعالى. «اغزُ باسم الله» فحزب الله تعالى هو الَّذي يحيي هذه الصَّحراء الظَّمأى بغيث العقيدة الخالصة؛ عقيدة التَّوحيد[(١٠٩١)] ،

وهدفهم من هذا التحرُّك في سبيل الله وحدَه ، قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *} [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

قتالهم لمن كفر بالله وليس القتال على المبدأ الجاهليّ:

وأحياناً عَلَى بَكْرٍ أَخِيْنَا إِذَا مَا لَمْ نَجِدْ إِلاَّ أَخَانَا

أمَّا هذا الجيش القويُّ الفتي، فهو يمضي في الأرض قُدُماً؛ ليقاتل من كفر بالله[(١٠٩٢)].

٣ ـ ثمَّ نهى رسول الله (ص) عبد الرَّحمن بن عوفٍ عن الغُلول ، وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها ، ونهاه عن الغَدْر في العهود ، وعن قتل الوِلْدان ، وتلك نماذج من الأدب الإسلاميِّ في الجهاد ، فالقتال نوعٌ من العنف ، والقسوة ، ولكنَّه بالنسبة للمسلمين؛ الَّذين طهَّر الله تعالى قلوبهم من الغلِّ ، والحسد أمرٌ عارضٌ لإحقاق الحقِّ ، وإزهاق الباطل ، وحماية المحقِّين من المبطلين ، وليس متأصِّلاً في نفوسهم ، ولذلك كان محفوفاً بالاداب السَّامية الَّتي تجعل الإنسان الواحد جامعاً بين منتهى القوَّة ، والبطش ، ومنتهى الرَّحمة ، والعطف[(١٠٩٣)].

٤ ـ كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه سيِّداً من سادات هذه الأمَّة ، وواحداً من أكبر دُعاتها ، فهو يملك من الحلم ، والحكمة ، والثَّقافة ، والتَّجربة ، والعبقريَّة ، والقِدَم في

الإسلام ، والبلاء فيه ما لا يملكه غيره ، ولهذا بذل كلَّ طاقاته لتحقيق الهدف الرَّئيسيِّ الأوَّل ، وهو الدُّخول في الإسلام ، وكان متريثاً هادياً خبيراً بالنُّفوس والقلوب ، فشحن كلَّ الإمكانات الفكريَّة ، والحركيَّة لإنجاح هذه المهمَّة العظمى ، وتكلَّل عمله بفضل الله تعالى بالنَّجاح الكبير ، وخاصَّة: أنَّ الجهد انصبَّ على إقناع الرَّئيس ، حسب توجيهات المصطفى (ص) .

٥ ـ إنَّ إسلام سيد بني كلب في دومة الجندل الأصبغ بن عمرو على يد عبد الرَّحمن بن عوف ، يذكرنا بجعفر بن أبي طالب الَّذي أسلم على يديه النَّجاشي ملك الحبشة ، ومصعب بن عمير بالمدينة حيث استجاب له سادات الأوس ، والخزرج وزعامتُهم للإسلام ، وهذه الشَّخصيَّات العُظمى الثلاثة هم من الرُّوَّاد الأوائل ، ومن المؤسِّسين في المدرسة الإسلاميَّة الأولى بمكَّة المكرَّمة.

هذا عبد الرَّحمن بن عوف الَّذي أصيب بواحدٍ وعشرين جرحاً (أي: في غزوة أحدٍ) أدَّت بعضها إلى أن يكون عنده عرجٌ من شدَّتها؛ يصنع ركائز العقيدة الإسلاميَّة بجيشه المظفَّر شمال الجزيرة العربيَّة وينضمُّ الكثيرون إلى الإسلام؛ لتغدو دومة الجندل موقعاً جديداً من المواقع الإسلاميَّة ، في هذه الأطراف النائية

، فلا غنى للمسلمين عن هذه القلعة ، وعن هذه الموقعة للمستقبل القريب في المواجهة مع العرب ، والرُّوم المناوئين للإسلام[(١٠٩٤)].

وهذه أوَّل مرَّةٍ يحكم الإسلام خارج حدوده ، ويتعايش المسلمون ، والنَّصارى في دولةٍ واحدةٍ ، فالَّذين أسلموا تُطَبَّق عليهم أحكام الإسلام ، والَّذين بقوا على نصرانيتهم تؤخذ منهم الجزية ، وكان هذا الانفتاح تدريباً جديداً للصَّحابة على المجتمعات الجديدة الَّتي سينتقلون إليها فيما بعد ، وينساحون في العراق ، والشَّام ، وفي قلب فارس ، والرُّوم؛ ليعلِّموا النَّاس: أنَّ العقيدة تنبني من خلال الحوار ، لا من خلال السَّيف ، وأنَّ مبادأى الإسلام لها قوَّتها الذَّاتية الَّتي تشعُّ أنوارها على المجتمعات التي قد انغمست في الظَّلام البهيم[(١٠٩٥)].

٦ ـ إنَّ زواج عبد الرَّحمن بن عوف من ابنة سيد بني كلب زعيم دومة الجندل يقوِّي الرّوابط بين الزَّعيم المسلم الجديد بدومة الجندل ، وبين دولة الإسلام في المدينة ، ويربط مصيره بمصير دولة الإسلام ، ومصير الإسلام نفسه حين يشعر: أنَّ فلذة كبده مقيمةٌ في العرين الإسلاميِّ الَّذي أصبح يحنُّ له حنينه لأرضه ، وبلده(١).

وقد كان (ص) يحرص على أن يتزوَّج هو وقادتُه ببنات سادة القبائل؛ لأنَّ ذلك كسبٌ كبيرٌ لدعوة الإسلام ، حيث تكون المصاهرة سبباً في القرب ، وامتصاص أسباب العداء ، ثمَّ الدُّخول في الإسلام[(١٠٩٦)].

رابعاً: تأديب الغادرين: غزوة بني لحيان ، وغزوة الغابة ، وغيرهما:

١ ـ بعد رحيل الأحزاب انتقل المسلمون من دور الدِّفاع إلى دور الهجوم ، وأصبحوا يمسكون بأيديهم زمام المبادرة ، وحان الوقت لتأديب بني لحيان ـ الَّذين غدروا بِخُبيب ، وأصحابه يوم الرَّجيع ـ وأَخْذِ ثأر الشُّهداء ، فخرج إليهم في مئتي صحابيٍّ ، في ربيعٍ الأوَّل ، أو جمادى الأولى سنة ستٍّ من الهجرة[(١٠٩٧)].

أ ـ تضليل العدوِّ:

كانت أرض بني لحيان من هُذيل تبعد عن المدينة أكثر من مئتين من الأميال ، وهي مسافةٌ بعيدة ، يلاقي مشاقاً كبيرة كلُّ مَنْ يريد قطعها ، ولكنَّ النَّبيَّ (ص) كان حريصاً على الاقتصاص لأصحابه من الَّذين استُشْهدوا (غَدْراً) على يد هذه القبائل الهمجيَّة الَّتي لا قيمة للعهود عندها.

وكما هي عادة النَّبيّ (ص) في تضليل العدوِّ الَّذي يريد مهاجمته ، اتَّجه بجيشه نحو الشَّمال ، بينما تقع منازل بني لحيان في أقصى الجنوب.

وقد أعلن النَّبيُّ (ص) قبل تحرُّكه نحو الشَّمال: أنَّه يريد الإغارة على الشَّام ، وحتَّى أصحابه لم يعلموا: أنَّه يريد بني لحيان إلا عندما انحرف بهم نحو الجنوب ، بعد أن اتَّجه بهم متوغِّلاً نحو الشَّمال حوالي عشرين ميلاً... في حركةٍ تمويهيَّةٍ ـ على العدوِّ ـ بارعةٍ.

وكان تغيير خطِّ سيره من الشَّمال إلى الجنوب عند مكانٍ يقال له: (البتراء) ، ففي ذلك المكان عطف بجيشه نحو الغرب حتَّى استقام على الجادة مُنصبّاً نحو الجنوب[(١٠٩٨)].

ب ـ فرار اللِّحيانيّين قبل وصول النَّبيِّ (ص):

كانت بنو لحيان على غاية التَّيقُّظ ، والانتباه ، فقد بثَّت الأرصاد ، والجواسيس في الطُّرق ليتحسَّسُوا لها ، ويتجسَّسُوا لذلك ، فما كاد النَّبيُّ (ص) يقترب بجيشه من منازلهم حتَّى انسحبوا منها فارِّين ، وهربوا إلى رؤوس الجبال ، وذلك بعد أن نقلت إليهم عيونُهم خبر اقتراب جيش المسلمين من ديارهم.

ولما وصل النَّبيُّ (ص) بجيشه عسكر في ديارهم ، ثمَّ بثَّ السَّرايا من رجاله ليتعقبوا هؤلاء

الغادرين ، ويأتوا إليه بمن يقدرون عليه ، واستمرَّت السَّرايا النَّبويَّة في البحث والمطاردة يومين كاملين ، إلا أنَّها لم تجد أيَّ أثرٍ لهذه القبائل الَّتي تمنَّعت في رؤوس تلك الجبال الشَّاهقة ، وأقام (ص) في ديارهم يومين لإرهابهم ، وتحدِّيهم ، وليظهر للأعداء مدى قوَّة المسلمين ، وثقتهم بأنفسهم ، وقدرتهم على الحركة ، حتَّى إلى قلب ديار العدوِّ متى شاؤوا[(١٠٩٩)].

ج ـ إرهاب المشركين بمكَّة:

رأى النَّبيُّ (ص) أن يغتنم فرصة وجوده بجيشه قريباً من مكَّة ، فقرَّر أن يقوم بمناورةٍ عسكريَّةٍ يرهبُ بها المشركين في مكَّة ، فتحرَّك بجيشه حتَّى نزل به وادي عُسفَان[(١١٠٠)] ، وهناك استدعى أبا بكر الصِّدِّيق ، وأعطاه عشرة فوارس من أصحابه ، وأمره بأن يتحرَّك بهم نحو مكَّة ليبثَّ الذُّعر ، والفزع في نفوسهم ، فاتَّجه الصِّدِّيق بالفرسان العشرة نحو مكَّة حتَّى وصل بهم كُراع الغميم[(١١٠١)] ، وهو مكانٌ قريب جداً من مكَّة ، فسمعت قريش بذلك، فظنَّت: أنَّ النَّبيَّ (ص) ينوي غزوها ، فانتابها الخوف، والفزع، والرُّعب ، وساد صفوفها الذُّعر ، هذا هو الَّذي هدف إليه النَّبيُّ (ص) بهذه الحركة الَّتي كلَّف الصِّدِّيق أن يقوم بها.

أمَّا الصِّدِّيق وفرسانه العشرة فبعد أن وصلوا كُراع الغميم ، وعلموا أنَّهم قد أحدثوا الذُّعر ، والفزع في نفوس أهل مكَّة عادوا سالمين إلى النَّبيِّ (ص) ، فتحرَّك بجيشه عائداً إلى المدينة. [الواقدي (٢/٥٣٥ ـ ٥٣٦) ، وابن سعد (٢/٧٨ ـ ٨٠) ، والطبري في تاريخه (٢/٥٩٥)][(١١٠٢)].

د ـ التَّرحُّم على الشُّهداء:

عندما وصل النَّبيُّ (ص) إلى بطن (غُرَان)[(١١٠٣)] ، حيث لقي الشُّهداءُ من أصحابه مصرعهم على أيدي الخونة مِنْ هُذَيل؛ تَرَحَّم على هؤلاء الشُّهداء ، ودعا لهم[(١١٠٤)].

٢ ـ غزوة الغابة[(١١٠٥)]:

لم تكد تمضي ليالٍ قلائلُ على عودة رسول الله (ص) من غزوته لبني لحيان ، حتَّى أغار عيينة بن حصن الفزاري في خيلٍ لغطفان ، كان عددها أربعين على لقاح (الإبل الحوامل ذوات الألبان) لرسول الله (ص) بالغابة ، وقتلوا ذرَّ بن أبي ذرٍّ الغفاري ، وأسروا زوجته ليلى ، واستاقوا

الإبل الَّتي كان عددها عشرين ، ولما علم الرَّسول (ص) بخبر عُيَيْنَة؛ خرج في خمسمئةٍ من أصحابه في إثره ، بعد أن استخلف سعد بن عبادة في ثلاثمئة من قومه ، يحرسون المدينة[(١١٠٦)].

وعند جبلٍ من ذي قَرَد[(١١٠٧)] ، أدرك رسولُ الله (ص) العدوَّ ، فقتل بعضَ أفراده ، واستنقذ الإبل[(١١٠٨)].

وقد أبدى سلمةُ بن الأكوع في هذه المعركة بطولةً نادرةً ، وخاصَّة قبل وصول كتيبة الفرسان النَّبويَّة؛ حيث كان من ضمن الرُّعاة في منطقة الغابة ، وظلَّ بمفرده يشاغل المغيرين ، ويراميهم بالنَّبل ، وكان من أعظم الرُّماة في عصره ، وقد استخلص مجموعةً من الإبل المنهوبة قبل قدوم كتيبة الفرسان[(١١٠٩)].

أمَّا المرأة التي أسرها المغيرون من غطفان وهي زوجة ابن أبي ذرٍّ الَّذي قتله المشركون أثناء الغارة في الغابة ، فقد عادت سالمة إلى المدينة بعد أن تمكَّنت من الإفلات من القوم على ظهر ناقةٍ تابعةٍ لرسول الله (ص) ، وقد نذرت إن نجَّاها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لتنحرنَّ تلك النَّاقة ، فلمَّا أخبرت النَّبيَّ (ص) عن نذرها؛ تبسَّم ، وقال: «بئسما جزيتيها» أي: أنَّها حملتك ، ونجت بك من الأعداء فيكون جزاؤها النَّحر؟! ثمَّ قال لها (ص) : لا نذر في معصية الله ، ولا فيما لا تملكين. [أحمد (٤/٤٣٠) ، ومسلم (١٦٤١) ، وأبو داود (٣٣١٦)][(١١١٠)].

وقد عاد رسول الله (ص) إلى المدينة بعد أن أمضى خمس ليالٍ خارجها[(١١١١)].

وهذه الغزوة تعتبر من أكبر الغزوات التأديبيَّة الَّتي قادها رسول الله (ص) بنفسه ضدَّ أعراب نجد بعد غزوة الأحزاب ، وبني قريظة ، وقبل غزوة خيبر[(١١١٢)]. وتتابعت سرايا رسول الله (ص) بعد غزوة قَرَد لتأديب المشركين ، فنجحت بعض هذه السَّرايا ، وتعثر بعضُها الاخر ، وكان أبرزها سرية عكَّاشة بن محصن الأسديّ؛ التي عُرفت بسريَّة الغَمْر[(١١١٣)] ، وقد بعثها رسولُ الله (ص) في شهر ربيع الأول سنة ستٍّ من الهجرة ، إلى بني أسد ، فوصلت إلى موضعٍ يقال له: الغَمْر ، فوجدت القوم قد هربوا ، وتفرَّقوا في الجبال القريبة ، فأغار عكَّاشة ، وأصحابه على نعمٍ
لهم ، فغنموا مئتي بعير ، وعادوا إلى المدينة[(١١١٤)].

ومن أبرزها أيضاً سريَّة محمَّد بن مسلمة الأنصاريِّ إلى ذي القَصَّة[(١١١٥)] لإرهاب بني ثعلبة ، وعُوال ، ومنعهم من الإغارة على سرح المدينة ، وفي شهر ربيع الثَّاني سنة ستٍّ من الهجرة خرج محمَّد بن مسلمة في عشرةٍ من المسلمين حتَّى وردوا عليهم ليلاً ، فأحدق بهم القوم وهم مئة رجل ، فتراموا ساعةً من الليل ، ثمَّ حملت عليهم الأعراب بالرِّماح فقتلوهم ، ووقع محمَّد بن مسلمة جريحاً ، ولم يتمكَّن من العودة إلا بعد أن مرَّ به رجلٌ من المسلمين ، فحمله حتَّى ورد به المدينة[(١١١٦)].

وعلى الأثر بعث رسول الله (ص) أبا عبيدة عامر بن الجراح في أربعين رجلاً إلى منازلهم ، فلم يجدوا أحداً ، ولكنَّهم غنموا بعض نعمهم ، فساقوها ، وعادوا بها إلى المدينة[(١١١٧)].

وفي شهر جُمادى الأولى من السَّنة نفسها كانت سريَّة زيد بن حارثة الثَّانية إلى العيص[(١١١٨)] في سبعين ومئة راكب؛ لاعتراض قافلةٍ لقريش كانت مقبلةً من الشَّام ، فأدركها ، وأخذها ، وما فيها ، وأسر بعض أفرادها ، كان منهم أبو العاص بن الرَّبيع زوج زينب بنت رسول الله (ص) ، وأمُّه هالة بنت خويلد أخت خديجة زوجة رسول الله (ص) ، والمغيرة بن معاوية بن أبي العاص[(١١١٩)]. وفي شعبان سنة ستٍّ من الهجرة خرجت سريَّةٌ بقيادة عليِّ بن أبي طالبٍ لتأديب بني سعد بن بكر الَّذين جمعوا النَّاس لإمداد يهود خيبر ، وقد بعثه رسول الله (ص) في مئةٍ من المسلمين ، فأغار عليهم ، وغنم بعض نَعَمِهم ، وعاد بها إلى المدينة[(١١٢٠)].

كانت هذه السَّريَّة تأديباً لكلِّ مَنْ تُسَوِّل له نفسه مساعدة اليهود في بغيهم المتوقع ، حيث علمت تلك القبائل: أنَّ عين المدينة يقظة لكلِّ ما يدور حولها ، وأنَّ جميع التَّحرُّكات كانت تحت المراقبة[(١١٢١)] ، فقد تميزت الدَّولة الإسلاميَّة بدقَّة رصدها لأعدائها ، وهكذا يكون التَّخطيط الحربيُّ السَّليم ، وذلك بقطع الطَّريق على تجمُّع الأعداد الكبيرة حتَّى بالإمدادات الصَّغيرة[(١١٢٢)].

إنَّ حركة السَّرايا ، والبعوث الَّتي كان يقودها رسول الله (ص) ترشد المسلمين إلى أهمِّية متابعة أخبار الأعداء ، وجمع المعلومات عنهم ، فقد كانت المعلومات تتجمَّع عند رسول الله (ص) من مصادر متعدِّدة: سراياه الاستطلاعيَّة ، المسلمين المتخفِّين المتعاطفين مع المسلمين ، المعاهدين ، الفراسة واستكشاف ما وراء السُّطور ، المهم: أنَّ رسول الله (ص) ما كان يفاجأ بتامرٍ داخليٍّ ، أو تهديدٍ خارجيٍّ ، وهذا يجعل المسلمين في عصرنا أمام قضيَّةٍ يجب أن يعطوها كامل الاعتبار ، مع ملاحظة الضَّوابط الشَّرعية[(١١٢٣)].

خامساً: سرية كُرْز بن جابر الفهري إلى العُرنيّين:

قدِم على رسول الله (ص) جماعةٌ من عُكَل[(١١٢٤)] وعُرينة[(١١٢٥)] ، في شوال من العام السَّادس الهجري[(١١٢٦)] ، وتكلَّموا بالإسلام ، فقالوا: يا نبي الله! إنَّا كنَّا أهل ضرعٍ ، ولم نكن أهل ريف ، واستوخموا المدينة ، فأمر لهم رسول الله (ص) بذودٍ[(١١٢٧)] ، وراعٍ ، وأمرهم أن يخرجوا فيه ، فيشربوا من ألبانها ، ويتمسَّحوا بأبوالها ، فانطلقوا حتَّى إذا كانوا ناحية الحَرَّة؛ كفروا بعد إسلامهم ، وقتلوا راعيَ النَّبيِّ (ص) ، واستاقوا الذَّود ، فبلغ النَّبيَّ (ص) خبرُهم ، فبعث الطَّلب في اثارهم[(١١٢٨)] ، فقبضوا عليهم ، فأمر بهم ، فسملوا أعينهم ، وقطعوا أيديهم ، وأرجلهم ، وتُركوا في ناحية الحرَّة حتَّى ماتوا على حالهم. قال قتادة راوي الحديث: بلغنا: أنَّ النبي (ص) بعد ذلك كان يحثُّ على الصَّدقة ، وينهى عن المثْلَة. [البخاري (٤١٩٢)][(١١٢٩)].

وقال أبو قلابة في حديثه: «هؤلاء قومٌ سرقوا ، وقتلوا ، وكفروا بعد إيمانهم ، وحاربوا الله ورسولَه (ص) »[(١١٣٠)].

قال الجمهور: إنَّ الاية {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ *} [المائدة: ٣٣] ، قد نزلت في هؤلاء العُرنيِّين[(١١٣١)] ،

وقيلت أسباب أخرى في نزولها[(١١٣٢)].

وعلى كلِّ حالٍ فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب ، فهذا الحكم باقٍ حتَّى يومنا هذا ، وأدلُّ دليلٍ على ذلك ما أجمع عليه المسلمون من وجود حكم الحرابة في الإسلام ، سواء كانت الاية نزلت في الكفَّار ، أم في المسلمين ، وهذه الاية نازلةٌ في المشركين ، كما في البخاريِّ ، فدلَّ ذلك على أنَّ العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وكون المثْلَة منسوخةً ، أو منهياً عنها ، وأنَّ النَّبيَّ (ص) سمل أعين العُرنيِّين لا يستدلُّ به في هذه القضيَّة ؛ لكون العُرنيِّين سملوا أعين الرُّعاة ، فصار سمل النَّبيّ (ص) لهم قصاصاً لا مُثْلَةً[(١١٣٣)].

إنَّ حادثة العُرَنيّين ترتَّب عليها تنفيذ حكم الحرابة ، ونزول اياتٍ بيناتٍ في هذا الحكم ، فقد حصر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ جزاء المحاربين في أربعة أمورٍ ، وكان ذلك الحصر بأقوى أدوات الحصر ، ثمَّ إنَّه وصف هؤلاء المحاربين بأوصافٍ يشمئزُّ منها كلُّ عاقل ، ذلك أنَّه وصفهم بأنهم حاربوا الله تعالى ، ورسوله (ص) ، وأنَّهم يريدون إفساد الأرض بتخويف سكَّانها ، وتقتيلهم ، وسلبهم ، ونهب ممتلكاتهم ظلماً ، وجوراً لا مستند لهم ، ولا باعث إلا الإفساد ، والطُّغيان ، فكانت رحمةُ الله تعالى الرَّحيم بهم وبغيرهم مِنْ خلقه مقتضيةً الحكم عليهم بواحدٍ من أمورٍ أربعةٍ ، وهي: القتل ، أو الصَّلب ، أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف ، أو الإبعاد عن مخالطة العامَّة وعزلهم عنها بالنَّفي والتَّغريب؛ حتَّى لا تتكرَّر منهم تلك الجرائم الشَّنيعة ، وحتى يرتدع غيرُهم عن ارتكاب مثل هذا الجرم الشَّنيع ، ولكي يطهِّرَهم ما يوقع بهم من عقابٍ من الذُّنوب ، والاثام؛ إن هم تابوا ، ورجعوا إلى رشدهم ، وصوابهم.

ثمَّ إنَّ هؤلاء لهم ذِلَّةٌ ، ومهانةٌ في الحياة الدُّنيا لأذيَّتهم المسلمين ، وقد علَّل تعالى لحوق تلك الرَّذيلة بهم مدَّة الحياة الدُّنيا بسبب ما اقترفوه من جريمة الحرابة ، وباقيةٌ معهم إلى يوم القيامة؛ لكون الرَّب جلَّ وعلا أعدَّ لهؤلاء في الاخرة عذاباً عظيماً.

ثمَّ استثنى جلَّ وعلا من هؤلاء مَنْ أناب إليه ، ورجع في أسلوبٍ حكيم مؤثِّرٍ داعٍ إلى رجوعهم ، وتوبتهم من هذه الجريمة المنكرة ، فلقد عفا عنهم تعالى إذا ما رجعوا وجاؤوا تائبين قبل القدرة عليهم؛ لكون تلك التَّوبة مظنَّةً لصدقهم في توبتهم ، ورجوعهم عن غيِّهم؛ لأنَّهم رجعوا قبل القدرة عليهم.

وبتقييد العفو عنهم بتوبتهم قبل القدرة عليهم يفهم: أنَّهم إن قدر عليهم قبل التَّوبة؛ لا ينالون من العفو ما ينالونه لو تابوا قبل القدرة عليهم ، وهذا نوعٌ من العلاج في غاية الدقَّة ،

والإنصاف ، وفيه من الحفز على التَّقليل من هذه الجريمة ، وتركها ما لا يخفى على ذي عقلٍ لبيب.

وكذلك الشَّأن في جميع أساليب القران الكريم العلاجيَّة ، كلُّها توافق الذَّوق السَّليم ، والعقل الرَّاجح المتَّزن المتمتِّع بصفاء الفطرة السَّليمة.

ثمَّ ختم تعالى الايتين الكريمتين بأنَّه غفورٌ رحيمٌ لمن تاب منهم ، وأصلح ، فلا يقنط أحدٌ من رحمته الواسعة ، ولا يحول بين العبد ورحمة ربِّه ، ومغفرته عظيمُ ذنبه ، وجسيم خطئه ، ما لم يقارف شِرْكاً. وفي

الجملة فقد عالجت الايات القرانيَّة الحرابة في المجتمع الإسلاميّ علاجاً لا مزيد عليه ، وذلك واضحٌ ممَّا يلي:

١ ـ وصف المحارِب بأنَّه محاربٌ لله تعالى ، ولرسوله (ص) .

٢ ـ عظم الجزاء المترتِّب على الحَرابة أيَّاً كان هو.

٣ ـ مكانتُه الدَّنيئة في الدُّنيا ، والاخرة؛ إن لم يتب.

٤ ـ يظهر علاج القران الكريم لهذه الجريمة الشَّنعاء بفتحه باب التَّوبة لمتعاطيها على مصراعيه؛ حتَّى لا يكون سدُّه في وجهه حافزاً له على التَّمادي في جرمه ، والاستمرار في عتُوِّه[(١١٣٤)].

قال تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ *إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [المائدة: ٣٣ ـ ٣٤].

وهكذا كانت حركة بناء المجتمع ، وإقامة الدَّولة متشابكةً في قضاياها العسكريَّة ، والسِّياسيَّة ، والاجتماعيَّة ، والأخلاقيَّة ، والاقتصاديَّة.

* * *

المبحث الثَّالث

تصفية المحرِّضين على الدَّولة

أولاً: سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلاَّم بن أبي الحُقَيْق:

كان أبو رافع سلاَّم بن أبي الحُقَيْق من يهود بني النَّضير كثير التَّحريض على الدَّولة الإسلاميَّة ، حتَّى إنَّه جعل لغطفان ومن حوله من قبائل مشركي العرب الجعل العظيم إن هي قامت لحرب رسول الله (ص) ، وشاع أمر أبي رافعٍ ، وانتشر ، وكان ممَّن ألَّب الأحزاب على رسول الله (ص) ، وأصبح تحريضه على دولة الإسلام من الأخطار الَّتي يجب أن يوضع لها الحدُّ[(١١٣٥)].

١ ـ توجُّه السَّرية إلى خيبر ، ودخولها:

فبعث رسول الله (ص) إلى أبي رافعٍ اليهوديّ رجالاً من الأنصار ، فأمَّرَ عليهم عبد الله بن عتيك ، وكان أبو رافع في حصنٍ له ، فلمَّا دنوا منه ، وقد غربت الشَّمس وراح النَّاس بسرحهم ، قال عبد الله بن عتيك لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإنِّي منطلقٌ ، ومتلطِّفٌ للبوَّاب لعلِّي أن أدخل ، فأقبل حتَّى دنا من الباب ، ثمَّ تقنَّع بثوبه كأنه يقضي حاجةً ، وقد دخل النَّاس ، فهتف به البواب: يا عبد الله! إن كنت تريد أن تدخل؛ فادخل فإنِّي أريد أن أغلق الباب ، فدخلتُ ، فكمنتُ ، فلمَّا دخل الناس أغلق الباب ، ثمَّ عَلَّقَ الأغاليق (أي: المفاتيح) على ودٍّ (أي: وتد) ، قال ابن عتيك: فقمت إلى الأقاليد (المفاتيح) فأخذتُها ، ففتحت الباب[(١١٣٦)].

٢ ـ تنفيذ العقوبة بحقِّ أبي رافع:

ولما دخل أبو عتيك رضي الله عنه ومن معه من أفراد سريَّته إلى داخل الحصن؛ أخذوا ينتظرون الفرصة المناسبة لقتل هذا اليهوديّ الخبيث أبي رافعٍ.

وقد جاء في البخاريّ: أنَّ عبد الله بن عتيك أدرك نفراً من أصحاب أبي رافعٍ يسمرون عنده ،

وكان في علالي له (أي: غرفة) ، فكمنت (أي: اختبأت) حتَّى ذهب عنه أهلُ سَمَرِهِ ، ولما ذهبوا صعِد إليه. وكلَّما دخلَ باباً أغلقَه عليه من الدَّاخل حتى لا يحول أحدٌ بينه وبين تنفيذ العقوبة بحقِّ أبي رافع ، فانتهى إلى أبي رافع فإذا هو في بيتٍ مظلمٍ وسط عياله لا يدري أين هو من البيت ، قال ابن عتيك: فقلت: يا أبا رافع! قال: مَنْ هذا؟

قال ابن عتيك: فأهويتُ نحو الصَّوت فأضربه ضربةً بالسَّيف؛ وأنا دَهِشٌ فما أغنيتُ شيئاً (أي: لم أقتله).

وصاح ، فخرجت من البيت ، فأمكثُ غير بعيدٍ ثمَّ دخلتُ إليه.

فقلت: ما هذا الصَّوت يا أبا رافع؟!

قال: لأمِّك الويلُ! إنَّ رجلاً في البيت ضربني قَبْلُ بالسَّيف.

قلت: فأضربه ضربةً أثخنته ، ولم أقتله ، ثمَّ وضعت ضبيب السَّيف في بطنه حتى أخذ في ظهره ، فعرفت أنِّي قتلته.

فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً ، حتَّى انتهيت إلى درجةٍ له ، فوضعت رجلي وأنا أرى أنِّي قد انتهيتُ إلى الأرض ، فوقعتُ في ليلةٍ مقمرةٍ ، فانكسرتْ ساقي ، فعصبتُها بعمامةٍ ، ثمَّ انطلقت حتَّى جلست على الباب ، فقلت: لا أخرج اللَّيلة حتَّى أعلم أقتلته؟ فلمَّا صاح الدِّيك قام النَّاعي على السُّور ،

فقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز ، فانطلقتُ إلى أصحابي ، فقلت: النَّجاءَ ، فقد قتل الله أبا رافعٍ ، فانتهيت إلى النَّبيّ (ص) ، فحدَّثته ، فقال لي: «ابسط رجلك». فبسطت رجلي ، فمسحها ، فكأنَّها لم أشتكها قطُّ. [البخاري (٤٠٣٩)].

وفي روايةٍ أخرى للبخاريِّ قال عبد الله بن عتيك: قلت: يا أبا رافع! قال: مَنْ هذا؟ قال: فعمدت نحو الصَّوت ، فأضربه ، وصاح فلم تُغْنِ شيئاً ، ثمَّ جئت كأنِّي أغيثه.

فقلت: مالك يا أبا رافع؟! وغيَّرت صوتي ، فقال: ألا أعجبك ، لأمِّك الويلُ! دخل عليَّ رجلٌ فضربني بالسَّيف. قال: فعمدت له أيضاً فأضربه أخرى ، فلم تُغْنِ شيئاً ، فصاح ، وقام أهله ، ثمَّ جئتُ وغيَّرتُ صوتي كهيئة المغيث ، فإذا هو مستلقٍ على ظهره ، فأضع السَّيف في بطنه ثمَّ أنكفأئُ عليه ، حتَّى سمعتُ صوت العَظْمِ.. [البخاري (٤٠٤٠)].

وقد ذكرت كتب السِّيرة: أنَّ امرأة أبي رافع حينما ضُرِب بالسَّيف صاحت؛ فأراد قتلها، ثمَّ كف عن ذلك؛ لأنَّ رسول الله (ص) قد نهاهم عن قتل النِّساء، والصِّبيان[(١١٣٧)] ، وأنَّ ابن عتيك كان يرطن بلغة اليهود ، وأنَّه استخدمها مع زوجة أبي رافعٍ اليهوديِّ ، وأهل بيته.

ويذكر كُتَّاب السِّيرة: أنَّ سرية ابن عتيك كلَّها شاركت في ضرب أبي رافع ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهم ادَّعى: أنَّ ضربته كانت هي القاضية على أبي رافعٍ ، فقال رسول الله (ص) : «عجِّلوا بأسيافكم» ، فأتوا بأسيافهم ، فنظر إليها ، ثمَّ قال: «هذا قتله» ، وهو سيف عبد الله بن أُنيس ، هذا أثر الطَّعام في سيف عبد الله بن أُنيس. [البخاري (٤٠٣٩ و٤٠٤٠) ، وابن سعد (٢/٩١ ـ ٩٢) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/١٠ ـ ٨١) ، وعبد الرزاق في المصنف (٥/٤٠٧ ـ ٤١٠) ، وابن هشام (٣/٢٨٦ ـ ٢٨٨)].

وقد يتوهَّم القارأى الكريم أنَّ هناك تناقضاً بين رواية البخاريِّ ، ورواية كتب السِّيرة الأخرى؛ الَّتي تقول: إنَّ الضربة القاضية كانت من عبد الله بن أُنيس ، والحقُّ: أنَّه ليس كذلك؛ ذلك لأنَّ عبد الله بن عتيك يخبر عن نفسه وأنَّه غلب على ظنِّه: أنَّه هو القاتل ، وأنَّه قد حكى عن دوره في ضرب اليهوديِّ أبي رافعٍ ، ولا يعني هذا أنَّ غيره لم يشارك في قتله؛ إذ لم ينفِ هو مشاركة غيره له في قتل أبي رافع ، والرِّوايات يفسِّر بعضها بعضاً ، ويشرح بعضُها بعضاً ، والرِّوايات تذكر: أنَّ كلَّ واحد من أفراد السَّريَّة كان يدَّعي أنَّ ضربته هي القاضية والمميتة لأبي رافعٍ.

وقد نظر رسول الله (ص) في دعواهم ، وفحص سيوفهم ، وحكم بعد ذلك بأنَّ الضَّربة القاضية كانت بسيف عبد الله بن أُنيس رضي الله عنه؛ لظهور أثر الطَّعام عليه ، أي: أنَّ هذا السَّيف قد دخل جوف أبي رافع ومزَّق أحشاءه ، وقطَّع أمعاءه ، وخلط غذاءه في جوفه[(١١٣٨)].

وقد ذكرت كتب السيرة أسماء سريَّة عبد الله بن عتيك ، وهم: مسعودُ بن سنان ، وعبدُ الله بن أُنيس ، وأبو قتادة الحارث بن ربعي ، وخُزاعي بن أسود[(١١٣٩)].

وفي هذه السَّريَّة دروسٌ ، وعبرٌ كثيرةٌ؛ منها:

١ ـ أنَّ كلَّ أعضاء هذه السَّريَّة كانوا من الخزرج ، فقد حرصوا على أن ينافسوا إخوانهم من الأوس الَّذين قتلوا كعب بن الأشرف ، فقد كانوا كفرسي رهانٍ في المسابقة في الخيرات ، فهم لا يتنافسون على اغتنام مظاهر الحياة الدُّنيا من المال ، والمناصب ، وإنَّما يتسابقون إلى الفوز بمرضاة النَّبيِّ (ص) الَّتي مالها رضوانُ الله تعالى ، والسَّعادة الأخرويَّة[(١١٤٠)].

قال كعب بن مالك: وكان ممَّا صنع الله تعالى به لرسوله (ص) : أنَّ هذين الحيين من الأنصار: الأوس ، والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله (ص) تصاول الفحلين ـ يعني: يتسابقان في خدمته ـ لا يصنع الأوس شيئاً فيه عن رسول الله (ص) غناءً إلا قالت الخزرج: والله! لا تذهبون

بهذه فضلاً علينا عند رسول الله (ص) ، وفي الإسلام ، قال: فلا ينتهون حتَّى يوقعوا مثلها ، وإذا فعلت الخزرج شيئاً؛ قالت الأوس مثل ذلك. [ابن هشام (٣/٢٨٦)].

٢ ـ فائدةُ تعلُّم لغةِ العدوِّ: فقد استطاع عبد الله بن عتيك أن يصعد إلى حصن أبي رافع ، وأن يخاطب امرأته ، وأن يدخل بيته مطمئناً؛ لأنَّه خاطبه بلغته لغة اليهود في ذلك الوقت ، ويؤخذ من ذلك استحباب تعلُّم لغة غير المسلمين لا سيَّما الأعداء منهم ، وخاصَّة لأولئك العسكريين الَّذين يذهبون لمهمَّات استطلاعيَّة تجمع أخبار العدو ، وتزوِّد القيادة بها ، والقيادة ترسم[(١١٤١)].

٣ ـ عناصر نجاح خطَّة ابن عتيك في قتل أبي رافعٍ اليهوديِّ: ذهابُه وحدَه ، فقد قرر أن يذهب وحيداً إلى الحصن ، ويحاول أن يدخله ، ومن ثَمَّ يفتِّش عن طريقة يُدخل بها أفراد سريَّته ، وتصرُّفه العادي الَّذي لم يلفت انتباه أحدٍ من الحرَّاس ، وقدرته على التَّمويه على الحارس ، وإيهامه: أنَّه يقضي حاجته ، وهذا منع الحارس من النَّظر إليه ، وتفحُّصه ، وتفرُّسه في وجهه ، ومراقبة حركة الحارس الدَّقيقة بعد دخول الحصن ، وإغلاقه ، فقد كمن في مكانٍ لم يشعر به الحارس ، وراقب الحارس حتَّى وضع مفتاح

الحصن في مكانٍ معيَّن ، وتابعه حتَّى انصرف ، وأخذ المفتاح ، وأصبح يستخدمه كيفما يشاء ، وفي أيِّ وقتٍ شاء[(١١٤٢)].

٤ ـ عناية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بأوليائه المؤمنين ، فهذا الصَّحابيُّ الجليل استمرَّ بعونٍ من الله تعالى يمشي ، ويبذل طاقته حتَّى بعد أن أصيبت رجله ، وكأنَّه لا يشكو من علَّةٍ ، حتَّى إذا انتهت مهمَّته تماماً ، وأصبح غير محتاجٍ لبذل الجهد؛ عاد إليه الألم ، وحمله أصحابه ، فلمَّا حدَّث النَّبيَّ (ص) خبره؛ قال له: «ابسُطْ رجلك» قال: فبسطت رجلي ، فمسحها ، فكأنَّها لم أشتَكِهَا قطُّ. [البخاري (٤٠٣٩)].

٥ ـ فوائد من القصَّة استخرجها ابن حجر ، حيث قال: وفي هذا الحديث من الفوائد: جواز اغتيال المشرك الَّذي بلغته الدَّعوة ، وأصرَّ ، وقتل من أعان على رسول الله (ص) بيده ، أو ماله ، أو لسانه. وجواز التَّجسُّس على أهل الحرب ، وتطلُّب غرَّتهم ، والأخذ بالشدَّة في محاربة المشركين ، وجواز إبهام القول للمصلحة ، وتعرُّض القليل من المسلمين للكثير من المشركين ، والحكم بالدَّليل ، والعلامة لاستدلال ابن عتيك على أبي رافع بصوته ، واعتماده على صوت النَّاعي بموته ، والله أعلم[(١١٤٣)].

٦ ـ وجود عبد الله بن أُنيس جندياً في هذه السَّريَّة ، وليس أميراً فيها له دلالتُه الكبرى في

عملية التَّربية والتَّعليم ، فهو العقبيُّ ، البدريُّ ، المصلِّي للقبلتين؛ فهو من السَّابقين الأوَّلين من الأنصار ، وليس عبد الله بن أُنيس نكرةً في مجال الجهاد والبطولات ، فلا بدَّ أن نذكر: أنَّه السَّريَّة وحده الَّذي ابتعثه رسول الله (ص) لاغتيال سفيان بن خالد الهُذلي في أطراف مكَّة ، وهو الَّذي كان يعدُّ العدَّة لغزو المدينة ، وهو الَّذي نجح نجاحاً باهراً في مهمَّته تلك ، وقتله في فراشه ، وداخل خيمته ، وأعجز قومه هرباً ، وعاد منتصراً مظفَّراً ، فهو مليءٌ بالمجد ، ومع ذلك فلم يكن أمير المجموعة ، إنَّما كان أحد أفرادها ، وهو يحمل هذا التَّاريخ المشرق في سجلاته عند ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ قبل أن يكون عند النَّاس.

وهو درسٌ تربويٌّ خالدٌ قد استوعبه أصحاب النَّبيِّ (ص) ، وهذا النَّوع من التربية لا مثيل له في عالم الأرض، فالَّذي يحكم في الجيوش تسلسل الرُّتب، حتى إنَّ الرتبة الواحدة يحكم بها المتقدِّمُ المستجدَّ، وعلى المستجدِّ السَّمع ، والطَّاعة للمتقدِّم؛ ولو بأشهرٍ ، وبهذا المنطق لا يجوز أن يتقدَّم على عبد الله بن أُنيسٍ أحدٌ ، ولكنَّها التَّربية النَّبويَّة العظيمة الَّتي خطَّها النَّبيُّ (ص) في أكثر من موقعٍ؛ لتجعل هذا الجيل يتعلَّم من سابقه ، ويتدرَّب على يديه ، فطالما أرسل (ص) سرايا فيها أبو بكرٍ ، وعمر جنديين عاديين في غمار الجنود[(١١٤٤)].

ثانياً: سريَّة عبد الله بن رواحة إلى اليُسير بن رِزَام اليهوديّ:

بلغ رسول الله (ص) أنَّ اليسير بن رِزام أمير اليهود بخيبر بعد سلام بن أبي الحُقَيق أخذ في جمع يهود الشَّمال ، وتحريضهم على رسول الله (ص) ، ولم يكتفِ بذلك ، بل بدأ بتأليب قبائل غطفان ، وجمعها لقتال رسول الله (ص) ، وحين علم رسول الله (ص) ما يبيّته اليهود له من الخديعة ، والمكر ، رأى (ص) أن يتأكَّد من ذلك قبل أن يقدم على أمرٍ ما ، فأرسل عبد الله بن رواحة في نفرٍ من المسلمين ، رواداً يكتشفون ما تخبئه يهود ، ومن لَفَّ لفَّها من مشركي العرب[(١١٤٥)].

وقد تأكَّدت المخابرات النَّبويَّة من أمر اليُسَيْر بن رِزَام ، وكان هذا كافياً لقيام النَّبيّ (ص) ببعث سريَّةٍ في ثلاثين راكباً ، عليهم عبد الله بن رواحة ، وفيهم عبد الله بن أُنيس ، فأتوه ، فقالوا: أرسلنا إليك رسول الله (ص) ليستعملك على خيبر ، فلم يزالوا به حتَّى تبعهم في ثلاثين رجلاً ، مع كلِّ رجلٍ منهم رديفٌ من المسلمين ، وكان هو رديف عبد الله بن أنيس على بعيره ، حتَّى إذا كانوا بَقرقَرة ثيار على ستَّة أميالٍ من خيبر ، ندم اليُسَيْر على مسيره إلى رسول الله (ص) ، فأهوى بيده على سيف رديفه ابن أُنيس ، ففطن له ، فاقتحم به ، ثمَّ ضربه بالسَّيف ، فقطع رجله ،

وضربه اليُسَير بِمِخْرَشٍ[(١١٤٦)] في يده مِنْ شواحط[(١١٤٧)] ، فضرب به وجه عبد الله فأمَّه[(١١٤٨)] ، ومال كلُّ رجلٍ من المسلمين على رديفه من اليهود فقتله ، إلا رجلاً واحداً أفلت على رجليه ، فلمَّا قدِم ابن أُنيس على رسول الله (ص) ؛ تفل على شجَّته ، فلم تَقِحْ ، ولم تؤذه. [ابن هشام (٣/٢٦٦ ـ ٢٦٧)][(١١٤٩)].

وكانت هذه السَّريَّة في شوال سنة ستٍّ من الهجرة[(١١٥٠)].

وفي هذه السَّريَّة دروسٌ ، وعبرٌ؛ منها:

١ ـ كانت الخطَّة النَّبويَّة هي محاولة إيقاف نهر الدَّم بين اليهود والمسلمين ابتداءً ، فقد كان دور عبد الله بن رواحة في هذا الاتجاه ، غير أنَّ الحقد اليهوديَّ الَّذي أشرب قلوبهم ، والسُّمَّ الَّذي ينفثونه على المسلمين ، هو الَّذي غلب اخر الأمر ، وأفسد الخطَّة كلَّها ، فقد حاولوا الغدر بالمسلمين ، فوقعت الدَّائرة عليهم.

٢ ـ إنَّ البأس في الحرب ما لم يكن غليظاً ، وشديداً؛ فلن يحسم المواجهة مع العدوِّ ، وسيجعل الحرب تفني كلَّ شيء ، وتأكل كلَّ شيءٍ ، فلا بدَّ من بثِّ الرَّهبة ، والرُّعب في قلب العدوِّ ، ولا بدَّ من

الشِّدَّة معه حين لا يجدي الحوار ، أو المناقشة ، ولا بدَّ من الغلظة الَّتي تشعر العدوَّ: أنَّ مَنْ يقاتله لا يخشى في الله لومة لائم.

٣ ـ شهد العامُ السَّادس من الهجرة تصعيداً عنيفاً في عمليَّات المواجهة مع العدو ، ولا يكاد يمرُّ شهرٌ دون سريَّةٍ ، أو سريَّتين تضرب في الصَّحراء ، وتفضُّ جمعاً ، أو تحطِّم عدوّاً ، أو تغتال طاغوتاً ، فقد كان شعار المرحلة: «الان نغزوهم ولا يغزوننا» [سبق تخريجه] ، فقد كان حزب الله ينطلق في الافاق باسم الله ، يحمل المبادأى الخالدة ، والقيم العليا يقدِّمها للخلق كافَّةً ، ويزيح كلَّ طاغوتٍ يحول دون وصول هذه المبادأى ، ونشهد حزب الله في أفراده جميعاً ، والَّذين تلقوا أعلى مستويات التَّربية الخلقية ، والفكريَّة ، والعسكريَّة ، والسياسيَّة كيف ينفِّذون هذا المنهج ، وكيف يكون واقعُهم ترجمةً عمليَّةً وحيَّةً لمبادئهم ، وكيف يتقدَّمون ليتصدَّروا مرحلةً جديدةً تبدأ معالمها ، وملامحها مع صلح الحديبية[(١١٥١)].

* * *

الفصل الثَّالث عشر

الفتح المبين (صلح الحديبية)

[البخاري (٢٧٣١ و٢٧٣٢) ، وأحمد (٣٢٤/٤ ـ ٣٢٦) ، والطبراني في المعجم الكبير (١٦/٢٠) برقم (١٤) ، وابن هشام (٣٢١/٣ ـ ٣٣٣) ، والبيهقي في الدلائل (٩٩/٤ ـ ١٠٨)].

المبحث الأوَّل

تاريخه ، وأسبابه ، ومخرج رسول الله (ص) إلى مكَّة

أولاً: تاريخه ، وأسبابه:

في يوم الإثنين الأوَّل من ذي القعدة سنة (٦ هـ)[(١١٥٢)] ، خرج الرَّسول (ص) من المدينة متوجهاً بأصحابه إلى مكَّة ؛ لأداء العمرة[(١١٥٣)]. وسبب هذه الغزوة أنَّ رسول الله (ص) رأى رؤيا في

منامه ـ وهو في المدينة ـ ، وتتلخَّص هذه الرُّؤيا في أنَّ النَّبيَّ (ص) رأى: أنَّه قد دخل مكَّة مع أصحابه المسلمين محرماً مؤدِّياً للعمرة ، وقد ساق الهدي معظِّماً للبيت مقدِّساً له ، فبشر النَّبي (ص) أصحابه ، ففرحوا بها[(١١٥٤)] فرحاً عظيماً ، فقد طال عهدُهم بمكَّة ، والكعبة؛ الَّتي رضعوا حبَّها ، ودانوا بتعظيمها ، وما زادهم الإسلام إلا ارتباطاً بها ، وشوقاً إليها ، وقد تاقت نفوسهم إلى الطَّواف حولها ، وتطلَّعت إليه تطلُّعاً شديداً ، وكان المهاجرون أشدَّهم حنيناً إلى مكَّة ، فقد ولدوا ، ونشؤوا فيها ، وأحبُّوها حبّاً شديداً ، وقد حيل بينهم وبينها ، فلمَّا أخبرهم رسول الله (ص) بذلك تهيَّؤوا لتلك الزيارة العظيمة[(١١٥٥)] ، واستنفر (ص) أهل البوادي والأعراب؛ ليخرجوا معه؛ لأنَّه كان يخشى أن تصدَّه قريش عن البيت الحرام ، وكانت استخبارات المدينة قد

علمت بأمر التَّحالف العسكريِّ الَّذي عقد بين قريش في جنوب المدينة المنوَّرة وخيبر في شمالها ، وكان هدف هذا التَّحالف جعل الدولة الإسلاميَّة بين طرفي الكماشة ، ثمَّ إطباق فكَّيها عليها ، وإنهاء الوجود الإسلامي فيها ، فقد حان الوقت لكسر ذلك التَّحالف سياسيّاً ، فقد كانت الكعبة في نظر العرب قاطبةً ليست ملكاً لقريش ، بل هي تراث أبيهم إسماعيل ، ولهذا فليس من حقِّ قريش أن تمنع من زيارتها مَنْ تشاء ، وتجيز مَنْ تشاء ، فإذاً من حقِّ محمَّد (ص) وأصحابه زيارةُ الكعبة[(١١٥٦)].

وانتشر خبر خروج رسول الله (ص) بين قبائل العرب ، وكان انتشار الخبر له أثرٌ في الرأي العامِّ ، وخصوصاً بعدما أكَّد رسول الله (ص) : أنَّه لا يريد حرباً ، وإنَّما يريد أن يعتمر ، ويعظِّم شعائر الله ، وحقَّق هذا الفعل الكريم مكاسب إعلاميَّةً رفيعة المستوى ، وقد كان هدف النَّبيِّ (ص) معلناً: ألا وهو زيارة بيت الله الحرام؛ لأداء العمرة ، فتجرَّد هو وأصحابه من المخيط ، ولبسوا ثياب الإحرام ، وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة بعد أن قلَّد الهدي ، وأشعره[(١١٥٧)].

وقد كان (ص) على جانبٍ كبير من الحيطة ، والحذر ، فقد أرسل بشر بن سفيان الخزاعيَّ عيناً له[(١١٥٨)] ، وقدَّم بين يديه طليعة استكشافيَّةً مكوَّنةً من عشرين رجلاً ، وفي ذلك يقول الواقديُّ: «دعا رسول الله (ص) عبَّاد بن بِشر فقدَّمه أمامه طليعةً في خيل المسلمين عشرين فارساً ، وكان فيها رجالٌ من المهاجرين ، والأنصار»[(١١٥٩)] ، وكان هدفه (ص) من ذلك الاستعداد للطوارأى الَّتي يمكن أن يفاجأ بها ، ـ وأيضاً ـ فقد كانت مهمَّة هذه الطليعة استكشاف خبر العدوِّ[(١١٦٠)].

وأخذ (ص) بمشورة عمر في ذي الحليفة عندما قال له: يا رسول الله! تدخل على قومٍ هم لك أهل حربٍ بغير سلاحٍ ، ولا كراعٍ؟ فبعث النَّبيُّ (ص) إلى المدينة من يحمل له الكراع ، والسِّلاح[(١١٦١)]

وكان قصده (ص) من ذلك الاستعداد لهؤلاء الأعداء؛ الَّذين يملكون من السِّلاح ، والعتاد ما يستطيعون به إلحاق الأذى بالمسلمين ، والنَّيل منهم[(١١٦٢)] ، وهذا التَّعامل مع سنَّة الأخذ بالأسباب من هديه الكريم الَّذي جعله لأمَّته لتقتدي به من بعده (ص) ؛ لما في ذلك من المصالح الكثيرة ، ولما فيه من درءِ مكايد الأعداء؛ الَّذين يتربَّصون بالمسلمين الدَّوائر(٣).

ثانياً: وصول النَّبي (ص) إلى عُسْفَان:

لما وصل رسول الله (ص) إلى عسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبيُّ الخزاعيُّ ، فقال: يا رسول الله! هذه قريش قد سمعت بمسيرك؛ ومعها العُوذُ المطَافِيلُ[(١١٦٣)] ، قد لبسوا جلود النُّمور يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عَنْوَةً أبداً ، فقال رسول الله (ص) : «يا ويح[(١١٦٤)] قريش! لقد أكلتهُم الحرب ، ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائر النَّاس؟ فإن أصابوني؛ كان الَّذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام؛ وهم وافرون[(١١٦٥)] ، وإن لم يفعلوا؛ قاتلوا وبهم قوَّة ، فماذا تظن قريش؟ والله! إني لا أزال أجاهدهم على الَّذي بعثني الله له ، أو تنفرد هذه السَّالفة[(١١٦٦)]».

وقد استشار (ص) أصحابه لما بلغه خبر استعداد قريش لصدِّه عن دخول البيت الحرام ، وعرض (ص) على الصَّحابة رضي الله عنهم المشورة في هذا الأمر على رأيين يحملان العزم ، والتَّصميم:

١ ـ الميل إلى عيال وذراري الأحابيش الَّذين خرجوا لمعاونة قريش على مقاتلة المسلمين وصدِّهم عن البيت.

٢ ـ قصد البيت الحرام فمن صدَّه عنه قاتله حتَّى يتمكن من تحقيق هدفه[(١١٦٧)]. ولما عرض (ص) المشورة في هذا الأمر على الصَّحابة؛ تقدَّم أبو بكر الصِّدِّيق برأيه الَّذي تدعمه الحجَّة الواضحة ، حيث أشار على رسول الله (ص) بترك قتالهم ، والاستمرار على ما خرج له من أداء العمرة؛ حتَّى يكون بدء القتال منهم ، فاستحسن النَّبيُّ (ص) هذا الرَّأي ، وأخذ به ، وأمر النَّاس أن يمضوا في هذا السَّبيل[(١١٦٨)] ، وعندما اقتربت خيل المشركين من المسلمين صلَّى النَّبيُّ (ص) بأصحابه صلاة الخوف بِعُسْفَان.

ثالثاً: الرَّسول (ص) يغيِّر الطَّريق ، وينزل بالحديبية:

ولما بلغ رسول الله (ص) : أنَّ قريشاً قد خرجت تعترض طريقه ، وتنصب كميناً له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد ، وهو لم يقرِّر المصادمة ، رأى أن يغيِّر طريق الجيش الإسلامي تفادياً للصِّدام مع

المشركين ، فقال: مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريقٍ غير طريقهم؛ الَّتي هم بها؟ فقال رجلٌ مِنْ أسلم: أنا يا رسول الله! فسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب شَقَّ على المسلمين السَّير
فيه ، حتَّى خرجوا إلى أرضٍ سهلة عند منقطع الوادي ، وعند ذلك قال رسول الله (ص) للناس: «قولوا: نستغفر الله ، ونتوب إليه». فقالوا ذلك.
فقال: «والله إنَّها الحطَّة الَّتي عُرِضت على بني إسرائيل ، فلم يقولوها[(١١٦٩)]».
فأمر رسول الله (ص) النَّاس أن يسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحَمْشِ في طريق تخرجه إلى ثنية المرار ، فهبط الحديبية من أسفل مكَّة ، فسلك الجيش ذلك الطريق بخفَّة ودون أن يشعر به أحد ، فما نظر خالدٌ إلا وقَتَرَةُ (غبرة) جيش المسلمين قد ثارت ، فعاد مسرعاً هو ومن معه إلى مكَّة يُحذِّر أهلها ، ويأمرهم بالاستعداد لهذا الحدث المفاجأى[(١١٧٠)] وقد أصاب الذُّعر المشركين وفوجئوا بنزول الجيش الإسلامي بالحديبية ، حيث تعرَّضت مكَّة للخطر ، وأصبحت مهدَّدة من المسلمين تهديداً مباشراً[(١١٧١)].
يقول اللواء محمود شيت خطَّاب في هذا الدَّرس الرائع: لم تكن حركة المسلمين على هذا الطريق خوفاً من قوَّات الجيش ، فالَّذي يخاف من عدوِّه لا يقترب من قاعدته(٢) الأصليَّة ، وهي مركز قوَّاته ، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصليَّة؛ حتَّى يُطيل خط مواصلات العدوِّ ، وبذلك يزيد من صعوباته ، ومشاكله ، ويجعل فرصة النَّصر أمامه أقلَّ من حالة الاقتراب من قاعدته الأصليَّة[(١١٧٢)].
وقد جاء في كتاب (اقتباس النِّظام العسكريِّ في عهد الرَّسول (ص)) ما يُبيِّن الحكمة من تغيير الطُّرق ما نصُّه: ويؤخذ من اتِّخاذ الأدلَّة والتَّحوُّل إلى الطُّرق الامنة: أنَّ القيادة الواعية البصيرة تسلك في سيرها بالجيش طرقاً بعيدةً عن المخاطر، والمهالك ، وتتجنَّب الدُّروب التي تجعل الجيش خاضعاً تحت تصرُّفات العدوِّ ، وهجماته[(١١٧٣)].
رابعاً: «ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخُلُقٍ ، ولكنْ حبسها حابسُ الفيل»:
وعندما اقترب الرَّسول (ص) من الحديبية بركت ناقتُه القصواء ، فقال الصَّحابة رضي الله عنهم: خلأتِ القصواء[(١١٧٤)] ، فقال النَّبيُّ (ص) : «ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بِخُلُقٍ ، ولكن حبسها حابس الفيل». ثمَّ قال: «والَّذي نفسي بيده! لا يسألونني خطَّةً يعظِّمون فيها حرمات الله
إلا أعطيتهم إيَّاها[(١١٧٥)]». ثمَّ زجرها ، فوثبت ، ثمَّ عدل عن دخول مكَّة ، وسار حتَّى نزل بأقصى الحديبية على ثمدٍ ـ بئر ـ قليل الماء ، وما لبثوا أن نزحوه ، ثمَّ اشتكوا إلى رسول الله (ص) العطش

، فانتزع سهماً من كنانته ، ثمَّ أمرهم أن يجعلوه فيه ، فجاش لهم بالرِّيِّ ، فارتووا جميعاً [(١١٧٦)]، وفي روايةٍ: أنه جلس على شفة البئر ، فدعا بماءٍ ، فمضمض ، ومجَّ في البئر[(١١٧٧)]. ويمكن الجمع بأن يكون الأمران معاً وقعا ، كما ذكر ابن حجر[(١١٧٨)] ويؤيِّده ما ذكره الواقديُّ[(١١٧٩)] ، وعروة[(١١٨٠)] من أنَّ الرَّسول (ص) تمضمض في دلوٍ ، وصبَّه في البئر ، ونزع سهماً من كنانته ، فألقاه فيها ، ودعا ، ففارت[(١١٨١)].

وفي بروك ناقة رسول الله (ص) ، وقَسَمِه بعد ذلك دروسٌ ، وعبرٌ ، منها:

١ ـ كلُّ شيءٍ في هذا الكون يسير بأمر الله ، ومشيئته ، ولا يخرج في سيره عن مشيئته ، وإرادته ، فتأمَّل في ناقة رسول الله (ص) أين بركت ، وكيف كره الصَّحابة بروكها ، وحاولوا إنهاضها لتستمرَّ في سيرها ، فيستمرُّوا في سيرهم إلى البيت العتيق مهما كانت النَّتائج ، ولكنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أراد غير ذلك[(١١٨٢)].

٢ ـ وقد استنبط ابن حجرٍ العسقلانيُّ ـ رحمه الله ـ فائدةً جليلةً من قوله (ص) : «حبسها حابس الفيل»[(١١٨٣)]؛ فقال: وفي هذه القصَّة جواز التشبيه من الجهة العامَّة ، وإن اختلفت الجهة الخاصَّة؛ لأنَّ أصحاب الفيل كانوا على باطلٍ محضٍ ، وأصحاب هذه النَّاقة كانوا على حقٍّ محضٍ ، لكن جاء التشبيه من جهة إرادة الله منع الحرم مطلقاً ، أمَّا مِنْ أهل الباطل ؛ فواضحٌ ، وأمَّا مِنْ أهل الحقِّ فللمعنى الَّذي تقدَّم ذكره[(١١٨٤)].

٣ ـ ومن الفوائد: أن المشركين ، وأهل البدع والفجور ، والبُغاة ، والظَّلمة إذا طلبوا أمراً يعظِّمون فيه حرمةً من حرمات الله تعالى؛ أُجيبوا إليه ، وأُعْطُوه ، وأُعِينوا عليه؛ وإن مُنعوا غيره ، فيعانون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى ، لا على كفرهم وبغيهم ، ويُمنعون ممَّا

سوى ذلك ، فكلُّ من التمس المعاونة على محبوبٍ مُرْضٍ له أجيب إلى ذلك كائناً مَنْ كان ، ما لم يترتَّب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوضٌ للهِ أعظم منه، وهذا من أدقِّ المواضيع، وأصعبها، وأشقِّها على النُّفوس[(١١٨٥)].

٤ ـ إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، جلَّت قدرتُه ، وعزَّت عظمتُه قضى ألا يكون قتالٌ بين المسلمين ، والمشركين من أهل مكَّة في هذه الغزوة بالذَّات لحِكَمٍ ظهرت فيما بعدُ؛ منها:

أ ـ إنَّ دخول المسلمين بالقوَّة يعني: أن تحدث مذابح ، وتَزْهَقَ أرواحٌ كثيرةٌ ، وتُسفَك دماءٌ غزيرةٌ من الطَّرفين ، وهذا أمرٌ لم يُرِدْه البارأى سبحانه ، وكان لمصلحة الفريقين: المؤمنين ، والمشركين.

ب ـ إنَّ من المحتمل أن ينال الأذى ، والقتل ، والتَّشريد على أيدي المؤمنين بعض المستضعفين من إخوانهم المسلمين في مكَّة؛ الَّذين يُخفون إسلامهم خوفاً من قومهم ، وهذا فيه ما فيه من المعرَّة الَّتي لا يليق بمسلمٍ أن يقع فيها.
قال سبحانه: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *} [الفتح: ٢٥].
ج ـ لقد سبق في علم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنَّ هؤلاء الَّذين يقفون اليوم صادِّين رسول الله (ص) ، وأصحابه رضي الله عنهم عن المسجد الحرام هم الَّذين سيفتح الله قلوبهم إلى الإسلام ، وسيفتح الله على أيديهم بلاداً كثيرةً ، حين يحملون هذه الرِّسالة للنَّاس ، وينيرون ظلمة الطَّريق للمُدْلجين[(١١٨٦)].
خامساً: السَّفارة بين الرَّسول (ص) ، وقريش:
بذل رسول الله (ص) ما في وُسْعِهِ؛ لإفهام قريش: أنَّه لا يريد حرباً معهم ، وإنَّما يريد زيارة البيت الحرام ، وتعظيمه ، وهو حقٌّ للمسلمين ، كما هو حقٌّ لغيرهم ، وعندما تأكَّدت قريش من ذلك أرسلت إليه مَنْ يفاوضه ، ويتعرَّف على قوَّة المسلمين ، ومدى عزمهم على القتال؛ إذا أُلجئوا إليه ، وطمعاً في صدِّ المسلمين عن البيت بالطُّرق السِّلميَّة من جهةٍ ثالثةٍ[(١١٨٧)].

١ ـ رَكْبٌ من خزاعة بقيادة بُدَيْل بن ورقاء:
جاء بُدَيْل بن وَرْقَاء في رجالٍ من خُزاعة ، وكانت خزاعة عَيْبَةَ[(١١٨٨)] نُصْح رسول الله (ص) من أهل تهامة ، وبيَّنوا: أنَّ قريشاً تعتزم صدَّ المسلمين عن دخول مكة، فأوضح لهم الرَّسول (ص) سبب مجيئه ، وذكر لهم الضَّرر الَّذي وقع على قريش من استمرار الحرب ، واقترح عليهم أن تكون بينهم هدنةٌ إلى وقتٍ معلومٍ حتَّى يتَّضح لهم الأمر ، وإن أبوا؛ فلا مناص من الحرب ، ولو كان في ذلك هلاكه ، فنقلوا ذلك إلى قريشٍ ، وقالوا لهم: يا معشر قريش! إنَّكم تعجَلون على محمَّدٍ ، إنَّ محمداً لم يأتِ لقتال ، وإنَّما جاء زائراً هذا البيت. فاتَّهموهم ، وخاطبوهم بما يكرهون ، وقالوا: وإن كان إنَّما جاء لذلك؛ فلا والله! لا يدخلها علينا عَنْوَةً أبداً ، ولا تتحدَّث بذلك العرب[(١١٨٩)]. وقد ظهرت براعة النَّبيِّ (ص) السِّياسيَّة في عرضه على مشركي مكَّة الهدنة ، والصُّلح؛ لأنَّ في ذلك فوائدَ كثيرةً ، منها:
أ ـ بالهدنة يضمن حياد قريش ، ويعزلها عن أيِّ صراعٍ يحدث في الجزيرة العربيَّة ، سواءٌ كان هذا الصِّراع مع القبائل العربية الأخرى ، أم مع اليهود؛ ذلك العدوُّ اللَّئيم الغادر؛ الَّذي يتربَّص بالمسلمين الدَّوائر.

ب ـ حرص الرَّسول (ص) على أن يبقى باب الاتِّصال مفتوحاً بينه ، وبين قريشٍ ، ليسمع منهم ، ويسمعوا منه بواسطة الرُّسل ، والسُّفراء ، وفي هذا تقريبٌ للنُّفوس وتبريدٌ لجوِّ الحرب ، وإضعافٌ لحماسهم نحو القتال.

ج ـ حرصُه (ص) على أن تُدْرِك خزاعةُ بقيادة بُديلٍ ، والرَّكبُ الَّذي معه: أن حليفهم قويٌّ ، فتزداد ثقتُهم به ، وحلفهم له ، ولبني هاشم من قبل الإسلام ، فقد بقي ، ولم يُلْغَ ، وتأكَّد في صلح الحديبية.

د ـ إنَّ العقلاء الَّذين يفكِّرون بعقولهم حين يسمعون كلام الرَّسول (ص) ، وأنَّه جاء معظماً للبيت؛ والمشركون يردُّونه ، وهو يصرُّ على تعظيمه سيقف هؤلاء بجانبه ، ويتعاطفون معه ، فيقوى مركزُه ، ويضعُف مركز قريشٍ الإعلاميُّ ، والدِّينيُّ في نفوس النَّاس.

هـ إنَّ مشركي مكَّة لم يطمئنُّوا إلى كلام بُديلٍ الَّذي نقله إليهم؛ ذلك لأنَّهم يعلمون: أنَّ خُزاعة كانت عَيْبَةَ نُصْحٍ لرسول الله (ص) ، ويشعرون بودِّ خُزاعة للرَّسول (ص) ، والمسلمين[(١١٩٠)].

و ـ ويؤخذ من جواب رسول الله (ص) لبُديل بن ورقاء حسنُ التلطُّف للوصول إلى الطَّاعات ، وإن كانت غير واجبةٍ ما لم يكن ذلك ممنوعاً شرعاً؛ لأنَّ النَّبيَّ (ص) أجاب المشركين لما طلبوا منه ، ولم يُظهر لهم ما في النُّفوس من البغض ، والكراهية لهم لطفاً منه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ فيما يؤمِّل مِنَ البلوغ إلى الطَّاعة؛ الَّتي خرج من أجلها[(١١٩١)].

٢ ـ سفارة عروة بن مسعودٍ الثَّقفيّ:

لم تقبل قريش ما نقله بُدَيْلُ بنُ ورقاءَ الخُزاعيُّ عن رسول الله (ص) ؛ من أنَّه جاء زائراً للبيت ، ولم يأتِ مقاتلاً ، واتَّهمتهم ، بل وأسمعتهم ما يكرهون ، فاقترح عليهم عروةُ بن مسعودٍ الثَّقفي أن يقابل الرَّسول (ص) ، ويسمع منه ، ثمَّ يأتيهم بالخبر اليقين [(١١٩٢)]، وقد ذكر ذلك البخاريُّ في صحيحه ، فقال: ... فقام عروةُ بن مسعودٍ فقال: أيْ قومِ ، ألستم بالوالدِ؟ قالوا: بلى! قال: أولستُ بالولد؟ قالوا: بلى! قال: فهل تتَّهموني؟ قالوا: لا! قال: ألستم تعلمون أنِّي استنفرت أهل عكاظ[(١١٩٣)] ، فلما بَلَّحُوا[(١١٩٤)] عليَّ جئتكم بأهلي ، وولدي ، ومن أطاعني؟ قالوا: بلى! قال: فإنَّ هذا قد عرض عليكم خُطَّةَ رُشْدٍ فاقبلوها ، ودعوني اتِهِ ، قالوا: ائته. فأتاه ، فجعل يكلِّم النَّبي (ص) ، فقال النَّبيُّ (ص) نَحْواً من قوله لبُدَيْلٍ ، فقال عُرْوَةُ عند ذلك: أيْ محمَّدُ! أرأيت إن استأصلت أمر قومك ، هل سمعت بأحدٍ من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإنِّي والله لا أرى وجوهاً ، وإنِّي لأرى أشواباً[(١١٩٥)] من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا ، ويَدَعُوك. فقال أبو بكر: امْصُصْ بَظْرَ[(١١٩٦)]

الَّلاتِ ، أنحن نفرُّ عنه وندعه؟! فقال: مَنْ ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والَّذي نفسي بيده! لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجْزِكَ بها؛ لأجبتُك.

لقد حاول عروة بن مسعود أن يشنَّ على المسلمين حرباً نفسيَّة حتَّى يهزمهم معنويَّاً ، فاستخدم عنصر الإشاعة ، ويظهر ذلك عندما لوَّح بقوَّة قريشٍ العسكريَّة ، معتمداً على المبالغة في تصوير الموقف بأنه سيؤول لصالح قريشٍ لا محالة ، وذلك جدير بحدوث الفتنة ، والإرباك في صفوف المسلمين ، وذلك حينما حاول إضعاف الثِّقة بين القائد ، وجنوده ، عندما قال للنَّبي (ص) : فإنِّي والله! لا أرى وجوهاً ، وإنِّي لأرى أشواباً من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا ، ويدعوك.

حاول ذلك من أجل التأثير على نفسيَّات المسلمين ، ولخدمة أهداف قريشٍ العسكريَّة ،

والإعلاميَّة ، وحاول ـ أيضاً ـ أن يفتعل أزمةً عسكريَّة كبيرةً بين النَّبيّ (ص) وجنوده من أجل التَّأثير على معنوياتهم ، وتحطيم عزائمهم ، وهذا من أقوى أساليب الحرب النَّفسية الَّتي استخدمت ضدَّ المسلمين أثناء تلك المفاوضات، وحاول عروة أن يثير الرُّعب، وذلك بتخويف المسلمين من قوَّة قريش الَّتي لا تقهر ، وتصوير المعركة بأنَّها في غير صالحهم. لقد مارس عروةُ بن مسعودٍ في مفاوضاته عناصر الحرب النفسيَّة من إشاعةٍ، وافتعال الأزمات، وإثارة الرُّعب[(١١٩٧)]، إلا أنَّ تلك العناصر تحطَّمت أمام الإيمان العميق ، والتَّكوين الدَّقيق ، والصَّفِّ الإسلاميِّ المرصوص.

ومن المفارقات الرَّائعة الَّتي حصلت أثناء المفاوضات مع عروة بن مسعود، وهي من عجائب الأحداث الَّتي يستشفُّ منها الدَّليل القاطع على قوة الإيمان الَّتي كان يتمتَّع بها أصحاب النَّبيّ (ص) ، وعلى قدرة هذا الدِّين من تحويل الإنسان من شيطانٍ مريدٍ إلى إنسان فاضلٍ نبيلٍ ، حيث كان أحد الذين يتولَّون حراسة النَّبيّ (ص) أثناء محادثاته مع عروة بن مسعود الثَّقفي في الحديبية هو المغيرة بن شُعبة[(١١٩٨)] ، ابن أخي عروة بن مسعود نفسه، وكان المغيرة هذا قبل أن يهديه الله للإسلام شابَّاً فاتكاً سكِّيراً ، قاطعاً للطَّريق، غير أنَّ دخوله للإسلام حوَّله إلى إنسانٍ اخر ، وقد أصبح بفضل الله تعالى من الصَّفوة المؤمنة ، وقد وقع عليه الاختيار ليقوم بمهام حراسة النَّبيّ (ص) في ذلك الجو الملبَّد بغيوم الحرب، وكان من عادة الجاهليَّة في المفاوضات، أن يمسك المفاوض بلحية الَّذي يراه ندَّاً له أثناء الحديث ، وعلى هذه القاعدة كان عروة بن مسعود يمسك بلحية رسول الله (ص) أثناء المناقشة ، الأمر الَّذي أغضب المغيرة بن شعبة؛ الَّذي كان قائماً على رأس رسول الله (ص) بالسَّيف يحرسه ، وعلى وجهه المغفر ،

فانتهر عمَّه ، وقرع يده بقائم السَّيف قائلاً له: اكفف يدك عن مسِّ لحية رسول الله (ص) قبل ألا تصلَ إليك ، وكان النَّبيُّ (ص) يبتسم لِلَّذي يجري بين عروة المشرك وبين ابن أخيه المؤمن.
ولما كان المغيرة بن شعبة يقف بلباسه الحربيِّ متوشحاً سيفه ، ودرعه ، وعلى وجهه المغفر؛ فإنَّ عمَّه عروة لم يكن باستطاعته معرفته ، فقال للنَّبيِّ (ص) وهو في أشدِّ الغضب: ليت شعري من أنت يا محمَّد مِنْ هذا الَّذي أرى من بين أصحابك؟ فقال له رسول الله (ص) : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة ، فقال له عمُّه: وأنت بذلك يا غُدَر؟! لقد أورثتنا العداوة من ثقيف أبد الدَّهر ، والله ما غسلت غدرتك إلا بالأمس ، كان المغيرة صحب قوماً في الجاهليَّة ، فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثمَّ جاء ، فأسلم ، فقال النَّبيُّ (ص) : أمَّا الإسلام فأقبل ، وأمَّا المال فلست منه في شيءٍ.

لقد فشل عروة في مفاوضاته ، ورجع محذِّراً قريشاً من أن تدخل في صراعٍ مسلَّحٍ مع النَّبيِّ (ص) ، وأصحابه ، وقال لهم: ... يا قوم! إنِّي قد وفدت على الملوك: على كسرى ، وهرقل ، والنَّجاشي ، وإنِّي والله ما رأيت ملكاً قطُّ أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من محمَّد ، وأصحابه ، والله! ما يشدُّون إليه النَّظر ، وما يرفعون عنده الصَّوت ، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمرٍ ، فيفعل ، وما يتنخَّمُ ، وما يبصق إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم يمسح بها جلده ، وما يتوضَّأ إلا ازدحموا عليه أيُّهُم يظفر منه بشيءٍ.
وقد حزرت القوم ، واعلموا أنَّكم إن أردتم السَّيف؛ بذلوه لكم ، وقد رأيت قوماً ما يبالون ما يُصنعُ بهم؛ إذا منعوا صاحبهم. والله! لقد رأيت نسيات معه ، إن كنَّ ليسلمنه أبداً على حالٍ ، فَرَوا رأيكم ، وإيَّاكم وإضجاع[(١١٩٩)] الرَّأي ، فمادُّوه يا قوم ، اقبلوا ما عرض ، فإنِّي لكم ناصحٌ مع أنِّي أخاف ألا تُنْصَروا عليه؛ رجلٌ أتى هذا البيت معظِّماً له ، معه الهدي ، ينحره ، وينصرف! فقالت قريش: لا تكلَّم بهذا يا أبا يعفور[(١٢٠٠)]! لو غيرك تكلَّم بهذا؛ لَلُمْنَاهُ ، ولكن نردُّهُ عن البيت في عامنا هذا ، ويرجع قابل[(١٢٠١)].
لقد انتقلت الحرب النَّفسيَّة وتأثيرها في صفوف المسلمين لتعمل داخل جبهة قريشٍ ، وفي نفوسهم ، فقد كان تصوير عروة لما راه صادقاً ، حيث بيَّن لقريشٍ وضع المسلمين في الحديبية ، من طاعتهم لنبيِّهم الكريم ، وحبِّهم له ، وتفانيهم بالدِّفاع عنه ، وبما يتمتَّعون به من معنوياتٍ عاليةٍ جدّاً ، واستعدادٍ عسكريٍّ ، ونفسيٍّ يفوق الوصف ، فكان ذلك بمثابة التَّحذير الفعليِّ لقريش بعدم التَّعجُّل ، والدُّخول في حربٍ مع النَّبيِّ (ص) ، وأصحابه ، ممَّا قد تكون نتائج هذه المعركة لصالح المسلمين ، الأمر الَّذي أُسقِطَ في أيدي زعمائها ، ولم تكن قريش تتوقَّعه أبداً في تقويمها للأمور.

لقد كان وَقْعُ كلِّ كلمةٍ قالها سيِّد ثقيف كالصَّاعقة على مسامع نفوس زعماء قريش ، لقد كان (ص) موفقاً من قبل الله تعالى ، ولذلك نجد أثره على عروة بن مسعود ممَّا جعل الانشقاق يدبُّ في معسكر قريش ، وأخذت جبهة قريش تتداعى أمام قوَّة الحقِّ الصَّامدة ، وكذلك فقد انهارت حُجَّة قريش في جمعها للعرب ضدَّ النَّبيِّ (ص) .

لقد نجح النَّبيُّ (ص) بحكمته ، وذكائه نجاحاً عظيماً باستخدام الأساليب الإعلاميَّة ، والدبلوماسيَّة المتعدِّدة للحصول على الغاية المنشودة ، وهي تفتيت جبهة قريش الدَّاخلية ، وإيقاع الهزيمة في نفوسهم ، وإبعاد حلفائهم عنهم ، وإنَّ هذه النتيجة لتعدُّ بحقٍّ نصراً ساحقاً

حقَّقه رسول الله (ص) على الجبهات السِّياسيَّة ، والإعلاميَّة ، والعسكريَّة[(١٢٠٢)].

٣ . سفارة الحُلَيْسِ بن علقمة:

ثمَّ بعثوا الحُلَيْسَ بن علقمة الكِنانيَّ سيِّد الأحابيش ، فلمَّا راه رسول الله (ص) قال: «إنَّ هذا من قومٍ يتألَّهون ، فابعثوا الهدي في وجهه حتَّى يراه» ، وأمر برفع الصَّوت في التَّلبية ، فلمَّا رأى الحُلَيْسُ الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده؛ رجع إلى قريشٍ قبل أن يصل إلى رسول الله (ص) ، وذلك إعظاماً لما رأى[(١٢٠٣)] ، فقد كان الوادي مجدباً لا ماء فيه ، ولا مرعى ، وقد أكل الهدي أوباره من طول الحبس عن مَحِلِّه ، ورأى المسلمين؛ وقد استقبلوه رافعين أصواتهم بالتَّلبية ، وهم في زيِّ الإحرام ، وقد شعِثوا من طول المكوث على إحرامهم... ولذلك استنكر تصرُّف قريشٍ بشدَّةٍ ، وانصرف سيِّد بني كنانة عائداً من حيث أتى دون أن يفاتح النَّبيَّ (ص) بشيءٍ ، أو أن يفاوضه ، كما كان مقرَّراً من قبل ، واعتبر عمل قريش عدوانيّاً ضدَّ زوَّار بيت الله الحرام ، ولا يجوز لأحدٍ أن يؤيِّدها ، أو أن يناصرها على ذلك[(١٢٠٤)] ، فرجع محتجّاً على قريشٍ الَّتي أعلنت غضبها لصراحة الحُلَيْس ، وحاولت أن تتلافى هذا الموقف الَّذي يهدِّد بانقسامٍ خطير في جبهة قريشٍ العسكريَّة ، ونسف الحلف المعقود بين قريش ، والأحابيش ، وقالوا لزعيم الأحابيش: إنَّما كلُّ ما رأيت هو مكيدةٌ من محمَّدٍ ، وأصحابه ، فاكفف عنَّا حتَّى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[(١٢٠٥)].

لقد كان النَّبيُّ (ص) عالماً ، ومستوعباً لشخصية الحُلَيْسِ ، ونفسيَّته ، ويظهر ذلك في قوله (ص) : «هذا من قومٍ يتألَّهون» ، فالواضح من هذه المعلومة: أنَّ النَّبيَّ (ص) كان على معرفةٍ تامَّةٍ بهذا الرَّجل ، وبحكم هذه المعرفة قد درس شخصيته دراسةً موضوعيَّةً ، وذلك بما كان عنده من حبٍّ شديدٍ من التعظيم للحرمات ، والمقدَّسات والعمل على الاستفادة الكاملة من هذا الجانب في كسب المعرفة،

وعلى هذا الأساس فقد قام (ص) بوضع خطَّةٍ مُحْكَمةٍ مناسبةٍ تقضي بوضع الحقائق كاملةً أمام هذا الرَّجل، وإظهار موقف المسلمين، أو على الأقلِّ وقوفه على الحياد في هذا الصِّراع.

والجدير بالذِّكر: أنَّ الحُلَيْسَ كان يتمتَّع بسمعةٍ طيِّبةٍ بين العرب جميعاً؛ وذلك لما يتميَّز به من رجاحة العقل ، ولما يتمتَّع به من مركزٍ ممتازٍ بوصفه زعيماً ، وقائداً لقوات الأحابيش ، كما كان يتمتَّع باحترامٍ وتقديرٍ من جانب النَّبيِّ (ص) وقريشٍ على حدٍّ سواء ، لهذا فإنَّه إذا ما تبيَّن له أنَّ

الحقَّ ، والعدل في جانب المسلمين؛ فإنَّه يستطيع أن يقوم بدورٍ مهمٍّ في إحلال السَّلام بين الطَّرفين المتنازعين ، والعمل على كبح جماح قريش ، وإقناعها بالعدول عن موقفها العدائيِّ ضدَّ المسلمين ، وصدِّهم عن المسجد الحرام. ومن هنا فقد كانت الدِّراسة النَّفسيَّة التي قام بها رسول الله (ص) لشخصيَّة الحُلَيْس تتناسب كلِّيّاً مع المبادأى الَّتي يُؤمن بها ، وعلى ذلك فقد كانت درجة التأثير والاستجابة الناتجة عن هذه العمليَّة إيجابيةً تماماً[(١٢٠٦)] ، ومرضيةً.

وهكذا استطاع (ص) أن يؤثِّر على عروة بن مسعود ، والحُلَيْس بن علقمة ممَّا جعل الانشقاق يدبُّ في صفوف مشركي مكَّة. يقول الأستاذ العقَّاد عن قدرة الرَّسول (ص) في توظيف الطَّاقات ، وإدارة الصِّراع: كان رسول الله (ص) الخبير بتجنيد بعوث الحرب ، وبعوث الاستطلاع ، خبيراً كذلك بتجنيد كلِّ قوَّةٍ في يده متى وجب القتال ، إن كانت قوَّة رأيٍ ، أو قوَّة لسانٍ ، أو قوَّة نفوذٍ ، فما نعرف أنَّ أحداً وجَّه قوَّة الدَّعوة توجيهاً أشدَّ ، ولا أنفع في بلوغ الغاية من توجيهه (ص) . ثمَّ يضيف الكاتب قائلاً: والدَّعوة في الحرب ـ كما لا يخفى ـ لها غرضان أصيلان من بين أغراضها العديدة:

أحدهما: إقناع خصمك والنَّاس بحقِّك.

وثانيهما: إضعافه عن قتالك بإضعاف عزمه ، وإيقاع الشَّتات بين صفوفه. ثمَّ يقول: وربما بلغ النَّبيُّ (ص) برجلٍ واحدٍ في هذا الغرض ما لم تبلغه الدُّول بالفِرَق المنظَّمة[(١٢٠٧)].

٤ ـ سفارة مِكْرَز بن حَفْصٍ:

وكان من سفراء قريش يوم الحديبية مِكْرَزُ بن حفصٍ ، وقد روى البخاريُّ ذلك فقال:... فقام رجلٌ منهم ، يقال له: مِكْرَز بن حفصٍ ، فقال النَّبيُّ (ص) : هذا مكرَز ، وهو رجلٌ فاجر ، فجعل يُكَلِّمُ النَّبيَّ (ص) ، فبينما هو يكلِّمه إذ جاء سُهَيْلُ بن عمرو ، قال مَعْمَر: فأخبرني أيُّوب عن عكرمة: أنَّه لما جاء سهيل بن عمرو ، قال النَّبيُّ (ص) : «قد سَهُلَ لكم من أمركم» ولنا حديثٌ مع سهيلٍ بإذن الله تعالى.

سادساً: الوفود النَّبويَّة إلى قريشٍ ، ووقوع بعض الأسرى في يد المسلمين:

رأى النَّبيُّ (ص) أنَّ من الضَّرورة إرسال مبعوثٍ خاصٍّ من جانبه إلى قريشٍ يبلِّغهم فيها نواياه السِّلميَّة بعدم الرَّغبة في القتال ، واحترام المقدَّسات ، ومن ثَمَّ أداء مناسك العمرة ، والعودة إلى المدينة، فوقع الاختيار على أن يكون مبعوث الرَّسول (ص) إلى قريش (خِراشَ بن أُميَّة الخُزاعيَّ) ، وحمله على جملٍ يقال له: (الثَّعلب) ، فلمَّا دخل مكَّة عقرت به قريش ، وأرادوا

قتل خِرَاش ، فمنعهم الأحابيش ، فعاد خِراش بن أميَّة إلى رسول الله (ص) ، وأخبره بما صنعت قريش ، فأراد رسول الله (ص) أن يرسل سفيراً اخر لتبليغ قريشٍ رسالة رسول الله (ص) ، ووقع اختيار الرَّسول (ص) في بداية الأمر على عمر بن الخطَّاب[(١٢٠٨)] ، فاعتذر لرسول الله (ص) عن الذَّهاب إليهم ، وأشار على رسول الله (ص) أن يبعث عثمان مكانه[(١٢٠٩)] ، وعرض عمر رضي الله عنه رأيه هذا معزَّزاً بالحجَّة الواضحة ، وهي ضرورة توافر الحماية لمن يخالط هؤلاء الأعداء؛ وحيث إنَّ هذا الأمر لم يكن متحقِّقاً بالنِّسبة لعمر رضي الله عنه؛ فقد أشار على النَّبيِّ (ص) بعثمان رضي الله عنه؛ لأنَّ له قبيلةً تحميه من أذى المشركين حتَّى يبلِّغ رسالة رسول الله (ص)(٢) ، وقال لرسول الله (ص) : إنِّي أخاف قريشاً على نفسي ، قد عرفَتْ عداوتي لها ، وليس بها من بني عديٍّ مَنْ يمنعني ، وإن أحببت يا رسول الله! دخلت عليهم(٢)، فلم يقل رسول الله (ص) شيئاً. قال عمر: ولكن أدلُّك يا رسول الله! على رجلٍ أعزَّ بمكَّة منِّي ، وأكثر عشيرةً ، وأمنع: عثمان بن عفان.

فدعا رسول الله (ص) عثمان رضي الله عنه ، فقال: اذهب إلى قريشٍ فخبرهم ، أنَّا لم نأتِ لقتال أحدٍ ، وإنما جئنا زوَّاراً لهذا البيت ، معظِّمين لحرمته ، معنا الهديُ ، ننحرُه ، وننصرف ، فخرج عثمان بن عفَّان رضي الله عنه حتَّى أتى بلدح[(١٢١٠)] ، فوجد قريشاً هنالك ، فقالوا: أين تريد؟

قال: بعثني رسول الله (ص) إليكم ، يدعوكم إلى الله ، وإلى الإسلام ، تدخلون في الدِّين كافَّةً ، فإنَّ الله مظهرٌ دينه ، ومعزٌّ نبيه ، وأخرى: تكفُّون ، ويلي هذا منه غيرُكم ، فإن ظفروا بمحمَّدٍ؛ فذلك ما أردتم ، وإن ظفر محمَّدٌ؛ كنتم بالخيار أن تدخلوا فيما دخل فيه النَّاس ، أو تقاتلوا؛ وأنتم وافرون جامُّون ، إنَّ الحرب قد نهكتكم ، وأذهبت بالأماثل منكم ..... فجعل عثمان يكلِّمهم ، فيأتيهم بما لا يريدون، ويقولون: قد سمعنا ما تقول ، ولا كان هذا أبداً ، ولا دخلها علينا عَنْوَةً ، فارجع إلى صاحبك ، فأخبره أنَّه لا يصل إلينا.

فقام إليه أبان بن سعيد بن العاص ، فرحَّب به ، وأجاره ، وقال: لا تقصر عن حاجتك ، ثمَّ نزل عن فرسٍ كان عليه ، فحمل عثمان على السَّرج ، وردفه وراءه ، فدخل عثمان مكَّة ، فأتى أشرافهم رجلاً رجلاً: أبا سفيان بن حرب ، وصفوان بن أميَّة ، وغيرهما ، منهم من لقي ببلدح ، ومنهم من لقي بمكَّة ، فجعلوا يردُّون عليه: إن محمَّداً لا يدخلها علينا أبداً[(١٢١١)].

وعرض المشركون على عثمان رضي الله عنه أن يطوف بالبيت ، فأبى[(١٢١٢)] ، وقام عثمان بتبليغ رسالة رسول الله (ص) إلى المستضعفين بمكَّة وبشَّرهم بقرب الفرج ، والمخرج[(١٢١٣)] ، وأخذ منهم رسالةً شفهيَّة إلى رسول الله (ص) جاء فيها: اقرأ على رسول الله (ص) منا السَّلام ، إنَّ الَّذي أنزله بالحديبية لقادرٌ على أن يدخله بطن مكَّة[(١٢١٤)].

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصُّلح ، فرمى رجلٌ من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الاخر ، وكانت معركةٌ ، وتراموا بالنَّبل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كلُّ واحدٍ من الفريقين بمن فيهم[(١٢١٥)] ، وقد تحدَّث القران الكريم عن ذلك ، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا *} [الفتح: ٢٤].

وقد روى مسلم سبب نزول الاية السابقة: أنَّ ثمانين رجلاً من أهل مكَّة هبطوا على رسول الله (ص) من جبل التَّنعيم متسلِّحين ، يريدون غِرَّة[(١٢١٦)] النَّبيِّ (ص) وأصحابه ، فأخذهم سِلْماً[(١٢١٧)] ، فاستحياهم[(١٢١٨)] ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الاية المذكورة. [مسلم (١٨٠٨) ، وأحمد (١٢٢/٣) ، وأبو داود (٢٦٨٨) ، والترمذي (٣٢٦٤)].

وهذا سلمة بن الأكوع يحدِّثنا عمَّا حدث قال: ثمَّ إنَّ المشركين راسلونا الصُّلح ، حتَّى مشى بعضنا في بعضٍ ، واصطلحنا ، قال: وكنت تبيعاً[(١٢١٩)] لطلحة بن عبيد الله ، أسقي فرسه ، وأحسُّه[(١٢٢٠)] ، وأخدمه ، واكل من طعامه ، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله قال: فلمَّا اصطلحنا نحن وأهل مكَّة ، واختلط بعضنا ببعض ، أتيت شجرةً فكسحت شوكها[(١٢٢١)] ، فاضطجعت في أصلها ، قال: فأتاني أربعةٌ من المشركين من أهل مكَّة ، فجعلوا يقعون في رسول الله (ص) ، فأبغضتُهم ، فتحوَّلت إلى شجرةٍ أخرى ، وعلَّقوا سلاحهم ، واضطجعوا ، فبينما هم كذلك؛ إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي: يا للمهاجرين! قتل ابن زُنَيْمٍ! قال: فاخترطت

سيفي[(١٢٢٢)] ثمَّ شددت على أولئك الأربعة وهم رقود ، فأخذت سلاحهم ، فجعلته ضِغْثاً[(١٢٢٣)] في يدي. قال: ثمَّ قلت: والَّذي كرَّم وجه محمَّد! ما يرفع أحدٌ منكم رأسه إلا ضربت

الَّذي فيه عيناه[(١٢٢٤)] ، قال: ثمَّ جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله (ص) . قال: وجاء عمِّي عامرٌ برجلٍ من العَبْلاتِ[(١٢٢٥)] يقال له: مِكْرَزٌ ، يقوده إلى رسول الله (ص) على فرسٍ مُجَفَّفٍ[(١٢٢٦)] في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله (ص) فقال: «دعوهم ، يكن لهم بدء الفُجُور وثِنَاه»[(١٢٢٧)] فعفا عنهم رسول الله (ص) ، وأنزل الله: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا *} [الفتح: ٢٤] [مسلم (١٨٠٧)].

قال ابن كثير: هذا امتنانٌ من الله تعالى على عباده المؤمنين حيث كفَّ أيدي المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوءٌ ، وكفَّ أيدي المؤمنين عن المشركين ، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلاً من الفريقين ، وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرٌ للمؤمنين ، وعافيةٌ في الدُّنيا ، والاخرة[(١٢٢٨)].

والكفُّ: منع الفاعل من فعلٍ أراده ، أو شرع فيه ، وهو مشتقٌّ من اسم الكفِّ الَّتي هي اليد؛ لأنَّ أصل المنع أن يكون دفعاً باليد ، ويقال: كفَّ يده عن كذا: إذا منعه من تناوله بيده[(١٢٢٩)].

وقوله: قال الرَّاغب: البطن خلاف الظَّهر في كلِّ {بِبَطْنِ مَكَّةَ} ، ويقال للجهة السُّفلى: بطنٌ ، وللجهة العُليا: ظهرٌ[(١٢٣٠)].

وجمهور المفسِّرين حملوا بطن مكَّة في الاية على الحديبية من إطلاق البطن على أسفل المكان ، والحديبية قريبةٌ من مكَّة وهي إلى مكَّة أقرب ، وهي من الحلِّ ، وبعض أرضها من الحرم ، وهي على الطَّريق بين مكَّة وجُدَّة ، وهي إلى مكَّة أقرب[(١٢٣١)].

وختم الاية سبحانه بقوله: {مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا *} [الفتح: ٢٤] هذه

إشارةٌ إلى أنَّ كف بعضهم عن بعض كان للمسلمين؛ إذ منُّوا على العدوِّ بعد التمكُّن منه[(١٢٣٢)].

سابعاً: بيعة الرِّضوان:

لما بلغ النَّبيَّ (ص) : أنَّ عثمانَ رضي الله عنه قُتِل دعا رسولُ الله (ص) أصحابه إلى مبايعته على قتال المشركين ، ومناجزتهم ، فاستجاب الصَّحابة ، وبايعوه على الموت [البخاري (٤١٦٩) ، ومسلم (١٨٦٠)] ، سوى الجَدِّ بن قَيس ، وذلك لنفاقه[(١٢٣٣)]. وفي روايةٍ: أنَّ البيعة كانت على الصَّبر[(١٢٣٤)]. وفي روايةٍ على عدم الفرار [مسلم (١٨٥٦) ، وأحمد (٣/٣٩٦) ، والترمذي

(١٥٩٤) ، والنسائي (٧/١٤٠ و١٤١)] ولا تعارض في ذلك؛ لأنَّ المبايعة على الموت تعني: الصَّبر ، وعدم الفرار[(١٢٣٥)].

وكان أوَّل مَنْ بايعه على ذلك أبو سنان عبد الله بن وهب الأسديُّ[(١٢٣٦)] ، فخرج النَّاس بعده يبايعون على بيعته[(١٢٣٧)] ، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرَّاتٍ ، في أوَّل النَّاس ، وأوسطهم ، واخرهم[(١٢٣٨)] ، وقال النَّبيُّ (ص) بيده اليمنى: «هذه عن عثمان» فضرب بها على يده. [البخاري (٣٦٩٨) ، والترمذي (٣٧٠٦) ، وأحمد (١/١٠١ و١٢٠)].

وكان عددُ الصَّحابة الَّذين أخذ منهم الرَّسول (ص) المبايعة تحت الشجرة ألفاً وأربعمئة صحابيٍّ[(١٢٣٩)] ، وقد تحدَّث القران الكريم عن أهل بيعة الرِّضوان ، وورد فضلُهم في نصوصٍ كثيرةٍ من الايات القرانيَّة ، والأحاديث النَّبويَّة؛ منها:

١ ـ قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا *} [الفتح: ١٠].

وهذه الاية فيها ثناءٌ ، ومدحٌ عظيمٌ لأهل بيعة الرِّضوان ؛ فقد جعل الله مبايعتهم لرسوله (ص) مبايعةً له ، وفي هذا غاية التَّشريف ، والتَّكريم لهم رضي الله عنهم[(١٢٤٠)].

قال ابن القيِّم: وتأمَّل قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ }

فلمَّا كانوا يبايعون رسول الله (ص) بأيديهم ، ويضرب بيده على أيديهم ، وكان رسول الله (ص) هو السَّفير بينه وبينهم كانت مبايعتهم له مبايعة لله تعالى ، ولما كان سبحانه فوق سمواته على عرشه ، وفوق الخلائق كلِّهم كانت يده فوق أيديهم ، كما أنَّه سبحانه فوقهم[(١٢٤١)].

ومعنى قوله في الاية: أي: ثواباً جزيلاً وهو {وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا *} ، وما يكون فيها ممَّا لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشرٍ[(١٢٤٢)].

٢ ـ وقال تعالى مخبراً برضاه عنهم: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا *وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *} [الفتح: ١٨ ـ ١٩].

فقد أخبر الله تعالى أنَّه رضي عن أولئك الصَّفوة الأخيار من أهل بيعة الرِّضوان ، ومَنْ رضي الله عنه لا يسخط عليه أبداً ، فَلِلَّهِ ما أعظم هذا التكريم الذي ناله أهل بيعة الرضوان ، وما أعلاه من مَنْقَبَةٍ!

ومعنى الاية: لقد رضي الله {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ} محمد! عن المؤمنين يعني: بيعة أصحاب {إِذْ

يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} الله (ص) بالحديبية حين بايعوه على مناجزة قريشٍ الحرب ، وعلى ألاَّ يفرُّوا ، ولا يولُّوهم الأدبار تحت الشَّجرة ، وكانت بيعتهم إيَّاه هنالك تحت شجرة السَّمُرة أي: فعلم ربك {فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} محمد! ما في قلوب المؤمنين من أصحابك؛ إذ يبايعونك تحت الشَّجرة من صدق النِّيَّة ، والوفاء بما يبايعونك عليه ، والصبر أي: فأنزل الطمأنينة والثَّبات على {فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ} هم عليه من دينهم ، وحسن بصيرتهم بالحقِّ الَّذي هداهم الله له وهو فتح {وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا *} ، وأمَّا قوله تعالى: أي: وأثاب الله هؤلاء الَّذين بايعوا {وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا} الله (ص) تحت الشَّجرة مع ما أكرمهم به من رضاه عنهم ، وإنزاله السَّكينة عليهم ، وإثابته إيَّاهم فتحاً قريباً ، وهو ما أجرى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على أيديهم من الصُّلح بينهم ، وبين أعدائهم ، وما حصل بذلك من الخير العامِّ المستمرِّ المتَّصل بفتح خيبر ، وفتح مكَّة ، ثمَّ فتح سائر البلاد ، والأقاليم عليهم ، وما حصل لهم من العزِّ ، والنَّصر ، والرِّفعة في الدُّنيا ، والاخرة[(١٢٤٣)] ، ولهذا قال الله تعالى: {وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *}

٣ ـ أخبر الله تعالى عن أهل بيعة الرِّضوان: أنَّه ألزمهم كلمة التَّقوى ، الَّتي هي كلمة التَّوحيد ، وأنَّهم كانوا أحقَّ بها وأهلها. قال تعالى: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا *} [الفتح: ٢٦].

فلقد بيَّن الله تعالى في هذه الاية: أنَّه ألزم الصَّحابة رضي الله عنهم كلمة التَّقوى ، وأكثر المفسرين على أنَّ المراد بكلمة التَّقوى هي: (لا إله إلا الله) ، وبيَّن أنَّهم أحقُّ بها من كفَّار قريش ، وأنَّهم كانوا أهلها في علم الله؛ لأنَّ الله تعالى اختار لدينه ، وصحبة نبيِّه (ص) أهل الخير[(١٢٤٤)]. ذلك هو الثَّناء في القران على الصَّحابة الَّذين بايعوا النَّبيَّ (ص) بيعة الرِّضوان بالحديبية ، وقد ورد الثَّناء عليهم في السُّنَّة المطَّهرة في أحاديث كثيرةٍ ، ومن ذلك ما يلي:

أ ـ مِنْ حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال لنا رسولُ الله (ص) يوم الحديبية: «أنتم خيرُ أهل الأرض» ، وكنا ألفاً وأربعمئة ، ولو كنت أبصر؛ لأريتكم موضع الشَّجرة. [البخاري (٤١٥٤) ، ومسلم (١٨٥٦/٧١)].

هذا الحديث صريحٌ في فضل أصحاب الشَّجرة ، فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعةٌ بمكَّة ، وبالمدينة ، وبغيرهما ، وتمسَّك به بعض الشِّيعة في تفضيل عليٍّ على عثمان؛ لأنَّ عليّاً كان من جملة من خوطب

بذلك ، وممَّن بايع تحت الشَّجرة ، وكان عثمان حينئذٍ غائباً ، وهذا التمسُّك باطلٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ (ص) بايع عنه ، فاستوى معهم عثمان في الخيريَّة المذكورة ، ولم يقصد في الحديث إلى تفضيل بعضهم على بعضٍ[(١٢٤٥)].

ب ـ وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أخبرتني أمُّ مبشِّر: أنَّها سمعت النَّبيَّ (ص) يقول عند حفصة: «لا يدخل النَّار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشَّجرة أحدٌ؛ الَّذين بايعوا تحتها» قالت: بلى يا رسول الله! فانتهرها ، فقالت حفصة: فقال النَّبيُّ {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا} : «قد قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا *ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا *} [مريم: ٧١ ـ ٧٢]». [أحمد (٦/٢٨٥) ، ومسلم (٢٤٩٦) ، وابن ماجه (٤٢٨١)].

قال النَّوويُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: قوله (ص) : «لا يدخل النَّار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشَّجرة أحدٌ؛ الَّذين بايعوا تحتها». قال العلماء: معناه: لا يدخلها أحدٌ منهم قطعاً.... وإنَّما قال: إن شاء الله للتبرُّك ، لا للشكِّ. وأمَّا قول حفصة: بلى! وانتهار النَّبيِّ (ص) لها ، فقالت: فقال النَّبيُّ {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا} : «وقد قال: » فيه دليلٌ {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا} ، والجواب على وجه الاسترشاد ، وهو مقصودُ حفصة لا أنَّها أرادت ردَّ مقالته (ص) . والصَّحيح:

أنَّ المراد بالورود في الاية: المرور على الصِّراط ، وهو جسرٌ منصوبٌ على جهنَّم ، فيقع فيها أهلها وينجو الاخرون[(١٢٤٦)].

ج ـ وروى الإمامُ مسلم بإسناده إلى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله (ص) : «من يصعد الثَّنيَّة ثنيةَ المرار[(١٢٤٧)] ، فإنَّه يُحطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل». قال: فكان أوَّل مَنْ صعدها خيلنا؛ خيلُ بني الخزرج ، ثمَّ تتامَّ النَّاس ، فقال رسول الله (ص) : «كلُّكم مغفورٌ له إلا صاحب الجمل الأحمر». فأتيناه ، فقلنا له: تعال يستغفر لك رسول الله (ص) ، فقال: والله! لأن أجد ضالَّتي أحبُّ إليَّ من أن يستغفر لي صاحبُكم ، قال: وكان رجلاً ينشد ضالةً له. [مسلم (١٢/٢٧٨٠)].

وهذا الحديث تضمَّن فضيلةً عظيمةً لأصحاب الحديبية رضي الله عنهم ، وتلك الفضيلة مغفرةُ الله لهم ، وأكرمْ بها مِنْ فضيلة منحهم إيَّاها الرَّبُّ ـ جل وعلا ـ لإخلاصهم في طاعتهم واستجابتهم لله ، والرَّسول (ص) بالسَّمع ، والطَّاعة![(١٢٤٨)].

إنَّ جيل الحديبية له سماتٌ كما في النُّصوص الصَّحيحة ، فهم خير أهل الأرض ، وغفر الله لهم ، ولا يدخل منهم أحدٌ النَّار ، وهذا الجيل مكوَّنٌ من السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين ، والأنصار من أهل بدرٍ ، ومن صلَّى القبلتين ، ومن التحق بهم من الَّذين اتَّبعوهم بإحسانٍ.

وحين نُمعن النَّظر في هذا الجيل الفريد مقارنةً مع أهل بدرٍ؛ نلاحظ ارتفاع عدد المهاجرين إلى النِّصف من الجيش ، وهذا الارتفاع الهائل في عدد المهاجرين من ثلاث وثمانين في بدرٍ إلى ثمانمئة ، كان معظمه من القبائل العربيَّة المجاورة ، وهي قبائل صغيرةٌ؛ إذا قيست بالقبائل الكبرى ، لكنَّ شبابها كانوا يغدون إلى المدينة ، ينضوون تحت لواء رسول الله (ص) ، ويتلقَّون التَّربية اليوميَّة في المسجد ، والتَّربيَّة العملية في المعارك ، والغزوات ، فيتدرَّبون على الجنديَّة الخالصة ، ويفقهون دينهم مباشرةً من رسول ربِّ العالمين (ص) ، وينشؤون في ظلال القدوة العُليا لهم من السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين ، والأنصار ، ويتنافسون في الطَّاعة ، والامتثال لأمر الله ، ورسوله ، فنالت قبائلهم بذلك شرفاً ربا على القبائل الكُبرى؛ الَّتي تخاذلت في الانضمام للإسلام ، فقبيلة أسلم ، وغفار كانت على رأس هذه القبائل ، ويعود الفضل ـ بعد الله ـ في ذلك إلى الرَّعيل الأوَّل منهم ، واللبنات الأولى الَّتي انضمَّت إلى الدَّعوة ، إلى أبي ذرٍّ الغفاريِّ ، الَّذي كان من السَّابقين في إسلامه بمكَّة ، ومضى داعياً في قومه حتَّى جاءه سبعون بيتاً من غفار يؤمُّ بهم المدينة بعد أحدٍ ، وإلى بريدة بن الحصيب الأسلميِّ ، الَّذي تلقَّى رسولَ الله (ص) قبل دخوله المدينة ، فأسلم ، ومعه سبعون من قومه كذلك[(١٢٤٩)].

أمَّا القبائل الأخرى من مُزينة ، وجُهينةَ ، وأَشْجَع ، وخُزاعةَ؛ فقد بدأ شبابُها يفدون إلى المدينة ، لكن بأعدادٍ ضئيلةٍ ، وبقي كيان القبيلة على الشِّرك ، وبقي أعرابيّاً بعيداً عن محضن التَّربية العظيم داخل المدينة ، فلم يُتَح له هذا الفضل ، والاغتراف من رحيق النُّبوَّة ، ولهذا كانت الايات الَّتي نزلت في المخلَّفين من الأعراب كالصَّواعق على رؤوسهم؛ لتخلُّفهم عن الانضمام إلى الجيش الإسلاميِّ الماضي إلى الحديبية[(١٢٥٠)].

* * *

.[١]فَاءَ فَيْئاً: رَجَعَ.

.[٢]النَّفَل: الغنيمة ، والجمع: أنفال.

.[٣]انظر: الأساس في التَّفسير (٢١١٣/٤ ـ ٢١١٤).

.[٤]من هدي سورة الأنفال ، د. محمد المصري ، ص ٩٥ ـ ٩٦.

.[٥]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٧.

.[٦]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٧ ـ ٦٨.

.[٧]في ظلال القران الكريم (١٤٧٣/٣ ـ ١٤٧٤).

.[٨]المنهج التَّربويُّ للسِّيرة النَّبوية ـ التَّربية الجهادية ، للغضبان (٥٢/١).

.[٩]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٦١ ـ ٦٢.

.[١٠]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢١٠.

.[١١]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢١٥.

.[١٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١٧٦/٢).

.[١٣]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٠٩.

.[١٤]انظر: التَّربية الجهاديَّة ، للغضبان (١٤١/١).

.[١٥]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٠٨.

.[١٦]انظر: التَّربية القياديَّة (٥٤/٣).

.[١٧]انظر: غزوة بدر الكبرى ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ١٦٢.

.[١٨]الصَّفراء: وادٍ كثير النَّخل ، والزَّرع ، والخير.

.[١٩]انظر: التَّربية القياديَّة (٦٠/٣).

.[٢٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤٣٩/١ ، ٤٤٠).

.[٢١]انظر: التَّربية القياديَّة (٣/٥٧).
.[٢٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢/٢٥٥).
.[٢٣]الهَوَادة: اللِّينُ والرِّفق.
.[٢٤]انظر: التَّربية القياديَّة (٣/٦٠).
.[٢٥]انظر: البداية والنِّهاية (٣/٣٠٦).
.[٢٦]المصدر السابق (٣/٣٠٧).

.[٢٧]البُرُّ: حَبُّ القمح.
.[٢٨]انظر: المغازي ، للواقديِّ (١/١١٩).
.[٢٩]انظر: محمَّد رسولُ الله ، لعرجون (٣/٤٧٤).
.[٣٠]انظر: محمَّد رسولُ الله ، لعرجون (٣/٤٧٤).
.[٣١]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ (٤/١٧٥ ـ ١٧٦).

.[٣٢]انظر شرح الحديث (٤٠١٨) في فتح الباري.
.[٣٣]شرح العسقلاني لصحيح البخاري (٧/٣٢١) نقلاً عن المستفاد من قصص القران (٢/١٣٥).
.[٣٤]لأنَّ جدَّة العباس أمَّ عبد المطلب من بني النَّجار من يثرب.
.[٣٥]انظر: سُبُلَ الهدى والرَّشاد ، للصالحي (٤/١٣٥).
.[٣٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/١٧٦).

.[٣٧]انظر: التَّربية القياديَّة (٣/٦٨).
.[٣٨]القلادَةُ: ما يُجْعَل في العُنُق من حليٍّ ونحوه.
.[٣٩]بَنَى بزوجته وعليها: دخل بها.
.[٤٠]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٦١.
.[٤١]اسم مكان على ثمانية أميال من مكَّة.

.[٤٢]انظر: محمَّد رسول الله ، لعرجون (٣/٤٨٠ ـ ٤٨٧).

.[٤٣]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (١٨٣/٤).
.[٤٤]مباءةٌ: مكانةٌ رفيعةٌ.
.[٤٥]انظر: البداية والنِّهاية (٣١٣/٣).

.[٤٦]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لمحمَّد الصوياني (٢٠٠/٢).
.[٤٧]انظر: البداية والنِّهاية (٣١١/٣). وقال ابن كثيرٍ: مرسلٌ؛ بل معضل.
.[٤٨]انظر: البداية والنِّهاية (٣١١/٣).
.[٤٩]المصدر السابق نفسه.
.[٥٠]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (١٨١/٤).

.[٥١]انظر: محمَّد رسول الله ، لعرجون (٤٧٤/٣).
.[٥٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٦١.
.[٥٣]انظر: التَّربية القياديَّة (٧٤/٣).
.[٥٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١٦٤/٢ ـ ١٦٥).
.[٥٥]انظر: غزوة بدر الكبرى ، ص ١٠١.

.[٥٦]الصُّقْعُ: النَّاحية ، والجمع: أصْقَاع.
.[٥٧]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، د. علي معطي ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.
.[٥٨]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦.
.[٥٩]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢٥٧، وانظر: سيرة ابن هشام (بلوغ مصاب قريشٍ إلى مكَّة).
.[٦٠]كبته: أذله.

.[٦١]طُنُب الحجرة: طرفُها.
.[٦٢]بَلِقَ: بَلقاً وبُلْقَة: كان فيه سوادٌ ، وبياض ، فهو أَبْلَق ، وهي بَلْقَاءُ ، والجمع: بُلْق.
.[٦٣]تُلِيق: تُبْقي.
.[٦٤]ثاوَرْتُه: وثبتُ إليه.

.[٦٥]فَلَعَتْ: شقت.

.[٦٦]العَدَسَةُ: قرحةٌ قاتلةٌ كالطَّاعون ، وقد عدس الرَّجل: إذا أصابه ذلك ، وهي تخرج في مواضع من الجسد من جنس الطَّاعون ، وتقتل صاحبها غالباً.

.[٦٧]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٢/٢٥٨).

.[٦٨]هو أبو سفيان بن حرب؛ نذر ألا يمس رأسه ماء جنابة حتى يغزو المسلمين.

.[٦٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/١٧١).

.[٧٠]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٧٤.

.[٧١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/١٧١).

.[٧٢]عناء: تعباً.

.[٧٣]الضَّيعة: الضَّياع والتشتت.

.[٧٤]العلَّة: السبب.

.[٧٥]أواسيهم: أقوم على أمرهم ومؤونتهم.

.[٧٦]حرَّش: أفسد ، وأغرى بعضهم ببعضٍ.

.[٧٧]حَزَرَ الشيء حَزْراً: قَدَّره بالتَّخمين.

.[٧٨]حمَّالة السَّيف: ما يربط به السَّيف على الجسم.

.[٧٩]لَبَّبَهُ: أخذ بتلابيبه ، أي: جمع ثيابه عند نحره ، وصدره ثمَّ جرَّه.

.[٨٠]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٢٥٩.

.[٨١]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٦٠ ، وسيرة ابن هشام (إسلام عُمَيْر بن وهب).

.[٨٢]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/١٥٩) ، والخَسِيسُ: القليلُ التَّافِهُ.

.[٨٣]انظر: غزوة بدر الكبرى ، لأبي فارس ، ص ٨٢.

.[٨٤]انظر: غزوة بدر الكبرى ، لأبي فارس ، ص ٨٣.

.[٨٥]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٦٠.

.[٨٦]انظر: التَّربية القياديَّة (٧٣/٣).

.[٨٧]انظر: تفسير ابن كثير (٤١١/١).
.[٨٨]انظر: تفسير ابن كثير (٣٠٣/٢) نقلاً عن حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٩٧/١ ـ ١٠٥).

.[٨٩]زَيَّل: فرَّق. زَايَلهُ: فارَقَهُ.

.[٩٠]انظر: في ظلال القران (١٥٢١/٣ ـ ١٥٢٢).

.[٩١]امْتَرى في الشَّيء: شكَّ فيه ، ومَارَاهُ مِرَاءً ومُمَارَاةً: ناظره ، وجَادَلَهُ.
.[٩٢]انظر: في ظلال القران (١٥٢٣/٣ ـ ١٥٢٤).
.[٩٣]انظر: البداية والنِّهاية (٣٠٧/٣).

.[٩٤]انظر: من مَعِين السِّيرة ، ص ٢١٣.
.[٩٥]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢١٣.
.[٩٦]المصدر السابق نفسه ، ص ٢١٧.
.[٩٧]انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (٢٥٣/٢).
.[٩٨]انظر: من معين السيرة ، ص ٢١٧.

.[٩٩]السَّمْت: الهيئة.
.[١٠٠]انظر: من معين السيرة ، ص ٢١٨.

.[١٠١]انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (٤٥٣/١).
.[١٠٢]تلاحيا: تلاوما ، وتنازعا.
.[١٠٣]حديد البصر: أي: نافذ.

.[١٠٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١٧٨/٢).

.[١٠٥]انظر: زاد المعاد (١٨٦/٣). وذكر المحقِّق أنَّ ابن إسحاق ذكرها من غير سندٍ.

.[١٠٦]انظر: زاد المعاد (١٨٦/٣). والأثر فيه خلاف بين التصحيح والتضعيف.

.[١٠٧]العُرْجُون: العِذْقُ ، وهو من النَّخل كالعنقود من العنب ، والجمع: عرَاجينُ.

.[١٠٨]انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبة (١٧٨/٢).

.[١٠٩]انظر: المستفاد من قصص القران (١٤٤/٢ ـ ١٤٥).

.[١١٠]انظر: البداية والنِّهاية (٣٠٥/٣).

.[١١١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٦/٣) ، الحتوف: جمع حتف ، وهو الموت.

.[١١٢]العِصَابَةُ: الجماعة من الناس.

.[١١٣]هذا محمولٌ على المبالغة؛ لأنَّ جيش قريش ما كان يزيد على الألف.

.[١١٤]أي: ما أطيب الملأ الذين يقودهم جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام ـ.

.[١١٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (٣٠/٣).

.[١١٦]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ للحميديِّ (١٩٩/٤).

.[١١٧]سرعان ـ بضم السِّين أو فتحها أو كسرها ـ: تقولها للتَّعجُّب من السُّرعة.

.[١١٨]انظر: المنهج الحركي للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

.[١١٩]ينظر الشكل (١) في الصفحة (٧٤٥).

.[١٢٠]انظر: الأساس في السُّنَّة ، وفقهها ، السِّيرة النَّبوية (٥١٢/١).

.[١٢١]الكُدْر: ماء من مياه بني سُليم يقع في نجد.

.[١٢٢]انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (٢٩٦/١).

.[١٢٣]انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ ، ص ٢٧٧.

.[١٢٤]السَّويقُ: هو أن تحمَّص الحنطة ، أو الشَّعير ، أو نحو ذلك ، ثمَّ تطحن ، ثمَّ يسافر بها ، وقد تمزج باللَّبن ، والعسل ، والسَّمن ، وتلتُّ ، فإن لم يكن شيء من ذلك؛ مزجت بالماء ، والجمع: أَسْوِقَةٌ.

.[١٢٥]انظر: السِّيرة النبوية لابن هشام (٥١/٣)، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩.
.[١٢٦]انظر: البداية والنِّهاية (٣/٤) ، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٧٩.
.[١٢٧]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٧٩.

.[١٢٨]انظر: البداية والنِّهاية (٣/٤) ، وانظر: تفسير ابن كثير لهذه الاية وسبب ورودها.
.[١٢٩]بحران: كتبها بعضهم بفتح الباء (بَحْران) ، وبعضهم بضمها (بُحْران).
.[١٣٠]انظر: المجتمع المدني ، للعمري ، ص ٦١ ، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٨٠.
.[١٣١]انظر: التَّربية القياديَّة (١١٨/٣ ـ ١١٩).

.[١٣٢]المصدر السابق نفسه (١٣٢/٣).
.[١٣٣]انظر: سيرة ابن هشام (٥٦/٣).
.[١٣٤]ينظر الشكل (٢) في الصفحة (٧٤٦).
.[١٣٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢٩٩/١).
.[١٣٦]انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (٢٦٩/١).
.[١٣٧]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢٧٦/١).
.[١٣٨]المصدر السَّابق نفسه.

.[١٣٩]الجَلَبُ: كلُّ ما يجلب للأسواق؛ ليُباع فيها.
.[١٤٠]انظر: سيرة ابن هشام (٥٤/٣).
.[١٤١]انظر: المغازي ، للواقديِّ (١٧٦/١) ، والطَّبقات ، لابن سعد (٢٨/٢ ـ ٢٩).
.[١٤٢]انظر: تاريخ الطَّبريِّ (٤٨١/٢).
.[١٤٣]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢٧٩/١).
.[١٤٤]انظر: سيرة ابن هشام (٥٥/٣).

.[١٤٥]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١٤٤/١).
.[١٤٦]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهرة (٢٨٠/١).

.[١٤٧]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٥/٣٢ ـ ٣٣).
.[١٤٨]المصدر السَّابق نفسه.
.[١٤٩]ظللاً: جمع ظلَّة ، وهي السَّحابة ، وهي كناية عن تغيُّر وجه النَّبي (ص) .
.[١٥٠]حاسر: لا درع له.
.[١٥١]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/٢٨١).
.[١٥٢]المصدر السابق نفسه.

.[١٥٣]جَحَشَ: خَدَشَ.
.[١٥٤]انظر: التاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٥/٣٠).
.[١٥٥]انظر: المنهج الحركي للسِّيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص ٢٤٧.
.[١٥٦]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديّ (٥/٣٢).
.[١٥٧]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١/١٤٨).
.[١٥٨]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/٢٨٢ ـ ٢٨٣).

.[١٥٩]المصدر السابق نفسه ، (١/٢٨٤ ـ ٢٨٥).
.[١٦٠]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١/١٤٩).
.[١٦١]انظر: المحرر الوجيز ، لابن عطيَّة (١/٤٧٧ ـ ٤٧٨).

.[١٦٢]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/٣٠٢).
.[١٦٣]انظر: قراءة سياسيَّة للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص ١٣٨.
.[١٦٤]انظر: نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (١/٢٩٥).
.[١٦٥]المصدر السابق نفسه (١/٢٩٦).
.[١٦٦]انظر: السِّيرة ، لابن هشام (٣/٥٨).

.[١٦٧]انظر: نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (١/٢٩٨).
.[١٦٨]انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، ص ١٥٨.

.[١٦٩]انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، ص ١٥٨ ، والسيرة النبويَّة لابن هشام (٥٧/٣).
.[١٧٠]المصدر السَّابق نفسه.
.[١٧١]المصدر السَّابق نفسه.
.[١٧٢]الصَّلَفُ: التكبُّر والتَّفاخر.
.[١٧٣]رادعة: أي: يفوح منها أثر الطِّيب والزَّعفران ، والكتم: نبتٌ يخلط بالحنَّاء ، فيخضَّب به الشَّعر ، فيبقى لونه.
.[١٧٤]انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ ، قسم المغازي.

.[١٧٥]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١/١١١).
.[١٧٦]المصدر السَّابق نفسه.
.[١٧٧]عُلَّ: من العَلَل ، وهو الشُّرب بعد الشُّرب ، يريد البكاء بعد البكاء.
.[١٧٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٥٩/٣).
.[١٧٩]انظر: الصِّراع مع اليهود (١/١١١).

.[١٨٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٣٠٤).
.[١٨١]الَّذي كُتِب في السِّيرة النَّبوية لابن هشام: أنَّ الَّذي جاء كعبَ بن الأشرف أبو نائلة ، واسمه سِلْكان بن سلامة.
.[١٨٢]عَنَّانا: من العناء ، وهو التعب.

.[١٨٣]وفي كتب السِّيرة: أنَّ الَّذين قاموا بقتله خمسةُ نفرٍ ، هم: محمَّد بن مسلمة ، وسِلْكان بن سلامة بن وقش ، وهو أبو نائلة ، أحد بني عبد الأشهل ، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرَّضاعة ، وعبَّاد بن بشر بن وقش ، أحد بني عبد الأشهل ، وأبو عَبْس بن جبر ، أحد بني حارثة ، هؤلاء قدَّموا أبا نائلة؛ ليحدِّث كعب بن الأشرف.
.[١٨٤]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١/١١٥).
.[١٨٥]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٥/٥٤).
.[١٨٦]انظر: وقفات تربوية مع السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٠٥.

.[١٨٧]انظر: الأساس في السُّنة وفقهها السِّيرة النَّبوية (٢/٥٣٧).

.[١٨٨]ضَوِيَ ضَوى: ضَعُفَ ، وهُزِلَ ، أو دَقَّ.

.[١٨٩]انظر: الصِّراع مع اليهود (١/١١٩).

.[١٩٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٦١).

.[١٩١]انظر: الصراع مع اليهود (١/١٢٠).

.[١٩٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٦١).

.[١٩٣]انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها السِّيرة النَّبوية (٢/٥٣٧ ـ ٥٣٨).

.[١٩٤]المصدر السابق نفسه.

.[١٩٥]خَدعَةٌ: فيها ثلاث لغات مشهورات ، أفصحهن: فتح الخاء ، وإسكان الدَّال ، والثَّانية: ضم الخاء ، وإسكان الدَّال ، والثَّالثة: ضمُّ الخاء ، وفتح الدَّال.

.[١٩٦]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ للحميديِّ (٥/٥٦).

.[١٩٧]انظر: الصِّراع مع اليهود (١/١٢٢).

.[١٩٨]انظر: الصِّراع مع اليهود (١/١٢٢).

.[١٩٩]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ للحميديِّ (٥/٥٦).

.[٢٠٠]المِغْوار من الرِّجال: المقاتلُ الكثيرُ الغارات على أعدائه.

.[٢٠١]المصدر السابق نفسه (٥/٥٧).

.[٢٠٢]انظر: التَّاريخ السياسي والعسكري ، ص ١٨٨.

.[٢٠٣]الجَريرةُ: الجناية ، والذَّنبُ.

.[٢٠٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٣٠٤).

.[٢٠٥]انظر: الصِّراع مع اليهود (١/١٢٦).

.[٢٠٦]تأيَّمت: مات عنها زوجُها.

.[٢٠٧]الحُطَمِيَّةُ من الدُّروع: الثقيلة العريضة ، الَّتي تكسر السُّيوف.

.[٢٠٨]إسناده حسن.

.[٢٠٩]خميل: قطيفة.

.[٢١٠]الأدم: الجلد.

.[٢١١]إذخر: نبات له رائحةٌ عطرية.

.[٢١٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٦٧.

.[٢١٣]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٥٥.

.[٢١٤]سنوت: استقيت.

.[٢١٥]أي: اسأليه خادماً.

.[٢١٦]مجلت يدي: ثخن جلدُها ، وتعجر.

.[٢١٧]تطوى: طوى من الجوع فهو طاوٍ ، أي: خالي البطن ، جائع ، لم يأكل.

.[٢١٨]الفتح الرَّباني ، رقم (٩٠) ، وأصل هذا الحديث في البخاريِّ ، كتاب فرض الخمس ، رقم (٣١١٣).

.[٢١٩]انظر: التَّربية القياديَّة (٣/١٠٠).

.[٢٢٠]انظر: الإصابة في تمييز الصَّحابة (٨/١٥٩).

.[٢٢١]الجَشَبُ: ما غَلُظَ مأكله ، وخَشُنَ.

.[٢٢٢]انظر: صفة الصفوة ، لابن الجوزي (١/٨٤).

.[٢٢٣]ينظر الشكل (٣) في الصفحة (٧٤٧).

.[٢٢٤]انظر: غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة ، ص ٧١.

.[٢٢٥]انظر: تفسير ابن كثير لهذه الاية.

.[٢٢٦]انظر: تفسير فتح القدير لهذه الاية.

.[٢٢٧]انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٧١.

.[٢٢٨]وَتَرَ فلاناً: قَتلَ حَمِيمَهُ ، وأدركه بمكروهٍ.

.[٢٢٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٦٨).

[٢٣٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٧٩/٣).

[٢٣١]انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٧٤.

[٢٣٢]وادعهم: أي: صالحهم ، وسالمهم.

[٢٣٣]انظر: المغازي ، للواقديِّ (١/١٩٥ ـ ١٩٦).

[٢٣٤]انظر: غزوة أحد؛ دراسة دعويَّة ، ص ٧٥.

[٢٣٥]البداية والنهاية (١١/٤) ، والمغازي ، للواقديِّ (١٩٩/١).

[٢٣٦]الأحابيش: مَنِ اجتمع إلى العرب ، وانضمَّ إليهم.

[٢٣٧]الظُّعُن: النِّساء ، واحدتها ظعينة ، والظَّعينة: المرأة في الهودج.

[٢٣٨]انظر: الإصابة (٣٤٦/٨) ، رقم (١١٨٦٠).

[٢٣٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٧٠/٣).

[٢٤٠]انظر: غزوة أحد ، دراسة دعويَّة ، ص ٧٨.

[٢٤١]انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ١٧.

[٢٤٢]المصدر السابق نفسه ، ص ١٦.

[٢٤٣]انظر: الرَّحيق المختوم ، للمباركفوري ، ص ٢٥٠.

[٢٤٤]انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٨١٢/٢).

[٢٤٥]أوعبوا: خرجوا بجميع ما عندهم من السِّلاح.

[٢٤٦]انظر: مغازي الواقديِّ (٢٠٤/١).

[٢٤٧]حَزَرَ الشَّيء: قدَّره بالتَّخمين.

[٢٤٨]الأكبار: جمع: كَبر ، والكَبر: هو الطَّبل؛ الَّذي له وجهٌ واحد.

[٢٤٩]انظر: مغازي الواقدي (١/٢٠٧ ـ ٢٠٨).

[٢٥٠]تَنَصَّتَ: تَسَمَّعَ.

[٢٥١]ألفاهُ: وجَدَهُ ، وصادفه.

[٢٥٢]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (١٨٧/٢).

.[٢٥٣]انظر: السِّيرة الحلبية (٢/٤٨٩).

.[٢٥٤]انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ٢٢.

.[٢٥٥]انظر: تاريخ الطَّبري (٢/٦٠).

.[٢٥٦]انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٨٢.

.[٢٥٧]انظر: البداية والنِّهاية (٤/١٤).

.[٢٥٨]لأمة الحرب: عدَّتها.

.[٢٥٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (٣/٧١).

.[٢٦٠]انظر: غزوة أحد ، لأحمد عز الدِّين ، ص ٥١ . ٥٢.

.[٢٦١]انظر: القيادة العسكريَّة ، للرَّشيد ، ص ٣٧٤.

.[٢٦٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٣٨٠).

.[٢٦٣]انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ٣٤ . ٣٥.

.[٢٦٤]الدَّليل: المرشد. والجمع: أدلاَّء.

.[٢٦٥]انظر: المغازي ، للواقدي (١/٢١٧).

.[٢٦٦]الكثب: يقال: رماه من كثبٍ: قُربٍ ، وتمكُّنٍ.

.[٢٦٧]بنو عبد الأشهل: حيٌّ من الأنصار.

.[٢٦٨]انظر: غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة ص ١٦٨.

.[٢٦٩]انظر: ضوابط المصلحة ، لمحمد سعيد رمضان البوطي ، ص ٢٣.

.[٢٧٠]انظر: المقاصد العامة للشَّريعة ، ليوسف حامد العالم ، ص ١٦٦.

.[٢٧١]انظر: الموافقات ، للشَّاطبي (٢/٦٥١).

.[٢٧٢]انظر: قواعد الأحكام (١/٦ . ٧).

.[٢٧٣]المصدر السابق نفسه (١/٤٧).

.[٢٧٤]الشَّوط: اسم حائط . أي: بستان . بين المدينة ، وأحدٍ.

.[٢٧٥]انظر: البداية والنِّهاية (١٤/٤).
.[٢٧٦]انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٨٤.

.[٢٧٧]انظر: مرويات غزوة أحد ، لحسين أحمد ، ص ٧١.
.[٢٧٨]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٢٧٧.
.[٢٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (٣٨٢/٣).

.[٢٨٠]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٧٨.
.[٢٨١]انظر: محمَّد رسول الله ، لمحمَّد عرجون (٥٦١/٣).
.[٢٨٢]انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٣٨٣/٢).
.[٢٨٣]انظر: محمد رسول الله (٥٧١/٣ ـ ٥٧٢).
.[٢٨٤]حمي الوطيس: اشتدت الحرب.
.[٢٨٥]انظر: محمَّد رسول الله (٥٧١/٣ ـ ٥٧٢).

.[٢٨٦]انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٨٩.
.[٢٨٧]انظر: مغازي الواقديِّ (٢٢١/١ ـ ٢٢٢).
.[٢٨٨]انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٤٦٩.

.[٢٨٩]انظر: الإصابة (٢٧٨/٢).
.[٢٩٠]انظر: السيرة الحلبية (٤٩٦/٢) ، وانظر: سيرة ابن هشام (نزول الرسول (ص) بالشعب ، وتعبيته للقتال) ، وفتح الباري شرح حديث رقم (٤٠٤٣) ، والرَّحيق المختوم (خطة الدفاع) ، وتاريخ الطَّبريِّ (٥٠٧/٢).
.[٢٩١]انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٩٠.

.[٢٩٢]انظر: المغازي ، للواقدي (٢١٩/١).
.[٢٩٣]انظر: العبقرية العسكريَّة في غزوات الرَّسول (ص) ، لمحمد فرج ، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦.
.[٢٩٤]انظر: تاريخ الطَّبريِّ (٥٠٧/٢).

.[٢٩٥]ينظر الشكل (٤) في الصفحة (٧٤٨).
.[٢٩٦]انظر: إمتاع الأسماع ، للمقريزي (١/١٢٠).
.[٢٩٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/١٩٢) ، وسيرة ابن هشام (أمر أبي عامر الفاسق).
.[٢٩٨]انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/٤٩٧ ـ ٤٩٨) ، وتفسير الطَّبريِّ (٧/٢١٨) ، والقصَّة بنحوها في ابن هشام.

.[٢٩٩]الكَيُّول: اخر الصُّفوف في الحرب.
.[٣٠٠]البداية والنِّهاية (٤/١٧) ، وسيرة ابن هشام (تمام قصَّة أبي دجانة).
.[٣٠١]ذفَّف: أجهز عليه.
.[٣٠٢]يخمش: يشجع على القتال.
.[٣٠٣]فصمدت له: قصدت نحوه.
.[٣٠٤]البداية والنهاية (٤/١٧).

.[٣٠٥]انظر: نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (١/٣٠٣).
.[٣٠٦]المصدر السَّابق نفسه.
.[٣٠٧]المصدر السَّابق نفسه.

.[٣٠٨]انظر: غزوة أحد دراسةٌ دعويَّة ، ص ٩٨.
.[٣٠٩]اختلط الحابلُ بالنَّابل: اضطربت الأمورُ.
.[٣١٠]الرَّباعية: إحدى الأسنان الأربع التي تكون بين الثنيَّة ، والنَّاب.
.[٣١١]شَجَّهُ شَجاً: شقَّ جلد رأسه أو وجهه.
.[٣١٢]انظر: فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص ٢٩٤.
.[٣١٣]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٣/٨١).
.[٣١٤]انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ١٠٠.

.[٣١٥]المصدر السابق ، ص ١٠١.

.[٣١٦]سيرة ابن هشام ، (أوّل من عرف الرّسول (ص) بعد الهزيمة).

.[٣١٧]انظر: نضرة النَّعيم (٣٠٤/١).

.[٣١٨]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٩٦ ، وهذه القصَّة رواها ابن هشام (ضعف الرَّسول (ص) عن النُّهوض ومعاونة طلحة له) ، والترمذي ، وأحمد ، والحاكم ، وصححها ووافقه الذَّهبي. انظر: الرَّحيق المختوم (طلحة ينهض بالنَّبيِّ (ص)) وتخريجه لهذا الحديث.

.[٣١٩]الجعبة: الكنانة الَّتي تجعل فيها السِّهام.

.[٣٢٠]لا تشرف: لا تتطلع.

.[٣٢١]نحري دون نحرك: جعل الله نحري أقرب إلى السِّهام من نحرك لأصاب بها دونك.

.[٣٢٢]انظر: البداية والنِّهاية (٣٥/٤ ـ ٣٦) ، وسيرة ابن هشام (حديث أم سعد عن نصيبها في الجهاد يوم أحدٍ ، أبو دجانة وابن أبي وقَّاص يدافعان عن الرَّسول (ص)) .

.[٣٢٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لمنير الغضبان ، ص ٤٦٨ ـ ٤٧٠ .

.[٣٢٤]انظر: نضرة النَّعيم (٣٠٥/١).

.[٣٢٥]المصدر السابق نفسه.

.[٣٢٦]انظر نضرة النَّعيم (٣٠٦/١).

.[٣٢٧]مقطِّعة البظور: كانت أمه ختَّانة بمكَّة تختن النِّساء.

.[٣٢٨]فأضعها في ثُنَّته: أي في عانته ، وقيل: ما بين السُّرَّة والرُّكبة.

.[٣٢٩]ذلك العهد به: كناية عن موته.

.[٣٣٠]لا يهيج الرسل: أي: لا ينالهم منه مكروهٌ.

.[٣٣١]في ثلمة جدار: أي خلل جدار.

.[٣٣٢]أورق: لونه كالرماد.

.[٣٣٣]سيرة ابن هشام (دفن الشهداء) ، وانظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٨٣ .

.[٣٣٤]الفلُّ: الثَّلم في السَّيف.

.[٣٣٥]انظر شرحه في فتح الباري ، وكذا كتاب المغازي ، باب غزوة أحد (في مقدَّمة الباب) ، وسيرة ابن هشام (رؤيا راها رسول الله (ص)) .

.[٣٣٦]لدمت: ضربت ، ودفعت.

.[٣٣٧]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢٨٥ ، وانظر: سيرة ابن هشام (صفيَّة وحزنُها على حمزة).

.[٣٣٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٨٥/٣).

.[٣٣٩]مِدْرهاً: الَّذي يدفع عن القوم.

.[٣٤٠]الشِّلو: العضو. تعتادني: تتعاهدني.

.[٣٤١]انظر: السِّيرة النبويَّة ، لابن هشام (١٨٥/٣).

.[٣٤٢]سيرة ابن هشام (بكاء نساء الأنصار على حمزة).

.[٣٤٣]انظر: السيرة النبوية ، للصوياني (٩٠/٣).

.[٣٤٤]انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون ، (٦٠٣/٣).

.[٣٤٥]انظر: التاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (١٤١/٥).

.[٣٤٦]يحتُّ: يسقط.

.[٣٤٧]انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (٦٠٢/٣) ، والبخاري ، رقم (٤٠٧٢) جملة: «لعلِّي أقتله فأكافأى به حمزة» وشرحها في الفتح.

.[٣٤٨]الإذخر: نوع من العشب.

.[٣٤٩]أينعت: أي نضجت. يهدبها: أي: يجتنيها.

.[٣٥٠]انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٥٣٢/٢).

.[٣٥١]سيرة ابن هشام (خروج عليٍّ في اثار المشركين).

.[٣٥٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٢٩٤.

.[٣٥٣]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٢٩٣.

.[٣٥٤]انظر: زاد المعاد (٢١٢/٣).

.[٣٥٥]أي: سمع منادي رسول الله (ص) يدعو للخروج لملاقاة العدو.
.[٣٥٦]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٨٩ ، وسيرة ابن هشام (حنظلة غسيل الملائكة) ، وفتح الباري شرح حديث رقم (١٣٤٦).
.[٣٥٧]انظر: المغازي ، للواقديِّ (٢٧٣/١).

.[٣٥٨]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (١٢٩/٥ ـ ١٣٠).
.[٣٥٩]انظر: زاد المعاد (٢١٤/٣).

.[٣٦٠]كفاحاً: أي: مواجهةً.
.[٣٦١]انظر: شرحه في الفتح ، وانظر: تفسير ابن كثير لهذه الاية.
.[٣٦٢]انظر: زاد المعاد (٢٠٨/٣).
.[٣٦٣]انظر: زاد المعاد (٢٠٨/٣).

.[٣٦٤]انظر: المغازي ، للواقديِّ (٢٧٧/١).
.[٣٦٥]المصدر السابق نفسه.

.[٣٦٦]انظر: المغازي ، للواقديِّ (٢٧٧/١).
.[٣٦٧]الأُسد: جمع أسد.

.[٣٦٨]انظر: زاد المعاد (٢١٨/٣).
.[٣٦٩]الاطام: الحصون.
.[٣٧٠]ظمء حمار: أي: مقدار ما بين شربتي حمارٍ.
.[٣٧١]أي: نموت اليوم أو غداً.
.[٣٧٢]سيرة ابن هشام (مقتل اليمان وابن وقش).
.[٣٧٣]انظر: زاد المعاد (٢١٨/٣).

.[٣٧٤]انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ١١٧.

.[٣٧٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/١٠٠ ـ ١٠١) ، وانظر: فتح الباري في شرح حديث رقم (٢٨٠٨).

.[٣٧٦]انظر: تجريد أسماء الصَّحابة (٢/٧٠) ، والإصابة (٣/٣٩٣).
.[٣٧٧]انظر: الرَّوض الأُنف ، للسُّهيليِّ (٤/٤٠٨ ـ ٤٠٩).
.[٣٧٨]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/٣٠٦).
.[٣٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٩٩) ، وغزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ١١٣.

.[٣٨٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٣٨٨) ، وسيرة ابن هشام (بلاء قتادة وحديث عينه).
.[٣٨١]القعب: قدحٌ ضخمٌ غليظٌ.
.[٣٨٢]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣٥) ، وأسد الغابة (٤/٣٨٩).
.[٣٨٣]الفرق: مكيالٌ يسع ستة عشر رطلاً ، وهي اثنا عشر مُدّاً.
.[٣٨٤]الشَّعراء: ذباب له لدغ ، واللَّدغ: عَضُّ الحيَّة ، والعقرب ، والذُّباب.
.[٣٨٥]تدأدأ: تقلَّب عن فرسه ، فجعل يتدحرج.
.[٣٨٦]سرف: موضع على ستة أميال من مكَّة.

.[٣٨٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٩٣ ـ ٩٤).
.[٣٨٨]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٥/١٦٩). قال تعالى: {فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ *} ٣٣].
.[٣٨٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٩٤).

.[٣٩٠]أُعلُ هُبَلُ: ظهر دينُك.
.[٣٩١]السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٣٩٢).
.[٣٩٢]انظر: السيرة النَّبويَّة الصحيحة (٢/٣٩٢) ، وسيرة ابن هشام (شماتة أبي سفيان بالمسلمين يوم أحد).
.[٣٩٣]المصدران السابقان.

.[٣٩٤]أشرَ أشَراً: بطرَ واستكبر ، فهو أشِرٌ.
.[٣٩٥]انظر: زاد المعاد (٣/٢٠٢ ـ ٢٠٣).

.[٣٩٦]النَّشغ: الشَّهيق حتَّى يكاد يبلغ به الغشي.
.[٣٩٧]انظر: مختصر سيرة الرسول (ص) ، لمحمَّد بن عبد الوهاب ، ص ٣٣١.
.[٣٩٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/١٠٦).
.[٣٩٩]انظر: غزوة أحدٍ ، لأبي فارس ، ص ١٠٤.
.[٤٠٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٢١٠).

.[٤٠١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٣٩٤).
.[٤٠٢]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، د. محمد فيض الله ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.
.[٤٠٣]جنَّبوا الخيل: قادوها إلى جنوبهم.
.[٤٠٤]امتطى الدَّابة: ركبها.

.[٤٠٥]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٤١) ، وسيرة ابن هشام (خروج عليٍّ في اثار القوم).
.[٤٠٦]انظر: غزوة أحدٍ ، لأبي فارس ، ص ٩٥ ـ ٩٦.
.[٤٠٧]الرَّوحاء: تبعد عن المدينة ٧٣ كيلو متراً ، في طريق مكَّة.

.[٤٠٨]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٥٠).
.[٤٠٩]المصدر السابق نفسه.
.[٤١٠]انظر: غزوة أحد، لأبي فارس ، ص ١٤٤ ، نقلاً عن الطَّبقات الكبرى ، لابن سعد (٢/٤٣).
.[٤١١]يتحرَّقون: يلتهبون من الغيظ.
.[٤١٢]انظر: زاد المعاد (٣/٢٤٥).
.[٤١٣]الجُرد: جمع أجرد ، وهو الضرسيُّ ، قصير الشَّعر ، والأبابيل: الفِرَق الكثيرة.

.[٤١٤]تردي: تُسرع.
.[٤١٥]تنابلة: جمع تنبال ، وهو القصير.

.[٤١٦]الميل: جمع أميل ، وهو الجبان.
.[٤١٧]معازيل: جمع معزال ، وهو من لا رُمح معه.
.[٤١٨]تغطمطت: اضطربت ، وثارت.
.[٤١٩]وخش: رديء.
.[٤٢٠]انظر: البداية والنِّهاية (٥١/٤) ، وسيرة ابن هشام (٤٦/٣).
.[٤٢١]الميرةُ: الطَّعام يجمع للسَّفر ، ونحوه.
.[٤٢٢]تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، والمغازي ، ص ٢٢٦.
.[٤٢٣]اب أوبَةً: رجع.
.[٤٢٤]المغَبَّةُ من كلِّ شيءٍ: عاقبتُه واخره.
.[٤٢٥]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٤٢.
.[٤٢٦]انظر تفسير هذه الايات في ابن كثيرٍ.

.[٤٢٧]أقال اللهُ عَثْرَتَه: صفَح عنه وتجاوز.
.[٤٢٨]عارضيك: هما جانبا الوجه. لسان العرب (٧٤٢/٢).
.[٤٢٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (١١٦/٣).
.[٤٣٠]انظر شرحه وسببه في الفتح.
.[٤٣١]انظر: البداية والنِّهاية (٥٣/٤).
.[٤٣٢]المحرر الوجيز ، لابن عطية (٤١١/٣).
.[٤٣٣]مرويات غزوة أحد ، للباكري ، ص ٣٦٧ . ٣٦٩.

.[٤٣٤]انظر: في ظلال القران (٥١٩/١).
.[٤٣٥]انظر: غزوة أُحدٍ ، لأبي فارس ، ص ٥١.
.[٤٣٦]انظر: الطَّبقات ، لابن سعدٍ (٤٩/٢).

.[٤٣٧]تزفِرُ: تحمل القرب مملوءةً بالماء.
.[٤٣٨]تَنْقُزَان: أي: تحملان ، وتقفزان بها وثباً.

.[٤٣٩]فتح الباري ، شرح حديث رقم (٢٨٨٠).

.[٤٤٠]انظر: سير أعلام النُّبلاء ، للذَّهبي (٢/٢٧٨).
.[٤٤١]المغازي ، للواقديِّ (١/٢٦٩ ـ ٢٧٠).
.[٤٤٢]انظر: مرويات غزوة أحدٍ ، ص ٢٥٤.
.[٤٤٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٣٩١).

.[٤٤٤]انظر: غزوة أحدٍ ، لمحمَّد باشميل ، ص ١٧١ ـ ١٧٣.
.[٤٤٥]استرْجَعَتْ: أي قالت: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.
.[٤٤٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/١٠٨).

.[٤٤٧]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٤٧) ، وغزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٢٣٦.
.[٤٤٨]انظر: الإصابة (٨/٨٨) ، رقم (١١٠٦٠).
.[٤٤٩]انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ١٠٩.
.[٤٥٠]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٤٨) ، وسيرة ابن هشام (شأن المرأة الدِّينارية).
.[٤٥١]العِنَانُ: سَيرُ اللجام الذي تُمْسَكُ به الدابةُ.
.[٤٥٢]أشوَت: صارت صغيرةً خفيفة.

.[٤٥٣]في ظلال القران (١/٥٣٢).

.[٤٥٤]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/١٩٠).
.[٤٥٥]انظر: تفسير القرطبيِّ (٤/٢١٦).
.[٤٥٦]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/١٩١).

.[٤٥٧]انظر: تفسير الرَّازي (٩/١٤).
.[٤٥٨]انظر: تفسير الكشَّاف (١/٤٦٥).
.[٤٥٩]انظر: تفسير الرَّازي (٤/١٠٥).

.[٤٦٠]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/١٩٥).
.[٤٦١]انظر: تفسير القرطبيِّ (٤/٢١٨).
.[٤٦٢]انظر: تفسير ابن كثيرٍ (١/٤٠٨).

.[٤٦٣]انظر: تفسير الطَّبريِّ (٤/١٠٧).
.[٤٦٤]انظر: تفسير ابن كثيرٍ (١/٤٠٨).
.[٤٦٥]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/١٩٩).
.[٤٦٦]انظر: تفسير القرطبي (٤/٢٢٠).
.[٤٦٧]انظر: تفسير ابن كثير (١/٤٠٩).

.[٤٦٨]المصدر السابق نفسه.
.[٤٦٩]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٣٧.
.[٤٧٠]عَذَلَهُ عَذْلاً: لاَمَهُ.
.[٤٧١]انظر: تفسير ابن كثير (١/٤١٠).

.[٤٧٢]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/٢٠٤).
.[٤٧٣]انظر: غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة ، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩.

.[٤٧٤]انظر: الطَّاعة والمعصية وأثرهما في المجتمع ، لمحمَّد بن العثيمين ، نقلاً عن غزوة أحدٍ ، ص ٢١١.
.[٤٧٥]انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/٢٤٦).
.[٤٧٦]بدائع السَّالك في طبائع الممالك ، لابن الأزرق (١/٧٧).

.[٤٧٧]انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٢٠٠.
.[٤٧٨]انظر: شرح العقيدة الطَّحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ، تحقيق د. عبد الله التُّركي (٢/٥٤٠).
.[٤٧٩]لا نريم: لا نبرح المكان. رام مكانه ريْماً: بَرِحَهُ.

.[٤٨٠]انظر: تفسير الطبري (٣/٤٧٤).

.[٤٨١]المصدر السَّابق نفسه.

.[٤٨٢]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/١٩٧).

.[٤٨٣]انظر: تفسير القران العظيم (١/٤٤١).

.[٤٨٤]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/٢٠٠).

.[٤٨٥]انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون ، (٣/٦١٦).

.[٤٨٦]انظر: زاد المعاد (٣/٢٢٤).

.[٤٨٧]انظر: تفسير القرطبي (٤/٢٢٢).

.[٤٨٨]انظر: مرض النبي (ص) ووفاته ، وأثر ذلك على الأمَّة لخالد أبو صالح ، ص ٢٠ نقلاً عن غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة ، ص١٩١.

.[٤٨٩]فتيمَّم: قصد.

.[٤٩٠]الحِبَرَةُ: نوعٌ من برود اليمن مخطَّطة غالية الثمن.

.[٤٩١]عُقرت: أي هلكت ، وفي رواية: فَعقِرت: أي دهشت ، وتحيَّرت ، أو سقطت.

.[٤٩٢]انظر: غزوة أُحد دراسة دعويَّة ، ص٢١٨.

.[٤٩٣]المصدر السابق نفسه ، ص ٢١٩.

.[٤٩٤]انظر: غزوة أُحد دراسة دعويَّة ، ص٢٢٠.

.[٤٩٥]بُجَراً: شراً. ويُقال: ذكرَ عُجَرَهُ وبُجَرَهُ؛ أي: عيوبه ، وأمرَه كلَّه.

.[٤٩٦]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٥٣) ، وسيرة ابن هشام (شأن عبد الله بن أُبي بعد ذلك).

.[٤٩٧]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٥/١٩٨).

.[٤٩٨]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٢٧.

.[٤٩٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ٢/٣٩١.

.[٥٠٠]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص ٤٦١ ـ ٤٦٢.
.[٥٠١]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص ٤٦٣.
.[٥٠٢]نكل عن الأمر نكولاً: نكص.
.[٥٠٣]انظر: تفسير الطَّبري (١٧٠/٤) ، وسيرة ابن هشام (مصير قتلى أُحد).

.[٥٠٤]انظر: أسباب النزول ، للواحديِّ ، ص ١٢٥ ، وتفسير الطَّبريِّ (٢٦٩/٤).
.[٥٠٥]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

.[٥٠٦]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٢١/٥).
.[٥٠٧]عضل: اسم قبيلة ابن خزيمة. الجداية: الصَّغير من أولاد الظِّباء.
.[٥٠٨]مُبيراً: مهلكاً ومنكلاً: قامعاً لهم ولغيرهم.
.[٥٠٩]الجلائب: ما يجلب إلى الأسواق؛ ليباع فيها.
.[٥١٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٨٧/٣).
.[٥١١]الألباب: العقول.
.[٥١٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٦٤/٣).

.[٥١٣]انظر: من معين السِّيرة ، ص٢٥٢.
.[٥١٤]المصدر السابق نفسه.

.[٥١٥]استأصل الله شَأْفَتَهُ: أزاله من أصله.
.[٥١٦]عضل والقارة: بطنان من الهون ، (الهون) بن خزيمة بن مدركة.
.[٥١٧]انظر: نضرة النعيم (٣١٣/١).
.[٥١٨]انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.
.[٥١٩]انظر: زاد المعاد (٢٤٣/٣).

.[٥٢٠]فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص ٢٧٤.
.[٥٢١]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٢٣/٦).

.[٥٢٢]انظر: نضرة النَّعيم (٣١٣/١).
.[٥٢٣]القُشعريرةُ: الرِّعدةُ.

.[٥٢٤]المختصرون ، أو المتخصرون: والمراد هنا يأتون يوم القيامة ومعهم أعمال صالحةٌ يتَّكئون عليها.
.[٥٢٥]فرسَ الأمرَ فِرَاسَةً: أدرك باطنَه بالظنِّ الصائب.
.[٥٢٦]دَمُثَ دَمَاثَةً وَدُموثَةً: سَهُلَ خُلُقُهُ.

.[٥٢٧]انظر: التاريخ الإسلامي ، للحميدي (٢٧/٦).
.[٥٢٨]انظر: محمد رسول الله ، لصادق عرجون (٥٠/٤ ـ ٥١).
.[٥٢٩]انظر: غزوة أحد ، لمحمد باشميل ، ص ٣١.
.[٥٣٠]انظر: السرايا والبعوث النبوية ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.
.[٥٣١]انظر: التاريخ الإسلامي ، للحميدي (٢٩/٦).
.[٥٣٢]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ١٦٠.
.[٥٣٣]انظر: معالم السُّنن ، للخطَّابي (٤٢/٢) على سنن أبي داود ، حاشية رقم (١).

.[٥٣٤]انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٦٣/٦).
.[٥٣٥]انظر: السَّرايا والبعوث ، ص ١٦١.
.[٥٣٦]انظر: عون المعبود ، للعظيم ابادي (١٢٩/٤).
.[٥٣٧]فَرِقَ فرقاً: جزع واشتدَّ خوفُه ، فهو فَرِقٌ.
.[٥٣٨]انظر: مغازي الواقدي (٥٣٢/٢).
.[٥٣٩]انظر: دلائل النُّبوَّة ، للبيهقيِّ (٤١/٤) من رواية موسى بن عقبة.
.[٥٤٠]انظر: البداية والنِّهاية (١٤٣/٤).

.[٥٤١]الرَّجيع: اسم موضع من بلاد هُذيل. وينظر الشكل (٥) في الصفحة (٧٤٩).
.[٥٤٢]انظر: المغازي ، للواقديِّ (٣٥٤/١ ـ ٣٥٥).
.[٥٤٣]المصدر السابق نفسه.

.[٥٤٤]انظر: نضرة النَّعيم (١/٣١٤).
.[٥٤٥]المصدر السابق نفسه.
.[٥٤٦]بلابل: جمع بلبلة وبلبال ، وهو شدَّة الهم.
.[٥٤٧]المعابل: جمع معبلة ، وهو نصل طويل عريض.
.[٥٤٨]حَمَّ: قدَّر.
.[٥٤٩]انظر: مغازي ، الواقدي (١/٣٥٥).

.[٥٥٠]القحفُ: الجزء الأعلى من الجمجمة.
.[٥٥١]الدَّبر: الزَّنابير (جمع الزِّنبار ، وهي حشرةٌ أليمة اللَّسع) ، والنَّحل.
.[٥٥٢]انظر: المغازي ، للواقديِّ (١/٣٥٦).
.[٥٥٣]انظر تفصيل ذلك كلِّه في صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الرَّجيع ورعلٍ وذكوانَ وبئر معونة، وحديث عضل والقَارَّة وعاصم بن ثابت، وخُبيب وأصحابه، رقم (٤٠٨٦) وما بعده.
.[٥٥٤]جوامع السِّيرة ، لابن حزم ، ص ١٧٦.

.[٥٥٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٣٩٩).
.[٥٥٦]بدَّدَ الشَّيء: فرَّقه ، بدداً: متفرِّقين في القتل واحداً بعد واحدٍ.
.[٥٥٧]ياس: لغة في يئس.
.[٥٥٨]انظر: زاد المعاد (٣/٢٤٥) ، وفتح الباري (شرح حديث رقم ٤٠٨٦) ، وسيرة ابن هشام (ذكر يوم الرَّجيع).
.[٥٥٩]المصدر السابق نفسه (٣/٢٤٥ ـ ٢٤٦).
.[٥٦٠]المصدر السَّابق نفسه.
.[٥٦١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٤٠٠) ، وسيرة ابن هشام (مقتل ابن الدَّثنَّة ومثلٌ من وفائه للرَّسول (ص)).

.[٥٦٢]فتح الباري ، شرح حديث رقم (٤٠٨٦) ، فقرة: «فلم يقدروا منه على شيءٍ».
.[٥٦٣]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩.

.[٥٦٤]انظر: الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى (٢/٦٢٢).

.[٥٦٥]انظر: وقفات تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة ، لأحمد فريد ، ص ٢٣٤.
.[٥٦٦]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٢٠.
.[٥٦٧]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٥٩.
.[٥٦٨]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ١٥٣.
.[٥٦٩]انظر: التَّاريخ الإسلاميَّ ، للحميديِّ (٦/٣٨).
.[٥٧٠]انظر: حقوق النَّبي (ص) على أمَّته ، د. محمَّد التَّميمي (١/٣١٤).

.[٥٧١]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٥٤.
.[٥٧٢]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٧٠).
.[٥٧٣]المعنق ليموت: أي: المسرع ، وإنما لُقِّبَ بذلك؛ لأنَّه أسرعَ إلى الشَّهادة.
.[٥٧٤]استجاش: طلب لهم الجيش وجمعه.

.[٥٧٥]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٢٢ ، وسيرة ابن هشام (ذكر يوم الرَّجيع) ، والبخاري (الأحاديث من ٤٠٨٦ إلى ٤٠٩٦) ، وانظر شرحها في الفتح ، ففيها تفصيلاتٌ وفوائد كثيرةٌ ، وكذا مسلم (كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنَّة للشَّهيد ، رقم ٦٧٧).
.[٥٧٦]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٥١.

.[٥٧٧]وحاصل المسألة: أنَّ القنوت للحاجة بعد الرُّكوع ، وأمَّا لغير الحاجة فالصَّحيح أنه قبل الركوع ، وقد اختلف عمل الصَّحابة في ذلك ، والظَّاهر: أنَّه من الاختلاف المباح.
.[٥٧٨]نُصْبَ أعْيُننا: أي أمامنا.
.[٥٧٩]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٥٢.
.[٥٨٠]انظر: التَّاريخ الإسلاميِّ ، للحميديِّ (٦/٥٠).

.[٥٨١]انظر: سيرة ابن هشام (حديث بئر معونة) ، وفتح الباري (شرح حديث رقم ٤٠٩١ ، ٤٠٩٢) ففيه فوائد كثيرة.

.[٥٨٢]الجامع لأحكام القران (تفسير الاية ١٧١ من سورة ال عمران).
.[٥٨٣]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص٢٤٥.

.[٥٨٤]انظر وقفات تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٣٧.
.[٥٨٥]الثؤرة: الثأر ، وهو الطَّلب بالدم.
.[٥٨٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٠٦/٣).
.[٥٨٧]انظر: التَّاريخ الإسلامي للحميديِّ (٥٠/٦).
.[٥٨٨]سيرة ابن هشام (حديث بئر معونة).

.[٥٨٩]انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها (٦٥٦/٢).
.[٥٩٠]انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (٦٤/٤).
.[٥٩١]انظر القصة في فتح الباري شرح حديث (٤٠٩٦).
.[٥٩٢]استهلِّي: أسبلي دمعك. السّح: الصَّبُّ الكثير المتتابع. والنَّزر: القليل.
.[٥٩٣]تُخُوِّن: انتُقص. (بالبناء للمجهول).
.[٥٩٤]أعنق: أسرع. والعنقُ: ضَرْبٌ من السَّير فسيحٌ سريعٌ للإبل والخيل. ابن هشام (٢٠٩/٣).

.[٥٩٥]البداية والنِّهاية (وفد بني عامر وقصَّة عامر بن الطفيل) ، وفتح الباري (شرح حديث رقم (٤٠٩) فقرة: في بيت امرأة من بني فلان).
.[٥٩٦]العُضَال: الشَّديد المعجز. ويقال: داء عضال: أي: لا طبَّ له.
.[٥٩٧]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لمحمَّد الصوياني ، ص ١٣٠.
.[٥٩٨]انظر: تعليق الدُّكتور قلعجي على الدَّلائل (٣٤٦/٣).
.[٥٩٩]انظر السِّيرة النَّبويَّة، للصَّوياني ، ص ١٣١.
.[٦٠٠]المصدر السابق نفسه.

.[٦٠١]انظر: تفسير القرطبيّ (١٦٦/١٤).
.[٦٠٢]انظر: المفصَّل في أحكام المرأة ، لعبد الكريم زيدان (٤٦٩/١١).

.[٦٠٣]انظر: سير أعلام النُّبلاء (٢/٢٠٢).

.[٦٠٤]انظر: سير أعلام النبلاء (٢/٢٠٣). وقال المحقِّق: أخرجه ابن سعد ، ورجاله ثقاتٌ.

.[٦٠٥]وأعقبني: أي: بدّلني وعوّضني منه ، أي: في مقابلته. عقبى حسنة: أي: بدلاً صالحاً.

.[٦٠٦]غيرى: كثيرة الغيرة.

.[٦٠٧]مُصبية: أي: ذات صبيان ، وأولاد صغار.

.[٦٠٨]انظر: سير أعلام النبلاء (٢/٢٠٣ ـ ٢٠٤) وإسناده صحيحٌ.

.[٦٠٩]انظر: المفصَّل في أحكام المرأة (١١/٤٧٠).

.[٦١٠]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٩٢).

.[٦١١]المصدر السابق نفسه (٢/٢٠٤).

.[٦١٢]أي: توافق مجيءُ النَّبي (ص) مع زيارة تلك المرأة لأمِّ سلمة.

.[٦١٣]الثِّفَالُ: هو ما يُبْسَطُ تحت الرَّحَى عند الطَّحن من جِلْدٍ ، وغيره؛ ليسقط عليه الدَّقيقُ.

.[٦١٤]على أهلك: يقصد نفسه (ص) .

.[٦١٥]أي: أقمتُ عندك سبعة أيام.

.[٦١٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة كما جاءت من الأحاديث الصَّحيحة ، للصوياني (٣/١٣٦).

.[٦١٧]انظر: تفسير المنار (٤/٣٧٢).

.[٦١٨]انظر: التَّربية القياديَّة (٣/٣٥٦).

.[٦١٩]المصدر السابق نفسه (٣/٣٥٧).

.[٦٢٠]انظر: سير أعلام النبلاء (٢/٢١٠).

.[٦٢١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٢٤٨ ـ ٢٤٩).

.[٦٢٢]انظر: شذرات الذَّهب ، لابن العماد الحنبلي (١/١٠).

.[٦٢٣]عقَّ عن ولده عقاً: ذبح ذبيحةً يوم سُبُوعه. العقيقة: الذَّبيحة التي تُذبح عن المولود يوم سبوعه عند حَلْقِ شعره ، والجمع عَقَائِقُ.

.[٦٢٤]انظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة للصّوياني (١٠٦/٣).

.[٦٢٥]انظر: سير أعلام النبلاء (٤٢٩/٢).

.[٦٢٦]انظر: زيد بن ثابت كاتب الوحي وجامع القران ، لصفوان داودي ، ص ٨٠ ـ ٨١.

.[٦٢٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢٤٩/٢).

.[٦٢٨]ينظر الشكلان (٦ و٧) في الصفحتين (٧٥٠ و٧٥١).

.[٦٢٩]هَلَع هلعاً: جزع جزعاً شديداً.

.[٦٣٠]انظر: التاريخ السياسي والعسكري ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩.

.[٦٣١]انظر: زاد المعاد (٢٤٩/٣).

.[٦٣٢]انظر: أحكام القران ، لابن العربي (١٧٦٥/٤).

.[٦٣٣]انظر: حديث القران عن غزوات الرسول (ص) (٢٥٤/١).

.[٦٣٤]غزوة السَّويق كانت بعد بدر وقد تحدَّثت عنها في المبحث الثامن من الفصل الثامن من هذا الكتاب.

.[٦٣٥]انظر: تاريخ الطَّبري (٢٨٤/٢).

.[٦٣٦]انظر: فتح الباري ، كتاب المغازي ، باب حديث بني النَّضير (٣٣٢/٧).

.[٦٣٧]انظر: الواقدي (٣٦٥/١) ، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ١٩٠.

.[٦٣٨]انظر: التَّاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة ، ص ١٩٠.

.[٦٣٩]عقل عن فلان: حمل عنه العاقلة ، وهي الدِّيةُ.

.[٦٤٠]هذه الاثار وإن كان فيها ضعفٌ يمكن أن تعضد؛ لتصبح بمجموعها صالحةً للاحتجاج بها.
انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوة ، ص ١٤٥.

.[٦٤١]تفسير ابن كثير (٣١/٢).

.[٦٤٢]انظر: تفسير الطَّبري (١٤٤/٦ ـ ١٤٥).

.[٦٤٣]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٢٥١/١).

.[٦٤٤]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/٢٥٢).
.[٦٤٥]انظر: طبقات ابن سعد الكبرى (٢/٥٧) ، والمغازي ، للواقديِّ (١/٣٦٣ ـ ٣٧٠).
.[٦٤٦]انظر: تاريخ الطَّبري (٢/٥٥٢).

.[٦٤٧]انظر: سيرة ابن هشام (٣/٢١٢).
.[٦٤٨]انظر: تاريخ الطَّبري (٢/٥٥٣).
.[٦٤٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٣/١٤٦).
.[٦٥٠]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/٢٥٧).
.[٦٥١]انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/٥٦٦).

.[٦٥٢]انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/٥٦٥) ، حديث القران الكريم (١/٢٥٧).
.[٦٥٣]انظر: المغازي ، للواقديِّ (١/٣٧٤) ، واليهود في السُّنة المطهَّرة (١/٣٢١).
.[٦٥٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٢١٢).
.[٦٥٥]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/٣٢٧).

.[٦٥٦]انظر: تفسير السَّعدي ، تفسير الايات من (١ ـ ٧) من سورة الحشر.

.[٦٥٧]انظر: حديث القران الكريم (١/٢٧٠ ـ ٢٧١).
.[٦٥٨]انظر: حديث القران الكريم (١/٢٧٤).
.[٦٥٩]انظر: تفسير الطَّبريِّ (٢٨/٣٤).
.[٦٦٠]اللِّين: كلُّ أنواع النَّخْل ، والواحدة: لِينة.

.[٦٦١]انظر: خاتم النبيِّين ، للشَّيخ محمد أبو زهرة (٢/٢٦٥ ـ ٢٦٩).
.[٦٦٢]الكُراع: الخيل ، ينفق على أهله نفقة سنة: يعزل لهم نفقة سنة ، ولكنه كان ينفقه قبل انقضاء السَّنة في وجوه الخير ، فلا تتمُّ عليه السنة؛ ولهذا تُوفي (ص) ودرعُهُ مرهونةٌ على شعير استدانه لأهله ، ولم يشبع ثلاثة أيام تِبَاعاً ، وقد تظاهرت الأحاديث النبوية بكثرة جوعه ، وجوع عياله.

.[٦٦٣]انظر: شرح الزرقاني على المواهب (٨٦/٢).

.[٦٦٤]تفسير القرطبيّ للاية (٩) من سورة الحشر ، وفتح الباري (شرح حديث رقم ٤٠٣٠) ، وسيرة ابن هشام (أمر إجلاء بني النَّضير) ، والرَّحيق المختوم (غزوة بني النَّضير).

.[٦٦٥]الاية (٤١) من سورة الأنفال ، والاية (٧) من سورة الحشر ، وانظر تفسيرهما في: ابن كثيرٍ ، والقرطبيّ ، والسَّعديّ.

.[٦٦٦]انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص ١٦٩ .

.[٦٦٧]بَحْبَحَ في الشَّيءِ: توسَّع. البُحْبُوحَة من كلِّ شيء: وسطه ، وخياره.

.[٦٦٨]الكَلُّ: مَنْ يكونُ عبْئاً على غيره.

.[٦٦٩]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ١٩٤ .

.[٦٧٠]انظر: تفسير الرَّازي (٢٨/٢٩) ، وصفوة التَّفاسير (٣٥١/٣).

.[٦٧١]انظر: حديث القران الكريم (٢٩١/١).

.[٦٧٢]المصدر السابق نفسه (٢٦٤/١).

.[٦٧٣]انظر: المستفاد من قصص القران (٢٨٢/٢).

.[٦٧٤]المصدر السابق نفسه ، (٢٨٣/٢).

.[٦٧٥]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٢٩٣/١ ـ ٢٩٤).

.[٦٧٦]انظر: المستفاد من قصص القران (٢٨٤/٢).

.[٦٧٧]انظر: تفسير السَّعدي (٣٤٠/٧).

.[٦٧٨]انظر: المحرر الوجيز (٣٩٠/١٤).

.[٦٧٩]تفسير السَّعدي (٣٤٢/٤).

.[٦٨٠]تفسير السَّعدي (٣٤٢/٣) ، وانظر: حديث القران الكريم.

.[٦٨١]انظر: تفسير المراغي (٥٧/٢٨) بتصرفٍ يسيرٍ.

.[٦٨٢]انظر: تفسير السَّعدي (٣٤٤/٧).

.[٦٨٣]انظر: تفسير السَّعدي (٣٤٦/٧ ـ ٣٤٧).
.[٦٨٤]انظر: الوسطيَّة في القران الكريم ، للصَّلابي ، ص ٢٢٨ .
.[٦٨٥]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٢٥٣/١).
.[٦٨٦]انظر: تفسير القرطبي (١٠/١٨).
.[٦٨٧]انظر: الخصائص العامَّة للإسلام ، للقرضاويِّ ، ص ١٨١ .

.[٦٨٨]أَدْمَنَ الشراب: أدامه ، ولم يقلع عنه ، ويقال: أدمن الأمرَ ، وعليه: واظب.
.[٦٨٩]انظر: في ظلال القران (٢٢٩/١).

.[٦٩٠]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .
.[٦٩١]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس ، ص ١٧٩ .
.[٦٩٢]المِقْلاتُ: المرأة التي لا يعيش لها ولدٌ.

.[٦٩٣]انظر: شرح ذلك كلَّه في فتح الباري. وينظر الشكل (٨) في الصفحة (٧٥٢).
.[٦٩٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٢٥/٣).
.[٦٩٥]انظر: المغازي ، للواقدي (٣٩٥/١).
.[٦٩٦]انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (٦١/٢).
.[٦٩٧]فتح الباري: شرح الأحاديث المتقدِّمة.
.[٦٩٨]انظر: فقه السِّيرة للبوطي ، ص ٢١٠ .

.[٦٩٩]بيننا بعيرٌ نَعْتَقِبُه: أي: نركبه عقبةً ، وهو أن يركبَ هذا قليلاً ، ثم ينزل ، فيركب الاخر بالنَّوبة؛ حتَّى يأتي على سائرهم.
.[٧٠٠]انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٥ .
.[٧٠١]انظر: مرويات الحديبية ، ص ٧٣ ـ ٨٦.
.[٧٠٢]انظر: المجتمع المدني ، ص ١٣٠.

.[٧٠٣]انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٥ .
.[٧٠٤]انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٥ .
.[٧٠٥]انظر: فقه السيرة النبوية ، ص ١٩٤ .
.[٧٠٦]المصدر السابق نفسه ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

.[٧٠٧]انظر: غزوة الأحزاب ، لأبي فارس ، ص ١٤ .
.[٧٠٨]انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمد أحمد باشميل ، ص ٧٧ ـ ٧٨.
.[٧٠٩]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرسول (ص) (٣٠٩/١).
.[٧١٠]انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ص ١٧٠ .
.[٧١١]نَقِبتْ أقدامُنا: قرحت من الحفاء.

.[٧١٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٥ .
.[٧١٣]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٠٧ .
.[٧١٤]انظر: التربية القياديَّة (٣٠٣/٣ ـ ٣٠٤).
.[٧١٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٢٧ .

.[٧١٦]ثَجَّ الماء ثُجوجاً: سالَ وانصبَّ. الثَّجَّاجُ: الشديدُ الانصباب.
.[٧١٧]انظر: غزوة الأحزاب ، لأبي فارس ، ص ٣٠ ، ٣١.
.[٧١٨]انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٨ .
.[٧١٩]انظر: غزوة الأحزاب ، لأبي فارس ، ص ٣٢.
.[٧٢٠]قَفَل فُلانٌ من السَّفَر قَفْلاً وقُفولاً: رجع.
.[٧٢١]العِضَاهُ: كلُّ شجرٍ له شوكٌ ، صغُر أو كَبُر ، الواحدة: عِضَاهَةٌ.
.[٧٢٢]صَلْتاً: مجرداً عن غمده.

.[٧٢٣]فتح الباري ، شرح حديث رقم (٤١٣٦).
.[٧٢٤]المصدر السَّابق نفسه.

.[٧٢٥]انظر: فقه السيرة للبوطي ، ص ٢٠٠.

.[٧٢٦]انظر: دروس وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٧٨.

.[٧٢٧]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٢٠٠.

.[٧٢٨]موضع على بُعْدِ ثلاثة أميالٍ من المدينة.

.[٧٢٩]نمارقها: وسائدها.

.[٧٣٠]فاعملْ عملاً كَيْساً أو الكَيْسَ.. الكَيْسَ: في تفسيرها قولان:

ـ الكَيْس: أي: العقل ، كأنَّه طلب الولد عقلاً.

ـ الكَيْسَ: الجماع ، أي فعليك بالجماع ، ويؤيده رواية محمد بن إسحاق ، «قال جابر: فدخلنا حين أمسينا ، فقلت للمرأة: إن رسول الله (ص) أمرني أن أعمل عملاً كَيْساً! قالت: سمعاً وطاعة ، فدونك ، قال: فبتُّ معها حتى أصبحتُ» وهذا الكلام موجودٌ بمعناه في هذه الرِّواية التي بين أيدينا.

انظر: فتح الباري ، شرح حديث رقم (٥٢٤٦) ، وشرح النَّووي حديث رقم (١٤٦٦).

.[٧٣١]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ص ٢١٢ ـ ٢١٣ ، وانظر: السِّيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٩.

.[٧٣٢]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ١٨١.

.[٧٣٣]انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (٣١٨/١ ، ٣١٩).

.[٧٣٤]انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ٨٨.

.[٧٣٥]انظر: من معين السِّيرة ، للشَّامي ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥.

.[٧٣٦]انظر: غزوة الأحزاب ، لباشميل ، ص ٨٨ ، ٨٩.

.[٧٣٧]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦٦/٦).

.[٧٣٨]انظر: التربية القياديَّة (٤٦٣/٣).

.[٧٣٩]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦٧/٦).

.[٧٤٠]انظر: المجتمع المدنيُّ في عهد النُّبوة ، للعمري ، ص ٩١.

.[٧٤١]انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة ، للشجاع ، ص ١٤٤.
.[٧٤٢]انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، لمحمَّد الوكيل ، ص ١٦٩.

.[٧٤٣]المصدر السابق نفسه.
.[٧٤٤]انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، لمحمَّد الوكيل ، ص ١٦٩.
.[٧٤٥]انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة ، للشُّجاع ، ص ١٤٤ ، ١٤٥.
.[٧٤٦]المصدر السابق نفسه ، ص ١٤٤.
.[٧٤٧]انظر: غزوة الأحزاب ، لباشميل ، ص ٩٣ ، وتاريخ المغازي ، للذَّهبيِّ ، ص ٢٥٨.

.[٧٤٨]انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، ص ١٧٠.
.[٧٤٩]انظر: غزوة الأحزاب ، لأبي فارسٍ ، ص ٤٠.
.[٧٥٠]انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، ص ١٧٠.
.[٧٥١]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة ، (٢٥١/٢ ، ٢٥٢).

.[٧٥٢]انظر: التَّربية القيادية (٣٧٢/٣).
.[٧٥٣]المصدر السابق نفسه (٣٧٣/٣).
.[٧٥٤]انظر: التَّربية القياديَّة (٣٧٤/٣).

.[٧٥٥]ينظر الشكل (٩) في الصفحة (٧٥٣).
.[٧٥٦]فرع.
.[٧٥٧]المصْطلِق: بضمِّ الميم ، وسكون الصَّاد ، وفتح الطَّاء ، وكسر الَّلام.
.[٧٥٨]انظر: حديث القران عن غزوات الرَّسول (ص) (٣١١/١).
.[٧٥٩]خزاعة من التَّخزُّع ، وهو التَّأخر ، والمفارقة ، وذلك أنَّ خزاعة انخزعت من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشَّام ، فنزلت بمرِّ الظهران ، وأقامت بها؟!
.[٧٦٠]انظر: مرويات غزوة بني المصطلق ، من ص ٤٥ إلى ٥١.
.[٧٦١]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٢٩ ، وحديث القران الكريم (٣١٢/١ ، ٣١٣).

.[٧٦٢]انظر: حديث القران الكريم (٣١٢/١).
.[٧٦٣]من أراد مزيداً من التفصيل فليرجع إلى مرويات غزوة بني المصطلق ، ص ٩٧.
.[٧٦٤]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، للعلي ، ص ٣٣٢.

.[٧٦٥]حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٣١٥/١).
.[٧٦٦]انظر: تاريخ الإسلام ، والمغازي ، للذَّهبي ، ص ٢٥٩.
.[٧٦٧]انظر: الواقدي (٤٠٥/١).
.[٧٦٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٣٣.
.[٧٦٩]الملاَّحة: الشَّديدة الملاحة ، أي: الفائقة الجمال.

.[٧٧٠]انظر: البداية والنهاية (١٦٠/٤ ، ١٦١) ، الإصابة ، لابن حجر (كتاب النساء).
.[٧٧١]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٣١٧/١).
.[٧٧٢]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠.

.[٧٧٣]انظر: محمَّد رسول الله ، لمحمد صادق عرجون (٢٥٠/٤).
.[٧٧٤]انظر: دور المرأة في خدمة الحديث ، لامال قرداش ، ص ٨٨.
.[٧٧٥]المصدر السابق نفسه، ص ٨٨ ، ٨٩.
.[٧٧٦]انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (٢٥٠/٤).
.[٧٧٧]مسجدها: المكان الَّذي تصلِّي فيه في بيتها.
.[٧٧٨]انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (١٢١/٨) ، وخليفة بن خياط ، تاريخه ، ص ٢٣٤.
.[٧٧٩]انظر: حديث القران الكريم (٣١٨/١).

.[٧٨٠]انظر: السِّيرة الصَّحيحة ، للعمري (٤٠٨/٢).
.[٧٨١]غزاة: صرحت الرِّوايات الأخرى بأنَّها غزوة بني المصطلق.
.[٧٨٢]يريد بعمِّه سعد بن عبادة ، وهو رأس الخزرج ، وليس عمّه حقيقة.
.[٧٨٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٤٠٨/٢).

.[٧٨٤]كسع: ضربه برجله.
.[٧٨٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (٢/٤٠٩).

.[٧٨٦]انظر: البداية والنِّهاية ، لابن كثير ، (٤) غزوة بني المصطلق.

.[٧٨٧]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢/٤٠٩).
.[٧٨٨]انظر: التَّربية القياديَّة (٣/٤٦٣).
.[٧٨٩]انظر: التَّربية القياديَّة (٣/٤٦٣).
.[٧٩٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٢٥٥).
.[٧٩١]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٢٠٢.

.[٧٩٢]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٠٩.
.[٧٩٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٢٥٧).
.[٧٩٤]انظر: الولاء والبراء في الإسلام ، للقحطانيِّ ، ص ٢٠٩ ، والبداية والنِّهاية (غزوة بني المصطلق من خزاعة ، تفسير ابن كثير ، المنافقون).
.[٧٩٥]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمد الصَّادق عرجون (٣/١٦٣).

.[٧٩٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٢٥٧).
.[٧٩٧]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمد الصَّادق عرجون (٣/١٦٢).
.[٧٩٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٢٠٩).
.[٧٩٩]انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة (٢/٣٠١ ، ٣٠٢).

.[٨٠٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٢٠٩).
.[٨٠١]انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة (٢/٣٠٢).
.[٨٠٢]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/٣٢٧).
.[٨٠٣]انظر: التَّفسير المنير ، د. وهبة الزُّحيلي (٢٨/٢١٣).

.[٨٠٤]انظر: حديث القران الكريم (٣٢٧/١).

.[٨٠٥]انظر: حديث القران الكريم (٣٢٧/١).

.[٨٠٦]انظر: التَّفسير المنير (٢٣٠/٢٨ ، ٢٣١).

.[٨٠٧]انظر: حديث القران الكريم (٢٤٣/١).

.[٨٠٨]كالواقديِّ ، والذَّهبيِّ ، والطَّبري ، وابن سعدٍ ، وابن حزم.

.[٨٠٩]كابن كثيرٍ ، والرَّازي ، والطَّبري ، وغيرهم.

.[٨١٠]كابن حجر ، والنَّووي.

.[٨١١]هي غزوة بني المصطلق.

.[٨١٢]الهودج: محمل له قبَّة تُستر بالثياب يوضع على ظهر البعير ، تركب فيه النساء.

.[٨١٣]جزع ظفار: هو خرزٌ معروفٌ ، في سواده بياضٌ كالعروق ، وهي مدينة باليمن.

.[٨١٤]الرَّهط: الجماعة.

.[٨١٥]العلقة: البُلغة من الطَّعام.

.[٨١٦]صحابيٌّ جليلٌ كان صاحب ساقة رسول الله (ص) في غزواته.

.[٨١٧]فادَّلج (بالتَّشديد): سار اخر الليل.

.[٨١٨]أي: بقوله: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

.[٨١٩]فخمَّرت: أي: غطيت.

.[٨٢٠]موغرين: الوغرة: شدة الحرِّ.

.[٨٢١]نحر الظهيرة: أولها وهو وقت شدَّة الحر.

.[٨٢٢]يريبني: يشككني.

.[٨٢٣]كيف تيكم: وهي للمؤنث مثل: ذاكم للمذكر.

.[٨٢٤]المناصع: المواضع الَّتي يُتخلَّى فيها لقضاء الحاجة.

.[٨٢٥]الكنف: جمع كنيف: المكان الساتر.

.[٨٢٦]مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب ، توفي في خلافة عثمان.

.[٨٢٧]فعثرت في مرطها: أي: وطئته برجلها ، فسقطت.

.[٨٢٨]هنتاه: يا بلهاء ، كأنها نسبت إلى قلّة المعرفة بمكائد الناس وشرورهم.

.[٨٢٩]وضيئة: الوضاءة: الحسن والجمال.
.[٨٣٠]إلا أكثرن عليها: أي: أكثرن القول في عيبها.
.[٨٣١]لا يرقأ لي دمع: لا ينقطع ، ولا ينكف.
.[٨٣٢]استلبث: وهو الإبطاء ، والتأخُّر.
.[٨٣٣]أغمصه عليها: أي: أعيبها به ، وأطعن عليها به.
.[٨٣٤]الدَّاجن: هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم.
.[٨٣٥]فاستعذر: أي: قال: من يقوم بعذري إن كافأته على سوء صنيعه؟
.[٨٣٦]هو صفوان بن المعطَّل السلمي.

.[٨٣٧]احتملته الحمية: أي: حملته الأنفة ، والغضب على الجهل.
.[٨٣٨]فثارالحيَّان: أي: تناهضوا للنزاع والعصبية.
.[٨٣٩]التقيُّد بالشَّهر ، فهو المدَّة الَّتي أوَّلها إتيان عائشة إلى بيت أبويها.
.[٨٤٠]كناية عمَّا رميت به من الإفك.
.[٨٤١]قلص دمعي: أي: ارتفع وذهب.
.[٨٤٢]هو يعقوب عليه السَّلام.

.[٨٤٣]ما رام: ما برح ، وما فارق مجلسه.
.[٨٤٤]البرحاء: شدَّة الكرب من ثقل الوحي.
.[٨٤٥]الجمان: حبات اللؤلؤ الصَّغيرة ، وقيل: حبٌّ يتَّخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ.
.[٨٤٦]سُرِّي: انكشف عنه ما يجده من الهم ، والثقل.

.[٨٤٧]هي زينب بنت جحش أمُّ المؤمنين رضي الله عنها ، وهي بنتُ عمَّته (ص) .
.[٨٤٨]أحمي سمعي ، وبصري: أي: أمنعهما من العذاب بسبب الكذب.
.[٨٤٩]تساميني: أي: تعاليني ، وتفاخرني: أي: تطاولني عنده (ص) .

.[٨٥٠]عصمها: حفظها ، ومنعها.

.[٨٥١]الورع: الكفُّ عن المحارم والتَّحرُّج منها.

.[٨٥٢]طفقت: شرعت.

.[٨٥٣]حمنة بنت جحش بنت عمَّته (ص) ، وهي أخت زينب رضي الله عنها.

.[٨٥٤]انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٤٠.

.[٨٥٥]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/٣٨٥ ، ٣٨٦).

.[٨٥٦]المصدر السابق نفسه ، (١/٣٨٦) نقلاً عن تفسير الكشاف (٣/٢٢٣).

.[٨٥٧]انظر: حديث القران الكريم (١/٣٨٧).

.[٨٥٨]انظر: فقه الإسلام شرح بلوغ المرام ، لفضيلة الشَّيخ عبد القادر شيبة الحمد (٩/٥).

.[٨٥٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٤١.

.[٨٦٠]انظر: حديث القران الكريم (١/٣٥٧).

.[٨٦١]انظر: اثار تطبيق الشَّريعة ، د. محمد الزَّاحم ، ص ١١٧.

.[٨٦٢]انظر: تفسير القرطبي (١٢/١٩٧).

.[٨٦٣]انظر: تفسير القرطبي (١٢/٢٠١).

.[٨٦٤]انظر: مرويات غزوة بني المصطلق ، ص ٢٤٢.

.[٨٦٥]انظر: زاد المعاد (٣/٢٦٣ ، ٢٦٤).

.[٨٦٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٢٦٣).

.[٨٦٧]انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، المغازي ، ص ٢٨١.

.[٨٦٨]انظر: كتاب الأم ، للشَّافعي (٤/١٨٦).

.[٨٦٩]شرح صحيح مسلم ، للنووي (٥/٦٤٣).

.[٨٧٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (٢/٤١٥).

.[٨٧١]انظر: نيل الأوطار ، للشَّوكاني (٦/٢٢٢ ـ ٢٢٤).

.[٨٧٢]صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٢١٠ ، ٢١١.

.[٨٧٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٤٤٣. وينظر الشكل (٩) في الصفحة (٧٥٤).

.[٨٧٤]انظر: المغازي (٢/٤٤٠) بدون إسناد.

.[٨٧٥]انظر: الطَّبقات (٢/٦٥ ، ٧٣) بإسنادٍ متصل.

.[٨٧٦]انظر: البداية والنِّهاية (٤/١٠٥).

.[٨٧٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٤٣.

.[٨٧٨]انظر: جوامع السِّير ، ص ١٨٥.

.[٨٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٤٤.

.[٨٨٠]انظر: الفتح (٣/٣٩٦).

.[٨٨١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٤٤.

.[٨٨٢]انظر: زاد المعاد (٢/٢٨٨).

.[٨٨٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٢٣٧).

.[٨٨٤]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، د. علي معطي ، ص ٣١٠.

.[٨٨٥]انظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب ، ولفنسون ، ص ١٤٢.

.[٨٨٦]المصدر السابق نفسه ، ص ٣١٠.

.[٨٨٧]انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ١٤١.

.[٨٨٨]انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ١٤٤ ، ١٤٥.

.[٨٨٩]انظر: مغازي الواقدي (٢/٤٤٤) ، والطَّبقات الكبرى (٢/٦) ، ومحمَّد (ص) : لمحمَّد رضا (حفر الخندق).

.[٨٩٠]ذباب: أكمةٌ صغيرة في المدينة ، يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع.

.[٨٩١]راتج: حصنٌ من حصون المدينة لأناسٍ من اليهود.

.[٨٩٢]جبل سلع: هو أشهر جبال المدينة. انظر: معجم البلدان (٢٣٦/٣).
.[٨٩٣]هي حرَّة المدينة الشَّرقية. انظر: معجم معالم الحجاز (٢٨٣/٢ ، ٢٨٥).
.[٨٩٤]انظر: العبقرية العسكريَّة في غزوات الرَّسول (ص) ، ص ٤٤٢.
.[٨٩٥]انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٤٢٦.

.[٨٩٦]انظر: غزوة الأحزاب ، للدُّكتور محمد عبد القادر أبو فارس ، ص ٩٨.
.[٨٩٧]المصدر السابق نفسه، ص ١١٦ ، ١١٧.

.[٨٩٨]انظر: القيادة العسكرية في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٤٨٢.
.[٨٩٩]انظر: صفوة التفاسير ، للصَّابوني (٣٥١/٢).
.[٩٠٠]أحكام القران ، لابن العربيِّ (١٤١٠/٣).

.[٩٠١]انظر: فقه السِّيرة ، لمنير الغضبان ، ص ٥٠٤.
وانظر: البداية والنِّهاية (فصل: نزول قريش بمجتمع الأسيال يوم الخندق) ، وانظر: السِّيرة النبوية لابن هشام (غزوة الخندق) من حاول عبور الخندق من المشركين ، وراجع: الإصابة في معرفة الصَّحابة لابن حجر.
.[٩٠٢]انظر: القيادة العسكريَّة في عصر الرَّسول (ص) ، ص ١١.

.[٩٠٣]يُدربون طرقهم: يسهلون طرقهم من أجل السَّير إلى المسلمين.
.[٩٠٤]انظر: مغازي الواقدي (٤٥٧/٢).
.[٩٠٥]لحناً: أي: كلاماً لا يفهمه أحدٌ سواي.

.[٩٠٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (١٩٩/٣) ، والقرطبي ، تفسير اية (٩) من سورة الأحزاب ، والطَّبري، والبداية والنِّهاية، لابن كثير (فصل: في نزول قريش بمجتمع الأسيال يوم الخندق).
.[٩٠٧]قبيلتان من هذيل سبق منهما الغدر بأصحاب النَّبيِّ (ص) في ذات الرَّجيع.
.[٩٠٨]انظر: البداية والنِّهاية (٩٥/٤) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (غزوة الخندق).
.[٩٠٩]انظر: السِّيرة الحلبيِّة (٣٢٣/٢).

.[٩١٠]انظر: المعجم الكبير للطبراني (٣٧٦/١١) ، ومجمع الزوائد (١٣١/٦).

.[٩١١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٤٢٤/٢).

.[٩١٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٤٢٥/٢).

.[٩١٣]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٤٢٤/٢).

.[٩١٤]الأكحل: عرق في وسط الذراع في كل عضو منه شعبة ، إذا قطع لم يرقأ الدم.

.[٩١٥]انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ٢٠١.

.[٩١٦]انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمَّد باشميل ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢.

.[٩١٧]انظر: المغازي ، للواقدي (٤٧٧/٢) ، والجامع لأحكام القران ، للقرطبيّ (اية: ٦١).

.[٩١٨]انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٤١٣.

.[٩١٩]انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (١٧٦/٤).

.[٩٢٠]انظر: البداية والنِّهاية (١٠٦/٤).

.[٩٢١]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (١٢٥/٦).

.[٩٢٢]انظر: البداية والنِّهاية (١٠٦/٤).

.[٩٢٣]انظر: الأساس في السُّنَّة (٦٨٧/٢).

.[٩٢٤]انظر: العبقريَّة العسكرية في غزوات الرَّسول (ص) ، ص ٤١٤.

.[٩٢٥]انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص) ، ص ٤١٤.

.[٩٢٦]انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص) ص ٤١٥ ، ٤١٦.

.[٩٢٧]انظر: البداية والنهاية (١١٣/٤).

.[٩٢٨]انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٤٣٠/٢).

.[٩٢٩]انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص) ، ص ٤٧٧.

.[٩٣٠]الفساطيط: جمع فسطاط نوعٌ من الأبنية في السَّفر ، وهو دون السرادق.

.[٩٣١]انظر: تفسير القرطبيّ (١٤٤/١٤) ، وجامع البيان للطَّبريّ (تفسير سورة الأحزاب).

.[٩٣٢]انظر: فقه السِّيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص ٥٠٣.

.[٩٣٣]انظر: فقه السيرة ، للبوطي ، ص ٢٢٢.

.[٩٣٤]انظر: فقه السِّيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص ٥٠٥ ، السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣٦٧.

.[٩٣٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣٦٧.

.[٩٣٦]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٢٤٦.

.[٩٣٧]انظر: شرح الزُّرقاني (١٢٠/٢).

.[٩٣٨]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٩٣.

.[٩٣٩]انظر: الأساس في السُّنَّة (٦٦٢/٢).

.[٩٤٠]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٤٩٠/٢ ، ٤٩١).

.[٩٤١]المصدر السابق نفسه (٤٤٢/٢).

.[٩٤٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٧٣.

.[٩٤٣]انظر: السَّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٣١٥/١ ، ٣١٦ ، ٣١٧).

.[٩٤٤]ظهراً وبطناً: لا يبدو على ملامحها أثر الحزن.

.[٩٤٥]طرحت الرَّحا على خلاَّد بن سويد رضي الله عنه ، فقتلها رسول الله (ص) به.

.[٩٤٦]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٧٧ ، ومختصر سيرة ابن هشام (٣٠/٢) ، والبداية والنِّهاية لابن كثير (فصل: في غزوة بني قريظة).

.[٩٤٧]انظر: سيرة الرَّسول (ص) ، دروزة (٧٦/٢) نقلاً عن دراسات في عهد النَّبوة ، للشجاع ، ص ١٥٣.

.[٩٤٨]محفر: اسم فاعل من حفّر.
.[٩٤٩]أهيل: رملاً سائلاً ، وانظر: النّهاية في غريب الحديث (٢٨٩/٥).
.[٩٥٠]أهيم: الرَّمل الَّذي لا يتمالك ، وانظر: لسان العرب (٨٥٨/٣).
.[٩٥١]العناق: الأنثى من أولاد الماعز ، وانظر: النّهاية في غريب الحديث (٣١٠/٣).
.[٩٥٢]البرمة: هي القدر مطلقاً ، وانظر: النّهاية في غريب الحديث (١٢١/١).
.[٩٥٣]الأثافي: الحجارة التي تنصب ويجعل القدر عليها ، وانظر: القاموس المحيط (١٢٠/٣).
.[٩٥٤]ولا تضاغطوا: أي: لا تزاحموا ، وانظر: لسان العرب (٥٣٧/٢).

.[٩٥٥]انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١٧٥.
.[٩٥٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٤٨.
.[٩٥٧]المصدر السابق نفسه ، ص ٤٤٩.

.[٩٥٨]انظر: نضرة النَّعيم (٣٢٥/١).
.[٩٥٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٥٥/٣).
.[٩٦٠]انظر: من معين السِّيرة ، للشَّامي ، ص ٢٩١.
.[٩٦١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٤٧/٣).
.[٩٦٢]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (١٠٨/٦).

.[٩٦٣]انظر: الأساس في السُّنَّة (٦٨٢/٢).
.[٩٦٤]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٢٣.
.[٩٦٥]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٩٤.

.[٩٦٦]انظر: الرَّحيق المختوم ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤.
.[٩٦٧]انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة (٢٤٦/٢).
.[٩٦٨]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٣٦٥.
.[٩٦٩]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٦٥.

.[٩٧٠]انظر: غزوة الأحزاب ، للدُّكتور أبو فارس.

.[٩٧١]انظر: المستشفيات الإسلاميَّة ، للدُّكتور عبد الله السَّعيد ، ص ٤٣ .

.[٩٧٢]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٩٤ .

.[٩٧٣]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/٢٨٦).

.[٩٧٤]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦/١٦٥).

.[٩٧٥]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٢٦١ .

.[٩٧٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٢٦٢).

.[٩٧٧]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٢٢٨ .

.[٩٧٨]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦/١٧٠).

.[٩٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٢٦٣).

.[٩٨٠]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٢٦٥ .

.[٩٨١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٢٧٥).

.[٩٨٢]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٢٢٨ .

.[٩٨٣]انظر: التَّربية القياديَّة (٣/٧٠).

.[٩٨٤]انظر: التَّربية القياديَّة (٤/٧١).

.[٩٨٥]المصدر السابق نفسه.

.[٩٨٦]انظر: سير أعلام النُّبلاء (١/٢٨٧).

.[٩٨٧]انظر: سير أعلام النُّبلاء (١/٢٩٥) وإسناده صحيحٌ.

.[٩٨٨]انظر: سير أعلام النبلاء (١/٢٨٨) ورجاله ثقات.

.[٩٨٩]انظر: التاريخ الإسلامي ، للحميدي (٦/١٧١).

.[٩٩٠]انظر: التَّربية القياديَّة (٤/٧٧) نقلاً عن مسند الإمام أحمد (٦/١٤١).

.[٩٩١]انظر: القيادة الرَّبانيَّة (٤/٨٧).

.[٩٩٢]انظر: سير أعلام النُّبلاء (٢٩٠/١).

.[٩٩٣]القرطبي اية (٩) من سورة الأحزاب ، والطَّبري ، والبداية والنِّهاية فصل: في غزوة بني قريظة.
.[٩٩٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٦٥/٣) ، والقرطبي اية (٩) من سورة الأحزاب ، والطَّبري، والبداية والنِّهاية فصل: في غزوة بني قريظة ، ومحمَّد (ص) ، لمحمَّد رضا.
.[٩٩٥]انظر: الصِّراع مع اليهود لأبي فارس (١١٢/٢).

.[٩٩٦]انظر: الصِّراع مع اليهود (١١٣/٢ ، ١١٤).
.[٩٩٧]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهرة (٣٦٨/١).
.[٩٩٨]المصدر السابق نفسه.

.[٩٩٩]انظر: الصِّراع مع اليهود (١١٥/٢).
.[١٠٠٠]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٣٧٢/١).
.[١٠٠١]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهرَّة (٣٧٣/١) ، والسِّيرة لابن هشام ، غزوة بني قريظة في سنة خمس قصَّة الزَّبير بن باطا.
.[١٠٠٢]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٣٧٣/١).

.[١٠٠٣]انظر: الصِّراع مع اليهود (١١٦/٢).
.[١٠٠٤]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٢٦.
.[١٠٠٥]انظر: فقه السيرة ، للبوطي ، ص ٢٢٦.
.[١٠٠٦]انظر: المستفاد من قصص القران (٢٨٦/٢).

.[١٠٠٧]اختصاراً من فتح الباري (٤٧٣/٧) في شرح الحديث رقم (٤١١٩).
.[١٠٠٨]انظر: الصِّراع مع اليهود (٩٦/٢ ، ٩٧).
.[١٠٠٩]المصدر السابق نفسه (٩٧/٢).
.[١٠١٠]انظر: اليهود في السُّنّة المطهَّرة (٣٧٥/١).
.[١٠١١]انظر: الصِّراع مع اليهود (٩٨/٢).

.[١٠١٢]انظر: سيرة الرَّسول (ص) ، لعزَّة دروزة (٢٠٢/٢).

.[١٠١٣]انظر: الصِّراع مع اليهود (٩٨/٢).

.[١٠١٤]المصدر السابق نفسه (٩٩/٢) ، والبداية والنِّهاية (فصل: في غزوة بني قريظة) ، والسِّيرة النَّبوية لابن هشام غزوة بني قريظة (إسلام ريحانة).

.[١٠١٥]المرصد: المعدُّ للأمر عدَّته.

.[١٠١٦]متسربلينا: لابسين الدُّروع.

.[١٠١٧]متكمِّهينا: عُمياً لا تبصرون.

.[١٠١٨]حرجاً: حراماً.

.[١٠١٩]انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البرِّ (٣٧٢/١).

.[١٠٢٠]انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البرِّ (١٨٤٩/٤).

.[١٠٢١]انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات ، لحفصة بنت عثمان الخليفي ، ص ٢٠٥.

.[١٠٢٢]انظر: تفسير ابن كثير (٤٨٩/٣).

.[١٠٢٣]انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات ، ص ٢٠٩.

.[١٠٢٤]انظر: تفسير القران العظيم (٤٩١/٣).

.[١٠٢٥]انظر: تفسير السَّعدي (١٣٦/٤).

.[١٠٢٦]انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات ، ص ١٨٩.

.[١٠٢٧]صرفاً: توبةً ، وقيل: نافلة ، عدلاً: أي: فدية ، وقيل: فريضة.

.[١٠٢٨]انظر: علاقة الاباء بالأبناء في الشَّريعة الإسلاميَّة ، د. سعاد الصَّانع ، ص ٥٢ ، ٥٣.

.[١٠٢٩]انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات ، ص ١٩١ ، ١٩٢.

.[١٠٣٠]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣١١.

.[١٠٣١]انظر: المفصَّل في أحكام المرأة ، لعبد الكريم زيدان (٤٧٤/١١ ، ٤٧٥).

.[١٠٣٢]انظر: أحكام القران لابن العربيِّ (١٥٣١/٣ ، ١٥٣٢).
.[١٠٣٣]انظر: المفصَّل في أحكام المرأة (٤٧٦/١١).
.[١٠٣٤]انظر: البداية والنهاية (١٤٧/٤).
.[١٠٣٥]انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات ، ص ٣١٢.

.[١٠٣٦]فتح الباري شرح صحيح البخاري ، لابن حجر (٥٢٤/٨).
.[١٠٣٧]تفسير السَّعدي (١٥٤/٣).

.[١٠٣٨]انظر: في ظلال القران (٢٨٦٩/٥).
.[١٠٣٩]انظر: تفسير القرطبي (١٩٤/١٤).

.[١٠٤٠]انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات ، ص ٢١٨.
.[١٠٤١]المصدر السابق نفسه.
.[١٠٤٢]تور: الإناء.

.[١٠٤٣]الجعد بن دينار ، أبو عثمان اليشكريُّ ، البصريُّ ، من أصحاب أنس.

.[١٠٤٤]انظر: السنّة النبوية ، لأبي شهبة (٣١٢/٢).
.[١٠٤٥]انظر: تفسير القرطبيِّ (١٧٩/١٤).
.[١٠٤٦]انظر: السُّنَّة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٣١٢/٢).
.[١٠٤٧]انظر: الطبقات الكبرى (١١٥/٨).
.[١٠٤٨]انظر: تلقيح الفهوم ، لابن الجوزي ، ص ٣٧٠.
.[١٠٤٩]انظر: تحفة الأشراف ، للمزِّي (٣٢١/١١ ـ ٣٢٣).
.[١٠٥٠]انظر: سير أعلام النُّبلاء (١٢١/٢).
.[١٠٥١]انظر: دور المرأة في خدمة الحديث ، ص ٨٥.

.[١٠٥٢]انظر: دراسات في عهد النُّبوة ، للشُّجاع ، ص ١٣٩.

.[١٠٥٣]قريةٌ عامرةٌ قديمةٌ على وجه الدَّهر في طريق مكَّة من البصرة من نجدٍ.

.[١٠٥٤]انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٢٤.

.[١٠٥٥]انظر: تاريخ الإسلام ، للَّذهبي ، المغازي ، ص ٣٥١.

.[١٠٥٦]انظر: نضرة النعيم (١/٣٣٠).

.[١٠٥٧]المصدر السابق نفسه.

.[١٠٥٨]انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/٢٩٨) ، والاستيعاب ، لابن عبد البرِّ: ترجمة ثُمَامَة بن أَثَال الحنفيِّ.

.[١٠٥٩]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٣٨٦ ، ٣٨٧.

.[١٠٦٠]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٨٧.

.[١٠٦١]انظر: السرايا والبعوث النبوية ، ص ١١٨.

.[١٠٦٢]مسلم شرح النووي (١٣/٨٤) ، باب: إباحة ميتات البحر ، وأبو داود (كتاب الأطعمة) ، باب: (في دواب البحر).

.[١٠٦٣]الخبط: ضرب الشجر بالعصا ليناثر ورقها ، واسم الورق الساقط: خَبَط.

.[١٠٦٤]شرح النووي (٣١/٨٤).

.[١٠٦٥]البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة سيف البحر ، رقم (٤٣٦١).

.[١٠٦٦]جمع جزور ، والجزور: البعير ، أو خاص بالناقة.

.[١٠٦٧]الكثيب: التل من الرمل.

.[١٠٦٨]العنبر: سمكة كبيرة يتخذ من جلدها التراس.

.[١٠٦٩]الوقب: النُّقرة التي تكون فيها العين.

.[١٠٧٠]القلال: جمع قُلَّة ، وهي الجرَّة العظيمة.

.[١٠٧١]الفدر: جمع فدرة وهي القطعة من اللَّحم.

.[١٠٧٢]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ١٢١.

.[١٠٧٣]انظر: شرح النَّووي (١٣/٨٥ ـ ٨٧).

.[١٠٧٤]صحيح سنن النسائي ، للألباني رحمه الله (٣/٩١٠).
.[١٠٧٥]شرح النَّووي (١٣/٨٧).
.[١٠٧٦]انظر: الطبقات ، لابن سعدٍ (٢/١٣٢) ، والمغازي ، للذَّهبي ، ص ٥١٩.
.[١٠٧٧]انظر: المجتمع المدني ، للعمري ، ص ١٢٥.
.[١٠٧٨]انظر: المغازي (٢/٧٧٤) ، والسِّيرة النَّبويَّة على ضوء مصادرها الأصليَّة ، ص ٤٨٠.
.[١٠٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء مصادرها الأصليَّة ، ص ٤٨٠.
.[١٠٨٠]المصدر السابق نفسه.
.[١٠٨١]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٢٣ ، والسرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ١١٩.
.[١٠٨٢]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ١١٩.

.[١٠٨٣]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٢٣ نقلاً عن الزُّرقاني في شرحه (٢/٢٨٢).
.[١٠٨٤]المصدر السَّابق نفسه.
.[١٠٨٥]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٢٤.

.[١٠٨٦]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ١٢٣.
.[١٠٨٧]انظر: السِّيرة النبوية في ضوء مصادرها الأصليَّة ، ص ٤٨٠.
.[١٠٨٨]شرح النَّوويِّ على مسلمٍ (١٣/٨٦).
.[١٠٨٩]المصدر السابق نفسه (١٣/٨٦).
.[١٠٩٠]التَّربية القياديَّة (٤/١٦٧ ، ١٦٨).

.[١٠٩١]نصب الرَّاية للزيلعي (كتاب الصُّلح) ، وكنز العمال للمتَّقي الهندي (بعث عبد الرحمن).
.[١٠٩٢]انظر: مغازي الواقدي (٢/٥٦٠ ـ ٥٦١).

.[١٠٩٣]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦/١٨٤).
.[١٠٩٤]انظر: التَّربية القياديَّة (٤/١٧١).

[١٠٩٥]المصدر السابق نفسه (١٧٢/٤).

[١٠٩٦]انظر: التاريخ الإسلامي ، للحميدي (١٨٤/٦).

[١٠٩٧]انظر: التربية القيادية (١٧٤/٤).

[١٠٩٨]انظر: التَّربية القياديَّة (١٧٤/٤).

[١٠٩٩]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (١٨٦/٦).

[١١٠٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء مصادرها الأصليَّة ، ص ٤٦٨.

[١١٠١]انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٣٤ ، ٣٥.

[١١٠٢]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٦.

[١١٠٣]عسفان: قرية بين مكَّة والمدينة على نحو يومين من مكَّة.

[١١٠٤]كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكَّة والمدينة ، وهو وادٍ.

[١١٠٥]انظر: صلح الحديبية ، ص ٣٧.

[١١٠٦]غُران: بضمِّ أوله: واد بين ساية ، ومكَّة.

[١١٠٧]انظر: صلح الحديبية ، ص ٣٨.

[١١٠٨]الغابة: موضع قرب المدينة من ناحية الشَّام فيه أموالٍ لأهل المدينة.

[١١٠٩]انظر: عيون الأثر ، لابن سيِّد الناس (٧٢/٢ ، ٧٣).

[١١١٠]ذو قرد: ماء على نحو بريدٍ من المدينة ممَّا يلي غطفان.

[١١١١]انظر: التاريخ السِّياسي العسكريّ ، ص ٣٢٧.

[١١١٢]انظر: صلح الحديبية ، ص٤٣.

[١١١٣]انظر: المصدر السابق نفسه ، ص٤٥.

[١١١٤]انظر: التَّاريخ السِّياسي ، والعسكري ، ص ٣٢٧.

[١١١٥]انظر: صلح الحديبية ، ص ٤٥.

[١١١٦]الغمر: ماء لبني أسدٍ على ليلتين من فيد الَّذي هو قلعةٌ بطريق مكَّة.

.[١١١٧]انظر: تاريخ الطَّبري (٢/٦٤٠).

.[١١١٨]ذو القصَّة ، موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً في طريق الرَّبذة.

.[١١١٩]انظر: التَّاريخ السياسي والعسكري ، ص ٣٢٨.

.[١١٢٠]انظر: الواقديُّ (١/٥٥١).

.[١١٢١]العيص: بينها وبين المدينة أربع ليالٍ.

.[١١٢٢]انظر: محمَّد رسول الله ، لمحمَّد رضا ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦.

.[١١٢٣]انظر: التاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٣٣٠.

.[١١٢٤]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٢٥.

.[١١٢٥]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦/١٨٩).

.[١١٢٦]انظر: الأساس في السنّة (٢/٧١٢).

.[١١٢٧]عكل: قبيلة من تيم الرباب.

.[١١٢٨]عرينة: حيٌّ من بُجيلة.

.[١١٢٩]من رواية الواقدي (٢/٥٦٨) معلقة ، وابن سعد (٢/٩٣) معلقة.

.[١١٣٠]الذَّود: الإبل ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقيل: ما بين الثنتين إلى التِّسعة.

.[١١٣١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٧٨.

.[١١٣٢]المصدر السابق نفسه.

.[١١٣٣]انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء مصادرها الأصليَّة ، ص ٤٧٨.

.[١١٣٤]انظر: سبل الهدى والرَّشاد ، للشَّامي (٦/١٨١ ـ ١٩٠) فيها تفصيل.

.[١١٣٥]انظر: تفسير الطَّبري (١٠/٢٤٢ ـ ٢٤٤).

.[١١٣٦]انظر: علاج القران الكريم للجريمة ، د. عبد الله الشنقيطي ، ص ٢٩٧ ، ٢٩٨.

.[١١٣٧]انظر: علاج القران الكريم للجريمة ، ص ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥.

.[١١٣٨]انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمَّد قلعجي ، ص ٢١٢.

.[١١٣٩]انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٦٥ ، والبخاري كتاب المغازي ، باب: قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق.

.[١١٤٠]انظر: شرح المواهب اللدنية (٢/١٦٨).

.[١١٤١]انظر: الصِّراع مع اليهود (١/١٨٩).
.[١١٤٢]انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٩١.
.[١١٤٣]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٦/١٧٧).

.[١١٤٤]انظر: الصِّراع مع اليهود (١/١٩١).
.[١١٤٥]انظر: الصراع مع اليهود (١/١٩٢ ، ١٩٣).
.[١١٤٦]فتح الباري (٧/٤٠٠) في شرح حديث (٤٠٣٩ ، ٤٠٤٠).

.[١١٤٧]انظر: التربية القياديَّة (٤/١٤٨).
.[١١٤٨]انظر: اليهود في السنّة المطهَّرة (١/٣٨٨ ، ٣٨٩).

.[١١٤٩]المخرش: شبه المقرعة يضرب به ، وهي معوجَّة الرأس.
.[١١٥٠]الشَّواحط: شجر ابن النبع ، من أشجار الجبال الَّتي يُتَّخذ منها القسي.
.[١١٥١]فأمَّه: أي: جرحه في رأسه ، والشَّجة المأمومة هي التي تبلغ أمَّ الرأس.
.[١١٥٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص٤٧٧ ، والبداية والنِّهاية (سنة ١١ هـ).
.[١١٥٣]المصدر السابق نفسه ، ص ٤٧٧.
.[١١٥٤]انظر: التَّربية القياديَّة (٤/١٨٩ إلى ١٩٢).

.[١١٥٥]أجمع أهل العلم على تاريخها دون خلاف ، وانظر: المجموع ، للنووي (٧/٧٨).
.[١١٥٦]انظر: نضرة النعيم (١/٣٣٤).
.[١١٥٧]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرسول (ص) (٢/٤٩٥).
.[١١٥٨]انظر: السيرة النبوية ، للندوي ، ص ٢٧٣.

.[١١٥٩]قراءة سياسية للسِّيرة النَّبوية ، ص ٢١٣ ، ٢١٤.

.[١١٦٠]أشعره: إشعار البدن أن يشقَّ أحد جنبي سنام البدنة حتَّى يسيل دمها ، انظر: مرويات الحديبية ، ص ٥٥.

.[١١٦١]انظر: مرويات غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٥٨ ، ٥٩.

.[١١٦٢]انظر: مغازي الواقدي (٢/٩٧٤).

.[١١٦٣]انظر: صلح الحديبية ، لمحمد باشميل ، ص ٣٠٩.

.[١١٦٤]تاريخ الطبري (٢/٦٢٢).

.[١١٦٥]انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول (ص) ، ص٤٨٩.

.[١١٦٦]المراد: خرجوا ومعهم النِّساء ، والأولاد لئلا يفرُّوا عنهم وهو على الاستعارة.

.[١١٦٧]يا ويح: كلمة ترحُّم ، وتوجُّع ، انظر: لسان العرب (٣/٩٩٦).

.[١١٦٨]وافرون: جمع وافر وهو الذي لم ينقص منه شيء ، انظر: لسان العرب (٣/٩٥٨).

.[١١٦٩]السيرة النبوية ، لابن هشام ، ومحمَّد (ص) ، لمحمد رضا.

.[١١٧٠]انظر: القيادة العسكرية في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٤٨٩.

.[١١٧١]انظر: ملامح الشُّورى في الدَّعوة الإسلاميَّة ، للشَّيخ عدنان النَّحوي ، ص ١٦٠.

.[١١٧٢]انظر: السِّيرة النبوية ، لابن هشام (٣/٣٣٨) ، ومحمَّد (ص) ، لمحمَّد رضا.

.[١١٧٣]غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٣٩.

.[١١٧٤]انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣٧٤.

.[١١٧٥]انظر: الرَّسول القائد (ص) ، لمحمود شيت خطاب ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

.[١١٧٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣٧٤ نقلاً عن اقتباس النُّظم العسكريَّة ، ص ٢٥٨.

.[١١٧٧]بركت من غير علةٍ ظاهرة ، فلم تبرح مكانها.

.[١١٧٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٨٤.

.[١١٧٩]انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٨٤.

.[١١٨٠]الفتح (٧٥٨/٤) رقم (٣٥٧٧).
.[١١٨١]الفتح (١٦٤/١١) رقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢).
.[١١٨٢]المغازي (٥٨٨/٢).
.[١١٨٣]من رواية أبي الأسود عنه ، كمَّا ذكر ابن حجر في الفتح (١٦٤/١١).
.[١١٨٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٨٤ .
.[١١٨٥]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٤٣ .
.[١١٨٦]انظر: فتح الباري ، لابن حجر (٢٦٠/٦).
.[١١٨٧]انظر: فتح الباري ، لابن حجر (٦١/٦).

.[١١٨٨]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٤٧ .
.[١١٨٩]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٤٥ .
.[١١٩٠]انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٨٥ .

.[١١٩١]أي: خاصَّته ، وأصحاب سرِّه.
.[١١٩٢]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٣٤٠/٣) ، والبداية والنِّهاية (غزوة الحديبية).
.[١١٩٣]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٦٧ .

.[١١٩٤]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٨.
.[١١٩٥]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس، ص ٦٨ .
.[١١٩٦]اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية في شمال الطَّائف يعقد كلَّ عام.
.[١١٩٧]بلَّحوا عليَّ: أبَوا ، كأنَّهم أعيوا عن الخروج معه ، وإعانته (أي: امتنعوا).
.[١١٩٨]أشواباً: أي: أخلاطاً من قبائل شتَّى.
.[١١٩٩]البظر: ما تقطعه الخاتنة من بضع المرأة عند ختانها.

.[١٢٠٠]انظر: منهج الإعلام الإسلاميِّ في صلح الحديبية ، لسليم حجازي ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

.[١٢٠١]أسلم قبل عمرة الحديبية ، وشهدها ، وشهد بيعة الرضوان ، أصيبت عينه في اليرموك وكان رسول سعد بن أبي وقاص إلى رستم ، انظر: الإصابة (٤٥٢/٣).

.[١٢٠٢]إضجاع الرأي: أي: الوهن في الرأي.
.[١٢٠٣]أبا يعفور: كنية عروة بن مسعود الثَّقفي.
.[١٢٠٤]انظر: مغازي الواقدي (٥٩٨/٢).

.[١٢٠٥]انظر: منهج الإعلام الإسلاميِّ في صلح الحديبية ، ص ١٤٥.
.[١٢٠٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٨٨.
.[١٢٠٧]انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص ١٠٨.
.[١٢٠٨]الواقدي ، المغازي (٦٠٠/٢).

.[١٢٠٩]انظر: منهج الإعلام الإسلاميِّ في صلح الحديبية ، ص ١١١.
.[١٢١٠]انظر: عبقرية محمَّد (ص) ، ص ٤٩.

.[١٢١١]انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٨٣.
.[١٢١٢]انظر: المغازي ، للواقديِّ (٦٠٠/٢).
.[١٢١٣]مكانٌ قريبٌ من مكَّة.
.[١٢١٤]زاد المعاد (٢٩٠/٣) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٤٤/٣).

.[١٢١٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٤٤/٣).
.[١٢١٦]انظر: زاد المعاد (٢٩٠/٣).
.[١٢١٧]انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٨٥.
.[١٢١٨]انظر: زاد المعاد (٢٩١/٣).
.[١٢١٩](غِرَّة) الغرَّة: هي الغفلة: أي: يريدون غفلته. (شرح النَّووي ١٨٧/١٢).
.[١٢٢٠]سلماً: المراد به الاستسلام والإذعان. (شرح النَّووي ١٨٧/١٢).
.[١٢٢١]فاستحياهم: فاستبقاهم. (المفردات للراغب ، ص ١٤٠).

.[١٢٢٢]تبيعاً: خادماً أتبعه. (شرح النووي ١٢/١٧٦).
.[١٢٢٣]وأحسه: أي احك ظهره بالمحسة لأزيل عنه الغبار، وانظر: (شرح مسلم، النووي ١٢/١٧٦).
.[١٢٢٤]فكسحت شوكها: أي كنست ما تحتها من الشوك، وانظر: (شرح مسلم ، النووي ١٢/١٧٦).

.[١٢٢٥]فاخترطت سيفي: أي سللته. (شرح مسلم ، النووي ١٢/١٧٦).
.[١٢٢٦]ضغثاً: الضغث: الحزمة. (شرح مسلم ، النووي ١٢/١٧٦).
.[١٢٢٧]الذي فيه عيناه: يريد رأسه.
.[١٢٢٨]العبلات: قوم من قريش نسبوا إلى أمهم عبلة بنت عبيد. (شرح مسلم النووي ، ١٢/١٧٧).
.[١٢٢٩]مجفَّف: أي: عليه تجفاف ، وهو ثوب كالجلِّ يلبسه الفرس ليقيه من السِّلاح.
.[١٢٣٠](وثناه): أي: عودة ثانيةً (شرح مسلم ، للنَّوويِّ ١٢/١٧٦).
.[١٢٣١]تفسير ابن كثير (٤/١٩٢).
.[١٢٣٢]انظر: التَّحرير والتنوير (٢٦/١٧٨).
.[١٢٣٣]انظر: المفردات ، للرَّاغب ، ص ٥١.
.[١٢٣٤]انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٦/١٨٤).

.[١٢٣٥]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٢/٢٣٠).
.[١٢٣٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٨٦.
.[١٢٣٧]المصدر السابق نفسه.
.[١٢٣٨]المصدر السابق نفسه.
.[١٢٣٩]المصدر السابق نفسه.
.[١٢٤٠]انظر: زاد المعاد (٣/٢٩١).
.[١٢٤١]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٠٤.
.[١٢٤٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٨٢.
.[١٢٤٣]انظر: عقيدة أهل السنّة في الصَّحابة ، د. ناصر حسن الشَّيخ (١/٢٠٥).

.[١٢٤٤]انظر: مختصر الصواعق المرسلة (٢/١٧٢).

.[١٢٤٥]انظر: روح المعاني ، للآلُوسي (٢٦/٩٧).

.[١٢٤٦]انظر: تفسير الطبري (٢٦/٨٥ ـ ٨٦) ، وتفسير القرطبي (١٦/١٧٨).

.[١٢٤٧]انظر: تفسير الطبري (٢٦/١٠٣ ـ ١٠٦).

.[١٢٤٨]فتح الباري (٧/٤٤٣).

.[١٢٤٩]شرح النَّووي على صحيح مسلم (١٦/٨٥).

.[١٢٥٠]ثنية المِرَار: مهبط الحديبية والمرار.

.[١٢٥١]انظر: عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة (١/٢١٢).

.[١٢٥٢]انظر: التربية القياديَّة (٤/٢١٤).

.[١٢٥٣]التربية القيادية (٤/٢١٦).